شؤون فلسطينية

رئيس التحرير : محمود درويش

سكرتير التحرير : الياس خوري

٨٩ نيسان (ابريل) سنة ١٩٧٩

شهرية فكرية لمعالجة أحداث القضية الفلسطينية وشؤونها المختلفة
تصدر عن مركز الأبحاث في منظمة التحرير الفلسطينية

جميع الآراء الواردة تعبر عن وجهات نظر كاتبيها ولا تعكس بالضرورة آراء منظمة التحرير الفلسطينية ولا المحررين ولا المستشارين ولا الناشرين ٠

العنوان : بناية الدكتور راجي نصر ، شارع كولومباني
(متفرع من السادات) ، رأس بيروت ـ لبنان ، ص٠ب ١٦٩١
تلفون : التحرير والتوزيع ٣٥١٢٦٠ ٠
برقيا : مرابحاث ، بيروت ٠

مدير التوزيع : **غازي دانيال**

الاشتراك السنوي (بريد جوي) : ٦٠ ل٠ل٠ في لبنان وسوريا ، ٧٥ ل٠ل٠ في سائر الاقطار العربية ، ١٠٠ ل٠ل٠ في اوروبا ، ١٢٥ ل٠ل٠ في بقية بلدان العالم ٠

الاشتراك السنوي (بريد عادي) : ٦٥ ل٠ل٠ في جميع الدول غير العربية ٠

الغلاف للفنان
ضياء العزاوي

المحتويات

الصفحة

٤	محمود درويش	: هامش ·
٧	نصير عاروري	: مقدمات قضية كامب ديفيـــد : التناقض الظاهـري لدبلوماسية كارتر ·
٢٤	الهيثم الايوبي	: الابعاد الاستراتيجية للزلزال الايراني ·
٤١	الياس خوري	: الثورة الممكنة : وكان كل شيء يريد أن يبدأ جديدا ·
٦٩	هادي العلوي	: نسخ الشريعة في التراث الشيعي ·
٨٧	صبري جريس	: العرب في اسرائيل ، ١٩٧٣ ـ ١٩٧٩ ·
١١٩	الياس شوفاني	: الحاضر الغائب ، والغائب الحاضر ·
١٣٦	حسام الخطيب	: القضية الفلسطينية على منبر الاتحاد البرلماني الدولي ·
١٥٥	د· أنيس صايغ	: ادمون دانيال ·

الصفحة

١٥٧ **تقارير** : يوسف حمدان ، **حول تسليح اسرائيل للانظمة العنصرية الفاشية** . توفيق فياض ، **الطلاب العرب في مواجهة الفاشية الصهيونية** · محمود عزمي ، **النتائج الاستراتيجية للثورة الايرانية** ·

١٨١ **مراجعات** : [آية الله الخميني] ، **الحكومة الاسلامية** ، صالح بشير ·
[توماس سنتش] ،**الاقتصاد السياسي للتخلف** ، عماد هرملاني ·

شؤون ادبية

١٩٣ رفائيل البرتي : **مختارات** ·

٢٠٥ محمود احمد شاهين : **الخطار (قصة)** ·

٢٢٠ فيصل دراج : **البهلول** · **الايديولوجيا الادبية ، والايديولوجيا المباشرة** ·

هـامش

·· وها نحن يمتد بنا الاجل ونـرى الى انسحاب مصر الاحتفالي منا ومـن المعركة ، ونرى عملية سحب مصر من ذاتها الى المجهـول لفترة مـا مـن الزمـن · فليترك السلام جثة هامدة على الارض والورق ، او لفظة ضرورية لنشر الوعـي الزائف · ان ما يحدث هو هجوم اميركي على رياح ستهب · وان ما يحدث هـو افتهاء شهر العسل بين الرجعية العربية ودورها في انجاز « السلام العادل » · فلم يعد في وسع التضامن العربي ، الهادف الى تحرير الاوطان المحتلة ، ان يتسع للذين يغذون شريان آلة القمع الاميركية والاسرائيلية ، بعدما تحررت اميركا من المهـام المستحيلة في الاحتفاظ بصداقتها الاستثنائية للصهيونية وللقومية العربية !· لقـد انتهى الصراع العربي ـ الاسرائيلي من حول اميركا الى النتيجة الوحيدة الممكنة : الوصول الى معاهدة صلح مع اسرائيل · او الى النتيجة الاخرى المعدلة عن الاولى: العجز عن تدمير الاسس التي نشات عنها المعاهدة التي تعلن الحلف الجديد ، او الوحيد حتى هذه اللحظة ، في هذه المنطقة الثمينة من العالم التي لا تعادل هزيمة اميركا فيها الا هزيمة العرب في مصر ·

سينال الحاكم المصري من هجاء اللغة العربية ما يعجز الاعلام الغربي عـن تعويضه · ولكن الدهشة لا تستطيع الشفاعة للذين يقفون على الرصيف في انتظار التوبة · فهذا الحاكم الفرد الذي يسرق الشرعية من ملايين الفقراء ، والذي يمثل احد تجليات المزاج الكريه الذي تفرج به ساعة من التاريخ عن سامها ، لا يستطيع العودة الى الوراء ، او الى « حظيرة » الامة كما يقول الوزراء المتحررون مـن حاسة الدلالة · ولذلك فان الصبر الجميل الذي يتحلى به عرب اميركا ، القـادرون على لمس « التناقض » بين واشنطن وتل ـ أبيب ، هو بمثابة المشاركة في وضـع سياق المعاهدة على الرغم من الاعتراض على بعض بنودها · وان بحث العـرب الرصين عن مدى الربح ، او الخسارة ، الذي تقدمه المعاهدة الاميركية ـ اليهودية ـ المصرية لهذا الطرف او ذاك ، او التساؤل عن قابليتها للتطبيق ، وعـن صلاحية بنودها الغامضة في التفاصيل والواضحة في الجوهر ، لفتح باب الصراع علـى التفسير على غرار قرار ٢٤٢ الشهير ، او طرح عشرات من الاسئلة في اطـار المعاهدة المرجعي ، سيكون بمثابة غض الطرف عن الواقع الذي لم يخلقه التوقيـع على المعاهدة ، بل ان هذا الواقع هو الذي خلق المعاهدة · ولذلك فان الخـروج العملي من منطقة المعاهدة ، يتطلب اولا محاكمة الواقع الذي انجبها ، لكـي يكـون النقد الذاتي دليلا على صدق التحرك العربي لتجنيب الامة حتمية السادات ·

فما الذي كان ينتظره التضامن العربي ليتحرك ؟ اليس خط السادات السياسي ، منذ انقلاب ١٥ ايار ، نذيرا بالتخلص من كل الكوابح الوطنية واحكام تبعية الوطن

لاميركا • الم يكن في زيارة القدس ما يشير الى ان خطوات السياسة المصرية ، داخليا وخارجيا ، مرسومة بدقة في اتجاه اخراج مصر من المعركة العربية ضد القلعة الصهيونية ، واستبدال العدو الاسرائيلي بعدو وهمي هو الشيوعية الدولية ؟ لقد وجد السادات في التشجيع العربي العام لهذا الخط الاستراتيجي العام ما يمنحه الشجاعة الكافية لفضح التطبيق العملي والحرفي لصيغة التسوية الاميركية التي اندرج تحت صياغتها الكثيرون • فهل بقي الخلاف كبيرا الى درجة تتفق مع هذه الدهشة التي تضرب القارة العربية ؟ صحيح ان مؤيدي السادات ومموليه العرب يكابدون من اجل حلف علني او مبطن بين اميركا والرجعية العربية ، ولكن لياقة الادمان على ترديد اسم المسجد الاقصى تحول دون ان يجلس المسلمون واليهود في معاهدة واحدة • فكيف ستحل هذه المعضلة ؟ ليست تلك مشكلتنا • ولكننا نستطيع ان نرى ان الحلف الاميركي ـ المصري ـ اليهودي الذي قد يعوض اميركا واسرائيل بعض احزانهما الفارسية ، وقد يضع حجر الاساس لمبنى من العلاقات والتحالفات لحماية النفط العربي من العرب والامن الاسرائيلي من السلام والامن المصري من الاسلام ، يدفع صيغة « التضامن العربي » المفتوح بشروط هي لا شروط الى امتحان الفضيحة في مواجهة السؤال الذي يتعرض للطمس : الا يزال العرب يعتبرون اسرائيل عدوهم القومي ؟ اذا كان الجواب « نعم » فهل يستعدون لاعداد شروط محاربته والضغط المادي عليه لارغامه على قبول الحد الادنى من شروط السلام العربي على الاقل ؟• اذا كان الجواب « نعم » ، فهل يعرفون ان الذي يحارب اسرائيل يختلف مع اميركا ؟ اذا كان الجواب « نعم » ، فهل يعرفون ان اميركا هي صانعة الحلف الاسرائيلي ـ المصري ؟ اذا كان الجواب « نعم » فهل هم على استعداد لانزال العقوبات الممكنة باميركا وليس بمصر فقط ، هذا اذا افترضنا انهم سينزلونها بمصر ؟

نحن نسال ، ونتساءل لان الحملة الاميركية ـ المصرية لنشر الوعي الزائف ، تقابلها حملة مضادة من الوعي المزائف ايضا بقطع المعاهدة عن جذورها الاجتماعية التي لا يشكل الوضع المصري تجليها الوحيد وبحرمان مناقشتها من حق مناقشة الذات العربية التي ما زالت معلقة بسراب علاقة خاصة باميركا تحمي سياج « حظيرة » الامة من خطر التوسع الصهيوني والقزاعة الشيوعية • ولان هذا الوعي الزائف قد زيف تاريخية المعاهدة ، وحولها الى مسرحية على شاشة التلفزيون ، جعل المواطنين في هذه الامة مشاهدين محايدين في مباراة رياضية عنيفة ، استطاع كارتر في الدقائق الاخيرة ان يسجل الهدف في مطار القاهرة •

فكم من الوقت سيمر لنعلم ان لجمنا هو الميدان ، وان اصابة كارتر التي مررها

له الجناحان السادات وبيغن قد استقرت عميقا في شبكات عيوننا !٠٠

والسادات هو الخائن ، وهو العدو ٠ ولكن ، هل يوافق « التضامن العربي » على ان كارتر عدو ايضا ؟٠ وبيغن يذكرهم بشيلوك الذي لن يتوقف عن ابتزاز ثمن باهظ للمعاهدة ٠ ولكن ، من اي نفط ومن اي مال سيدفع كارتر لبيغن ؟ كيف نكون جادين في معاقبة نظام مصر اذا كنا نعطي اميركا كل شيء ، ونمط من الحكم يخرج الناس من السياسة ومناقشة مصائرهم ومصير اوطانهم ، ويحول الدولة الى اداة قمع للناس ، فلا يكون السادات هو الفرد الوحيد الذي يتصرف بالوطن كما يتصرف اقطاعي بمزرعة ٠ ان الثلاثين ساعة التي استغرقتها مناقشة البرلمان الاسرائيلي للمعاهدة قبل التوقيع عليها هي ، بالنسبة لنمط الحكم العربي ، فضيحة ودعوة ملحة لاعادة النظر في امور البيت ٠ فاذا كان ايماننا بشعب مصر العظيم صادقا ، واذا كانت المعاهدة تعبيرا عن خيانة فرد يمثل طفيليات المجتمع ، فكيف اتيح لهذا الحاكم الفرد ان يحدث هذا الانقلاب في منطقة الشرق الاوسط ؟ ان الاجابة الديمقراطية عن سؤال الحكم هي التي تضمن للوطن مصيرا لا يقرره فرد ٠ اما القمع السائد وملاحقة الافكار والاحلام ، والاعدام بلا محكمة وتهمة ، وتفتيت المجتمع وسيادة الطفيليات على الدولة ، فانها حجر الاساس في المبنى الفاسد لاتخاذ القرار ، مما يحول اسرائيل من عدو الى ذريعة حكم في اكثر من وطن ٠

ان ظاهرة السادات ، الذي سيجمع مجلس الشعب المصري للتصديق على المعاهدة ، وسيمنع اي اعتراض عليها ، ويطلق الشرطة والجيش في الشوارع والمصانع والبيوت ، هي دعوة ملحة لوضع مسالة الحرية والديمقراطية البند الاول على جدول اعمالنا ، لكي لا يكون الملك هو الوطن ولكي لا يكون الملك قادرا ، بمثل هذه السهولة ، على تحويل مسالة في خطورة الصراع العربي ـ الاسرائيلي ، الى صراع اسرائيلي ـ عربي ضد العرب ، ولكي لا يتحول الجنود العرب الى صيادي ثوار ٠ فان اسرى الدولة ، اسرى المقاولين والتجار والسماسرة لا يستطيعون الدفاع عن دولة تستحقهم ٠

واخطر ما في السادات انه ظاهرة مألوفة ، تتحول الى جزء من حياتنا اليومية ، والى طراز متوفر ، متيسر ، ومنتشر كانفجارات بيروت التي يرتفع في سمائها دخان المطاط المحترق ، الذي قد يصل جزء منه الى الضفة الغربية ، ليبلغ اهلنا هناك انه ما زال فينا شيء يتنفس ، وان السادات هو الناطق الشرعي عن طفيليات الحكم العربي ، ويا ليته يكون الناطق الوحيد ٠٠٠

محمود درويش

نصير عاروري

مقدمات قضية كامب ديفيد
التناقض الظاهري لدبلوماسية كارتر

تريد هذه المقالة ان تقدم خلفية تاريخية مختصرة لترتيبات كامب دايفيد التي تم التوصل اليها في ولاية ماريلاند في ايلول (سبتمبر) ١٩٧٨ ، بين انور السادات ومناحيم بيغن تحت رعاية الرئيس كارتر · لقد كتب وقيل الشيء الكثير حول سياسة كارتر في الشرق الاوسط طيلة العامين اللذين امضاهما في منصب الرئاسة · كان اول رئيس جمهورية اميركي يدعو الى الحاجة الى ايجاد « وطن » « للاجئين الفلسطينيين الذين عانوا العذاب لاعوام كثيرة كثيرة » (١) ، ويصرح علنا انه يحق لهم «التعويض » (٢) ، ويعترف بأن المسألة الفلسطينية هي قضية « جوهرية » في الشرق الاوسط (٣) ، ويحث اسرائيل بلغة لا غموض فيها على الانسحاب من جميع الجبهات العربية الثلاث (٤) ، والامر الابرز دلالة هو انه كان اول من استخدم العبارة التي كانت ممنوعة حتى ذلك الحين « الحقوق المشروعة » للشعب الفلسطيني (٥) · كان ايضا اول رئيس للجمهورية منذ دوايت ايزنهاوريتحدى القيادة الاسرائيلية بالكشف الواضح عن النوايا (٦) · واول من استخدم عبارة « غير شرعي » ضمن معنى القانون الدولي في الاشارة الى البناء الاسرائيلي للمستوطنات الاستعمارية في الاراضي العربية المحتلة والى التنقيب عن النفط في شبه جزيرة سيناء ، واول من منع اسرائيل من بيع المقاتلات ـ القاذفات المجهزة بمحركات اميركية الى فرقاء اخرين (٧) ·

غير ان سجل كارتر الكلامي المثبت للسوابق لم يكن مكرسا كليا ، او حتى في الجزء الاعظم منه ، للجانب العربي من النزاع · فالمرشح كارتر ، وهو معمداني جنوبي متحمس ، اكد لابناء دائرته الانتخابية اليهود انه ينظر الى

اسرائيل على انها « تحقيق للنبوة التوراتية » (٨) · وحلها من اي اثم عندما قال ان التسوية السلمية لن ترتكز على « القاعدة الخاطئة القائلة بان اسرائيل سببت المشكلة الفلسطينية » (٩) · وكان الرئيس كارتر كذلك اول من اضفى الصفة الشرعية علنا على اكتساب الاراضي بالغزو العنفي حين شدد على « حاجة » اسرائيل الى « حدود يمكن الدفاع عنها » ، وهي عبارة اسرائيلية مختزلة تعني ضم الاراضي العربية · وقال لمؤتمر صحفي في ختام زيارة رئيس الوزراء رابين الى الولايات المتحدة في التاسع من اذار (مارس) ١٩٧٧ ان « خطوط دفاع » اسرائيل يمكن ان تمتد الى ما وراء « حدودها الدائمة والشرعية » (١٠) · والى ذلك كان اول من دعا الدول العربية الى الاعتراف بحق اسرائيل في الوجود « كدولة يهودية » ·

ان اقواله المتناقضة ظاهريا حول حقوق وواجبات العرب والاسرائيليين في نطاق تسوية سياسية شاملة ادت الى تفسيرات مختلفة متباينة لسياسته · فقد ادعى بعض النقاد ان سعيه الظاهري الى الانصاف ستر ميلا ملحوظا نحو العرب ، في حين شعر آخرون ان ملاحظاته « الارتجالية » قد شردت الى ما وراء حدود الوضوح واتخاذ القرارات العقلاني · ومن الناحية الاخرى نظر الذين يتمنون الخير له الى ملاحظاته على انها مقدمة لفصل جديد في السياسة الخارجية الاميركية في الشرق الاوسط ، فهي تشير الى مشاركة نشيطة في عملية تحديد وتنفيذ الحل السياسي الصحيح ، اي الدور الذي يشير اليه انور السادات حين يتحدث عن « شريك كامل » · وهذا يعني ضمنا ، بالطبع ، ان تمارس الولايات المتحدة نفوذها مع اسرائيل للحصول على تنازلات من النوع الضروري لتحطيم المأزق الذي صار يتعذر الدفاع عنه في نظر العالم العربي والولايات المتحدة في اعقاب حرب تشرين اول (اكتوبر) ١٩٧٣ ·

يمكن تبين طورين اثنين في تطور سياسة كارتر الخارجية : يمتد الطور الاول من الوقت الذي تسلم فيه كارتر منصبه في كانون الثاني (يناير) ١٩٧٧، عندما تم التشديد على تسوية شاملة من نوع جنيف ترتكز على انسحاب اسرائيلي على جميع الجبهات واعتراف بحق الفلسطينيين في وطن · وحتى تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٧ عندما قام انور السادات بزيارته الى اسرائيل· كانت جهود الولايات المتحدة خلال الاشهر العشرة الاولى من ادارة كارتر موجهة نحو تنفيذ الاسس الرئيسية « لتقرير مؤسسة بروكينغز » لعام ١٩٧٦ ، الذي ادى بصورة محتمة الى مواجهة مع نظام بيغن ، بلغت ذروتها بورقة عمل دايان ـ كارتر في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٧ ، واشارت بذلك الى انتصار من نوع ما لموقف بيغن · ويبدأ الطور الثاني بما يسمى مبادرة السادات في التاسع عشر من تشرين الثاني (نوفمبر) ، التي ساعدت في حل معضلة كارتر

باعادة تركيز الانتباه الدبلوماسي على العلاقات الثنائية بين مصر واسرائيل ، اللتين تقاسم زعماؤهما ، مع معارضة كارتر السياسية ، عداء مشتركا للتورط السوفياتي عن طريق صيغة جنيف · وبلغ الطور الثاني ذروته بتوقيع ما يسمى اتفاقيات كامب دايفيد في واشنطن ، في السابع عشر من ايلول (سبتمبر) ١٩٧٨ ، مشيرة الى تراجع كارتر تراجعا واضحا عن موقفه الذي اعلنه في اول الامر ، فضلا عن تآكل خطير في التزام السادات بالوفاق العربي اللاحق لتشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ ·

ان الضرورات الاستراتيجية لسياسة الولايات المتحدة الخارجية بالنسبة لكارتر وبريزنسكي تبقى كما كانت عليه بالنسبة لنيكسون وكيسنجر وفورد : فحرية الوصول الممتازة الى « المورد الاستراتيجي الضخم » ، في منطقة الخليج وشبه الجزيرة العربية رجحت على جميع المصالح والاعتبارات الاخرى بالنسبة للرؤساء الاميركيين من فرانكلين روزفلت الى جيمي كارتر · وقد اجتهدت الادارات الاميركية المتعاقبة لاقامة هيمنة من النوع القادر على منع الدول التي يمكن ان تنافسها من تحقيق الوصول الى المورد والطرق المائية الاستراتيجية · وفي حين بقي هذا الهدف الاستراتيجي ثابتا وراجحا طيلة العقود الثلاثة الماضية من الزمن ، فان الوسيلة التي استخدمت لتحقيق ذلك الهدف خضعت لتعديلات مختلفة وفقا للحقائق السياسية والاقتصادية المتغيرة · فقد حاول جون فوستر دالس ان يجعل ائتلافا من الدول المحافظة في المنطقة حجر الزاوية للسياسة الاميركية · وكان القصد هو ان يتحقق منع انتشار الثورة الاجتماعية والنفوذ السوفياتي بمساعدة رجال امثال نوري السعيد وعدنان مندريس والشاه والملك حسين · وعلى الرغم من كون الولايات المتحدة متورطة في النزاع العربي ـ الاسرائيلي ، فان موردي الاسلحة الرئيسيين لاسرائيل لم يكن بينهم الولايات المتحدة ابان الخمسينات · الا ان انتصار اسرائيل الساحق في ١٩٦٧ ، مقرونا بالعجز الواضح للائتلاف المحافظ ، جعل ليندون جونسون يرفع اسرائيل الى مركز حجر الزاوية ، وهكذا تم اخيرا تحقيق علاقة خاصة ناشئة بين البلدين · وصارت الولايات المتحدة « الممول » والمورد الرئيسي للاسلحة والمؤيد الدبلوماسي الاهم لاسرائيل · وكانت هذه العلاقة الخاصة ، اكثر من اي شيء آخر ، هي التي مكنت اسرائيل من تثبيت احتلالها غير الشرعي للاراضي العربية · بيد ان حرب تشرين الاول ١٩٧٣ والتهديد العربي باستعمال سلاح النفط ابرزا لنيكسون وكيسنجر الحاجة الى اعادة فحص الوسائل التي سيصار بها الى المحافظة على « مسؤوليات » اميركا العالمية · وفيما صار متعذرا الدفاع عن المأزق ، شرع كيسنجر في بعث المقدمة المنطقية لتوجه دالس في السياسة الخارجية · ولم يعد يستطيع مقاومة الاقتراحات السعودية والمصرية للاندماج في النظام الاميركي · وبالتالي لم تعد اسرائيل حجر الزاوية

الوحيد للسياسة الاميركية في المنطقة ، ولكنها بقيت الدعامة الرئيسية الى جانب ايران والعربية السعودية ومصر · واخذت سياسة الولايات المتحدة تتسم بانصاف ، بقي ظاهريا اكثر منه حقيقي ، فيما يتعلق بالنزاع العربي ـ الاسرائيلي · وكشف بيان الميزانية ، بالعبارات المالية الصرفة ، عن ان اسرائيل، التي كان لا بد من مساعدتها بمعدل خمسة ملايين دولار يوميا من خزينة الولايات المتحدة ومليوني دولار من القطاع الخاص لكي تنفق ٤٠ بالمئة من مجمل دخلها القومي على « الامن » ، هي عائق بالمعنى الصحيح للكلمة · وبالمقارنة ، كما يقول هارولد سوندرز ، مساعد وزير الخارجية الاميركية لشؤون الشرق الادنى ، فان الزيادة السريعة في « الفائض الممكن ترظيفهالذي تملكه الحكومات العربية ـ وهو الآن ١٤٠ بليون دولار على وجه التقريب ـ قد اضافت بعدا جديدا الى مصالحنا في هذه المنطقة » (١١) · في حين ان واردات النفط الخام تمثل ٥٠ بالمئة من مجمل الواردات الاميركية ، والصادرات غير العسكرية الى العالم العربي تنوف على ٤ بلايين دولار · وعن هذا انه لم يعد باستطاعة اسرائيل ان تزعم ان مصالحها ومصالح الولايات المتحدة هي نهائية وانها مربوطة معا في كل الاوقات · وفي اعلان ملأ صفحة كاملة في النيويورك تايمز ، طالبت العربية السعودية بعلاقة خاصة مع الولايات المتحدة ، مستندة الى بيانات مالية مؤثرة ·

ان المقدمات المنطقية لسياسة ادارة كارتر في الشرق الاوسط جرى بحثها بصراحة في « مراجعة سنوية » قدمها هارولد سوندرز الى « اللجنة حول اوروبا والشرق الاوسط » المتفرعة عن « لجنة العلاقات الدولية » في مجلس النواب الاميركي في الثاني عشر من حزيران (يونيو) ١٩٧٨ ·

فالعمل مع ما يسمى الامم العربية المعتدلة يعتبر ضروريا من اجل تحقيق تسوية سياسية ، تضمن اسرائيل آمنة ومزدهرة وتؤمن المصلحة الاقتصادية للولايات المتحدة وكذلك للغرب الرأسمالي · وتوصف العلاقة الجديدة تمويهيا بانها علاقة اتكال متبادل ، وهي لا تعني بحال من الاحوال ميلا نحو العرب او انخفاضا في الالتزام الاميركي نحو اسرائيل · فمراجعة سوندرز تقول :

« ان احد الاسئلة يسبب قلقا عميقا للكثيرين من الاميركيين اليوم وكذلك لاصدقائنا في اسرائيل · والسؤال كثيرا ما يطرح بصورة غير مباشرة على هذا النحو : اي نوع من انواع العلاقة الاميركية مع الشرق الاوسط نستطيع ان نرى بعد ٥ أو ١٠ اعوام من الآن ؟ وفي كثير من المناسبات يكون السؤال الاساسي الحقيقي هو : ألسنا نخفض دعمنا لاسرائيل لمصلحة الامم العربية ؟ والجواب عن السؤال الاخير هو بوضوح : لا » (١٢) ·

كما يوضح سوندرز الى حد كبير مسألة حصر الثورة الاجتماعية بواسطة الوكلاء العرب :

« باستطاعة القوى الراديكالية ان تنتهز مجددا فرصة الاوضاع التي يمكن ان تعقب فشل مفاوضات السلام ـ فقد تحول الزعماء العرب المعتدلون نحو الولايات المتحدة من اجل التعاون في تحقيق كل من السلام والانماء · وسيحد نجاحهم من دور القوى الراديكالية · ودرجة نجاحهم ستقرر بدورها ، الى حد كبير ، ما اذا كانت اسرائيل تواجه المستقبل محاطة بدول راديكالية ومعادية او بأمم ملتزمة بالسلام وبالتقدم المنظم (١٣) ·

هذه المقدمة المنطقية ،التي تجسم علائق خاصة جديدة ، تعني ضمنا انصافا من نوع ما ، وتستخدم طرازا خاصا من الفتنمة Vietnamization في الشرق الاوسط · وتتركز جذورها في المبدأ الاستراتيجي الاميركي الذي يكمن تحت الحرب الباردة وقد اوحى به عراب سياسة الحصر ، جون فوستر دالس · وقام كيسنجر وخلفاؤه في ادارة كارتر بجهود مضنية لاقناع اسرائيل بان ما يجمعها مع الانظمة العربية المحافظة يرجح على الاختلافات التي تبقى هامشية بالنسبة للابعاد العالمية لنزاع الشرق الاوسط · ولذلك فان مبدأ التنازلات الاقليمية من قبل اسرائيل يؤلف افتراضا مهما للاستراتيجية العالمية الاميركية في الشرق الاوسط ، ويعتبر جزء من توجه المصلحة الذاتية المستنيرة الذي يدعو اليه الكثيرون من اصدقاء اسرائيل · هذا الامر توضحه بايجاز بليغ مقالة جورج بول في مجلة فورين أفيرز ، التي تحمل العنوان اللائق ، « كيف ننقذ اسرائيل على الرغم منها » ، ومقالة ستانلي هوفمان « سياسة جديدة لاسرائيل » ـ بين كتابات اخرى (١٤) · وقد ردد الاطروحة نفسها تكرارا كل من انطوني لويس وجيمس رستون في النيويورك تايمز · واوضح هارولد سوندرز النوع الجديد من حصر الراديكالية عندما قال : « السلام ، اذن ، هو ليس افضل ضمان لاسرائيل آمنة ومزدهرة فحسب، ولكن من شأنه ايضا ان يقوى الحكومات المعتدلة في المنطقة ويعزز المصالح العالمية للولايات المتحدة » (١٥) ·

اذن ، فان الدور العالمي للشرق الاوسط في التخطيط الاستراتيجي الاميركي كان محددا تحديدا جيدا قبل تسلم كارتر منصب الرئاسة · اما تصريح كارتر المحير ظاهريا ، والذي اشرنا اليه فيبداية هذه المقالة ، فهو لا يمثل تحولا عنمنطق كيسنجر · كما لا يمكن عزو الفضل الى كارتر للتضمين الجديد لفلسطين في تصاريح السياسة الرسمية حول الشرق الاوسط · وكان نائب كيسنجر في ادارة فورد ، هارولد سوندرز ، اول من اعترف بمركزية المسألة الفلسطينية بالنسبة الى نزاع الشرق الاوسط · والامر الذي كان مختلفا خلال

الطور الاول من سياسة كارتر الشرق اوسطية هو تركيز على الجهود لعقد مؤتمر في جنيف • وفي حين ان كيسنجر جرب دبلوماسية الخطوة خطوة ، فان كارتر ومستشاريه اعطوا الانطباع بان تسوية شاملة هي هدف سياستهم ، ومن هنا نشأ التوتر في العلاقة الخاصة بين اسرائيل والولايات المتحدة خلال الطور الاول ، الامر الذي جعل بعض النقاد يصفون المسألة كعلاقة مضطربة • لكن الحقيقة تبقى انه ليست هناك اية انقسامات او خلافات جوهرية بين الدولتين • لقد بدا على سطح الامور أن الولايات المتحدة واسرائيل تناقشان الاجراءات التي من شأنها ان تحكم تمثيل ومشاركة الفرقاء في النزاع • فسيكون على الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي ، بوصفهما مشاركين رئيسيين لمؤتمر جنيف ، ان يوجها الدعوات الى جميع الفرقاء • وفي حين ان الاتحاد السوفياتي التزم بمبدأ ان منظمة التحرير الفلسطينية ، بعد ما اعترفت بها الجمعية العامة للامم المتحدة ومؤتمر القمة العربية في الرباط عام ١٩٧٤ بوصفها الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني ، هي مشارك كامل ، فان الولايات المتحدة ، من جهة اخرى ، التزمت بشروط اتفاق سيناء لعام ١٩٧٥ ، الذي منعها من التعامل مع منظمة التحرير الى ان تعترف الاخيرة بالقرار رقم ٢٤٢ • وبالطبع ، كانت اسرائيل اكثر عنادا من الولايات المتحدة حول مسألة مشاركة منظمة التحرير ، مفضلة استثناءها بصورة غير مشروطة • كانت هذه هي النقطة الاساسية في « النقاش » بين الولايات المتحدة وعميلتها المتعنتة • وكان خلافا محدودا تعمد تضخيمه دعاة الحرب الباردة القدماء من امثال دانيال موينيهان واللوبي الموالية لاسرائيل في الولايات المتحدة • وبصورة جوهرية كان كارتر ما يزال يحاول تعليم اسرائيل مزايا المصلحة الذاتية المستنيرة : فان منظمة تحرير فلسطينية مروضة ومرتبطة بالاردن وملتزمة بالوفاق العربي العام اللاحق لتشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ ، بدت في نظر كارتر هدفا اكثر حكمة وايسر تحقيقا من مطالبة اسرائيل بالاستثناء التام • واذا ما ثبت ان التأييد العربي لدور تلعبه منظمة التحرير في العملية الدبلوماسية هو خادع اكثر منه حقيقي ، فان كارتر لن يصر على ان حليفته العنيدة هي على خطأ • ويمكن فهم احداث الاشهر التسعة الاولى من رئاسة جيمي كارتر ــ بل يجب النظر اليها ــ في هذا السياق عينه : كيفية تأمين استقرار الشرق الاوسط وضمان سلام اميركي دون خسارة العملاء والوكلاء على جانبي النزاع •

وثبت ان مسألة المشاركة الفلسطينية في العملية الدبلوماسية الاميركية هي احدى اعقد المسائل في هذه القضية كلها • وردا على سؤال حول المشاركة الفلسطينية ، قال كارتر في اول مؤتمر صحفي بعد تنصيبه : « اذا ما دعي الفلسطينيون الى الاجتماع (في جنيف) كما تتفق على ذلك الامم المشاركة الاخرى ، الى جانبنا نحن ، فانهم سيشكلون على الارجح جزءا من احد الوفود

العربية » (١٨) · كذلك فان الرئيس السادات ، الذي كان قد سبق له ان اعرب عن رغبة في قيام ارتباط رسمي بين « دولة فلسطينية » والاردن ، ردد الشيء نفسه في حضور وزير الخارجية سايروس فانس في القاهرة في السابع عشر من شباط (فبراير) ١٩٧٧ ، مضيفا ان هذا الارتباط يجب ان يكون « ارتباطا رسميا ومعلنا » ، اي اتحاد كونفدرالي يعلن قبل عقد مؤتمر جنيف (١٩) · كانت زيارة فانس الاولى الى الشرق الاوسط كوزير للخارجية تهدف ظاهريا الى الحصول على « الزاد الحرج » «Critical input» للعملية الدبلوماسية الاميركية · وقال للصحفيين قبل شروعه في الزيارة انه كان ثمة « كلام متزايد » عن تحول في الرأي الفلسطيني ، وانه « اذا كان هناك اعتدال في الموقف الفلسطيني ··· فانه من الواضح ان هذا سيكون خطوة مساعدة » (٢٠) · الا ان فانس ، في مراعاة واضحة للموقف الاسرائيلي ، شدد على انه لن يحصل على تقويمه في احاديث مع الزعماء الفلسطينيين بل في اجتماعات مع زعماء « البلدان الرئيسية » · كان يريد ان يعرف بصورة مباشرة مدى جدية الزعماء العرب حول تفويض الرباط لمنظمة التحرير الفلسطينية وما اذا كانت منظمة التحرير ، نفسها ، مستعدة لاعادة النظر في « الميثاق الوطني » وللاعتراف باسرائيل · واعرب معظم الزعماء العرب عن الرأي بان منظمة التحرير يجب ان تتلقى دعوة كشريك كامل في مؤتمر للشرق الاوسط ، ولكنهم كانوا مستعدين في الوقت ذاته ، لممارسة الضغط على المنظمة للقبول بأي « شرط اجرائي — من ان تصير جزءا من وفد عربي وحيد الى البقاء بعيدا كليا عن المؤتمر تاركة العرب الاخرين يتفاوضون نيابة عنها » (٢١) ·

ولا بد ان يكون وزير الخارجية فانس قد فوجيء بهذا الكرم العربي حتى انه اعترف بان السادات اظهر « مرونة اكثر ··· مما اعتقد قبل ان آتي الى القاهرة » (٢٢) · وبعدما كان السادات قد دعا الى « ارتباط رسمي ومعلن » بين فلسطين والاردن قبل جنيف ، فانه وافق في ختام زيارة فانس على ان يفكر تفكيرا جديا في اقتراح ان تعيد منظمة التحرير الفلسطينية النظر في ميثاقها وتقبل بالقرار ٢٤٢ · لقد حلت معضلة فانس اذ انه اريح من مهمة الضغط على اسرائيل من اجل تسوية حول مسألة التمثيل الفلسطيني · وصرح وزير خارجية اسرائيل ، الون ، في مؤتمر صحفي في الثامن عشر من شباط (فبراير) — وكان فانس الى جانبه — بان اسرائيل لن تقبل بموفدين فلسطينيين اذا ما عينوا في وفد اردني « كمسؤولين من منظمة التحرير الفلسطينية » ، مضيفا انه اذا تم التخلي عن ميثاق المنظمة وصار الاعضاء « فلسطينيين عاديين فلن تكون هناك اية مقاطعة حول الاشخاص » (٢٣) · هذا الموقف الاسرائيلي القياسي الذي يعني امتصاصا اردنيا لمنظمة التحرير الفلسطينية لم يكن مخالفا بصورة جوهرية للاقوال الجديدة التي رددها السادات على مسمع زائرة

الاميركي ، وبخاصة عندما لم يوضح السادات ان الارتباط الذي يدعو اليه هو مساواة بين نظيرين ٠

كان موقف السادات حول المسألة الفلسطينية ، الى جانب مواقف زملائه في « البلدان الرئيسية » التي زارها فانس ، يشكل اعترافا ضمنيا بان دولة فلسطينية مستقلة ضمن معنى مقررات الرباط قد لا تكون قادرة على الوقوف على قدميها ٠ ولم يفت يغئال الون او سايروس فانس المعنى الضمني لذلك الموقف ٠

وتعليق ألون بان « هذا هو اول مسمار في نعش مؤتمر الرباط » «٢٤) ، لا يحتاج الى تفسير ٠ هذا في حين ان فانس ، حتى قبل زيارته للشرق الاوسط في شباط (فبراير) ، اعترف « بحق » اسرائيل في رفض دولة فلسطينية ٠ وفيما يلي ما جرى من اسئلة واجوبة حول هذا الشأن في مؤتمره الصحفي (٢٥) ٠

سؤال : هل يجب ان تكون هناك دولة فلسطينية لكي يكون هناك سلام في الشرق الاوسط ؟

جواب : على **الفرقاء** ان يقرروا هذا الامر ٠ واعتقد انه اذا ما اراد المرء ان يحقق تسوية فلا بد من الاعتراف **بالمتطلبات** المشروعة للشعب الفلسطيني ٠

سؤال : هل تشتمل مصالحهم المشروعة على قيام دولة ؟

جواب : عليهم هم ان يقرروا كيفية مواجهة هذا الامر ٠

سؤال : المعذرة ، عندما تقول « هم » ، هل تعني الفرقاء ام تعني الفلسطينيين ؟

جواب : **الفرقاء** ٠ (التشديد من عندنا) ٠

وبالفعل تم الحصول على « الزاد الحرج » الذي سعت اليه مهمة فانس للكشف عن الحقائق في الشرق الاوسط : فبالنظر الى الاحتياجات العربية الى بيئة مستقرة فضلا عن المخاوف من السخط الاجتماعي الذي سبق له ان ظهر على السطح فيمصر ولبنان وغيرهما ، كان « المعتدلون » يباشرون في هجوم سلمي يهدف الى توليد بعض الضغط الاميركي على اسرائيل للحصول على تدبير ينقذ ماء الوجه حول مسألة التمثيل الفلسطيني ٠ هنري تانر ، الكاتب في النيويورك تايمز ، قدم الرواية التالية عن الاسباب العربية « للهجوم السلمي » هذا ، فهم [اي العرب] يعتقدون ان :

« باستطاعة اسرائيل ، على الرغم من معونة اميركية تبلغ بليوني دولار في السنة ، ان تتحمل حربا اكثر حتى مما نستطيع ان نتحملها نحن ، ويجادلون بان الولايات المتحدة لن تعود مستعدة لاعطاء اسرائيل

ذلك النوع من المعونة **حالما يثبت العرب انهم مستعدون للقبول بسلام بشروط معقولة** » · « التشديد من عندنا » ء ٢٦) ·

وفي الواقع ، كانت استراتيجية ذلك الهجوم السلمي استراتيجية قديمة · فقد كانت ترتكز ، كما ارتكزت لخمسة اعوام خلت ، على حاجة عربية لترويض منظمة التحرير الفلسطينية وتحجيمها على امل تحويلها الى شريك مفاوضات « مؤهل » · الا ان سرعة ملحوظة في عملية محاولة الترويض كانت اكتـــر وضوحا هذه المرة ·

وفي هذه الاثناء ، انقضت سبعة اشهر على نهاية زيارة فانس ، وخلال تلك الفترة لم تؤد الاتصالات المكثفة بين الرئيس كارتر وزعمـــاء « البلـــدان الرئيسية » الى اية سبل جديدة لردم الهوة حول اي من القضايا الجوهرية في النزاع · وسيطرت القواعد الاجرائية الحاكمة لمؤتمر الشرق الاوسط المقتـــرح على المباحثات ، في حين استمرت التلميحات عن خطة من اجل التسوية يعدهـــا كارتر تصدر عن واشنطن ، مما جعل الكثيرين يعتقدون انها ستبلغ ذروتهـــا في حل مفروض · ونشأ منطق ذلك التوقع عن كون الدول العربية لم تقبـــل بمفهوم تعايش الدولتين فيفلسطين فحسب ، بل انها حتى كانت مستعدة لدرس فكرة اتحاد كونفدرالي فلسطيني ــ اردني ــ وهو موقف يكاد يكون مماثلا لاراء كارتر التي اعرب عنها تكرارا خلال حملة انتخابات الرئاسة وبعدها · وكـــان قبول منظمة التحرير الفلسطينية بهذه الاستراتيجية هو الامر الوحيد الذي يحتاجه هؤلاء الزعماء العرب لاثارة السؤال السياسي العميق بالنسبة لواشنطن ، اذ ان من شأن ذلك ان يجعل التزام واشنطن بالمقاطعة الاسرائيلية لمنظمـــة التحرير امرا متعذر الدفاع عنه · ويبدو ان بعض هؤلاء الزعماء اخذوا على عاتقهم امر التأكيد لكارتر ان المنظمة ستقتنع مع الوقت ، وكان كارتر مستعدا للانتظار · ذلك انه كان يوجد اجماع دولي حول ضرورة تمثيل الفلسطينيين في عمليـــة السلام للشرق الاوسط ، في حين ان اسرائيل تزداد عزلة في المجتمع العالمـي بسبب تصلبها حول المسألة الفلسطينية · والى ذلك استنتج الامين العام للامم المتحدة ، كورت فالدهايم ، في ختام زيارته للمنطقة في الثاني عشر من شباط (فبراير) ١٩٧٧ ، ان رفض اسرائيل السماح بمشاركة منظمة التحرير فـــي جنيف هو « المشكلة الرئيسية التي تواجه مهمتي في الشرق الاوسط » (٢٧) · وباختصار ، كان على كارتر ان يعمل ، في اعقاب عودة فانس من الشرق الاوسط في شباط · كان قد سبق له ان اعلن ، بعد اقل من اسبوعين من توليه الرئاسة، عن نيته تسوية نزاع الشرق الاوسط · والآن ذكره وزير الخارجية السعودية ، في الوقت ذاته تقريبا ، بان الزيادة في سعر النفط الخام كانت محددة بمجـرد خمسة بالمئة ، في حين لم يكن على السادات الا ان يشير الى ان استمراره في

السلطة يعتمد على انهاء حالة « اللاسلم واللا حرب » ، وان الولايات المتحدة لا يسعها ان تخسر ما وظفته في نظامه ٠

كانت رسالة العرب الى كارتر واضحة جدا : اننا مستعدون للتسوية على الشروط الاميركية ، ولكن لا تدفعونا الى تلبية جميع شروط اسرائيل ، ومعنى هذا انه في حين ان المنتصر يفرض عادة « سلاما » على المنهزم ، فان الاستسلام لا يجب ان يكون تاما ٠ كانت هذه هي المشكلة التي اضطر كارتر الى معالجتها خلال الاشهر التالية لرحلة فانس الى الشرق الاوسط ٠ وهو اما انهمك في مهمة ممارسة الضغط على اسرائيل ، وهي مهمة لم يسبق لها مثيل بجرئة (حتى بالنسبة لرؤساء الجمهورية الاميركيين) ، او افاد من المزاج السخي للزعماء العرب ، الذين قدموا لفانس « زاده الحرج » ٠ هل قبل ، في الواقع ، بالتحديد الاسرائيلي « للسلام » عندما وصف ما يساوي اطاراً للسياسة الاميركية في كلينتون بولاية ماساشوستس في السادس عشر من اذار (مارس) ١٩٧٧ ؟ سنجادل بانه قبل بذلك التحديد فعلا ، بشرط ان تفهم اسرائيل حاجته الى تزويد الزعماء العرب « المعتدلين » بأداة انقاذ ماء الوجه التي سعوا اليها حول المسألة الفلسطينية ، ومن هنا استعماله لعبارة « وطن » التي نظر اليها الطرفان خارج سياقها الكامل ٠ ويجب ان يقرأ تصريح كارتر بكامله لتقدير مدى مطابقة الموقف الاميركي للموقف الاسرائيلي :

« اعتقد ان احد اروع اعمال امم العالم التي حدثت ابدا هو تأسيس دولة اسرائيل ٠ ولذا فان اول شرط لسلام دائم هو اعتراف جيران اسرائيل بها ، حق اسرائيل في الوجود ، حق اسرائيل في الوجود الدائم ، حق اسرائيل في الوجود بسلام ، ويعني هذا انه خلال فترة اشهر او اعوام يجب ان تفتح الحدود بين اسرائيل وسوريا ، بين اسرائيل ولبنان ، بين اسرائيل والاردن ، بين اسرائيل ومصر ، للسفر، للسياحة ، للتبادل الثقافي ، للتجارة ، بحيث انه كائنا من كان الزعماء في تلك البلدان ، يكون الناس انفسهم قد الفوا تفاهما وفهما متبادلين بمعنى الهدف المشترك لتجنب الحروب المتكررة والموت الذي طالما اصاب تلك المنطقة ، ذلك هو الشرط الاول للسلام ٠

الشرط الثاني هو مهم جدا وصعب للغاية : انه اقامة حدود دائمة لاسرائيل ٠ فالبلدان العربية تقول ان على اسرائيل الانسحاب الى حدود ما قبل ١٩٦٧ ٠ واسرائيل تقول ان عليهم ان يعدلوا خطوط تلك الحدود الى حد ما لكي يضمنوا امنهم ٠ وهذه مسألة ينبغي التفاوض عليها بين البلدان العربية من جهة واسرائيل من جهة اخرى ٠ لكن الحدود ما زالت مسألة متاعب جمة ومسألة صعوبة فائقة ، وثمة اختلافات قوية في الرأي الآن ٠

والشرط النهائي الثالث للسلام هو التعامل مع المشكلة الفلسطينية ، فالفلسطينيون يدعون حتى هذه اللحظة انه لا يحق لاسرائيل ان تكون هناك ، وان الارض هي للفلسطينيين ، ولم يتخلوا قط عن التزامهم المعبر عنه علنا بتدمير اسرائيل · ولا بد من التغلب على هذا الامر ·

لا بد ان يكون هناك وطن للاجئين الفلسطينيين الذين عانوا العذاب لاعوام كثيرة كثيرة · والطريقة الصحيحة لحل المشكلة الفلسطينية هي طريقة تتوجه قبل كل شيء الآن الى البلدان العربية ومن ثم ، ثانيا الى البلدان العربية المتفاوضة مع اسرائيل ·

تلك العناصر الرئيسية الثلاث لا بد من ان تحل قبل ان يمكن وصف حل شرق اوسطي ··· » (٢٨) ·

يلاحظ ان شرط كارتر الاول يجعل اعتراف العرب بحق اسرائيل في الوجود غير مشروط ، مستثنيا اية اشارة الى الطريقة التي تحدد بها اسرائيل نفسها ، او الى التزاماتها للشعب الذي طردته من بلاده في العام ١٩٤٨ ، او لهؤلاء الذين تعاملهم اليوم كمواطنين من الدرجة الثالثة · ومبدأه الثاني يجسم اعترافا ضمنيا بالتوسع الذاتي في الاراضي ، والمبدأ الثالث ، الذي وجده الكثيرون من الاسرائيليين مقلقا (٢٩) · يتكلم عن « وطن » وليس عن «دولة » ، وعن لاجئين فلسطينيين وليس عن شعب له حق تقرير المصير · الا ان مبدأ كارتر الثالث ، فوق كل شيء ، وانسجاما مع ما تأكد منه فانس لدى الزعماء العرب ، يعتبر المشكلة الفلسطينية مشكلة « تتوجه الآن الى البلدان العربية ، ومن ثم ثانيا ، الى البلدان العربية المتفاوضة مع اسرائيل » · وهكذا فان خطة كارتر استبعدت دولة فلسطينية مستقلة ·

وسرعان ما جاء التحدي الرئيسي لصيغ كارتر من حكومة ليكود الجديدة برئاسة مناحيم بيغن ، وليس من اية حكومة عربية ، فيما يتعلق بالبعد الفلسطيني للنزاع العربي ـ الاسرائيلي ، فان ايا من الحكومات الاسرائيلية التي سبقت حكومة بيغن لم تدع علنا السيادة على الضفة الغربية وغزة · كانت دائما تشير الى المنطقة تمويهيا على انها الاراضي « المدارة » · الا ان بيغن اعلن ان مستوطنات اسرائيل الاستعمارية في الضفة الغربية وجدت هناك لتبقى ، كجزء من « الوطن اليهودي التاريخي » · واعاد تسمية الارض والشعب : اليهودية والسامرة ، و « عرب ارض ـ اسرائيل » كانت تسمياته الجديدة · وشدد على ادعائه السيادة على الضفة الغربية وغزة فنفى وجود ميول للضم لديه بقوله : « لا تستطيع ان تضم ما هو ملك لك » ·

وشعر كارتر ان الوابل السريع والمتواصل من التصاريح التي يدلي بها بيغن تهدد بتقويض دعمه (اي كارتر) لصيغة كلينتون في العالم العربي ، فطور

استراتيجية كلامية لمواجهة الواقع الجديد · وفي هذا السياق بالذات يجب النظر الى المقابلة الشهيرة التي اجريت معه في مجلة تايم في الثامن من آب (اغسطس) ١٩٧٧ والتي تحدى فيها بيغن للكشف عن نواياه · فردا على سؤال يتعلق بعدم قبول اسرائيل بالمبادىء التي عرضها من اجل مؤتمر جنيف ، قال :

« اعتقد انه اذا ما وجد زعيم معين (يعني بيغن) لاحد البلدان ان موقفه يتعارض تعارضا مباشرا مع موقف جميع الفرقاء المعنيين الآخرين ، بما فيه موقفنا نحن وموقف الاتحاد السوفياتي ، وكان مسألة ضيقة التحديد في بلده هو ، فانه سيكون هناك دافع عظيم لذلك الزعيم للتكيف مع الرأي الغالب » ·

وحتى على نحو اوثق صلة بالموضوع ، هدد كارتر بتعبئة عدة دوائر انتخابية ، بما فيها دائرة بيغن الانتخابية فضلا عن الجالية اليهودية الاميركية ، اذا ما استمر تصلب بيغن ، وعندما سئل كارتر عما اذا كان سيجد وسيلة ما للضغط او الاقناع اذا اختلف الموقف الاسرائيلي في جنيف كل الاختلاف عن موقفه ، اجاب :

« ··· سأحاول ان احصل على تأييد الزعيم ، قبل كل شيء · ثانيا ، رأي شعبه في بلاده ، والدوائر الانتخابية التي قد توجد في بلادنا نحن والتي قد يكون لها تأثير حول العالم ، والرأي الموجود في الاسرة الاوروبية ، وفي الامم العربية ايضا » ·

وحول مسألة التمثيل الفلسطيني تعهد السيد كارتر ، في المقابلة نفسها ، بادخال منظمة التحرير الفلسطينية في العملية الدبلوماسية اذا ما قبلت الاخيرة بالشروط الاميركية : « اذا تبنى الزعماء الفلسطينيون ذلك الموقف (القبول بوجود اسرائيل) او تبنوا قرار الامم المتحدة ٢٤٢و ٣٣٨ كأساس للمفاوضات في جنيف ، فسنبدأ على الفور خططا للشروع في محادثات مع الزعماء الفلسطينيين · » واعاد التأكيد على عرضه في مؤتمر صحفي في ايلول (سبتمبر) ، بقوله انه لا يمكن ان تكون ثمة تسوية للشرق الاوسط الا اذا كان هناك « تمثيل فلسطيني كاف » في جنيف ، وان منظمة التحرير الفلسطينية في رأيه تمثل « جزءا كبيرا » من الشعب الفلسطيني ، ولكنها ليست الناطق الاوحد بلسانه ·

وبلغ « هجوم » الرئيس كارتر ضدبيغن ذروته في البيان المشترك ، الاميركي ـ السوفياتي ، حول الشرق الاوسط في الاول من تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٧ ، الذي قبلت فيه الولايات المتحدة لاول مرة بفكرة « الحقوق المشروعة » الفلسطينية (٣٠) · ومع ان البيان المشترك لا يحتوي على اية فوارق جوهرية عن صيغة كلينتون ، فقد استقبل بمنتهى العداء من قبل حزب ليكود الحاكم

والمعارضة العمالية الاسرائيلية والجالية اليهودية الاميركية واعضاء الكونغرس والنقابيين الاميركيين النافذين ، وهي فئات تعتبر ان دخـــول السوفيـات فـي دبلوماسية الشرق الاوسط من جديد يجب ان يقاوم مهما كلف الثمن · وهكذا فان الانتقاد الموجه الى ادارة كارتر من قبل المصالح المنظمة تحول الـى احـدى المعارك السياسية الاكثر صخبا التي تورطت فيها ادارة كارتر · وتمحور هذا الجدل حول نقطتين : اولا ، في حين بدا كارتر مستعدا للسماح لبعض اعضاء منظمة التحرير الفلسطينية بالمشاركة كجزء من فريق فلسطيني في وفد عربـي موحد في جنيف ، فان بيغن اوضح ان اسرائيل لن تتعامل مع منظمة التحريـر حتى ولو قبلت القرار ٢٤٢ · وكان هذا الموقف متفقا مع ادعاءات بيغـــن بالسيادة على الضفة الغربية وغزة · وتعلق المصدر الثاني للخلاف بانعـاش دور نشط للاتحاد السوفياتي بعدما كان يقف جانبا لعدة اعوام ·

وبعد مرور اقل من اسبوع على اعلان البيان المشترك الاميركي ـ السوفياتي، قررت ادارة كارتر التراجع عن المواجهـة مع اسرائيل · ذلـك ان ورقـة عمـل دايان ـ كارتر التي تم التوصل اليها في جلسة مرثونية في الرابع والخامس من تشرين الاول (اكتوبر) وحضرها كارتر وفانس ودايان ، كان لها تأثير جعـل البيان الاميركي ـ السوفياتي المشترك عديم الفعالية · وانتهت المسودة التـي نشرتها ادارة كارتر على النحو التالي : ان قبول الفرقاء بالبيـان الاميركي ـ السوفياتي المشترك في الاول من تشرين الاول ١٩٧٧ ليس شرطا لاعادة عقـد واجراء مؤتمر جنيف (٣١) · وفي هذه الاثنـــاء اذاع وزير الخارجيـــة الاسرائيلية دايان في الكنيستمسودة لورقة العمل السرية تكشف عن انكارتر وفانس لم يتراجعا عن التزامهما بتمثيل ما لمنظمة التحرير الفلسطينية في جنيف فحسب ، ولكنهما في الواقع قبلا بتحديد بيغن لتسوية تتعلق بالضفة الغربيـة وغزة · ويتمثل هذا التراجع في نقطتين وردتا في النسخة الاسرائيلية مـــن المسودة (٣٢) · اولا ، سيمثل الاطـراف العربيـة وفـد عربي موحـد يضـم فلسطينيين في الجلسة الرسمية ، وبعدها سينقسم المؤتمر الى اربع فرق عاملة ستتفاوض على معاهدات سلام بين اسرائيل ومصر ، اسرائيـــل والاردن ، اسرائيل وسوريا ، واخيرا اسرائيل ولبنان · ثانيا ، ان الفرق العاملة نفسهـا **ستبحث** قضايا الضفة الغربية وغزة ، ولن تتفاوض عليها ·

اذن ، فان المواجهة بين كارتر وبيغن حلت لمصلحـــة الاخير · وثبـت ان تهديدات كارتر المعبر عنها في المقابلة التي اجرتها معه مجلة تايم كانت فارغة ، ومرة اخرى وضع في مركز الضغط على الزعماء العرب من اجل تنـــازلات اضافيـــة ·

الا ان الطريق المسدود الذي نشأ عن « هجوم » كارتر السيىء الطالع ، قاطعه قرار السادات المفاجيء والذي لم يسبق له مثيل ـ قراره القيـــام برحلتـــه

غير المقدسة الى القدس المحتلة في التاسع عشر من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٧ · لقد التقت مصلحته ومصلحة بيغن في حاجتهمـــا لابقاء الاتحـــاد السوفياتي خارج دبلوماسية الشرق الاوسط · وهكذا تحول مركز الانتباه بعيدا عن جنيف ونحو الشرق الاوسط ·

الطور الثاني لسياسة كارتر الخارجية نحو النزاع العربي ــ الاسرائيلي يبدأ برحلة السادات في التاسع عشر من تشرين الثاني · واتصفت هذه السياسة بتحول ملحوظ نحو موقف بيغن ، مما القى شكوكا خطيرة حول نوايا كارتـــر تنفيذ البيان الاميركي ــ السوفياتي المشترك الصادر في الاول من تشرين الاول· ابتدأ دمج خطة بيغن من أجل تسوية في السياسة الاميركية ، في ورقة عمـــل دايان ــ كارتر وتم تثبيته وانهاءه في كامب دايفيد في السابع عشر من ايلول (سبتمبر) ١٩٧٨ · واكدت عبارة زبيغنيو بريزنسكي الشهيرة ، « وداعا منظمة التحرير الفلسطينية » ، تخلي ادارة كارتر عن الجهود الجارية وراء الستـــار لجعل منظمة التحرير شريكا « مؤهلا » للتفاوض · وحتى لم يعد مقبولا بـدور مساعد لمنظمة التحرير ضمن اطار الوفاق الدبلوماسي العربي المحافظ ، وذلك بالنظر الى انتصار بيغن على كارتر والسادات في تشرين الثاني ١٩٧٧ ·

مهدت رحلة السادات لدخـول عهد جديـد في التاريـخ الدبلوماسي للشرق الاوسط الحديث ، عهد تصوغ فيه اسرائيل وحدها الخطوط الهادية للتسوية · وخسر كارتر والسادات اية مبادرات قد تكون كانت لديهما في الماضي · وطرحت خطة بيغن ، التي ازيح الستار عنها في كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٧ ، علـى انها « تقدمة اسرائيل للسلام » ، وذلك ردا على مرحلة السادات · وتصـــورت الخطة تشكيل مجلس اداري في الضفة الغربية وغزة له سلطـة الاشراف علـى التعليم المحلي والشؤون الدينية والتجارة والزراعة والسياحة والشرطة وستبقى السلطات الاسرائيلية مولجة شؤون « الامن » والشؤون الخارجية والاقتصادية · وتعطى لجنة تضم ممثلين عن الاردن واسرائيل والمجلس الاداري السلطة لتقرير شرعية جميع اعمال المجلس الاداري ، في حيـن يستمـر تأسيس المستوطنـات الاسرائيلية بلا انقطاع · والخطة نفسها شكلت اعادة تأكيـد لادعاءات بيغـن بالسيادة على الضفة الغربية وغزة · ومن هذه الناحية كانت على خـلاف مـع السياسات المعلنة لكل من الولايات المتحدة ومصر · ومع هذا فان كلا من كارتر والسادات قبلا في النهاية بهذا الموقف الذي ارتبط طيلـة ثلاثين سنـة بحـزب حيروت خلال وجوده في المعارضة في اسرائيـل ، وهو موقف اعتبر مـن بـاب المغالاة البلاغية في افضل الحالات ووصفته المؤسسة الحاكمة الاسرائيلية تكرارا بأنه متطرف وغير مسؤول · وصار ذلك الموقف يحتل وسط المسرح في دبلوماسية الشرق الاوسط في اعقاب رحلة السادات ، وقدم اطار العمل والخطوط الهادية للتسوية المقترحة في كامب دايفيد · ونلاحظ ان سياق مقترحات كامب دايفيـــد

يجعل من المتعذر اجتناب كون السيادة القانونية على الضفة الغربية وغزة هي خلاف · وبالنسبة الى الولايات المتحدة ومصر كانت هذه حقيقة جديدة تقبلتاها بطريقة هادئة الى حد مدهش · واستجاب جيمي كارتر لخطة بيغن بقوله انهـــا تؤلف أساسا لاتفاق · وفي هذه الاثناء قدم صيغة اخرى للحقوق الفلسطينية لم تكن تتعارض مع قرار قمة الربـــاط فحسب ، بل مع الوفـــاق الدولـــي كذلـك. ودعت صيغته المسماة صيغة اسوان ، والتي اعلنها خلال زيارة قصيرة لمصر في الخامس من كانون الثاني (يناير) ١٩٧٨ ، فيما كان في طريقه لزيارة الشاه ، الى حل للمشكلة الفلسطينية « في جميع وجوهها » ، يرتكز عـــلى الاعتـــراف « بالحقوق المشروعة » للشعب الفلسطيني · بيد ان هذه الحقوق لم تشتمل على « تقرير المصير » كما تفهـم هذه العبـــارة في القانـون الدولي · فالشعـــب الفلسطيني ، بحسب كارتر ، لم يكن يحق له الا « المشاركة في تقرير مستقبله »· و « الحكم الذاتي » الـــذي تكلـــم عنه بيغن هـــو الوسيلـــة لتلك « المشاركـــة » · وكتبت النيويورك تايمز في افتتاحيتهـــا ، قبل تبنيهـــا لهـذه الخطة : « لا يتطلب الامر عينا عربية لتقرأ في هذه الخطة الكثير من « الحكم » ولكن القليـل مـــن (الذاتي) » (٣٣) ·

وثبت ان جوهر خطة بيغن مقبول ايضا لدى انور السادات الذي عاد ، بعـد بعض التردد خلال النصف الاول من عام ١٩٧٨ ، فقبل دعوة كارتر الى كامـب دايفيد وذلك ظاهريا لان كارتر وافـــق على ان يكـــون « شريكـــا كاملا » فـــي المفاوضات · ولا بـد ان مكافأة السادات على تنازلاته فـــي كامب دايفيد كانـت موافقة كارتر على تحقيق الرغبة المصرية القديمة العهد للاندماج في النظـــام الاميركي كعميل ، وهي مهمة كانت قيد التنفيذ منذ ما سمي بدبلوماسية كيسنجر المكوكية ·

وفي الختام يمكن القول ان سياسة كارتر لا تمثل بحال من الاحوال افتراقا كبيرا عن اطار الاسناد الدبلوماسي الذي يتضح تقليديا في التوجه الاميركي الى النزاع العربي ـ الاسرائيلـــي · ويبقى صعـــود الراديكالية وانتشار النفـــوذ السوفياتي الكابوس الذي يعذب الدبلوماسية الاميركيـــة باستمـــرار في الشرق الاوسط · ويبدو التحالف الفعلي او الضمني الصامـــت بين اسرائيـــل والانظمة الاخرى الموالية للغرب في المنطقة ، واكثر من اي وقـــت مضـــى ، الآلية التـــي تفضلها الولايات المتحدة لصد الراديكالية وضمان الهيمنة الاميركية · وكانـــت زيادة عدد العملاء العرب محط اهتمام رئيسي للدبلوماسية الاميركيـــة ، واكبـــر « انتصار » حققه كيسنجر ثم كارتر في ذلك الاتجاه هو عزل مصر عن التيـــار الرئيسي للفكر العربي · ويفتقر رجال الدولة الاميركيون الى سياسة متماسكـــة واضحة في توجههم الى البعد الفلسطيني للنزاع ، الذي اعتبرته الاسرة الدولية

جوهر السلام في الشرق الاوسط ٠ لقد استعملوا حقوق وامتيازات الشعب الفلسطيني كاداة للمصلحة الدبلوماسية يمكن قبولها او رفضها كما يلائم ذلك الولايات المتحدة على رقعة شطرنج استراتيجياتها العالمية ٠ انها سياسة امال خيبت ووعود حنث بها ، خليط دبلوماسي من التناقضات والتقلبات ٠ وثبت ان التصاريح المتصفة بالشجاعة والصدق التي ادلى بها كارتر ومرؤسوه من حين لآخر كانت خادعة الى حد كبير ٠

ويبدو ان اهتمامات اميركا العالمية قد غلبت اهتماماتها العربية ـ الاسرائيلية ٠ فالاخيرة خضعت لسلسلة من التحولات بينما بقيت الاولى ثابته ٠ وبالفعل كان الدور العالمي للشرق الاوسط في التخطيط الاستراتيجي الاميركي محدداً تحديداً واضحا قبل تسلم كارتر رئاسة الجمهورية الاميركية ٠ الا ان السخط الاجتماعي الذي يبدو ان هذا الدور ولده في ايران سيكون على الارجح معديا ٠

الحواشي

(1) *New York Times*, March 17, 1977.

(2) *Ibid*, June 1, 1977.

(3) *Ibid*, June 28, 1977.

(4) *Ibid*.

(5) Joint Statement by U.S. and U.S.S.R. of October 1, 1977. Text in *New York Times*, October 2, 1977.

(6) See Carter's Interview in *Time* Magazine, August 8, 1977.

(7) *New York Times*, February 15, 1977.

(8) *Ibid*, April 1, 1976; *U.S. News And World Report*, May 24, 1976; *Jewish Telegraphic Agency*, October 18, 1976.

(9) *Ibid*.

(١٠) على هذا النحو وصفت مذكرة لوزارة الخارجية ، العربية السعودية في عام ١٩٤٥ ٠

(11) George W. Ball, «America's Interests in the Middle East». *Harper's*, October 1978, p. 2.

(12) Annual Review of U. S. Middle East Policy. Washington: Department of State. Based on a statement by Harold H. Saunders, assistant secretary for Near Eastern and South Asian Affairs, before the subcommittee on Europe and the Middle East of the House International Relations Committee. June 12, 1977, see pp. 6 - 8.

(13) *New York Times*, May 24, 1977.

(14) *Annual Review of U. S. Middle East Policy*. p. 11.

(15) *Ibid* pp. 12 - 13.

(16) *Foreign Affairs*, April 1975 and April 1977 respectively.

(17) *Annual Review of U.S. Middle East Policy*, p. 10.

(18) *New York Times*, January 14, 1977.

(19) *Ibid*, February 19, 1977.

(20) *Ibid*, February 11, 1977.

(21) *Ibid*, February 15, 1977.

(22) *Ibid*, February 19, 1977.

(23) *Ibid*.

(24) *The Economist*, January 8, 1977, p. 63.

(25) The Secretary of State, February 11, 1977.
Washington Bureau of Public Affairs, Office of Media Seruices.

(26) *New York Times*, February 6, 1977.

(27) *Ibid*, February 13, 1977.

(28) *Ibid*, March 19, 1977.

(٢٩) انظر تصريح يتسحاق رابين في **النيويورك تايمز** ، ٨ اذار (مارس) ، ١٩٧٧ ، الذي قال فيه ان التعليق اقلقه ، وانه اراد ان يكون للفلسطينيين وطن ايضا وانه بامكانه ان يقبل بصيغة كارتر « اذا كان الوطن جزءا من دولة اردنية ـ فلسطينية في سلام مع اسرائيل » . تنبغي الملاحظة ان هذا يتفق مع سياسة السادات المعلنة .

(30) Text in *New York Times*, October 2, 1977.

(31) Text in *New York Times*, October 6, 1977.

(32) Text in *New York Times*, October 14, 1977.

(33) *Ibid*, January 2, 1978.

الهيثم الأيوبي

الابعاد الاستراتيجية للزلزال الايراني

احتل مفهوم الحفاظ على الاستقرار موقعا محوريا في السياسة الخارجية الاميركية منذ مطلع الخمسينات · ولم يكن الاستقرار بالنسبة الى الولايات المتحدة هدفا ، بل وسيلة لتأمين استمرار « الوضع الراهن » الذي افرزته الحرب العالمية الثانية ، وكان يضمن الى حد بعيد المصالح الاميركية الاقتصادية والاستراتيجية ، وفي مقدمتها : السيطرة على مصادر المواد الاولية في العالم الثالث ، وتطويق الاتحاد السوفياتي ، وتثبيت مرتكزات المناورة الاستراتيجية للاساطيل الحربية · ومن ضرورة الحفاظ على الاستقرار انبثقت نظريات « الدمينو » و « الحرب المحلية المحدودة » و « بناء المناطق المتجانسة » التي لم تكن سوى أساليب عملية لاحتواء او تصفية عوامل عدم الاستقرار التي تظهر في بلد ما ، ومنع انتشارها بالعدوى الى البلدان المجاورة ·

ولا ينبغي ان نفهم هنا ان سعي الولايات المتحدة الى تحقيق الاستقرار كان سياسة ثابتة مطلقة · فهناك حالات وجدت فيها واشنطن ان بقاء « الوضع الراهن » لا يتناسب مع مصالحها ، فعملت ما في وسعها لتبديل هذا الوضع ، وأثارت العوامل المحلية الكامنة لخلق بؤرة عدم استقرار تسمح لها بالتدخل تحت لواء تأمين الاستقرار ، بغية اعادة ترتيب الاوضاع ، واقامة «وضع راهن» جديد يخدم اغراضها ·

الخطوط الدفاعية عن المصالح الاميركية

لم تخرج السياسة الاميركية في الشرق الاوسط عن اطار مفهوم الاستقرار ،

عندما تسلمت مفاتيح المنطقة من حليفتيها بريطانيا وفرنسا في النصف الاول من الخمسينات · فلقد وجدت واشنطن ان هذه المنطقة الهامة (بحكم موقعها الاستراتيجي ونوعية ثرواتها الاستخراجية) حبلى بعوامل عدم الاستقرار · الناجمة عن تنامي حركة التحرر الوطني العربي (بمعناه الاقتصادي والاجتماعي والثقافي الواسع) ، والتوجه الوحدوي الرامي الى تحطيم الاطر الاقليمية · والخلافات العنيفة داخل كل بلد على اساليب الانماء وتوزيع الثروة ، ووجود الدولة الصهيونية بكل ما تمثله هذه الدولة من عدوان خارجي وديناميكية توسعية · ولهذا وضعت الولايات المتحدة منذ البداية مخططات طموحة لتهدئة الاوضاع ، واعادة الاستقرار الى الشرق الاوسط ، وتأمين الانسجام بين دوله · وطرحت فكرة بناء حلف عسكري اقليمي يضم دول المنطقة ويرتبط مباشرة بالبنتاغون ·

ولجذب الحكومات المعنية الى الحلف ، طرحت الولايات المتحدة طعما مثلثا يتمثل في المساعدات الاقتصادية ، واعادة بناء القوات المسلحة ، وحماية البلاد من الخطر الشيوعي · وكانت غالبية حكومات المنطقة آنذاك مستعدة للوقوع في فخ الاغراء الاميركي ، نظرا لتكوينها الاجتماعي ، وحاجتها للاموال والتكنولوجيا والاسلحة ، ومعاداتها للشيوعية لاسباب دينية وقومية ، ورغبتها في احتواء عوامل عدم الاستقرار التي تخلق المناخ المناسب لنمو حركات راديكالية تهدد مرتكزات الحكم الاقطاعي ـ العشائري السائد في تلك الحقبة · بيد ان فكرة انضمام اسرائيل الى الحلف اصطدمت بالشعور القومي العربي · وتمغنط الجماهير العربية نحو تحرير الارض المغتصبة ، واستعدادها لتأجيل كل الاهداف ، بما فيذلك الانماء ، بغية تحقيق هدف التحرير ·

بسبب هذا الصدام الحاد بين المخطط الاميركي وموقف الجماهير العربية · سقط مشروع الحلف العسكري الاقليمي · وساعد على سقوطه النضال الذي شنته ضده قوى سياسية عربية فاعلة (البعث ، الناصرية ··· الخ) الامر الذي دفع الولايات المتحدة الى الاكتفاء بمشروع تهدئوي اكثر تواضعا واشد تعقيدا وكلفة · وكان هذا المشروع يتمثل في النقاط التالية :

١ ـ خلق حلف بغداد الذي يضم ، بالاضافة الى الولايات المتحدة وبريطانيا، اربع دول محلية (العراق ، ايران ، تركيا ، باكستان) ·

٢ ـ تعزيز العلاقة الثنائية مع عدد من دول المنطقة (السعودية ، الاردن ، لبنان ، الحبشة ، ··· الخ) ·

٣ ـ بناء علاقة ثابتة ومتميزة مع الدولة الصهيونية ·

ومنذ ذلك الوقت اصبحت المصالح الاميركية في المنطقة محمية بالتهدئة

النسبية ، وبأربع خطوط دفاعية متعاقبة ومتكاملة هي : حلف بغداد ، والدول العربية التقليدية ، والدولة الصهيونية ، والاسطول السادس ٠

وكان **الخط الدفاعي الاول** (حلف بغداد) ، المحاذي للحدود السوفياتية الجنوبية ، سياسي الاغراض رغم طابعه العسكري الظاهري ٠ اذ لم تكن قدراته الدفاعية تسمح له بصد اي هجوم سوفياتي جدي ، رغم تعزيز الولايات المتحدة لهذه القدرات ٠ وكان اقصى ما يستطيع هذا « الجدار الواقي » تقديمه ، هو ضبط حركة الجماهير في دول الحلف ، ومنع انتشار عدوى الفكر الراديكالي التحرري المعادي للامبريالية بين صفوفها ٠

واخذ **الخط الدفاعي الثاني** (الدول العربية التقليدية) مهمتين هما : تأمين التهدئة القطرية عن طريق ضبط حركة الجماهير داخل كل قطر والحد من انتشار الفكر التحرري الوحدوي بين صفوفها ، ومشاغلة الدول العربية الراديكالية المعادية للاستعمار بكل اشكاله واستنزافها ، الامر الذي جعل انظمة الدول المشاركة فيه تلعب دور الدركي القطري المحلي ٠

بيد ان هذا الخط كان يحمل في داخله بذور انفجاره ٠ اذ ان تأييد انظمة الخط لمصالح الولايات المتحدة ، المتعارضة مع مصالح الجماهير التواقة الى استعادة ثرواتها ، يضعه في خط الصدام مع هذه الجماهير ، ويجعل مصيره غير ثابت ومعرض للاهتزاز في كل لحظة ٠ لمواجهة مثل هذا الاحتمال ، والحفاظ على الامن الاقليمي ، القيت مهمة حماية **الخط الدفاعي الثالث** على عاتق الدولة الصهيونية ٠

وكان اختيار اسرائيل لهذه المهمة نابعا من ثلاث حقائق هي : ١ ـ تطابق المهمة المطلوبة مع استراتيجية اسرائيل التوسعية واحساسها الامني المرتفع بسبب طبيعتها كرأس جسر في منطقة معادية٠ ٢ ـ استقرار الدولة الصهيونية النسبي ، نظرا لان قيام جهازها الحاكم بحراسة المصالح الاستعمارية في المنطقة لا يتعارض مع تطلعات غالبية الجماهير الاسرائيلية المستوردة وغير المنهوبة امبرياليا ، الامر الذي يلغي امكانية حدوث تغيرات داخلية جذرية وغير محسوبة ، تخرج اسرائيل من فلك السياسة الاميريكية٠ ٣ ـ معاداة اسرائيل لشعوب المنطقة ، وعدم تعاطفها مع مصالح هذه الشعوب ، واستعدادها للمشاركة في نهبها وقمعها ٠ وفي هذا المجال يمكن القول (للتشبيه فقط) بأنه اذا كانت الانظمة العربية التقليدية اشبه بجيوش المجندين النابعة من الجماهير والمرتبطة بقضاياها والمعرضة للتأثر بالتيارات السائدة فيها ، فان الدولة الصهيونية اشبه بجيش من المحترفين المرتزقة، المعزولين عن الجماهير وقضاياها وتطلعاتها ٠ ومن المعروف ان جيشا من هذا الطراز اقدر على القمع من جيش المجندين ، واكثر منه تماسكا خلال الغزوات الاستعمارية ٠

ولقد كانت هذه الخطوط الثلاثة كافية لحماية المصالح الاستعمارية · ولكن البنتاغون وجد من الضروري تعزيزها **بخط رابع** ، يؤمن دعمها معنويا ولوجستيكيا في الازمات ، ويرفع قدرتها على الردع اللازم للاستقرار ، ويكون في الوقت نفسه قوة احتياطية جاهزة للعب دور الدركي العالمي عند اللزوم · وفي الحالات التي تتعرض فيها الخطوط الثلاثة لخطر جدي محلي او خارجي (سوفياتي) · ولقد القيت مهمة هذا الخط على عاتق الاسطول السادس وجزء من القوة البحرية العاملة في المحيط الهندي ·

تثبيت الاستقرار القسري

بفضل هذه الخطوط الاربعة ، كان بوسع الولايات المتحدة حماية مصالحها ، والاكتفاء بتأمين التهدئة القسرية في هذه المنطقة الحساسة من العالم ، نظرا لان حدة النزاعات وضخامة الاهواء الكامنة وراءها ، واهمية هدف الرهان فيها ، كانت تمنع ظهور المناخ المناسب للتهدئة الطوعية ·

ولقد اثبتت الخطوط الاربعة فاعليتها التهدئوية الى حد ما طوال ربع قرن تقريبا · اذ صمد الخط الدفاعي الاول بعد خروج العراق من حلف بغداد وتحوله الى « حلف مركزي » · واستطاع الخطان الثاني والثالث الثبات امام مؤشرات التغيير التي شهدتها المنطقة · ومما لا شك فيه ان قوى التغيير استطاعت اكتساب مواقع جديدة ، وتحقيق العديد من الانجازات · ولكن ذلك لم يؤد الى قلب موازين القوى جذريا لصالحها · وبقيت قوى الحفاظ على « الوضع الراهن » قادرة على تحديد حركة قوى التغيير ، ومجابهة نجاحاتها ، وان لم تتمكن من تصفيتها في معركة حاسمة ونهائية · والمهم في الامر بالنسبة الى واشنطن ، هو ان الخطوط الثلاثة قامت بدورها في الدفاع عن المصالح الغربية في المنطقة ، دونما حاجة لتدخل الخط الدفاعي الرابع على نطاق واسع ، الامر الذي انقذ الولايات المتحدة من فخ التورط العسكري المباشر ·

وكانت حصيلة ربع قرن من الصراع بين قوى التغيير وقوى الحفاظ على « الوضع الراهن » · زوال النفوذ الاستعماري في عدد من البلدان العربية ، وانتهاء عهد السيطرة على مصدرين من مصادر الطاقة (العراق ، ليبيا) · ولكن الولايات المتحدة حافظت رغم كل ذلك على اكبر ثلاثة مصادر نفطية (السعودية والخليج العربي وايران) ، وضمنت ضبط التحرك الشعبي الايراني المعادي للامبريالية بواسطة القوات المسلحة والشرطة السرية (السافاك) ، كما ضمنت دفع حركة التحرر الوطني العربي الى مواقع بعيدة عن السعودية والخليج العربي · وامنت ردعها بواسطة العسكريتاريا الصهيونية ، وسددت اليها في العام ١٩٦٧ ضربة اسرائيلية افقدتها جزءا من توازنها وثقتها

بنفسها · ثم عززت القدرات العسكرية الاسرائيلية لتضمن لها التفوق ، وتجعل شعار حركة التحرر الوطني « تصفية آثار العدوان » غير قابل للتنفيذ ·

وكان من اهم نتائج الصراعات المسلحة بين العرب واسرائيل طوال ربع قرن ، تزايد ثقة الولايات المتحدة بقدرة الدركي الاسرائيلي على خدمة مصالحها وحمل اعباء التهدئة نيابة عنها · وفي مطلع السبعينات ، ومع اتساع طموحات شاه ايران ورغبته في مد نفوذه ، وانتقاله من مهمة ضبط قوى التغيير الايرانية المحلية الى المشاركة في ضبط قوى التغيير على مستوى المنطقة ، ظهر الدركي الايراني في منطقة الخليج العربي · ولم يكن الدركيان الايراني والاسرائيلي مجرد اداتين بين الولايات المتحدة ، بل كانت لهما مصالحهما الاستراتيجية الخاصة المتطابقة مع المصالح الاميركية · واذا كان قيام شاه ايران بدور التهدئة العزيز على واشنطن يعني حصوله على الدعم الاميركي اللازم لتحقيق احلامه الامبراطورية ، فان قيام اسرائيل بهذا الدور كان يتطابق مع اطماعها التوسعية. ومخططها البعيد الرامي الى اختراق المنطقة العربية والمشاركة في نهب ثرواتها. ويضمن لها الحصول على دعم اميركي يساعدها على تحقيق اغراضها الاستراتيجية ·

وبانضمام ايران الى خط الدفاع الثالث عن المصالح الاميركية ، غدا هذا الخط مجميا بقوتين ، تربض احداهما على الشاطىء المقابل لمنابع النفط العربية. في حين تربض الثانية على نقطة تمفصل المشرق العربي مع المغرب العربي . وازدادت بالتالي امكانات التهدئة وضمانات الاستقرار القسري المحقق · وكان مخططو الاستراتيجية الاميركية يفضلون تحويل هذا الاستقرار القسري الى استقرار طوعي اشد رسوخا · ولكن الفشل في تحقيق التصفية النهائية لقوى التغيير العربية ، وتزايد الوعي بخطورة الغزوة الصهيونية ، والحرص على استمرار نهب المنطقة اقتصاديا ، ورغبة اسرائيل في تكريس المكاسب الاقليمية التي حققتها في حرب حزيران ١٩٦٧ ، جعلتهم يكتفون موقتا بالاستقرار القسري ، ويعملون في الوقت نفسه على تدجين القوى الراديكالية العربية في اطار سياسة طويلة الامد ، تستهدف تيئيس هذه القوى وانتزاع ثقة الجماهير بها ودفعها الى الاستسلام ·

ولقد حملت الدول العربية التقليدية جزءا من اعباء التدجين وتأمين الاستقرار القسري طويل الامد ، ولكن القسط الاكبر من اعباء هاتين المهمتين بقي ملقى على عاتق ايران واسرائيل وكما حققت السياسة الاميركية نجاحات لا بأس بها في مجال التهدئة القسرية . فان سياسة التدجين نجحت في اختراق الارادة العربية في عدة مواقع · فلقد ادى انفصال الوحدة السورية ـ المصرية ، وتعثر المسيرة الوحدوية ، وفشل الدول العربية في تحرير فلسطين ، الى ظهور تيار

عربي مساوم ، يضع مفاتيح حل النزاع العربي ـ الاسرائيلي بيـــد الولايـات المتحدة ، ويرى امكانية مصالحة الدولة الصهيونية والاعتراف بوجودها كدولة من دول المنطقة ، ويقدم الصراع الاقتصادي ـ الاجتماعي ضد الفكر الراديكالي وقوى التغيير على الصراع ضد العدو القومي ٠

وكان من المفروض ان تؤدي حرب تشرين الى اضعاف هذا التيار ، بعد ان اثبتت وقائع الحرب قدرة العرب على قلب موازين القوى العسكرية والحـــاق الهزيمة بالعسكريتاريا الصهيونية ، كما اظهر الحظر النفطي (رغم ثغراتـه) امكانية الضغط على الولايات المتحدة وهز الاقتصاد الغربي بأكمله ٠ ولكـــن الادارة الاميركية استطاعت تصفية آثار تشرين بسرعة ، بفضل المساعدة التي قدمها لها الرئيس المصري وعدد من القوى العربية التقليدية ، بالاضافة الـــى شاه ايران الذي تبنى سياسة نفطية انقاذية افقدت سلاح النفط العربي جـزءا مـــن بريقـــه ٠

مشروع الانتقال من الاستقرار القسري الى الاستقرار الطوعي

اعتقد الاميركيون بعد تصفية آثار تشرين ان بوسعهم الانتقال من الاستقرار القسري الى المنطقة المتجانسة والتهدئة الطوعية ٠ وكانت حساباتهم مبنية على المعطيات التالية : ١ ـ استعداد الرئيس السادات للارتباط بالسياسة الاميركية وانهاء حالة النزاع العربي ـ الاسرائيلي ، وتغطية هذه المواقـف التراجعيـــة بالهالة التي اكتسبها في حرب تشرين ، وبحالة الانهاك الاقتصادي الذي اصاب مصر من جراء المصروفات الحربية والتقتير المالي العربي٠ ٢ ـ تزايد ثـــروة الدول العربية النفطية بعد ارتفاع سعر البترول ، والانعكاسات التهدئوية الناجمة عن هذه الثروة المفاجئة (ظهور مجتمعات استهلاكية مسترخيـــة اقتصاديا ، امكانية تعزيز القوات المسلحة اللازمة لضبط التحرك الجماهيري ، زيادة قـدرة الدول النفطية على التدجين الاقتصادي للقوى العربية الراديكالية ٠٠٠ الخ) ٠ ٣ ـ تزايد المدخرات العربية من البترو دولار وانتقال الجزء الاكبر منها الـــى الولايات المتحدة ، الامر الذي يجعل ارتباط الدول العربية النفطية بواشنطـــن اكثر قوة وثباتا ، ويحول البترو دولار الى عوامل استقرار ، وقوة اميركيـــة ضاغطة قادرة على موازنة قوة الضغط النفطي العربي ٠ ٤ ـ تنامي الدخـــل القومي الايراني ، وتزايد قدرة الشاه على بناء القوة المسلحة اللازمة للتهدئة على الصعيدين الداخلي والاقليمي ، دون ان تحمل الولايات المتحدة من جراء ذلك اية اعباء مالية اضافية ٠

وكانت الخطوة الاولى على طريق التحول مـــــن الاستقرار القسري الى الاستقرار الطوعي عزل مصر عن القضية العربية ٠ وكانت هذه الخطوة تتطلب

تصفية المرحلة الناصرية ببعديها الاجتماعي والقومي ، وقطع خط الاتصال الاستراتيجي الذي اوجده الرئيس الراحل مع حركات التحرر العالمية ومصدر السلاح السوفياتي · ولقد حقق الرئيس السادات هذه الخطوة بمساعدة القوى العربية التقليدية ، وجيوب الفكر القطري التي لم تقم الثورة المصرية بتصفيتها بشكل حاسم ، والقوى الاجتماعية المصرية التي تضررت من جراء ثورة ٢٣ يوليو، وبقيت مصممة على ضرب سياساتها (بما في ذلك سياسة ارتباط مصر القومي) ·

وكانت « المبادرة » وزيارة القدس المحتلة والاعلان عن استعداد مصر لانهاء حالة الحرب مع الغزاة الخطوة الثانية · ومنذ ذلك الحين تسارعت وتيرة الانجراف نحو الدولة الصهيونية والابتعاد عن العالم العربي بجناحيه الراديكالي والتقليدي · واستغلت الدولة الصهيونية تهالك الرئيس السادات على تحقيق انجاز يبرر انجرافه ، وعجزه على التراجع الى نقطة البدء ، وموقفه التفاوضي الضعيف الناجم عن تناقص قدرات مصر الدفاعية ، فزادت مطالبها وشددت شروطها · الامر الذي ادى الى تعثر المباحثات ، وتأخر حفلة التوقيع على مراسيم الاستسلام المصري ·

ورغم هذا التأخر ، فقد كانت الامور تسير وفق خطة التهدئة الطوعية ، اذ ان خطوات الرئيس السادات قد اخرجت مصر عمليا من النزاع العربي ـ الاسرائيلي ، حتى قبل توقيع اتفاق بهذا الصدد · وأنهت حالة العداء بين اسرائيل واكبر دولة عربية ، وفتحت الباب امام توقيع اتفاق مماثل من الدول العربية المؤيدة للمبادرة رسميا او ضمنيا · ووضعت القوى العربية الراديكالية في موقف صعب يساعد على تدجينها او ضربها · ومن المؤكد ان الولايات المتحدة لم تكن تعتقد ان هذه الامور ستتحقق خلال فترة وجيزة ، وان خلق المنطقة المتجانسة غدا قريب المنال · ولكنها كانت تقدر اهمية الاتفاق المصري ـ الاسرائيلي وحيويته بالنسبة الى تنفيذ المراحل المستقبلية لعملية التهدئة ·

ضربات الايقاف للمشروع الاميركي

في هذه اللحظة الحساسة وقع حدثان هامان معاكسان لمخطط التهدئة الاميركي وهما : التقارب السوري ـ العراقي ، وانتصار الثورة الشعبية في ايران · واذا كان الحدث الاول قد اوقف تدهور ميزان القوى العربي ـ الاسرائيلي الناجم عن انسحاب النظام المصري من المعسكر العربي المقاوم ، فان الحدث الثاني اسفر عن انهيار ركيزة من اهم مرتكزات سياسة الاستقرار ، وتحولها الى بؤرة عدم استقرار · وظهر من جراء ذلك وضع استراتيجي جديد

مختلف جذريا عن الوضع الذي سبقه · وسنقتصر في هذا المقال على دراسة نتائج الحدث الثاني وانعكاساته داخل الوضع الاستراتيجي الجديد ·

١ ـ انهيار الخط الدفاعي الاول

كانت ايران في السنوات الاخيرة من العهد الامبراطوري اقوى الدول المحلية المشاركة في الحلف (عسكريا واقتصاديا) ، واقدرها على تحديث قواتها المسلحة ، بفضل رصيدها الكبير من البترو دولار ، وارتفاع دخلها القومي السنوي بالنسبة الى حليفتيها المحليتين (تركيا وباكستان) · ففي العام ١٩٧٧ كان الدخل القومي الايراني ٦ر٧٢ مليار دولار مقابل ٦ر٤٦ مليار في تركيا و ٦ر١٧ في باكستان· ولقد خصص الشاه في الفترة الواقعة بين ١٩٧٤ و ١٩٧٨ اكثر من ١٠٪ من الدخل القومي السنوي لمصروفات الدفاع ، في حين خصصت تركيا وباكستان نسبة اقل من ذلك بكثير (الجدول الاول) ·

ويمكننا ان نتصور التباين في المستوى التكنولوجي والتدريبي والقوة الضاربة والقدرة الحركية بين القوات المسلحة الايرانية وقوات تركيا وباكستان، اذا عرفنا ان ايران ، التي تملك قوات مسلحة اصغر بقليل من القوات التركية او الباكستانية (٤١٣ الفا ، ٤٨٥ الفا ، ٤٢٩ الفا على التوالي) ، قد خصصت لموازنات الدفاع في فترة ١٩٧٥ ـ ١٩٧٨ مبلغ ١٣٦ر٣٦ مليار دولار، في حين لم تخصص تركيا والباكستان لهذا الغرض في الحقبة ذاتها سوى ٩٣٨ر٩ مليارات و ٢٥٨ر٣ مليارات على التوالي (الجدول الاول) · ولو قارنا عدد الجنود والدبابات والطائرات في جيوش الدول الثلاث ، للاحظنا تفوق ايران على حليفتيها في حقل عدد الطائرات وتفوق تركيا عليها في مجال الدبابات (الجدول الثاني) · وكن هذه المقارنة تأخذ بعدا آخر اذا عرفنا ان الاسلحة والمعدات الايرانية اكثر حداثة وتطورا ، وتتمتع بقدرات نارية وحركية اكبر ، اذ ان معظمها من جيل السبعينات وجزءا لا يستهان به من جيل الثمانينات · في حين

الجدول الاول
الدولة

	مصروفات الدفاع (مليار دولار)				النسبة المئوية لمصروفات الدفاع بالنسبة الى الدخل القومي			
	١٩٧٥	١٩٧٦	١٩٧٧	١٩٧٨	المجموع	١٩٧٤	١٩٧٥	١٩٧٦	١٩٧٧
ايران	٨ر٨٠٠	٩ر٥٠٠	٧ر٨٩٤	٩ر٩٤٢	٣٦ر١٣٦	١٤ر٠	١٧ر٤	١٢ر٠	١٠ر٩
تركيا	٢ر٢٠٠	٢ر٨٠٠	٢ر٦٥٢	٢ر٢٨٦	٩ر٩٣٨	٣ر٧	٩ر٠	٥ر٥	٥ر٧
باكستان	٠ر٧٢٥	٠ر٨٠٧	٠ر٨٠٨	٠ر٩٣٨	٣ر٢٥٨	٨ر٤	٧ر٢	٥ر٥	٤ر٦

الجدول الثاني

الدولة	قوات مسلحة (الاف)	طائرات	دبابات قتال رئيسية	عربات مدرعة
ايران	٤١٣	٤٥٩	حوالي ٢٠٠٠	اكثر من ٢٠٠٠
تركيا	٤٨٥	٣٣٩	٢٨٠٠	١٦٥٠
باكستان	٤٢٩	٢٥٧	١٠٠٠	٥٥٠

ان معظم اسلحة ومعدات تركيا وباكستان من جيل الستينات وجزء محـــدود فقط من جيل السبعينات · بالاضافة الى ان قسما كبيرا منها على ابـــواب الخروج من الخدمة بسبب قدمه او عدم توافر قطع الغيار له ·

من اجل هذا كانت ايران واسطة العقد في الحلف المركـــزي · ولقد ادى انسحابها منه في ١٩٧٩/٣/١٢ ، بعد ان قررت الثورة الايرانية التخلي عـن الانحياز والانضمام الى دول عدم الانحياز ، الى خسارة الحلف لاهم مرتكزاته· ولقد زاد من اهمية هذا الانسحاب موقع ايران الوسيط بين باكستان وتركـيا ، وانقطاع الاتصال البري بين الدولتين · لذا اعلنت باكستان في اليـوم نفســه انسحابها من الحلف الذي لم يعد قادرا على تحقيق اغراضه · وبعد ثلاثة ايام اتخذت تركيا قرارا بالانسحاب من الحلف الذي لم يعد موجودا ، ولم يكن الموقف التركي ناجما عن تعاطف مع ثورة ايران ، بل جاء من عدم اهمية هذا الانسحاب بالنسبة الى الامن الغربي ، على اعتبار ان بقاء تركيا في حلف شمالي الاطلسي يضمن قيامها بالمهمات التي كانت ملقاة على عاتقها في اطار الحلف المركزي ·

وهكذا اسفرت الثورة الايرانية عن خسارة الولايات المتحدة للجدار الواقـي الذي يحد الاراضي السوفياتية من الجنوب ، وضياع قواعد الرصد والانـــذار الالكتروني المنتشرة على الحدود الشمالية لايران وباكستان ، والمعدة للتعـاون مع الاقمار الاصطناعية في التجسس على السوفيات ، ومراقبـــة تجاربهـــم العسكرية التقليدية والنووية والتزامهم بتطبيق اتفاقية « سالت ـ ١ »، والمشاركة في الرصد والانذار المبكرضد الهجمات السوفياتية الصاروخية والجويةالمفاجئة·

٢ ـ التأثير على ميزان القوى الدولي

لا تزال هوية مجتمع ما بعد الثورة الايرانية غير محددة بدقة · ويرجع ذلك الى ان الزخم الجماهيري الكبير الذي اسقط نظام الشاه كان يعمل تحت لـواء قيادات متعددة الاتجاه وتضم رجال الدين والليبراليين والاحزاب اليساريـــة الراديكالية · وكانت هذه القيادات التي تحمل ايديولوجيات متباينة ، متفقـــة على معاداة الاستعمار ، ومصممة على اسقاط النظام القديـــم المشبع بالفساد

والديكتاتورية والتبعية السياسية ـ الاقتصادية · ولكن سرعة سقوط النظـام جعلت القوى المشاركة في اسقاطه تنتقل من مرحلة تفجير الثورة الى مرحلـة استلام السلطة وبناء المجتمع الجديد دون المرور في مرحلة الجبهة الوطنيـة ، وقبل وضع برنامج جبهوي يحدد هوية هذا المجتمع بعد انتصار الثورة · ومـن هنا جاء التباين في المفاهيم والاساليب ، منذ الايام الاولى للعهد الثوري ·

ولقد ادى تعاطف الجماهير الواسع مع الزعماء الروحيين ، وحجم المشاركة التي قدمها هؤلاء الزعماء خلال مراحل النضال ضد الشاه ، الى اعطاء النظام الجديد طابعاً دينيا · مع بقاء قوى اليسار الراديكالي في الصورة ، وتراجـع الليبراليين الى الصف الثالث · ولكن الهوية الاجتماعية النهائية للحكم لـم تتوضح بعد · وهذه مسألة داخلية يبقى تحديدها من مهمـات الشعب الايراني· ونترك دراستها وتحليلها للباحثين المختصين بالتيارات السياسية داخل المجتمع الايراني · والمهم بالنسبة الى موضوعنا هو تأثير هذه الهوية على ميزان القوى الـدولي ·

ان من الامور المتفق عليها من قبل المراقبين، ان القيادتين الدينية والراديكالية معاديتان للامبريالية الاميركية · لذا فان خروج ايران من فلك الدول الدائرة في فلك المعسكر الغربي ، امر واقع سواء بقيت السلطة بيد التيار الديني ام انتقلت الى يد ممثلي التيار الراديكالي اليساري · وهذا يعني ان المعسكر الغربي قـد خسر جزءا هاما من القوة التي كانت تعزز موقعه الاستراتيجي (الاقتصادي ـ السياسي ـ العسكري) ·

ويعتبر الاتحاد السوفياتي هذه الخسارة ربحا له ، على اعتبار انها تمثـل اقتطاعا من قوة الخصم · ولكن هذا الربح يدخل في باب الربح السلبي ، لان القوة المقتطعة من كفة الخصم لم تنتقل الى كفته ، خاصة بعد ان اعلنت الثورة الايرانية عن موقفها المحايد بين الدولتين الاعظم ، وقررت الانضمام الى دول عدم الانحياز ·ولا شك في ان واشنطن التي اذعنت امام خسارة ايران ، تفضل ان يبقى توجه الثورة نحو عدم الانحياز قائما ، حتى يظل الربح السوفياتي سلبيا · في حين تفضل موسكو بالتأكيد انتقال السلة الى القوى الراديكالية اليسارية ، على اعتبار ان هذا الانتقال سيؤدي الى تحويل الربح السلبي الى كسب ايجابي·

من هذا المنظور يمكن تصور حجم المحاولات التي ستقوم بها الدولتان الاعظم في السنوات المقبلة للتدخل في مسألة ايرانية داخلية (اختيار هوية النظـام الجديد) ، نظرا لما تمثله هذه المسألة من تأثير على موازين القوى بينهما ، كما يمكن تصور حدة النزاع الذي ينتظر اندلاعه على الارض الايرانية بتحريض من مراكز القوى الخارجية ، وحالة عدم الاستقـرار التي سيشهدها المجتمـع الايراني ، اذا لم يتم التوصل الى اتفاق القوى الفاعلة في الثورة على برنامـج

جبهوي متوازن يحدد صورة الجمهورية الايرانية المستقبلية ، بوجهيها الداخلي والخـارجي ٠

٣ ـ الطوق الاستراتيجي حول اسرائيل

تبنت الدولة الصهيونية عقب العدوان الثلاثي على مصر (١٩٥٦) ، سياسة اقليمية تتمثل باقامة علاقات وثيقة وغير معلنة غالبا مع دول الشـرق الاوسط غير العربية (تركيا ، الحبشة ، ايران) المرتبطة مع الغرب ،والمعارضة قوميـا ومصلحيا لنهضة الامة العربية ٠ وكانت غايتها من هذه السياسة تطويق الطوق العربي المضروب حولها ، والافادة من تطويق التطويق لتخفيف آثـار التطويق العربي النفسية والاقتصادية والسياسية على الاقل ٠

ولكن العلاقات التركية تراخت مع الزمن بسبب التطورات التي شهدتها بنية الفئات الحاكمة في أنقرة من جهة ، والازمات التي مر بهـا الحلف الاميركـي ـ التركي من جهة اخرى ٠ ولم يعد من الممكن في اواخر السبعينات ملاحظة اي أثر للاتفاق السري الذي عقده دافيد بن غوريون مع عدنان مندريس في اواخـر الخمسينات ٠ ومع سقوط هيلا سلاسي اهتزت الروابط الاثيوبية ـ الاسرائيلية ٠ ولكن الاسرائيليين حافظوا على مواقعهم في الحبشة الى ان قام هيلا منغستـو مريام بطردهم نهائيا في العام ١٩٧٧ ٠ وهكذا لم يبق من حلفاء الخمسينـات سوى النظام الشاهنشاهاني ، الذي أقام مع اسرائيل علاقات اقتصادية متينة ، وتعاون معها في جميع المجالات الامنية (تدريب الطيارين ، تبـادل الخبرات ، تبادل المعلومات الاستخبارية (١) ٠ وبسقوط الشاه انهارت آخر حلقات سياسة اسرائيل الاقليمية ٠ وانتهى تطويق التطويق ٠ وخسرت الدولة الصهيونية آخر حلفائها غير العرب في المنطقة ٠

ولقد كانت خسارة اسرائيل للحليف الايراني مزدوجة ٠ لان قادة الثورة لم ينقلوا ايران من حالة التحالف مع اسرائيل الى حالة الحياد ، بل نقلوها مـن حالة التحالف الى حالة العداء ٠ الامر الذي جعل المعسكر العربي المقاوم يربح مرتين : مرة عندما خسرت الدولة الصهيونية قوة حليفة ، واخرى عندما انضمت هذه القوة الى معسكر حركة التحرر العالمي ، المعادي للامبرياليـة العالميـة وامتداداتها المحلية ، ومن بينها اسرائيل ٠ وهذا ما يفسر قلق اسرائيل مـن

---

١ ـ ذكرت وكالات الانباء في ١٩٧٩/٣/١ ، نقلا عن رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات ، أنه تم العثور خلال وجوده في ايران على وثائق في مقر البعثة الاسرائيلية تدين حكومات الشاه السابقة ، وتشير الى ان هذه الحكومات كانت تقوم بعمليات تجسس في دول الخليج لصالح اسرائيل ٠

الوضع الايراني الجديد ، وحملتها العنيفة على الاسلوب الذي عالج به الشاه الازمة الثورية منذ بدايتها ، وتنديدها بالامبراطور الذي لم يستطع الحفاظ على عرشه (٢) ٠

وبانضمام الثورة الايرانية الى حركة التحرر العالمي ، يبدأ عهد جديد في الصراع ضد الغزوة الصهيونية ٠ ومن ملامح هذا العهد انضمام دول غير عربية الى الطوق المضروب حول اسرائيل ٠ ولقد كانت اثيوبيا منغستو مؤهلة لافتتاح هذا العهد قبل ايران ٠ ولكن انشغال الحكم الاثيوبي بمعضلات الصراع مع قوى عربية (الصومال ، اريتيريا) القى الكثير من الظلال على امكانات التعاون العربي ـ الاثيوبي ضد اسرائيل ٠ في حين ان الثورة الايرانية غير مشتبكة في اي صراع مع العرب ، ولا ترغب في مثل هذا الاشتباك (بدليل تخليها عن دور الدركي الخليجي الذي كان يلعبه الشاه ضد الدول العربية النفطية) وهذا ما جعلها قادرة على افتتاح العهد الجديد ٠

ونظرا لان الايديولوجية السائدة الآن في قيادة الثورة الايرانية هي الايديولوجية الاسلامية ، فقد كان من الطبيعي ان تتجه الافكار نحو احتمالات انشاء طوق اسلامي يعزز الطوق العربي الذي حمل عبء المجابهة منذ بداية الغزوة ٠ والحقيقة ان جماهير العالم الاسلامي كانت تتعاطف دائما مع النضال العربي ضد الصهيونية ٠ الا ان الانظمة الحاكمة في الدول الاسلامية كانت مرتبطة بالامبريالية الاميركية ، ولا تستطيع الخروج عن سياساتها او العمل ضد مصالحها ٠ لذا كان في طليعة اهتماماتها منع تجسيد هذا التعاطف الجماهيري ، والحد من ديناميكيته ، وسد السبيل امام تحوله الى وزن استراتيجي مضاد لاسرائيل ، ومتعارض بالتالي مع السياسة الاميركية العليا ٠

ولا ينطبق هذا القول على الدول الاسلامية غير العربية فحسب ، بل ينطبق ايضا على عدد من الدول الاسلامية العربية ، التي رفعت لواء معاداة اسرائيل من منطلق قومي وديني ، ولكن مصالح الفئات الحاكمة فيها ، وارتباطاتها التحالفية مع الولايات المتحدة ، جعلت اطار عدائها مقصورا على الدولة

---

٢ ـ كتب أحد الخبراء الاسرائيليين ممن كانوا يعملون في ايران : « انه كان على الشاه ليحافظ على عرشه ، أن يأمر الدبابات والرشاشات بفتح النار على الجماهير ، وان يرسل زعماء الاضراب الى ساحات الاعدام ، وان يعطي شرطته السرية وعملاءه حرية عمل واسعة » (هآرتس ١٠/١/١٩٧٩) ٠ ويذكر اسحق رابين ان سبب سقوط شاه ايران يكمن في « الديموقراطية المفرطة » ، وهو يرى « ان قيام حكومة كارتر برفع لواء حقوق الانسان ، كان بمثابة اطلاق طلقة الخلاص على الشاه ، الذي اضطر تحت ضغط الولايات المتحدة الى اعطاء الحرية للصحافة والحياة السياسية في تشرين الثاني ١٩٧٧ ٠ الامر الذي ادى الى ضياعه » (يديعوت أحرونوت ١٢/١/١٩٧٩) ٠

الصهيونية ، ولا يمتد الى القوة العالمية الكبرى التي اوجدتها ودعمتها وجعلتها قادرة على قهر العرب واغتصاب الاماكن الاسلامية المقدسة ، وجعلت حدة هذا العداء محكوما بسقف عدم التصادم مع واشنطن ٠

ولكن انتصار الثورة الايرانية أوجد دولة اسلامية من نوع جديد ٠ واهم ما يميزها عن النماذج الاسلامية الاخرى (العربية وغير العربية) ، هو أن قادتها معادون أساسا للامبريالية التي استغلت الثروات الايرانية ، وعززت حكم الشاه التعسفي ، وحاولت تغريب الشعب الايراني وانتزاعه من جذوره وتجريده من هويته ٠ ومن عدائهم للامبريالية جاء عداؤهم لافرازاتها وامتداداتها ورؤوس جسورها ، ومن بينها اسرائيل وروديسيا وجنوبي افريقيا ، رغم أن هذه الدول لم تعتد على ايران ولم تحتل أراضيها ٠ من هذه الزاوية يمكن اعتبار موقف النظام الثوري الاسلامي في ايران متقدما على مواقف الانظمة الاسلامية غير العربية ، ومتقدما أكثر وأكثر على مواقف عدد من الانظمة الاسلامية العربية ٠

انطلاقا من هذا الموقف المبدئي تخلت الثورة الايرانية عن دور دركي الخليج ، وأمرت بسحب القوات التي كان الشاه قد أرسلها الى عمان لدعم السلطان قابوس واخماد الثورة في ظفار ٠ وانطلاقا من الموقف نفسه أعلن رئيس الاركان الايراني الجنرال محمد قرني في ١٩٧٩/٣/٣ : « ان الثورة جعلت من ايران دولة مجابهة مع اسرائيل» ٠ وبرر قرار حكومته الخاص بسحب الوحدة الايرانية (٣٩٠ رجلا) من قوة حفظ السلام الدولية العاملة في الجولان بقوله : « ليس من المنطقي أن تعمل القوات الايرانية كحاجز بين العرب واسرائيل ، في حين أننا نعتبر أنفسنا دولة مجابهة مع اسرائيل جنبا الى جنب مع الدول العربية » ٠

وبتحليل الموقف الايراني الجديد يمكن القول انه عبارة عن انهيار ركيزة من ركائز الخط الثالث وتوجه نحو تطويق الركيزة الثانية (اسرائيل) ٠ وفي هذا المجال لا بد لنا من ان نذكر بأن الدولة الصهيونية (على عكس الولايات المتحدة) لا تهتم كثيرا بهوية النظام الثوري ٠ لان هذا النظام سيكون معاديا لها سواء حمل الطابع الاسلامي أم اليساري الراديكالي ٠ سيبقى قوة تردف المعسكر المقاوم العربي مع ما يعنيه ذلك من نتائج أهمها :

☐ ضياع فرص التعاون العسكري بين ايران واسرائيل ٠

☐ تحرير العراق من الهاجس الامني على حدوده الشرقية وفي منطقة الشمال ، بشكل يجعله قادرا على حشد قوى أكبر في بؤرة الصدام مع العدو الصهيوني ٠

☐ حرمان اسرائيل من مصدر نفطي كان يغطي في عهد الشاه ٥٠ ـ ٦٠ ٪ من حاجاتها النفطية ٠

□ خسارة السوق الايرانية التي كانت تمتص جزءا كبيرا من المنتجات الاسرائيلية الصناعية والزراعية ، وتفتح المجال أمام الاستثمارات والمشاريع ٠

□ قدرة ايران على استقطاب بعض الدول غير العربية في المنطقة داخل حلف معاد للصهيونية يعزز المعسكر العربي المقاوم ٠

□ ديناميكية العامل الديني (في حالة بناء الجمهورية الاسلامية) ، وقدرته على تحريك الجماهير التركية وتشجيعها على احداث انقلاب جذري يوقف رحلة التغريب التي فرضتها عليها الفئات الحاكمة ، ويضعها في صف القوى المعادية للامبريالية والصهيونية ٠

□ الاحراج الذي يسببه الموقف الايراني للدول العربية المتردده او المؤيدة لمبادرة السادات ٠

□ انضمام قوة عسكرية كبيرة الى المعسكر العربي المقاوم ٠

ورغم اهمية كل النتائج المذكورة ٠ فان النتيجة الاخيرة تبقى اهمها على الاطلاق ٠ وهنا لا بد من الاشارة الى ان القوات الايرانية ، التي بناها الشاه لتكون قوة تدخل مؤهلة للانتقال الى ما وراء الحدود وقمع التحركات الشعبية داخل امبراطوريته الواسعة ، عبارة عن قوات تتمتع بمرونة كبيرة وقدرات حركية عالية ، وتمتلك قوة النار والصدمة للحرب الحديثة ٠ الامر الذي يجعلها مؤهلة (من ناحية المبدأ) للانتقال السريع الى بؤرة الصراع مع العدو الصهيوني ، وتشكيل اضافة كمية ونوعية تبدل موازين القوى ٠

ولكن الهزة التي تعرضت لها هذه القوات افقدتها عمليا جزءا كبيرا من تماسكها وانضباطها وجاهزيتها القتالية ، كما ان تصفية الكوادر المؤيدة للشاه، وابعاد كبار الضباط المحترفين (ومعظمهم من البهائيين) حرما الاداة المسلحة من كفاءات مهنية لا يمكن تعويضها بسرعة ٠ وبالاضافة الى ذلك ، فان الانسحاب السريع للخبراء الاميركيين الذين كانوا يساهمون في عملية استيعاب الاسلحة والمعدات المتطورة ، واحتمال تناقص قطع الغيار الاميركية ، سيؤديان بالضرورة الى انخفاض الجاهزية التكنولوجية للجيش الايراني ، خاصة وان معظم الاسلحة والمعدات التي اشترتها ايران في السنوات الاخيرة كانت اميركية الصنع ٠

ومن المؤكد ان بوسع ايران تجاوز كل هذه المعضلات ذات الطابع التكنولوجي٠ ولكن عملية التجاوز تتطلب الاستقرار واعادة بناء الجهاز العسكري من اساسه خلال فترة زمنية غير قصيرة ٠ وعلى هذا فان اشتراك ايران في الصراع الجدي ضد اسرائيل ، بقوات كبيرة فاعلة ، مرهون باعادة البناء ٠ وبانتظار هذه المهمة، تبقى الثورة الايرانية قادرة على تقديم الدعم لقوى المعسكر العربي المقاوم ،

بشكل يعزز قدرات هذا المعسكر الدفاعية ، ويقوى طوق الحصار المفروض على الدولة الصهيونية ، رغم الثغرة الواسعة التي فتحتها المعاهدة المصرية ـ الاسرائيلية في هذا الطوق ، ويبدل الى حد ما ميزان القوى على ارض المعركة دون ان يؤدي الى قلبه ٠

٤ ـ دركي جديد وتحالفات جديدة

كانت المباحثات المصرية ـ الاسرائيلية تسير قبل انتصار الثورة الايرانية بوتيرة متباطئة ، رغم اهتمام الادارة الاميركية بالوصول الى اتفاق ما ، والحاح الرئيس كارتر على ضرورة حل الخلاف وتجاوز العقبات ٠ وكان الاسرائيليون يناورون على اساس ان الزمن يعمل لصالحهم ، وان الرئيس المصري مضطر لتقديم التنازلات في النهاية ، بعد ان حدد بنفسه عدد وسعة الخيارات المتاحة امامه ٠ وبسبب هذا التباطؤ ، مضى الموعد المحدد لتوقيع الاتفاق (١٩٧٨/١٢/١٧) دو نان يتوصل الطرفان الى مخرج مناسب ٠

وفجأة تبدل كل شيء ، وغدا كارتر اكثر الحاحا ، واصبح السادات وبيغن اشد استعدادا للتفاهم ، وظهرت في الكتابات الاسرائيلية جملة « الزمن لم يعد لصالحنا » ٠ ولقد جاء هذا التبدل السريع في المواقف كنتيجة مباشرة لسقوط الشاه ، الذي ادى الى انهيار الخط الدفاعي الاول وتضعضع الخط الدفاعي الثالث كما ذكرنا ، وتهديد استقرار الخط الثاني (الدول العربية التقليدية) بشكل جدي ، نظرا لامكانية انتقال العدوى الثورية من ايران الى هذه الدول ٠

والجدير في الامر هو ان اندفاع الاطراف المعنية بالاستقرار نحو تسريع التفاهم المصري ـ الاسرائيلي لم يعد يستهدف جعل هذا التفاهم منطلقا لبناء المنطقة المتجانسة ، بل اصبح هدفه محصورا بجعل التفاهم نقطة ارتكاز لخط دفاعي استراتيجي جديد ، يوقف زحف عدوى التغيير من الشمال الى الجنوب ، ويحمي منابع النفط والمصالح الاميركية الاخرى من الضياع ٠

ولقد وعى السادات وبيغن هذه الحقيقة ٠ ولما مدى اهتمام واشنطن ببناء الخط الدفاعي الجديد وحاجتها الملحة لدركي يحل محل الشاه ، كما أحسا بخطورة رياح التغيير القادمة من الهضبة الفارسية على مواقعهم ، فعرضا على وزير الدفاع الاميركي براون خلال زيارته للمنطقة (١٣ ـ ١٨/٢/١٩٧٩) استعدادهما لتذليل العقبات التي تعرقل توقيع الاتفاق ٠ وأعرب كل واحد منهما عن استعداده للعب دور الدركي مقابل الحصول على مساعدات اقتصادية وعسكرية كبيرة ٠

الاستعداد للهجوم المعاكس

استنادا الى هـذا الواقـع ، زار الرئيس كارتر المنطقة في ١٩٧٩/٣/٨ ، وأمضى فيها ٦ أيام وضع خلالهـا اللمسات الاخيـرة على الاتفـاق ، وساوم الطرفين على الثمن المطلوب ، وحدد لكل من ركيزتي خط الدفاع الجديد مهماتها المستقبلية · ولقد استطاع الرئيس الاميركي خلال أيام حل معضلات تعذر الاتفاق عليها خلال شهور طويلة · ومن المؤكد ان كارتر لم يحمل معه وصفة سحريـة ساعدته على النجاح ، ولكن شبح الامام الخميني كان ماثلا امام الجميع خـلال الزيارة · وهو الذي دفع السادات وبيغن الى العناق ، ودفعهما الى الاتفـاق على توقيع معاهدة « السلام » في ١٩٧٩/٣/٢٦ ·

وبعد نجاح كارتر في مهمة التوفيق ، لم يبق امامه سوى اجتذاب السعودية الى المشاركة في الخط الدفاعي · على اعتبار ان مثل هذه المشاركة ستجعـل الدول العربية التقليدية مستعـدة للسير في السبيل نفسـه · ولكـن معارضـة السعوديين لاى تحالف مع اسرائيل ، جعل الادارة الاميركيـة تكتفـي بموافقـة الرياض على المعاهدة المصرية ـ الاسرائيلية ، او عدم معارضتها على الاقل ·

ويمكن اعتبار زيارةزبيغنيو بريجينسكي مستشارالرئيس الاميركي للامن القومي للسعودية والاردن في ١٧ ـ ١٩٧٩/٣/١٨ ، وتصريحات المسؤولين الاميركيين حول استمرار الدفع الاميركي للوصول الى الحل الشامل ، والتلويح بخطـر « المد الشيوعي » ، وعرض فكرة اقامة « تعاون وقائي » بين واشنطن والرياض ، وتصريحات وزير الخارجية الاميركية سايروس فانس حول استعداد الولايـات المتحدة للقتال اذا تعرضت السعودية لهجوم ، جزءا مـن الحملـة السياسية ـ الاعلامية التي بدأتها الادارة الاميركية للحصول على « حياد » الرياض وعمـان تجاه المعاهدة المصرية ـ الاسرائيلية ·

ولكن هذه الحملة تمت في ظروف غير مناسبة ، ووسط شك حلفاء الولايـات المتحدة بمصداقية تعهداتها (تايوان ، ايران) ، وقناعتهم بزوال اهمية التحالف معها · ولا يمكنها بالتالي التأثير على الدول العربية التقليدية وتليين موقفهـا ، الا اذا برهنت الاحداث المقبلة عمليا على نجاح الولايات المتحدة في الضغط على اسرائيل لاجبارها على الانسحاب على جميع الجبهات ، والاعتراف بحق شعـب فلسطين في تقرير مصيره ، الامر الذي قد تسعى الادارة الاميركية الىتحقيقـه لتخفيف عوامل عدم الاستقرار الى الحد الادنى · ولكن السعي لا يعني بالضرورة تحقيق النتائج ·

ان توقيع المعاهدة المصرية ـ الاسرائيلية يشكل خطوة علىطريق اعادة فرز دول المنطقة استراتيجيا (دول الوضع الراهن المرتبطة بالامبريالية ، ودول التغييـر

المعادية للامبريالية) · وهو في الوقت نفسه الرد الاميركي الاول على انضمام الثورة الايرانية الى قوى التغيير وتخليها عن دور الدركي · واذا كانت الثورة الايرانية قد ادت الى حصول خرق في خطوط الدفاع الاميركية عن منابع النفط العربية ، فان المعاهدة هي التدبير الوقائي لسد الخرق وبناء خط دفاعي جديد · ولكن سد الخرق لا يمثل سوى مرحلة دفاعية تتبعها عادة مرحلة الهجوم المعاكس الذي سيستهدف في هذه الحالة ضرب قوى التغيير الاساسية في المنطقة (سورية، العراق ، ايران ، الثورة الفلسطينية) ، وهذا ما يجعل تعزيز مواقع قوى التغيير ضرورة امنية من الدرجة الاولى ·

ويحاول الاميركيون اعطاء المعاهدة صفة سلمية · ويركزون على انها لا تستهدف سوى التهدئة وتأمين الاستقرار · ولقد برهنا على خطأ هذه المقولة ، واثبتنا ان لا علاقة للمعاهدة بالاستقرار ، وان هدفها الوحيد هو تعزيز الدفاع استعدادا للانتقال الى الهجوم · وبما ان الهجوم يتناقض مع الاستقرار ، فان بالامكان اعتبار المعاهدة عاملا جديدا من عوامل عدم الاستقرار ·

وهناك عنصر آخر يدفعنا الى التأكيد على مسألة عدم الاستقرار · ويتمثل هذا العنصر في رد الفعل السوفياتي على التحالفات التي تعقد في المناطق المجاورة له · فلقد برهنت الحرب الكمبودية التي اعقبت التحالف بين بكين ونظام بول بوت، على ان موسكو مستعدة للرد بعنف على مثل هذه التحالفات الاستفزازية · فهل يمكننا بعد ذلك كله اعتبار المعاهدة المصرية ـ الاسرائيلية ، بكل ما تمثله من استفزاز ، عملا تهدئويا كما يقول الاميركيون ؟

□

ان نتائج الزلزال الايراني تتجاوز حدود ايران الى المنطقة بأسرها · وتؤثر في الوقت ذاته على ميزان القوى العالمي · ولقد هز هذا الزلزال حتى الآن مرتكزات السياسية الاميركية · وقد ينجم عنه تغيرات جذرية تؤدي الى تصفية التهدئة القسرية التي فرضها الاستعمار القديم على شعوب الشرق الاوسط ، ثم تابع الاستعمار الجديد لفرضها بأساليب اخرى ، كما قد ينجم عنه هجوم امبريالي معاكس (بقوى مصرية ـ اسرائيلية) يعيد التهدئة القسرية الى ما كانت عليه· والاحتمالان مفتوحان بشكل متساو، ولا يقرر النتيجة النهائية سوى ميزان القوى العملي بين قوى التغيير وقوى الحفاظ على الوضع الراهن ، وقدرة قيادات الطرفين على استخدام هذا الميزان ·

الياس خوري

الثورة الممكنة :
وكان كل شيء يريد أن يبدأ جديداً

١ ـ

كان ذلك في الخامس من حزيران ١٩٦٣ · صرخة الخميني تدوي وهو في سجنه ، والجماهير الايرانية تحتل الشوارع والساحات · والرصاص يعلو · وقيل انه استشهد في ذلك اليوم حوالي خمس عشرة الف مواطن · كان الجيش الذي بناه الاجانب يعربد في الشوارع كجيش احتلال · كانت ايران محتلة في ذلك اليوم الاسود · الخميني في السجن والايدي تواجه الدبابات والبنادق · وكان الدم يسيل في الطرقات كشلال غضب · والاحرار في السجون التي بنيت فوق الارض وتحت الارض ·

لكن الخميني قال له : « ايها الشاه ، لعلك تجهل كيفية اضطراب الاوضاع عندما تدوي الصرخة في يوم من الايام ، اجل ، فاذا ما دوت الصيحة لن تجد احدا ممن يلتفون حولك اليوم رفيقا او نصيرا · فهؤلاء هم اصدقاء الدولار ، ولا يؤمنون بدين وليسوا بأوفياء ، وانما هم يسعون لالقاء المسؤوليات على عاتقك انت ايها المسكين » ·

لكن المسكين المتوحش كان قد سكر من نفطه ومن دماء شعبه· كان يحلم بابادة الامة من اجل ان تحيا العظام النخرة التي اسمها الامبراطورية· كان قد استسلم الى اسياده الاميركيين ·

خرج الخميني شريدا · من تركيا الى النجف الى نوفل لوشاتو · دار

الخميني شريدا حول العالم · حوله كلماته والايدي التي قطعت والاجساد التي تطالب بالثأر ·

دار الخميني حول الارض · دار طويلا · وقيل انه كان يتكلم ويدعو · وقيل ان شهداء المدرسة الفيضية التي اغتصبها رجال السافاك قبل طرده كانوا حوله، وقيل اشياء كثيرة ·

لكن الخميني كان يدور حول عدوه · دار ثلاثا وقيل اكثر · خـرج وهو لا يحمل على جسده سوى عباءته · خرج فقيرا ، ليس معه سوى اصابعه التـي تشير الى القتلة الذين كانوا يقتلون ·

وكانت ايران لا تشبه غير نفسها · شمس الآريين الشاحبة بالنيون تشرق على ظلامها الذي يشبه ظلام السجون التي اكتشفت والتي لم تكتشف ·

وحين عاد ، محمولا على صوته الذي كان يوزع في الاف اشرطة التسجيل ، كان الشاه قد خرج ذليلا مع زوجته وكلبه · يبحث عن ملجأ بعد ان ارتفـع الزلزال فبدأ يكسر كل شيء · كان الشاه يكتشف ان شمسه التي اسماها شمس الآريين تذهب وتذوب كما الشمع امام وجه النار ·

عاد الخميني واكتشف العالم كيف ينبع الناس من التراب · كان تراب ايران يتشقق عن الوجوه التي تأتي ولا يعلم احد من اين جاءت ولا كيف نبتت · كأن التراب يصير بشرا · او كأن البحر قد انتقل الى اليابسة ، فاختلطت الرؤوس بالمياه التي تدفقت ·

وقيل انه نام في الطائرة · وقيل انه عندما هبط السلم الذي يصله بالارض كاد يبكي ، لكنه رفع يده فارتفعت ملايين الايدي· خرج وحوله دائرة من حوالي خمسين الف رجل من الشرطة الاسلامية · كانوا كدائرة لا تنكسر · ثم حصل شيء ولم يعد احد يفهم · انكسرت الدائرة من حوله · فالدائرة لم تحتمل بعدها عنه · جاءت اليه والتصقت به · بدأ رجال الشرطة الاسلامية يفقدون قدرتهـم على التماسك ويسعون ، للوصول اليه · فعاد بطائرة الهيلكوبتر · وتوقف في مقبرة « بهجت الزهراء » ، وقال هذا الحكم غير شرعي · قالها امام القبور · امام الرجال الذين خرجوا بأكفانهم يواجهون سلطـة الشاه وجيشه · وذهب الى غرفة فقيرة ، لا يوجد فيها غير سجادة للصلاة · شكل حكومته وانفجـر البركان · فتداعت السلطة الاميركية كعملاق من طين · وانهمر الماء على ربيـع طهران وقد خرجت تثأر لمصدق وعبد الناصر ·

من ١٥ خرداد يوم المذبحة المجنونة الى المذابح التي حولت ايران الى ذبيحة، كان الشعب يقاتل ببطء وصبر · السجون تمتلىء برجال من مختلف الاعمار · من الطالقاني الى منتظري الى بازركان الى آخره · مئات الآلاف في السجون

وعشرات الملايين خارجها · والصلوات تختلط باصوات طلقات الرصاص الخافتة · كل شيء ينحني ما عدا المآذن التي تقاوم والبنادق التي تتعلم اطلاق النار · سيل من الاعدامات المجنونة ، الاف من المشردين · والاف من الذين خرجوا كي يعودوا الى ايران عن طريق فلسطين · يتعلمون كيف ان المعركة الواحدة تصير في قتال واحد · ويقاتلون الحصار الذي فرض منذ ان عادت الحروب الصليبية وقد لبست ثياب التقدم الحضاري ، ففتكت وابادت وسحقت الشعوب وثقافاتها ·

حاربوا الشعب بكل الوسائل وعلى مختلف الجبهات · ضربوا الانتاج المحلي وسحقوه · حولوا ايران الى برميل نفط يضخ الى ما لا نهاية · اقاموا اصلاحا زراعيا اسود وسموه الثورة البيضاء · ضربوا كل اشكال التمثيل الاجتماعية التقليدية وشبه التقليدية · صفوا منجزات الثورة المشروطية ومنجزات ثورة مصدق · واقاموا سلطة على المجتمع من خارج كل علاقاته · سلطة تقوم على التوحش المطلق والارهاب المطلق · ضربوا الثقافة الوطنية وصار كل شيء لا يشبه الغرب او يقلده بشكل اعمى هو الرجعية · وحدوا ايران بعد ان حاولوا تفتيتها ، ليس لانهم مع الوحدة ، بل لانهم ارادوها قلعة عسكرية تشارك في حصار الاتحاد السوفياتي ، ثم في فرض التجزئة على العرب ··

لكن السلطة الخارجية كانت كقشرة على جلد المجتمع · كانت كقشرة جراحات الجسد التي لا بد وان تتساقط عندما تستطيع اليد ان تحك جراحاتها · وعندما امتدت اليد ، تهاوت السلطة وكأنها لا تستطيع المقاومة · تهاوت اميركا كحيوان متوحش دخل في الكهولة ·

وكان المسار الثوري طويلا · عشرون عاما من الانتفاضات التي لا تتوقف · عشرون عاما والبياض يغزو الرؤوس ، لكن المآذن لا تنحني والبنادق تتزايد والايدي ترتفع ·

وفي ١١ شباط ١٩٧٩ ، تساقط كل شيء · هرب حارس النظام الاخير السيد شاهبور بختيار من الباب الخلفي ، واستقال جميع اعضاء مجلس النواب ، وامتلأت الشوارع بالاف البنادق التي تحاصر الثكنات ، الجنود يخلعون ملابسهم العسكرية ويبكون · المليشيا المسلحة تملأ الشوارع ·

وقيل انه كان هادئا في تلك الليلة ·

وقيل انه قال هذه الحكومة غير شرعية ·

وقيل ان الاموات خرجوا من بهجت الزهراء في مسيرة طويلة ، فامتلأت شوارع طهران بالادعية التكبير ، وسقط كل شيء · وكان كل شيء يريد ان يبدأ جديدا ·

ـ ٢

كانت الطائرة تحلق فوق سماء ايران ، الانتظار لا يجيب ، وحولنا طائرات الفانتوم • شيء من الخوف وشيء من الرهبة وكثير من الانتظار • ثم حين لوح قائدة طائرة الفانتوم بيده ورفع شارة النصر ، ارتفعت الحناجر في الطائرة التي بدأت تهبط • وحين نزلنا من سلم الطائرة ، كان رجال بملابس عسكرية وبملابس شبه عسكرية يحيطون بنا • ارتفع صراخ الله اكبر حين لمحوا عرفات وكأن البنادق هي التي تصرخ وقد بح صوتها من شدة الصراخ • هبط عرفات وصحبه السلم وهم يرفعون شارة النصر • كان كل شيء من حولنا يبكي • سمعنا الرجال يبكون والزجاج يبكي من شدة انفعاله فسقط على الارض وتحطم •دخلنا ولم نكن نصدق ، هذه هي فلسطين • لماذا تبدو فلسطين دائما اكبر من فلسطين• كان المسلحون يقولون بأننا نحن فلسطين وكنا نشعر أن فلسطين هي اكبر من الاجساد واكبر من الحناجر • كانت تمتد في شوارع طهران ، كما تمتد في كل شوارع العالم ، اشارة على الحزن والغربة والاجساد التي تنفجر بموتها وتموت كالضحايا في الفجر الذي يشرق بطيئا ، الشعور نفسه ، هكذا نكون في كل الشوارع التي يمتد بها موتنا • نفاجأ بفلسطين ، وننسى جراحاتنا وتعبنا واحزاننا ، وحين نريد ان نقول شيئا يسبقنا البكاء •

دخلنا الى مدرسة علوي حيث مقر الخميني • كان المسلحون ورجال الدين الشيعة بعمائمهم السوداء والبيضاء يحيطون بنا من كل جانب ، والصراخ واحد لا يتغير : الله اكبر • هذه هي كلمة السر التي اشعلت الانتفاضة كما اخبرونا بعد ذلك • وهذه هي كلمة السر التي تستقبل فلسطين •

كيف نصف مدرسة علوي •

شيء يشبه الكتب التي قرأناها صغارا بخشوع ولم نفهمها ، لكننا شممنا رائحتها • غرف فارغة ، لا اثاث ولا شيء سوى سجاد ممدود على الارض • نخلع الحذاء وندخل • رجال يذهبون ويدخلون •• حركة دائمة • تلفونات على الارض • السيد احمد الخميني نجل الامام الخميني يجلس معنا على الارض ، ثم يأتي آية الله منتظري ، ورجال في عمائم ودون عمائم • يأتون ، يسلمون ، يقولون اشياء كثيرة نفهم منها أنهم معنا واننا معهم • ثم نذهب الى المطعم الذي يقوم في الطبقة الارضية من المبنى • نجلس وراء طاولات خشبية والى جانبنا وحولنا تجلس عشرات الكوادر الثورية من لجنة الخميني في طهران • نأكل الرز الممزوج بالعدس • وعلى جانب الصحن قليل من التمر • هكذا نأكل نحن وهكذا يأكل الجميع • التقشف الكامل ، حيث لا مظاهر سلطة • التقشف الاولي الذي يرد على البذخ وفجور الاستهلاك الذي جاءت به الحضارة الرأسمالية المتعفنة • ثلاث طبقات في المبنى • والمبنى كالخلية الدائمة الحركة ، التي تقع

في طهران الجنوبية الفقيرة · دائما يكون الفقر في الجنوب · شمالي طهـــران وجنوبها ، شمالي العالم وجنوبه · وفلسطين هي جنوب فقير يمتزج بهذا الجنوب الفقيـــر ·

المسلحون ينتشرون في ملعب المدرسة الفسيح · ونحن ننتشر في المبنى، نحاور الرجال الذين صنعوا هذه البداية · وهم يجيبون بعفوية من اعتاد هذا النصر الجارف · هنا نجد النصر وقد خلع مفاجأته وانتشرت اسراره حتى فقـــدت سريتها · قبل الذهاب الى مدرسة علوي كنت اعتقد اننا نستطيع ان نعتاد كل شيء · نعتاد الموت ونعتاد الحرب ونعتاد الهزائم · لكنني فوجئت هنا بـــان الانسان يستطيع ان يعتاد نصره · نسمع القصص عن الثورة ببساطة الموت الذي انتشر في سماء طهران طويلا ·

نجلس مع الشيخ صادق الخلخالي · يحدثنا عن فلسطين ونحن نسأل عـن ايران · يحدثنا عن محاكمة الجنرالات الاربعة الذين اعدموا · قائد السافـاك الجنرال نصيري ، المسؤول عن عشرات آلاف الجرائم يعترف بملكيته لاربعـة قصور · يتنصل من معرفته بارتكاب الجرائم ويتهم الشاه · الجنرال خسروداه، قائد القوى الجوية ـ البرية يعترف بتهريب اربعين طائرة ايرانيـة خـارج البلاد · ويتهرب الشيخ الخلخالي من الاجابة على اكثر من ذلك · المحاكمـة دامت من السابعة صباحا حتى الثانية عشرة ليلا · والاعـدام نفـذ بسرعة · هؤلاء قتلة يقول الخلخالي ويجب الاقتصاص منهم ·

نمشي في ساحة مدرسة علوي، ليل طهران الجميل ، والربيع جاء قبل اوانه· الشتاء اضرب عن العمل يقول سكان طهران · لقد تضامن الشتاء مع الاضراب العام · وها هو بعد دعوة الخميني لفك الاضراب بدا يعود الى عمله ·

وفي اللقاء بين عرفات والخميني ، كانت وحدة الثورة في شرقنا وكأنهـــا ولدت منذ البداية · « لقد عانينا مثلما تعانون ، ولكن ثورتنا انتصرت ، وهـي نموذج لثورة تواجه عدوا يملك افضل الاسلحة ، ومن خلفه تقف الدول الكبرى في العالم ··· وعلى بيغن ودايان اللذين يعتقدان ان وراءهما الدول الكبرى ، ان يفهما ان هناك من هو اكبر من الدول الكبرى · فالله اكبر من كل شيء · » هكذا تكلم الخميني ، وقال لعرفات : « سنعمل معـــا على اعادة القدس الـى اهلها » ·

وفي الصباح ، كانت الجموع تزحف الى المدرسة · هذا هو التقليد اليومـي منذ عودة الامام · النساء يلبسن الخمار الاسود الذي يسمى هنا التشادور ، ويحملن الاطفال على اذرعهن واقفات الى يسار الملعب ، والرجال الى يمينـه وفي وسطه · وفي غضون حوالي الساعة ، كان الملعب قد تحول الى غابة من البشر · سكان الاحياء الفقيرة الذين يأتون يوميا لتحية الامام ، آلاف لا يتسع

لها ملعب المدرسة لكنها تأتي والهتافات تعلو · هتافات من اجل الثورة الايرانية وهتافات من اجل الثورة الفلسطينية · والبحر الجماهيري يموج ، تعلو الاصوات وتهدر القبضات المرفوعة الى اعلى حيث التحدي · الجميع ينتظرون العناق بين الثورتين · يلقي عرفات كلمته فتعلو الهتافات وهي تمتزج بالترجمة الى الفارسية · ثم يأتي الخميني ، تتعانق اليدان وتلوحان ببساطة الى الجماهير الهادرة ·

اللقاء بين الجماهير وبين الخميني لقاء لا يوصف · يأتي الامام بلحيته البيضاء وعمامته السوداء · يمشي خفيفا على الارض وكأنه يلامسها او يكاد · يقف على الشرفة امام البحر وكأنه قبطان سفينة تقترب من الشاطيء · يقف هادئا وصارما · يرفع يده فترتفع الايدي · يرفع يده فتسكت الجموع · يأتي شيخ الى جانبه ويطلب بيده من الناس الجلوس · فيجلس الجميع على الارض· يمر الخميني بالناس · تندفع بعض النساء باطفالهن الى يده كي يبارك · يلمس جباه الاطفال وينحني · ثم يجلس على الارض · ويغادر كما دخل · خفيفا ، كأن جسده الذي يقع تحت العباءة يسبق خطواته · وتبدأ الناس في العودة الى بيوتها واعمالها ·

هذا هو التقليد اليومي ، قالوا لنا · منذ عودته من المنفى وهو يتجول في ايران داخل عيون الناس التي انتظرت الفجر طويلا · وها هي العيون تضحك في فرح البداية ·

عندما ذهبنا الى مقبرة « بهجت الزهراء » اي « جنة الزهراء » ، كنا نعتقد اننا نذهب من اجل الوفاء · الوفاء لالآف الشهداء الذين امتلأت الشوارع بدمائهم · لكننا فوجئنا حين تحولت المقبرة الى عرس لفلسطين · آلاف القبور البيضاء ، العباءات السوداء تتلألأ وسط هواء يحمل الرمل الناعم الابيض · والجموع تتدفق على ياسر عرفات ،تنسى موتاها وتركض باتجاهه وتهتف· كأن الاموات قد نهضوا · او كأنهم يعيشون معنا هذا الفرح ·

لم يكن احد ينتظر زيارة الوفد الفلسطيني للمقبرة · ذهب الجميع الى قبورهم من اجل غسلها · وعندما فوجئوا بفلسطين في وسطهم ركضوا باتجاهها · كان عصر الجماهير الخارجة من قبر الظلام الامبريالي هو الذي ينتشر كالهواء الذي نتنفس ·

وفي مكان قصي من المقبرة · كان هناك نسوة ورجال يحيطون بالقبر الابيض· ذهبت باتجاههم · كانت المرأة تسكب الماء على بلاط القبر وتتكلم وتبكي · وحولها البكاء يرتفع · قال لي صديقي الايراني ان الجميع هكذا ، يأتون الى مقابر الشهداء ويتكلمون معهم · وكانت المرأة تقول كلاما يقع بين البكاء والتحدي · تنحني على القبر راكعة ، تمسده بحنان ثم ترفع يدها الى السماء

وتتكلم · انهض كانت تصرخ · انهض وتعال معنا الى المدينة · هناك سوف ترى كيف هرب الشاه وهربت عائلته · سوف ترى السجون وقد فتحت والقصـــور وقد فرغت من سكانها · والشهيد لا ينهـــض ، والنسوة والرجـال يبكـون بصمت وبصراخ ·

لكنني رأيت شيئا يشبه الشهيد · كان يزحزح حجر القبر بيده ، يجلس ثـــم ينهض ببطء · على كفنه بعض الرمل والطين ، لكن الكفن لا يزال ناصعا ·وهناك نقطة حمراءتكبر وتكبر وتحجب الكفن · ينهض الشهيـد لابسا كفنه ويقـــود التظاهرة التي يقتل فيهـا ·

الماء يغسل القبور ، والشهداء يصنعون الثورة · كأن قبور الاجداد الذيـن اذلوا وقهروا حتى الموت تنفتح دفعة واحدة · وتخرج الازهـــار من داخلها · يمشي الموتى في التظاهرات الدموية ويقولون ان الموت لا يخيف · فالموت اليف وهادىء · يخرجون ويدمرون باحزانهم الحزن الذي قتل الفرح في عيـــون الاطفـال ·

من بهجت الزهراء الى وزارة الخارجية · ومن وزارة الخارجية الى ايـران بأسرها · مشهد والاهواز · الالاف التي خرجت لتستقبل فلسطين في عرفـات كانت تستقبل عصرا جديدا · لقد بدأ عصر جديد فيالمنطقة ·

ـ ٣

في شوارع طهران ينتشر رجال الميليشيا وهم يحملون بندقية الجي ٣ · والى جانبهم يقف رجال سلاح الطيران · الجميع يحبـون جنـــود سلاح الطيران · والجنود في كل مكان ببذلاتهم العسكرية الزرقاء ·وبابتساماتهم الدائمة ·

لماذا بدأت الانتفاضة انطلاقا من سلاح الطيران ؟ وكيف بدأت هناك ؟

الجيش الايراني هو مؤسسة بنيت للقمع الداخلي اساسا · انها مؤسســـة حديثة جدا تقوم على مبدأ سحق جميع المؤسسات الاجتماعية الاخرى ، ورميها في التخلف المطلق · لكن الظروف المحيطة بالمنطقة بدأت تفرض مهمات جديدة لهذا الجيش · وبدأت الاستراتيجية الاميركية المتراجعـــة في العالم بأسره ، تحاول ان تسمح لعملائها بلعب دور اكبر · وهذا يعني ان ايران قد تحولت الى شرطي المنطقة · وهذا الشرطي يحتاج الى اسلحة معقدة جدا ·

وفي سلاح الطيران ثبت كيف ان الاشياء تحمل تناقضهـــا في داخلها · فالاكثرية الساحقة من تقني سلاح الطيران تلقوا تعليما متوسطا · وحوالي ٦٠٪ منهم ذهبوا في دورات تدريبية الى الولايات المتحدة · وداخل جميع قواعـــد الطيران كان الضباط الاميركيون هم الذين يأمـــرون · اي ان هـــذا السلاح

الحديث ، والذي انيطت به مهمة حماية المصالح الاميركية ، ينقلب من شـــدة محاولات امركته على الاميركيين · فالدراســـة في اميركا وتواجد الضبـاط الاميركيين زادا من الحقد ومن الالتحام بالشعب ·

ورجال سلاح الطيران يروون قصة قاعدة فرح آباد · انها الشرارة التـــي انطلقت منها الانتفاضة ·

« لقد بدأت الانتفاضة في سلاح الطيران قبل الثورة بثلاثـــة اشهر · كانت الجماهير تملأ الشوارع وتتظاهر وتقاتل ، وكنا نحن في قواعدنـا نحـــاول ان نكتشف اساليب مساعدة الشعب · كنا نخاف · فالسافاك في كل مكان ، والثقـة كانت مفقودة بشكل كامل بين الجنود · والضباط الاميركيون يملأون قاعدتنـــا بصلفهم وكبريائهم · وكنا نسمع عن اعدام بعض اخواننا · قيل لنا ان ثلاثـة ضباط وعشرة تقنيين اعدموا في همذان بتهمة التعاون مع الثورة · بدأنا النضال السلبي ، كنا نحاول تعطيل الطائرات لمنعها من المشاركة في ضرب الثـورة ، وكنا نضع التايد في قهوة الضباط الاميركيين ·

ومنذ ثلاثة اشهر ، كان النظام الشاهنشاهي قـــد وزع رجـــــال الحرس الامبراطوري الخاص (الخالدون) بين مراكز وقواعد القوات الجوية ، وذلـك بهدف شل كل تحرك · وكنا نحن طوال هذه الفترة نحاول استمالتهم بالاقنـاع وبالمحبة · نقدم لهم الشاي ونناقشهم في اوضاع البلاد العامة · لكن محاولاتنا انتهت الى الفشل · فلجأنا الى سلاح جديد ، كنا نقوم بالاضراب عن الطعـام داخل الثكنات والقواعد ·

وفي يوم ٢/٨ ، شاركنا في التظاهرات امام مقر الخميني وكنا بكامـــل البستنا العسكرية · وقد احدثت هذه التظاهرة اثرا مباشرا داخل قواعدنا وفي صفوف الجماهير · نشرت صور التظاهرات في صحيفة كيهان ، فصدر بيـان من السلطات بتكذيب الصور واذيع البيان في الراديو والتلفزيون ، غير اننـــا اصدرنا منشورات اكدنا فيها صحة اشتراكنا في التظاهرة ·

كان كل شيء قد اصبح واضحا · الصدام حتمي ، ورجـــــال الحـــرس الامبراطوري يريدون القضاء على القوات الجوية ·

في قاعدة فرح آباد يوجد حوالي ثمانية الاف رجل من القوات الجوية · وكنا يوم ٢/٩ والاجواء مشحونة بالتوتر ، نتفرج في التلفزيون على عرض خـاص لعودة الامام الخميني الى طهران · وعندما ظهرت صور الخميني ارتفع التكبير، وبدأ نقاش حاد بين الجنود وبين رجال الحرس الامبراطوري · وتحول النقاش الى صدام مسلح ، فقتل حوالي ٢٠ رجلا وجرح ٦٠ آخرين · كان الخالـــدون يحملون سلاحهم، وكنا نحن عزلا من السلاح · فالسلاح في المخازن ، ومفاتيح

المخازن مع الضباط · شعرنا اننا نواجه مذبحة جماعية ، فقد بدأت التعزيزات من قوات الحرس الامبراطوري تحيط بالقاعدة · هنا ارتفع تكبيرنا · صعدنا الى الاسطح وبدأنا نصرخ الله اكبر ، ايها المسلمون ان اخوانكم في القوات الجوية يتعرضون للموت · شعرنا للحظة اننا نواجه الحرس الامبراطوري وحدنا · ثم بدأنا نسمع الهتاف يعلو ، فقد امتلأت اسطح المدينة المظلمة بصيحات التكبير ، وكانت هذه الصيحات وكأنها كلمة سر بداية الانتفاضة · فامتـــلأت الشوارع بمئات الالاف من الجماهير · زحف الشعب واحـــرق السيارات والاطارات ، ووضع الحديد المكهرب في وسط الشوارع وبين عجلات الدبابات · واحتـــل الناس الشوارع المؤدية الى القاعدة : شارع الكوكا كولا وشارع فوزية وشارع طهران · هكذا تم ايقاف زحف القوات التي جاءت لتطويقنا · والجنرال ربيعي قائد سلاح الطيران كان يقود الهجوم علينا بنفسه · ثم حين ارتفع هتاف الناس بضرورة موت الخائن ربيعي هرب بطائرة هيليكوبتر ·

اما نحن في داخل القاعدة فلقد استطعنا الاستيلاء على مخازن الاسلحة ، ووزعنا الاسلحة على الجماهير · وخرجنا بعد ان فك الطوق عن قاعدتنا لنشارك الجماهير في انتفاضتها المسلحة · وها نحن نقوم الآن بواجبنا · نقف مع رجال الميليشيا الشعبية من اجل ان نحرس النصر » ·

الذين كانوا في طهران ، وشهدوا ايام الانتفاضة ، ذهلوا من السرعة الفائقة التي انهار فيها النظام · فلقد انهار الجيش دون ان يقاوم فعليا · انهار كمـــن اصيب بالذهول وكمن يئس من امكانية المجابهة · فبعد مذبحة سبتمبر والتـــي ذهب ضحيتها حوالي اربعة آلاف شهيد ، صار القتل عبثا · صار القتل من اجل القتل ، ولم يعد هناك اي افق سياسي للمجازر · اما الجماهير الايرانية فقـــد فاجأت نفسها · مئات الآلاف من المسلحين الذين استولوا على اسلحة الجيـــش يستولون الآن على الشوارع والمراكز الرئيسية ·الاذاعة تسقط ، قصور الشاه تتهاوى ، السجون تفتح ابوابها · ثلاثة ايام من الدهشة والنصر ·

تبدو طهران اليوم وكأنها بلا سلطة · الحكومة المؤقتة تحاول تصريف الاعمال بانتظار الاستفتاء ، ولجان الخميني تملأ الشوارع بانتظـــار استلام السلطة ، والجيش شبه مفكك يحاول اعادة تجميع عناصره في الثكنات المهجورة · السلطة الفعلية في الشارع ، والقوى الاجتماعية المختلفة تبدو وكأنها تحاول اعادة تنظيم صفوفها ، تتنفس الحرية التي افتقدتها طويلا ، تستجمـــع نفسها ، بانتظار بناء سلطة جديدة ·

والحوار يدور في كل مكان حول معنى السلطة الجديدة · حـــول التعابيـــر والصيغ · مجلس قيادة الثورة الاسلامية يعقد الاجتماعات المتواصلة ،والصحف تمتليء بالنقاشات ·

ـ ٤ ـ

حول شعار الجمهورية الاسلامية ، قاد الخميني الثورة من منفاه · والشعار لا يثير جدلا ، لكن الجدل يثار حول مضمونه ، لكن قبل الوصول الى مناقشة الشعار ومضمونه ، ما معنى الطبيعة الاسلامية للثورة الايرانية ؟

في ايران حوالي ١٨٠ الف رجل دين شيعي · هل يكفي هذا الرقم للدلالة على حجم الكوادر التي قادت الثورة ونوعيتها ؟ لكن المسألة تبدو اكثر تعقيدا من كونها مسألة تقنية تتعلق بالقيادة ·

المسألة الاسلامية تقع في مستويين متداخلين : الواقع الاجتماعي وثقافة الشعب ·

فعلى المستوى الاجتماعي قام النظام الاميركي في طهران بتدمير كل اشكال التمثيل الاجتماعية · دمر التمثيل التقليدي القائم على العشائر ونقابات المدن باعتباره تمثيلا رجعيا ومتخلفا ، واقام نظاما تمثيليا غربيا ، اي شكليا مئة بالمئة · فصار مجلس النواب مجرد اطار شكلي يتقبل اوامر القصر ولا يستطيع المعارضة بحكم تكوينه · اي ان المجتمع المدني دمر من اساسه · صارت السجون هي البرلمانات الحقيقية التي يلتقي فيها قادة المعارضة الشعبية · ودخل النظام في دوامة العزلة ·

كما ان الاقتصاد القومي جرى رهنه للنفط ، اي للاحتكارات الاجنبية · فعرفت ايران تدهورا زراعيا خطيرا نتيجة دخول رأسمالية الاطراف المتوحشة الى الريف ، وقامت الصناعة الوسيطة التي تنتج بشكل كامل لمصلحة المراكز الصناعية الكبرى في العالم · فصار الريع النفطي هو اداة السلطة في قمع الفئات الاجتماعية واخضاعها · وصارت الدولة خارج المجتمع او فوقه ، تملك الرساميل الريعية التي تضرب بها دورة الانتاج الاجتماعية ·

في ظل هذا الواقع القمعي ، كانت الجوامع والحسينيات ، مكان التجمع التقليدي ، قد بدأت تكتسب مدلولا جديدا · ففي مواجهة قيم الاستهلاك والقمع المتوحش ، برزت القيم الاسلامية واطر الاجتماع الاسلامية ، كشكل ديمقراطي وحيد ممكن · فصارت المعارضة تنمو في هامش النظام · في القطاعات التقليدية التي همشت الى اقصى الحدود · ومن الهامش بدأت الجماهير تحاصر المركز القمعي ·

اما على المستوى الثقافي ، فقد برز الاسلام بوصفه ثقافة الشعب الاخيرة في مواجهة محو خصوصيته بشكل كامل · الاسلام بهذا المعنى هو ثقافة صدام · انه يحمي القيم الاجتماعية من الانحلال · يحمي المجتمع من التدهور في التفتت الكامل الذي تريده السلطة القائمة فوق المجتمع · فاذا كانت الرأسمالية الغربية

تحول المجتمع الى افراد كي تحكم قبضتها على المستوى السياسي ، فان رأسمالية الطرف الريعية تريد فرط كل اطار اجتماعي ، وتحول الافراد الى عبيد · ففي مواجهة العبودية ، تقف الثقافة الشعبية كنقطة دفاع اخيرة عن النفس ·

الاسلام هنا يستعيد دوره المعادي للاستعمار والذي برز واضحا في الثورة الجزائرية · لكنه بالاضافة الى كونه هوية ثقافية ، يلعب في الواقع الايراني دور الاطار الشعبي الديمقراطي الوحيد ·

هنا لا بد من الاشارة الى مسألتين خاصتين في الواقع الاسلامي الشيعي في ايران ·

فهناك اولا استقلال المؤسسة الدينية · هذا الاستقلال الذي تكرس عبر تراث طويل من مقاومة السلطة الجائرة · باعتبار ان كل سلطة هي سلطة جائرة ما عدا سلطة الامام المنتظر · ويأخذ هذا الاستقلال شكله المادي في الزكاة التي يدفعها المسلمون طوعا لمراجع التقليد · حيث تقوم المراجع باعادة توزيعها في مشاريعها ومؤسساتها ·

وهناك ثانيا لا مركزية السلطة المرجعية ، حيث ان الانتخاب الشعبي الطوعي من قبل جمهرة العلماء ومن قبل الشعب هو الذي يحدد المراجع ويحدد دائرة سلطتها الشعبية · هنا يفلت الاسلام من يد السلطة المركزية ، ويصبح اطارا اجتماعيا ونضاليا في مواجهة القمع والعنف ·

وفي حوار طويل جرى في مدينة قم المقدسة مع **آية الله منتظري** . الذي ينظر اليه هنا بوصفه المساعد الاول للامام الخميني ، حاول منتظري ان يحدد مفهومه لدور الاسلام ·

● كيف تفهمون علاقة الثورة بالاسلام ؟ وكيف تقيمون الحركات الثورية الاخرى في العالم الاسلامي ؟

□ الثورة الاسلامية هي ثورة من اجل جميع المناطق في العالم ، فنحن لا نؤمن بالعنصرية والاقليمية · نحن نسعى الى تحقيق العدالة الاجتماعية على ضوء التعاليم الاسلامية في جميع الاراضي الاسلامية ، خصوصا عند الشعب الفلسطيني الذي اغتصبت ارضه · وثورتنا ستبقى غير مكتملة ما دامت شعوب العالم تعيش تحت الاحتلال الاستعماري ، وما دامت العدالة الاجتماعية غير مطبقة · وننتظر من الشعوب الاسلامية ان تستلهم ثورتنا في ايران ، فنحن استطعنا التوصل الى نتائج جيدة رغم اننا لم نعط خسائر كبيرة · وعلى زعماء الدول العربية ان يأخذوا العبر من احداث ايران ، وكيف طرد الملك السابق وهرب ·

هناك ثلاثة عوامل ساهمت في انتصار النهضة في ايران :

١ ـ الايمان الكامل بالتعاليم الدينية الاسلامية ٠

٢ ـ اتحاد جميع قطاعات الشعب في الثورة والنهضة ٠

٣ ـ الزعامة الحقيقية التي جسدتها نهضتنا في آية الله الخميني ، الـــذي قاد ثورتنا عبر قطعيته الثورية الى النجاح الكامل ٠

● ولكن ما هو موقف الاسلام من التقدم العلمي والثقافي في العالم ؟

□ من وجهة نظر الدين ، فالدين لا يتعارض مع التقدم الحضاري او مـــع الثقافة ، بل يواكبها ٠ نحن في الاسلام ، نعتقد بضرورة مواكبة دول العالـــم والمشاركة في صنع الحضارة ٠ في الجاهلية ، كان العلم حكرا على فئة قليلة . ولكن الاسلام حرض الناس على التعلم عبر الثقافة والدين ٠

وفي الاسلام ، هناك ضرورة لتعميم العلم في مرتكزات خمس :

من جهة اولى ، هناك الحديث الشريف الذي يقول : « طلب العلم فرض على كل مؤمن ومؤمنة » ٠

من جهة ثانية ، هناك الحديث الذي يقول : « الحكمة ضالة المؤمن اينمـــا وجدها اخذها » ، اي يأخذها حتى من الكفار ٠

من جهة ثالثة ، يقول الحديث : « اطلب العلم ولو بسفك المهج وخـــوض اللجج » ٠

اما من الناحية المكانية : فيقول الحديث : « اطلب العلم ولو في الصين » ٠

من جهة خامسة ، يحضنا الحديث على طلب العلم طوال حياتنا : « اطلـب العلم من المهد الى اللحد » ٠

فالعلم ليس حكرا على طبقة دون بقية الطبقات ، والاسلام يحرض على طلبه تحريضا شديدا ، فكيف يكون الاسلام ضد العلم ٠ فالاسلام الواقعي يواكـب تقدم الزمان ، بل هو يحرض الناس على التقدم الحضاري ٠ فالامام عليه السلام يقول : « العالم بزمانه لا يهجم عليه الا ملابس » ٠

ومع ذلك يتصور البعض بان الثقافة والاسلام لا يتواكبان ، او انهما ضدان ويدعون بان الاسلام رجعي ٠ لكن الاسلام الواقعي والحقيقي هو اسلام الدين والثقافة والتقدم العلمي ٠

● في تحليل الثورة الايرانية ، ينسب الكثيرون ثورية المؤسسة الدينية الى

شيعيتها ؟· فهل تعتقدون ان ثورتكم تشمل جميع المذاهب الاسلامية ؟

□ هناك حقيقة واقعية، هي كون التيار الشيعي ، كان طوال التاريخ الاسلامي تيارا ثوريا · لكن جميع المسلمين الذين يتحملون مسؤولياتهم ، يجدون انفسهم في موقع الدفاع المسؤول عن الاسلام · ولقد شارك اخواننا السنة من كردستان وبلوشستان في هذه الثورة ·

الاسلام ليس دينا فرديا ، انه دين اجتماعي · وبناء على الحديث النبوي : « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته » · فعلى المسلمين كافة ان ينهضوا في مواجهة الظلم والاستبداد · تقول الآية الكريمة : « ان الذين يكتمون ما انزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب اولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنـــون » ·

وقال رسول الله (ص) : « اذا ظهرت البدع في امتي فعلى العالم ان يظهر علمه والا فعليه لعنة الله » · فالسكوت على الظلم غير مسموح في الاسلام · فلا يجوز للمسلم ان يكتم الحق ·

● تتحدثون عن العدالة الاجتماعية فيالاسلام ، فما هو تحديديكم لها ؟

□ العدالة الاجتماعية في الاسلام هي غير المساواة · فهي تتمتع بمفهـــوم كلي · فلكل ذي حق ان يأخذ حقه · لكن العدالة الاجتماعية تعني كذلك ، ان يعطى المحروم حقه ·

● هل هذا يعني انكم تؤمنون بالملكية الخاصة ؟

□ نحن نؤمن بالملكية الخاصة ، ولكن على اساس النشاط الفردي والعدالة الاجتماعية · لقد بنيت الشريعة الاسلامية على اساس النظام الطبيعي فـــي المجتمع· فمن الناحية الطبيعية والتكوينية فلكل انسان حقه الطبيعي في المجتمع، وعطاء جهده يرجع اليه · غير انه على الحكومة الاسلامية التدخل في شؤون وقضايا المجتمع المسلم ، ومساندة المستضعفين في الارض ·

اما المعادن والمنابع الطبيعية في الارض ، فهي تحت تصرف الحكومة الاسلامية وهي توزع بشكل عادل في المجتمع · انها الاموال العمومية التي تسمى فـــي القرآن بالانفال · وكما تقول الآية الكريمة : « يسألونك عن الانفال قل الانفـال لله وللرسول » · وبمفهوم الفقه الشيعي فهي بتصرف الامام اي الحاكم الشرعي الذي يصرفها على مصالح المسلمين ويوزعها فيما بينهم ·

● ولكن ماذا يميز الجمهورية الاسلامية عن بقية الجمهوريات في العالم ؟

□ تتميز الجمهورية الاسلامية بكون رئيسها وحكومتها ينفذون التعاليـــم

الاسلامية · غير ان الحكومة الاسلامية هي حكومة ديمقراطية · فالحكومة الاسلامية ستقوم بتطبيق القوانين الاسلامية بعد ان تؤخذ هذه القوانين وتكيف مع الشروط والمقتضيات الملائمة لاحتياجات الشعب · فالشعب هو الذي سينتخب ممثلين عنه ، وهؤلاء سيقومون بتكييف التعاليم الاسلامية مع الشروط المستجدة ·

● اشرتم الى ان ثورتكم لن تكتمل ما لم تتحقق العدالة في ديار الاسلام · فهل هذا يعني ان الجهاد سيبقى قائما حتى تحقيق هذه العدالة ؟

□ نحن في ثورتنا لم نلجأ الى الثورة المسلحة لاننا قمنا باشكال من النشاطات الثورية المتعددة ، والتي قادتنا الى النصر · ونحن نتمنى ان تطبق اساليبا في بقية البلدان الاسلامية ، كما اننا سنساعد الشعوب في قضاياها المشروعة · غير ان الجهاد المسلح هو آخر حل لقلب نظام جائر ·

● هل تشاركون في الكفاح المسلح ضد اسرائيل ؟

□ نشارك بمقدار امكانياتنا · فعلى كل مسلم ان يشارك اخوته عرب فلسطين في جهادهم · وعلى كل مسلم سواء كان في ايران او خارجها ان يساهم في تحرير الاراضي المحتلة والقدس الشريف · ويتفاوت هذا الواجب بحسب المراتب والامكانيات · وبهذا يمكن لكل مسلم المساهمة في تحرير الاراضي المحتلة ·

● ما هو في رأيكم تأثير الثورة الايرانية على المنطقة ؟

□ كانت ايران في العهد البائد تلعب دور شرطي منطقة الشرق الاوسط لصالح اميركا · اما نحن ، فلن نلعب هذا الدور ، ونريد اقامة علاقات حسنة مع الدول الاسلامية وجميع دول العالم · لكننا نتمنى ان تتحكم الشعوب في مصيرها · كما نتمنى ان تؤثر الثورة الايرانية في المنطقة ، وان تعي شعوبها ويعتبر حكامها فيغيروا سياستهم المضادة لشعوبهم · فنحن نتمنى استقلال جميع الشعوب من الاستعمار ، ولن نظلم احداً غير اننا لن نقبل الظلم من احد ·

● نلاحظ في ايران وكأن هناك اكثر من سلطة واحد · سلطة الامام وسلطة الحكومة · فكيف ستحل هذه الازدواجية ضمن المفهوم الذي يتردد هنا بأن الامام الخميني سيلعب دور مرشد الامة ؟

□ سلطة الحكومة هي سلطة مباشرة ، اما سلطة آية الله الخميني فانها ستكون عبر الاشراف والتوجيه والنظر ، ومراقبة اعمال الحكومة كي لا تنحرف عن مسيرة الاسلام · فنائب الامام هو الذي يعدل اي انحراف اذا وجد · لقد شاهدتم كيف اسقط المجتهد وعلماء الدين الحكومة الجائرة ، فكيف بهذه الحكومة التي عينها نائب الامام ؟·

اسئلة الاسلام هي اسئلة حول الحكومة والسلطة واعادة تنظيم المجتمع بشكل متوازن ، حيث تستطيع جميع الفئات الاجتماعية التعبير عن نفسها بحرية · لكن النقاش حول الاسلام تحجبه قضية الحجاب ، وكأن مسألة المرأة تبدو المسألة التي تشغل الصحافة العالمية · ومسألة الحجاب تبدو اكثر المسائل اشكالية . لكننا في مشهد ووسط الاستقبال الشعبي الحاشد الذي اعد لعرفات ، حيث مقام الامام الرضا ، رأينا النساء اللابسات التشادور يحملن البنادق في ايديهن · اما في طهران ، فقد كان التشادور يبدو وكأنه علامة نضالية ، كأنه موقف طوعي تتخذه النساء في مواجهة صلف الشاه وغروره وعدائه للحجاب·

احدى النساء روت لنا انها لبست التشادور منذ ستة اشهر فقط ، كي تثبت للشاه ان النساء معاديات له · ويبدو ان هذه الظاهرة شبه عامة في طهران الجنوبية الفقيرة · نساء بالتشادور يرفعن قبضاتهن في مواجهة القمع والارهاب· يلبسن العباءة السوداء كعلامة على انهيار مظاهر التغريب القسري الذي تعرضت له ايران · ولكن ، بعد استلام السلطة ، فان القضية تصبح اكثر تعقيدا · ما هو دور المرأة في المجتمع ؟ المقربون من الامام الخميني يتحدثون عن حق المرأة السياسي والاجتماعي · حقها في العمل ، وحقها في الترشيح وحقها فيالانتخاب ·

لكن تطرح مسألة بالغة التعقيد ، كيف نرفض الغرب في الزي والعادات والقيم ؟·

وهل يمكن رفض الغرب وسط هذا الفرق الشاسع بين المدنية والريف ؟

المسألة تحتاج الى اجوبة اكثر تعقيدا ، ولن تأتي الا من المعاناة الثورية الحقيقية ، ومن عملية الصراعات الاجتماعية المقبلة التي تبشر بها البداية الثورية ·

والجميع متفقون على مسألة واحدة · كل ايران تتفق على ضرورة الجهاد في سبيل فلسطين ، كأن فلسطين هي الاسم الحركي لامتدادات الثورة الايرانية·

الجميع يتهم اسرائيل ، الجميع يتهم خبراءها بالمشاركة في تخريب ثروةالبلاد الزراعية ، ويتهم ضباطها بتدريب الجيش الايراني على القتل ، ويتهم سفارتها بالتجسس على العرب ·

منذ لحظات الانتفاضة الاولى ، كان مقر البعثة التجارية الاسرائيلية هدفا للجماهير المسلحة · وعلي محمد رضا الشاب الايراني الذي رافقنا في الباص الى مقر السفارة الايرانية ، كان يحدثنا عن التظاهرة الصاخبة التي احرقت السفارة واستولت على وثائقها · وكيف قفز على الساريـة وانزل العلم الاسرائيلي · ويقول ان علما فلسطينيا ارتفع في تلك اللحظة ، لا يعرف من اين

اتى ، فرفعته الجماهير بايديها ، ثم وضعته على حائط السفارة ٠

وعندما ذهب ياسر عرفات برفقة الدكتور ابراهيم يـزدي والامام احمـــد الخميني الى سفارة فلسطين الجديدة ورفعوا فوقها العلم ، كانت الجماهيـــر تحتل شارع كاخ الذي صار اسمه شارع فلسطين ٠ وكانت فلسطين قريبة الى حد لا يصدق ، قريبة وجميلة على رغم الحروق في جسدها ٠ وكانت الازهـار وصور الشهداء تملأ حيطان المبنى المتهدم ، وعرفات يتكلم ويكاد يبكي ٠ ثورتـان في ثورة واحدة ٠ والثورة الواحدة ستنتصر ٠

الملاحظة الاساسية هي ان سفارة اسرائيل لم تكن مجـــرد مكتب تجاري ، سفارة فيها حوالي المئتي غرفة ، واجهزة كومبيوتر واجهزة اتصال معقدة ، مما يشير الى الدور الذي كانت تلعبه اسرائيل في ايران ٠ والى عمق التحالف الايراني الاسرائيلي داخل الاستراتيجية الاميركية في المنطقة ٠

ـ ٥

الجميع يتهم اسرائيل واميركا ٠ حتى في سجن افين ، وهو السجن الحديث والنموذجي الذي بناه الشاه لسحق المعارضة السياسية ، نسمع المسلحين مـن لجنة الخميني ومن مجاهدي الشعب الايراني ، وهم يروون عن علاقة المخابرات الاسرائيلية بالسافاك الايراني ٠

يقع سجن افين في ضاحية طهران ، السيارة تبدأ صعودها شمالا ، وامامنـا ينتصب جبل عال مكلل بالثلج الابيض ، كأنه يقف في نهاية الطريق ٠ الريـح الشمالية الباردة تلفح الوجوه ، ونحن نمشي في طريق وعرة على سفح الجبل. هناك نرى بنايات متعددة متشابهة خلف باب حديدي سميك ٠ امام البـــاب يتجمهر الصحفيون الاجانب والفضوليون ٠ قال لي احد رجال الميليشيا ، الآن سوف ترى القمع المتوحش الذي كان يمارسه الشاه ٠ تجولنا بين بنايات السجن المختلفة ، لنكتشف ان الغرف الانفرادية هي التي تسيطر في هذا السجن ٠ غرف صغيرة لا نور فيها ولا اضاءة يحشر فيها ثلاثة او اربعة مساجين ٠ سجـــن النساء اكثر همجية من سجن الرجال وغرفه اضيق واكثر ظلاما ٠ ثم ذهبنا الى بناية حديثة جدا ، هنا نجد الآلات الالكترونية المعقدة التي تستخدم لتعذيـــب المساجين ، وهناك غرف للمقابلات تذكر بالافلام الاميركية ٠ غرفتان صغيرتان متقابلتان يفصل بينهما حائط زجاجي ٠ وهناك جهاز هاتف في كلا الغرفتين . هنا يقف المساجين وفي مواجهتهم يقف الزائرون ، ويتحدثون لمدة دقائق ٠

ولكنه سجن حديث وغير مخيف ٠ وبدأت اتكلم عن السجون الاخرى التـــي تنتشر في القارة العربية ٠ كنت مندهشا من ضراوة الحملة على سجون الشاه. فهي فعلا ، اذا كانت على نمط هذا السجن ، سجون انسانية بالمقارنة مـــع

السجون العربية · كان الشاب الايراني لا يلتفت ، يطرق الى الارض ولا يجيب. سألني عن السجون العربية فتكلمت وكان يستمع ويهز رأسه · ثم قال اتبعني · تبعته · خرجنا من دائرة بنايات السجن ، وبدأنا نسمع صوت الحفارات الكهربائية ونشم رائحة الغبار الذي ينتشر · اعتقدت انني اسمع عويلا واصواتا تخرج من القبور · تقدمنا · وسط الغبار كانت مئات الملاءات السوداء التي بدأت تلتمع فيها خيوط الغبار البيضاء تصرخ وتولول . ورجال الميليشيا يحاولون ابعاد النساء عن آلات الحفر · والاصوات تختلط بالغبار ·

هذا هو السجن الحقيقي قال صديقي الايراني · جميع الذين كانوا في هذا السجن يقولون انهم سجنوا تحت الارض · نحن نعتقد ان السجن الحقيقي يقع تحت الارض · وقد اكتشفنا عشرات السجون ـ القبور · لكن حتى الآن لا نزال نبحث عن السجن الحقيقي الذي يقع تحت سجن افين . ولم نستطع اكتشافه · ربما كان هناك في الجبل ·

وفي السجون الحقيقية التي زرناها . رأينا كيف يقبر الانسان حيا · دهاليز تحت الارض تشبه الآبار . رائحة عفونة ، دماء متجمدة وايدي مقطعة ·

هذه هي الحضارة الغربية التي بشرنا بها · حضارة لا تأخذ الا شكل القبر · ورغم المقابر رأينا عبقرية السجين وغريزة الحياة ، التي استطاعت في احدى قاعات افين ان تبني منصة للخطابة من اوراق الصحف بعد بلها بالماء وتكديسها فوق بعضها ·

وفوق المقابر ـ السجون ينبت العشب ، فقد وجد سجن تحت الارض في باساركاد ، التي تبعد حوالي ١٣٠ كلم الى الشمال من مدينة شيراز ، قرب قبر قورش الاكبر مؤسس الامبراطورية الايرانية ، والذي كان قد كتب احدى اقدم وثائق حقوق الانسان عام ٥٣٩ ق·م· بعد تحرير بابل ·

مساحة السجن هي حوالي ١٥٠٠ متر مربع ، وقد بني باسره تحت الارض · وعلاقته الوحيدة بالعالم الخارجي هو باب حديدي طوله متر واحد · جميع حيطان السجن مبنية من الحديد المقوى وهو مستدير في شكله · والسجن مغطى بالعشب الاخضر · وقد استطاع احد عمال البناء الذين شاركوا في بنائه اكتشاف بابه ، مما سمح لرجال الثورة بالعثور عليه ·

هكذا بنى محمد رضا بهلوي امبراطوريته · وعندما تهاوت الامبراطورية . اصبح الهدف الاساسي لجميع القوى الثورية في البلاد هو كسر باب السجن وتحطيم حيطانه ، حتى لا تكون سجون مرة اخرى ·

هكذا يبدو مستقبل ايران السياسي · وحول هذا المستقبل يدور النقاش والحوار ·

اليسار يرفض تسليم اسلحته الى الحكومة ، **اية الله الطالقاني** الذي يشكل احد ابرز وجوهقيادة الثورة الايرانية، والذي يتردد على انه عضو فيمجلسقيادة الثورة الاسلامية ، يرفض ضرورة تسليم الا لحة · ويطالب بتصفيـــة قيادات الجيش · ويصرح بانه لا يعارض امكانية ان يصبح عريف قائدا للجيش ·

والجدل حول اليسار والجيش يدور في كل مكان ·

منظمة **فدائيي الشعب** تدعو الى التظاهـــــر ، فتنتشر في جميع انحـــــاء طهران قصاصات من الورق قامت لجان الخميني بتوزيعها ، تدعو الشعب الـى عدم الاشتراك فيالتظاهرة · التظاهرة تلغى لكن اليسار يدعو الى تجمع ضخم في جامعـة طهران ·

منظمة فدائيي الشعب تحتل احدى بنايات السافـــاك في شمالي ظهـران · المسلحون الملثمون يحيطون بالبناية من الخارج ، يفسر لي احد اعضاء المنظمـة بانها لا تزال منظمة سرية ، وهي تخشى من كشف عناصرها ، فربما اضطـرت الى العودة تحت الارض ·

يقدم احد اعضاء القيادة المركزية للمنظمة تحليله للواقع الايراني ·

« نحن نعتبر ان اسقاط الشاه هو المرحلة الاولى في مسيرة نضالنا من اجل تحقيق اهداف الثورة · فالثورة لا يمكن ان تحقق نصرها النهائي الا عبـــر تصفية الامبريالية وانهاء هيمنتها · فالامبريالية تملك جذورا قوية في بلادنا . وعلينا ان نتحرك في سبيل اقتلاع جذورها بشكل كامل ونهائي · والمظهر الرئيسي لوجود الامبريالية في بلادنا هو وجود مؤسسة الجيش · هذه المؤسسة القمعيـة المتخصصة في سحق الجماهير · فلا بد اذن من تدمير هذا الجيش الذي بناه الامبرياليون والصهاينة من اجل قمع الجماهير والسيطرة على المنطقة · امـــا الجيش البديل الذي يستطيع المحافظة على المكتسبات الثورية فلا بد من بنائـه من خلال القوى الشعبية التي ساهمت في الثورة ·

لكننا نشاهد اليوم عددا كبيرا من ضباط الجيش ، يتقدمون ليقدموا البيعـة للحكومة المؤقتة · والعديد منهم ساهموا في اطلاق النار على الجماهير بهـدف ضرب الثورة كما حصل مؤخرا في تبريز ·

« لقد بدأت الانتفاضة الشعبية المسلحة في منطقة فرح ابـــاد · حيث قامت عناصر التقنيين في القوات الجوية بالانتفاضة ضد قياداتهم · وقد ترافق حصار الحرس الامبراطوري لقاعدة فرح اباد مع الاحتفالات الجماهيرية التـــي كانت تقيمها منظمتنا بمناسبة الذكرى التاسعة لانطلاقة الكفاح المسلح · عندمـــا حوصرت قاعدة فرح اباد انطلق رفاقنا الذين كانوا متجمعين لنجدتهم ، وقد لعب رفاقنا دورا بارزا في كسر طوق الحصار المفروض على القوات الجوية · كمـا

استشهد العديد من كوادرنا ومن بينهم الرفيق قاسم سيادي عضو القيـــادة المركزية للتنظيم ٠

« اما موقفنا من الامام الخميني ، فنحن نعتبره قائدا مناضلا ، استطاع ان يوحد القوى الجماهيرية ضد الدكتاتورية والامبريالية والصهيونية في بلادنا ٠ غير اننا تنظيم ماركسي لينيني له هويته النضالية وبرامجه المستقلة ٠ لذلـــك فنحن نركز على ضرورة وحدة القوى الشعبية انطلاقا من ضرورة تصفية النظام الامبريالي في بلادنـــا ٠

« الاسلام مسألة معقدة ٠ لكننا نؤكد اولا بان ثورتنا ذات طبيعة ديمقراطيـة معادية للامبريالية ٠ وفي ظروف الدكتاتورية القمعية التي كانت تمارس بابشع صورها في عهد حكم الشاه ، فان القوى الديمقراطية والثورية لم تتمكن مـن تنظيم الجماهير الكادحة ٠ بينما نرى ان القوى الفاعلة في الثورة الديمقراطية المتمثلة بالبرجوازية الصغيرة والبرجوازية المتوسطة ، الوطنية ، استطاعت ان تحتفظ طوال فترة القمع بمواقعها في المساجد والتكايا والحسينيات ٠ الاساسي بالنسبة لنا هو قدرة قيادة الثورة بان تتحول الى رمز للجماهير ، وان تقودهـا في صدام طويل مع القوى الرجعية ٠

« نحن ندعو الى عدم الصدام المسلح وتحت اي ظرف مع اية حكومة يؤيدها الامام الخميني ٠ لكننا نعتقد ان الحكومة الحالية بعناصرها ، لا تلائم ميزان القوى الجماهيري الذي افرزه انتصار الثورة » ٠

التحليل الذي تقدمه منظمة **مجاهدي الشعب الايراني** ، الاسلامية اليسارية ، يتقاطع في معظم جوانبه مع تحليل فدائيي الشعب٠ لكن منظمة المجاهدين تتميز بقدرتها على مزج الماركسية بالاسلام ٠ فشعارها الاساسي « فضل الله المجاهدين على القاعدين اجرا عظيما » ينتشر على حيطان المدن الايرانية ، فوق ملصقات الشهداء ٠ يحللون بهدوء ، ويعلنون منذ البداية التزامهم بقيادة الامام الخميني للثورة ٠ وهم يعتقدون ان الثورة الايرانية تمر فيمرحلتين ، المرحلة الاولـــى هي ضرب النظام الشاهنشاهي والمرحلة الثانية هي ضرب النفوذ الامبريالي في ايران ٠ يحللون سبب تحالف الخميني مع الجبهة الوطنيـــة ، ويعيدونه الى تخوف قيادة الثورة من محاولات تقسيم ايران ، بالاعتماد على الاقليات القومية الكثيرة المنتشرة فيها ٠ ينتقدون الجيش ويدعون الى حله ، لكنهم حريصـــون على منع الصدام بين لجان الخميني ومنظمة فدائيي الشعب ٠ لان هذا الصدام لن تستفيد منه سوى القوى الرجعية ٠

الاستقطاب السياسي يبدو اكثر وضوحا حين نحاور آية الله **محمد كاظـــم شريعتمداري** في مدينة قم المقدسة ٠ فشريعتمداري الذي كان في الداخل طوال فترة النضال ضد الشاه ، والمعروف بمواقفه المعتدلة والليبرالية ، يقدم في تحليله

للثورة الايرانية الصورة المعاكسة للاستقطاب الذي يقدمه التحليل اليساري · وشريعتمداري ولد في تبريز ودرس في تبريز وقم والنجف · وقد لعب دورا كبيرا في اعادة توحيد تبريز مع ايران بعد الحرب العالمية الثانية · نحاوره في منزله المتواضع ، حيث يجلس حوله رهط من عمماء الدين ، يدخل بعض الرجال مع اوراق ، فيوقعها ·

● ما هو الفرق بين الديمقراطية الاسلامية والديمقراطية الغربية ؟ وما هو رأيكم في مسألة تعدد الاحزاب ؟ وهل تعتقدون بامكانية السماح للاحزاب الماركسية بالعمل ؟

□ الديمقراطية الاسلامية تعني ان مبدأ القدرة يجب ان يكون بيد الشعب . بمعنى ان يحكم الشعب نفسه بنفسه ، وان لا يفرض عليه حكم الاستبداد والاستعمار · ولهذا يجب ان تكون هناك انتخابات حرة وبرلمان ومجلس شورى · فالشعب هو الذي ينتخب ممثليه الى مجلس النواب ، الذي يعطي ثقته للحكومة الشعبية · وبما ان الاكثرية الساحقة من الشعب الايراني مسلمة ، فلا بد وان ينعكس هذا الواقع في البرلمان والحكومة · ولهذا تكون ديمقراطيتنا اسلامية ، اي تكون في ظل التعاليم الاسلامية ·

اما حقوق المرأة السياسية ، فنحن نعتقد ان المرأة تتمتع بجميع الحقوق · ولكن في الاسلام ، فان قضية امتزاج الشابات بالشباب هو امر غير مسموح · وهذا سينعكس على حق المرأة في دخول البرلمان ·

على ضوء هذه القناعة ، فنحن نعتقد بضرورة وجود الاحزاب السياسية المتعددة ، حتى لا نسقط في الاستبداد الحزبي ، فنحن لا نؤمن بالحزب الواحد ·

اما الاحزاب اليسارية فاننا نسمح لها بالعمل ضمن شرطين : الاول هو ان لا تمت بصلة الى دول اجنبية ، والثاني ، هو ان لا يكون العنف هو وسيلتها في العمل السياسي · اما من ناحية العقيدة ، فنحن نؤمن بحرية العقيدة ، واذا كان لليساريين عقيدتهم فهم احرار ، كما ان الرد على العقائد ونقدها سيكون حرا ·

● ما هو في تقديركم دور المراجع الدينية في العمل السياسي ؟ وهل تميزون بين الحكومة والمرشد ؟ وما هي العلاقة بين السلطتين الحكومية والدينية ؟

□ خلال الحكم البائد ، كانت ايران تعيش في ظل الدكتاتورية ، ولم يكن لاحد القدرة على معارضة الحكومة · وكان علماء الدين خاضعين لضغط خاص من قبل السلطة · ولكن مع تغير الاوضاع الدولية (والمقصود هو رفع شعار حقوق الانسان ، وتحرر بعض الدول) اضطرت الحكومة ان تأخذ طابعا ديمقراطيا شكليا · ولكن على المستوى العملي ، كانت حكومة استبداد وقهر · هنا جاء دور المراجع الشيعية ، وانا من بينها ، فقد قمنا بالاعتراض ، وبدأنا بالمعارضة

عن طريق المحاضرات والبيانات واشرطة التسجيل التي انتشرت في البلاد · وقدمنا الحلول للحكومة ، التي رفضتها ، وتصورت انها تستطيع اسكات الجماهير بالعنف والنار · غير ان معارضتنا استمرت الى ان سقطت الحكومة· ولعبنا نحن في هذه المراحل دور المرشد · والآن جاء دور البناء وتشكيل الحكومة المؤقتة · وفي هذه المرحلة فاننا نلعب الدور الارشادي نفسه ، وبما ان الحكومة تسير في طريق الحق فاننا نؤيدها ، واذا غفلت عن العمل الصحيح فسننبهها، اما اذا فعلت خلاف ذلك ، فسنقوم بما قمنا به سابقا· والشعب سوف يؤيدنا كما برهنت التجارب ·

● كيف تقيمون عمل مجلس قيادة الثورة الاسلامية ، وعمل الحكومة الثورية المؤقتة ؟

□ الحكومة الجديدة جاءت الى السلطة في ظروف غير عادية ، ولم تستطع ان تسيطر على الوضع بشكل كامل · فهذه الحكومة تحتاج الى تأييد ، ونحن نؤيدها ·

اما مجلس قيادة الثورة الاسلامية فنحن لم نتدخل فيه · لنا اتصال يومي بالحكومة ، اما مجلس قيادة الثورة فنحن لا نعرف عنه شيئا ·

● هل هناك اتفاق بين المراجع الشيعية حول مستقبل ايران السياسي ؟ وهل يمكنكم تحديد وجهة نظركم بشأن هذا المستقبل ؟

□ لقد جرت الاحداث والامور بسرعة شديدة بعد اسقاط الحكومة البائدة · ولم يمهلنا الوقت لعقد اجتماع بين المراجع نتشاور فيه حول مستقبل ايران السياسي · اذ يجب ان يكون لنا في المستقبل مجلس شورى ، حيث تتبادل المراجع وجهات النظر ، وترسم سياسة المستقبل ·

نحن نعتقد ان النظام العادل هو الذي يجب ان يتحقق · وحكومة الشعب على الشعب ، اي الحكومة الديمقراطية هي التي يجب ان تحكم بشكل عادل ، خاصة بالنسبة للاقليات الدينية غير الاسلامية ، التي تستطيع التمتع بالنظام العادل · فابناء هذه الاقليات هم مواطنون ايرانيون ، ونعاملهم بحرية ، ونوفر لهم الامن ·

اما بالنسبة للشعوب الاسلامية ، فان تعاوننا معها يجب ان يكون وثيقا ، وخاصة الشعب الفلسطيني الشريف · اما الشعوب غير الاسلامية ، فهناك الآية الشريفة التي تقول : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في دينكم ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروا اليهم وتحسنوا · » وهذا ينطبق على جميع الدول ما عدا اسرائيل وجنوب افريقيا ·

مع آية الله شريعتمداري تتضح اشكالية الاستقطاب السياسي في ايـران · لكن هذا الاستقطاب يبدو صحيا وضروريا · انه هواء الديمقراطية الذي يتنفسه الشعب الايراني بعد عهد طويل من القهر والاستبداد ·

هناك مسألتان هامتان : الاولى هي مسألة الافق السياسي والاجتماعي لايران ما بعد الثورة ، والثانية هي مسألة الجيش ، واخطار الانقلاب العسكري ·

حول المسألة الاولى أجاب **الدكتور ابرهيم يزدي** نائب رئيس الحكومة لشؤون الثورة ، وهو الذي كان برفقة عرفات طيلة اقامتـه في ايران ، وقد التقينـاه صدفة في السادسة صباحا · ذاهبا الى مكتبه في مبنى رئاسة الوزراء · وفي الحوار القصير الذي اجريناه معه ، كان يزدي يحاول ان يشير الى الافـق الثوري الايراني ، بالقليل من الكلام ، وبالكثير من انتظار نضج الظروف التي ستحدد هذا الافق ·

● هناك سلطتان في ايران ، سلطة رجال الدين وسلطة الحكومة ما هـي العلاقة بين السلطتين ؟

□ القادة الدينيون يتبعون خطى الامام الخميني ، والخميني هو مرشـد الشعب ، لذلك فسيلعب القادة الدينيون هذا الدور ، وهذا يعني انه لا وجـود لسلطتين مختلفتين ·

غير ان الاساسي الذي اشارت اليه ثورتنا هو تأكيدها على الدور الثـوري للاسلام · فلقد برهنا على ثورية الاسلام وقدرته على تعبئة الجماهير بشكـل فعال · وهذا سيكون نموذجا جيدا تستطيع شعوب اخرى الاحتذاء به · كما ان الافكار حول الاسلام بدأت تتغير وتأخذ وجهة جديدة ·

● كيف تقيمون دور ايران في المنطقة ؟

□ نحن لا نصدر الثورات ، ندعو جميع الشعوب المسحقوقة للنهوض ، لكننا لا نستطيع ان نقوم بالثورة عنها · نحن لا نستطيع ان نقوم بالدور الذي على المصريين القيام به · ولكن حين يبدأون فاننا سنكون على استعداد لمساعدتهـم كما اننا لا نريد ان نكون شرطي المنطقة ·

● ما هو موقفكم من الدول الكبرى ؟

□ سوف نقيم علاقات صداقات مع جميع الدول ، طالما لا تتدخل في شؤوننـا الداخلية · اما اذا اختارت اميركا ان تكون عدوة لشعبنا فمـاذا نستطيع ان نفعل · ان علاقاتنا مع جميع دول العالم تقوم على اساس احترام المصالـح الايرانية ·

● ما هي العلاقة بين الجيش النظامي وحرس الثورة الاسلامية ؟

□ اولا ان الجيش الايراني سينخفض عدده كثيرا، فنحن لسنا بحاجةالىجيش بهذا الحجم · ودور الجيش النظاميسيقتصر على حماية حدودنا · اما دور حرس الثورة الاسلامية فسوف يكون حماية الثورة · وحماية امن المدن والقرى، كما سيلعب دور حماية الثورة على المستوى السياسي ·

● وماذا بشأن الاحزاب ؟

□ حركة الامام الخميني هي حركة الامة بأسرها · بعض المنتسبين الى الحركة اسسوا حزبا · لكن الحركة هي حركة الامة ·

وحول مسألة انشاء ميليشيا شعبية ، ودور الجيش ، تحدثنا مع **ابو احمد مذنظري** · (وابو احمد هو الاسم الذي نعرفه به في الثورة الفلسطينية) ، يلعب اليوم دورا بالغ الاهمية في قيادة وتأسيس حرس الثورة الاسلامية ·

● ما هي مهمات حرس الثورة الاسلامية ؟

□ الهدف المباشر هو ضبط الامور من الناحية الامنية في البلاد · اما هدفنا البعيد المدى فهو انشاء حرس اسلامي قوي يستطيع ان يحافظ على الثورة الاسلامية ، ويسمح لنا بأن نؤدي دورنا في المنطقة والعالم الثالث · وانا اقول انه يمكن لهذا الحرس ان يشارك في القتال من اجل فلسطين · اما علاقتنا بالجيش النظامي فتتم عبر مجلس قيادة الثورة الاسلامية وعبر الحكومة ·

● ما هي علاقة الحرس بالحركة الاسلامية ؟

□ الحركة الاسلامية هي التي انشأت الحرس في سبيل تحقيق اهدافها الثورية، والذين سينضمون الى الحرس الاسلامي يجب ان يكونوا في خط الثورة الاسلامية ، وهنا لانميز في الدين ، اذ يمكن للمسيحيين الدخول في حرس الثورة ، وحرس الثورة لا ينتمي الى اي حزب من الاحزاب ، اذ هو سيعمل بالتعاون وباشراف الحكومة المنتخبة · ونحن نتوقع ان يصل عددنا الى حوالي خمسة ملايين ، وبهذا يستطيع حرس الثورة ان يلعب دورا مؤثرا ، ويمنع اي انقلاب عسكري ·

● من يعين قيادة حرس الثورة ؟·

□ قيادة الحرس معينة من قبل مجلس قيادة الثورة والحكومة ·

● ولكن ما هو موقفكم من قضية تسليم اسلحة التنظيمات السياسية الاخرى ؟

□ هل يسمح في اي بلد بوجود جيوش مختلفة · فهناك جيش واحد · وهنا ايضا سيكون جيش واحد وحرس اسلامي واحد ·

ايران هي داخل جدل الخيارات المتعددة · والوصول الى لحظة الاختيار لا تعني انتفاء الخيارات الاخرى · فالثورة الايرانية لا تستطيع ان تكون ، الا بهذا التعدد الذي يسمح للمنتجين بالتعبير عن انفسهم وعن تطلعاتهم · فهل تقدم ايران تجربتها الخاصة في الحرية ؟ وهل تكون الثورة في المنطقة هي افق هذه الحرية ؟

ـ ٦ ـ

قم هي عاصمة الثورة · نبتعد عن طهران المليئة بصخب وانتفاخ مدن رأسمالية الاطراف الهجنية ، وندخل في قم ، حيث تمتزج رائحة الريف برائحة السيراميك · وحيث تمتد محلات بيع الساهون في الشوارع · المدينة المقدسة هي مدينة الثورة · من هناك انطلقت الشرارة ، عندما دخل السافاك المدرسة الفيضية واقتحمها · وهناك انتصرت الثورة ، فعاد الخميني الى المدينة التي اخرج منها طريدا ، بعد ان تم اقتلاع حكم الشاه ·

مدينة صغيرة ، عدد سكانها حوالي ٧٥٠ الف نسمة ، تنتشر في سمائها القباب الذهبية والقباب الزرقاء · الفقر يشبه التقشف الطوعي · كل شيء في هذه المدينة فقير كمدارسها · الملاءات السوداء تملأ الشوارع ، سيارات قليلة . صراخ اطفال يلعبون في الساحات · فتيات صغيرات جميلات يمشين جماعات بملاءاتهن السوداء ، هنا نمشي ، لان الشوارع تضيق · وفي طهران كنا نمشي لان السيارات لا تستطيع التحرك من شدة ازدحام السير · هنا المحلات المنتشرة متراصفة ، وهناك في طهران يبرز البازار بأزقته المتداخلة ، وباختلاط بضائعه شاهدا على احد اهم الاضرابات التي حدثت في التاريخ واكثرها طولا ·

هذه هي مدينة قم المقدسة التي تستقبلك بيافطة كبيرة كتب فيها : « تحت رعاية الامام المنتظر المهدي ، مقدم مبارك لنائب الامام الخميني » · وعلى الحيطان كتابات وشعارات · « تحية للذين انتخبوا الموت » · في الشارع يقف رجل على الرصيف وهو يغسل التفاح داخل كيس من النايلون · لا يوجد اي دار للسينما في المدينة · يوجد حوالي ٢٠ الف رجل يدرسون العلوم الدينية . يعيشون في مدارس داخلية ، يتقاضى الواحد منهم مرتبا شهريا يقدر بحوالي ٤٠٠ تومان (٩ تومان = دولارا اميركيا) · يأكلون بتقشف ، واكثريتهم تأتي من فقراء الريف ·

ندخل مدرسة خان للعلوم الدينية · تتألف المدرسة من ثلاثة دور ، حجارتها من الاجر الاحمر الذي بدأ لونه يميل الى الخفوت · المدرسة على شكل مربع حول باحتها الداخلية · وداخل هذه الباحة قام رجال السافاك برمي الكتب الدينية وضرب الطلبة · يدرس فيها حوالي ٢٠٠ طالب ، يتوزعون في غرف صغيرة · طول الغرفة حوالي خمسة امتار وعرضها ثلاثة امتار ، لا اثاث في داخلها ، فقط سجادة قديمة ، وهنا يعيش حوالي عشرة طلاب ·

يحدثنا احد تلامذة مدرسة خان · يروي انه يدرس ويدرس فيها منذ اكثر من خمس سنوات · وان الدراسة تشتمل على الادب العربي والادب الفارسي والفقه والمنطق والفلسفة والاصول وتفسير القرآن · مدرسة خان كانت خلال الثورة مركز النشرات السرية · فقد لعبت المدرسة دورا هاما في الثورة ، حيث كان ينطلق منها رجال الدين من اجل قيادة التظاهرات ، وتوزيع الكتب والاشرطة والمنشورات السرية على الجماهير · وقد قامت السلطات باقتحام المدرسة في منتصف الليل قبل حوالي ثلاثة اشهر ، وكسرت الزجاج واطلقت النار على الطلاب ، حيث اصيب بعضهم بجروح ·

نصعد طبقات المدرسة الثلاث ونصل الى السطح · فتبرز القباب · الى يسارنا مآذن لونها ازرق فاتح ، وفي الوسط قبتان ، احداهما كبيرة زرقاء والثانية ذهبية ، هنا مقام اخت الامام الرضا ، المعصومة · الى الجنوب تبدو المدينة ككومة من الحجارة المرمية في السهل الفسيح · وفي وسط كومة الحجارة هذه ، تبرز قبة كبيرة زرقاء وقبة بعيدة خضراء · اشجار الصنوبر حولنا ، والى اليسار حديقة تتوسطها بركة ماء · والبركة عبارة عن برك متداخلة · الآذان يختلط بنشيد الله اكبر الذي يبثه راديو الثورة · الى الشرق جبل عار ، ووراءه جبل مغطى بالثلج ·

نسأل عن المدرسة الفيضية حيث كان الامام الخميني يعطي دروسه قبل نفيه· انها هناك · قرب القبة الذهبية حيث المقام · ننزل ونمشي في الاسواق من اجل الذهاب لزيارة الضريح · ولكننا عوض الذهاب الى الضريح مباشرة نذهب الى منزل احد الاصدقاء الايرانيين · وهناك يروون لنا كيف انتصرت الثورة في مدينة قم ·

رأينا اولا القنابل اليدوية التي صنعها الثوار · ماسورة ماء محشوة بالكبريت ، يخرج منها فتيل متفجر · كنا نلقي هذه القنابل على طليعة قوات السلطة التي تحاول قمع التظاهرات · بعد تفريقهم تخرج تظاهراتنا الصاخبة· كثيرون قتلوا او فقدوا ايديهم وهم يصنعون هذه القنابل ، ولكن لم يكن امامنا من وسيلة اخرى · كانت التظاهرات تتجمع في صحن الجامع وتنطلق · ثم

بعد انتفاضة طهران ، تساقط كل شيء دفعة واحدة · قام العقيد خلخالي قائد الشرطة بتسليم اسلحة قواته ، ووضعت الاسلحة في منزل آية الله يزدي، حيث تم توزيعها على الثوار · اما الجيش فقد استسلم دون قتال ، واقامت لجنة المدينة رقابة شعبية على مخازن سلاحه ·

آية الله محمد يزدي ، رئيس لجنة الخميني في قم ، يقسم الثورة الى ثلاث مراحل : **المرحلة الاولى** ، هي خروج الاسلام تدريجيا من كونه يهتم بمسائل العبادة فقط ، كما كان يشيع الاستعمار ، الى الانخراط في النضال السياسي الشعبي · **المرحلة الثانية** ، هي مرحلة منفى قائد الثورة الامام الخميني ، حيث راح الامام يذيع محاضراته وبياناته بمختلف الوسائل ، مما ساهم في انتشار الوعي وفي قيام اشكال نضالية تتمثل في التظاهرات والاضرابات والاعتصامات · **المرحلة الثالثة** ، هي التحدي ومواجهة القوة العسكرية وتقديم الاف الشهداء · وقد اشار الامام الخميني الى هذه المرحلة حين قال : « يوم انتصر الدم على السيف» · نخرج الى شوارع المدينة الضيقة، حيث قبب الاسواق الطينية مفتوحة على الفضاء ، وحيث يختلط راكبو الدراجات الهوائية بعربات الفواكه والخضار · نرى سيارة شحن صغيرة محملة باجهزة التلفزيون ، والناس حولها · يخبرني مرافقي انه بعد الثورة بدأت الناس تقتني اجهزة التلفزيون بكثرة · في الماضي ، كان هناك اجهزة في المدينة ، لكنها قليلة العدد نسبيا ، اما الآن وبعد ان اصبحت البرامج اسلامية ، فان الناس تريد اقتناء الاجهزة · ثم يروي كيف انه خلال فترة الثورة ، كان عمال الكهرباء يضربون ساعة واحدة في اليوم · بين الثامنة والتاسعة مساء ، وذلك لان التلفزيون يبث الاخبار الحكومية في الثامنة والنصف ·

ندخل حرم المسجد الذي يقودنا الى مقام حضرة المعصومة · على جانبي الباب الخارجي محلات لبيع السبحات والخواتم الذهبية ، ندخل صحن الجامع الكبير ، ثم نقف امام مدخل الضريح · النقوش المذهبة ثم القبة المذهبة ، ومدخل ابيض تلتمع المرايا الصغيرة على جدرانه · في الوسط صورة صغيرة للامام الخميني · وعلى الارض ، تجلس النسوة المحجبات شبه الباكيات · ووسط القوس ، تتدلى ثريا من الزجاج الاحمر ·

باب الضريح مذهب ، والنساء يتمسحن به ويبكين · رجل اعمى يقف ويرتل مظلومية الائمة ، وحوله ترتفع شهقات البكاء والادعية ·

نقرأ على باب الضريح هذه الكلمات : « روى خاتم المحدثين العلامة المجلسي قدس سره في البحار عن بعض الكتب المعتبرة عن علي بن ابرهيم القمي عن ابيه عن سعد بن علي عن علي بن موسى الرضا عليه السلام قال يا سعد عندكم لنا

قبر قلت جعلت فداك قبر فاطمة بنت موسى عليه السلام قال نعم من زارها عارفا بحقها فله الجنة » ٠

نتقدم من الضريح ، حيث الرجال والنساء كالدائرة التي لا تتوقف ٠ فتحات صغيرة في الضريح ترمى منها الرسائل ٠ وفي الداخل نعش مغطى بالقماش الاسود ، رائحة ازهار قديمة وكتابة « يا فاطمة الزهراء » ٠

نخرج من الضريح الى قاعة وردية من الصخر الذي حفرت عليه آيات قرآنية ٠ في وسط القاعة قبر شاه عباس الصفوي ، وهو من الرخام الذي يرتفع حوالي ٥ سم عن الارض ، والناس تدوس فوقه دون اي اكتراث ٠

في الجامع ، حيث يجلس بعض الرجال ويصلي بعضهم الآخر ، نوافذ صغيرة على شكل دائرة في السقف ، وقد كتبت عليها اسماء الائمة بحسب التسلسل التالي ٠ الله جل جلاله ، محمد رسول الله ، علي ولي الله ، فاطمة الزهراء ، الحسن بن علي ، الحسين بن علي ، علي السجاد ، محمد الباقر ، جعفر الصادق ، موسى الكاظم ، علي رضا ، محمد الجواد ، علي الهادي ، الحسن العسكري ، الحجة المهدي ٠ هنا ، في القاعة الفسيحة في الجامع ، كان الامام الخميني يعطي دروسه الدينية ٠ وهنا سوف يعود لاعطاء دروسه ، كما قال لنا علماء قم ٠

نخرج من المسجد الى شوارع المدينة ٠ ليل واصوات المؤذنين ، ونجوم تنتشر في فضاء لا يتناهى ٠ رائحة الرمان ورائحة الساهون ٠ ورجال الميليشيا ينتشرون في الطرقات ٠ يبتسمون حين يشاهدون بطاقتنا الفلسطينية ٠ يقولون كلمة السر ، ونسير الى طهران ٠ كلمة السر تتغير ، حواجز المسلحين تتكثف ٠ شيء ما يذكر ببيروت ٠ لكننا لا نزال في بداية الثورة يقول صديقي الايراني ٠ ونحن كذلك اجيبه ٠ ـ انتم تتواضعون ـ وانتم كذلك ٠ لكنها البداية ، جميلة ومليئة بالاسرار ٠

ـ ٧

تبدو التجربة الايرانية غامضة في سريتها ، وكأن الافق الذي تبشر به مليء بالاحتمالات ٠ الثورة التي قاد تظاهراتها رجال لبسوا اكفانهم ، تبدو في لحظة الاختيار الصعبة والحقيقية ٠

فهي تواجه العديد من الاخطار ٠ خطر التفكك وتقسيم البلاد ، الذي يبدو اليوم خطرا مستبعدا ، لكن واقع التركيب السكاني لايران ١٠ ملايين من التركمان ، ٦ ملايين كردي ، ٣ ملايين عربي ، ٣ملايين بلوش ٠ في بلد تعداد سكانه هو حوالي ٣٥ مليون نسمة ٠ وبسبب هذا الواقع ، فقد رفضت قيادة الثورة تفكيك الجيش ٠ لان انهيار الجيش بشكل كامل ، في ظروف بدايات الثورة

يحمل معه اخطار التدخل الخارجي · خاصة وان الاقليات عانت الكثير من الاضطهاد القومي خلال فترة الحكم الشاهنشاهي ·

وهي تواجه اخطار النمو · اخطار بناء جيش شعبي حقيقي ، يستطيع ان يحمي الثورة من المغامرين الصغار عملاء الامبريالية · واخطار الخيارات الديمقراطية · حيث يبدو المجتمع المدني لاهثا خلف حرياته التي بدأت مع الثورة · وحيث العملية الاجتماعية المعقدة التي تسبق ولادة التوازن الشعبي الحقيقي الذي يبني الدولة ·

وهي تواجه اخطار العدو الاميركي ، الذي لم يلق سلاحه بعد · والذي يحاول استعادة قواه المنهارة ، من اجل الانقضاض على الطابع الثوري الذي بدأت تبشر به ايران الجديدة ·

تماثيل الشاه ملقاة على الطريق ، بعضها مقطوع الرؤوس ، وبعضها مكسور الاعضاء · لقد انتهى عصر المتوحش الامبريالي فما هي سمات العصر الجديد ؟

لا اعلم لماذا تذكرت مصر · كنا نمشي في ساحة شاهياد سابقا ، والتي سميت ساحة الحرية · طهران الفسيحة امامي ، بازمة مواصلاتها الخانقة ، وبنسائها السافرات والمحجبات · وفجأة بدت القارة جميلة في اغلالها · هل نحن نعيش شكلا جديدا من اشكال النهضة الشعبية · كيف يستطيع الخميني ان يوجد في شخصه ورمزه مصدق وعبد الناصر داخل هذا البعد التاريخي الثقافي الجديد ؟ ·

وماذا لو ايران ومصر وتركيا · العالم القديم بكل مخزونه التاريخي والحضاري · ماذا لو انهارت الانظمة وتهاوت العروش ؟ ماذا لو تحول النفط الى نفط فقط ؟·

هـادي العـلوي

نسـخ الشـريعة في الـتراث الشـيعي

النسخ في اللغة هو ازالة الشيء واحلال اخر محله ، ومنه اخذ النسـخ بمعنى الاستنساخ · وظهرت الكلمة كاصطلاح في ادبيـات الاسـلام الاولـى ، حيث استخدمها القرآن بهذا المعنى التركيبـي المنطـوي على تزامن الازالة والاحلال · ويطلق على موضوع الازالة اسم المنسوخ ، وموضوع الاحلال اسـم الناسخ · والناسخ والمنسوخ من الظواهر القرآنية المجمع عليها الا من اشتات لا ينخرق بهم الاجماع · وفي القرآن نصوص تصرح بوقوع النسخ في الآيـات جاء احدها ردا على تشنيع ضد النسخ صدر من بعض خصوم النبي :

« واذا بدلنا اية مكان اية والله اعلم بما ينزل قالوا انما انت مفتر · بـل اكثرهم لا يعلمون » (١٠١ ـ النحل) · وتتضمن هذه الآية شرحا لمعنى النسخ في القرآن واللغة وهو وضع آية مكان آية ، اي نسخ آية باخرى · بينمـا اشارت الآية (١٠٥ ـ البقرة) الى النسخ بلفظه : « ما ننسخ من آية او ننسها نأت بخير منها او مثلها »· والانساء متعد من النسيان ، وهو زيادة في العبارة اقتضاها تنظيم السياق ·

وقد كتبت عدة مؤلفات لاستقصاء الناسخ والمنسوخ ، منها كتاب « هبة الله ابن سلامة » من السنة وكتاب « العتائقي الحلي » من الشيعة ، وهما مطبوعان وكتاب « العابدي » من السنة (مخطوط) وتحمل هذه الكتب عنوانا واحدا هو « الناسخ والمنسوخ » · ويقسم المفسرون الناسخ والمنسوخ الى ثـلاث حـالات :

١ ـ ما نسخ حكمه وبقيت تلاوته ، وهو الاكثر ورودا ·

٢ ـ ما نسخت تلاوته وبقي حكمه ·

٣ ـ ما نسخ حكمه وتلاوته ٠

وثم خلاف حول الثاني والثالث يتسع حتى يتناول المحذوف من القرآن على سبيل النسخ او المراجعة ، وهما من اجراءات عهد الرسالة ، او الانتقاص الذي يراه بعض الشيعة كما سيأتي ٠ على ان مسألة النسخ قد تجاوزت التفسير الى علم الكلام الذي خرج بها من حدود النسخ القرآني الى مسألة نسخ الشرائع ٠ وكان ذلك حين اضطر المتكلمون المسلمون الى مجابهة اعتراضات اليهود والمسيحيين ضد نبوة محمد وشريعته ٠ وكان أحد أهم هذه الاعتراضات منصبا على خلود الشرائع السماوية وعدم جواز نسخها ، وبالتالي عدم شرعية نسخ المسيح لشريعة موسى ، اي عدم صحة نبوته فيما يتعلق باليهود ، وعدم شرعية نسخ محمد لشريعتي موسى وعيسى ، اي عدم صحة نبوته فيما يتعلق باليهود والمسيحيين على السواء ٠ وقد فرض ذلك على المتكلمين المسلمين البرهنة على نسخ الشرائع كمبدأ ضروري يترتب على تعاقب الرسل واختلاف شرائعهم ٠ واشهر من تعرض لهذه المسألة ابن حزم الظاهري الذي ناقش متكلمي الديانتين في جواز النسخ ، وقدم البراهين عليه في كتابه المعروف « الفصل في الملل والنحل » ٠ ويهدف القول بالنسخ الى الدفاع عن نبوة محمد والاقرار بشريعته كبديل عن شريعتي عيسى وموسى ٠ ومن الجدير بالذكر ان الاسلام اعترف بسماوية الشريعتين ، وتجاوز في الوقت نفسه احكامهما في العبارات والمعاملات ٠ ويتضمن هذا الاعتراف والتجاوز في حد ذاته مسلكا عقلانيا يقوم على الجمع بين احترام الشرائع الماضية وتعديلها في آن واحد ٠ وقد واصل الاسلام هذا النهج الدقيق بعد ان اصطدم باتباع الانبياء السابقين فلم يحمله رد الفعل على التسفيه الذي غالبا ما تخضع له الاطراف المتصارعة ، ولم يتراجع في نفس الوقت عن مقتضيات مرحلته التاريخية لحساب التكريم الذي اختص به اسلافه ٠ ويمثل هذا الموقف ايضا في النسخ القرآني ، فقد مر بنا ان الحالة الاكثر ورودا من حالات النسخ هي ما نسخ حكمه وبقيت تلاوته ، لكن الآيات المنسوخة التي بقيت في القرآن لم تفقد قدسيتها بزوال حكمها وهي تتلى كما يتلى غيرها على سبيل الذكر او استكمال الفرائض ، كالقراءة في الصلاة ، بوصفها جزءا من الوحي المتضمن في القرآن ٠

على ان مسلك القرآن في النسخ ودفاع المتكلمين عنه يقف على حافة مفارقة جديرة بأن تخلق ازمة في الذهن الاسلامي ، وذلك حين يضع في الحسبان اثارته المحتملة للسؤال عما اذا كان المبدأ الذي صح على شريعتي موسى وعيسى لا يصح على شريعة محمد ؟ ان البراهين التي ساقها المتكلمون على جواز النسخ لا تخص شريعة بعينها وانما انصبت على جوازه كمبدأ ٠ ولم

يكن في وسع المتكلمين توجيه براهينهم غير هذه الوجهة اذا اريد لآرائهم ان تحظى بفهم مشترك كمسائل عقلانية تتعين في اطار مبدئي شامل · لكن المبدأ يفقد عقلانيته في التخصيص ، ويمكن بالتالي ان يوفر للطرف الآخر مسوغا لمصادرات مماثلة ، لماذا يجوز نسخ آية دون اخرى ؟ ولماذا يجوز نسخ شريعة دون اخرى ؟ ان التخصيص يلغي الاساس البرهاني لهذا المبدأ ويجعله غير مفهوم ، فهو اذا صح كان ملزما لجميع الاطـــراف ، والا كان ضربا مـــن التعسف المنطقي · وما دام الجدال حاصلا في دائرة البرهان دون الايمان فـان الخصم يملك القدرة على الالزام بنتائجه مـا لـم يحسم الجدال برجـوع كـل طرف الى مسلماته على طريقة الحشوية واهل الحديث ·

نجد لدى الرجوع الى تاريخ الاسلام ، ان هذه التساؤلات قد طرحت فعـلا ولكن بطريقة اخرى · وبقدر ما يتعلق بالمدافعين عن النسخ من المتكلميـن السنة فان المسالة بدت خاضعة لروح الاستذهان السني الذي اتسم بأسلوب الجزم الرادع ، المستمد من الممارسة الطويلـة الامـد للسلطة الروحيـة والزمنيـة · ومحور اهل السنة هنا هو الحديث المنسوب الى النبي محمـد : « حلال محمـد حلال الى يوم القيامة وحرامه حرام الى يوم القيامة » · وتبعا لذلك لم ير الفكر السني حاجة للسؤال عما اذا كان اليهود والمسيحيون هم المخاطبين وحدهم بنسخ الشرائع · وتشترك في هذا المنحى طوائف السنة المختلفة من ايمانييهم، أهل الحديث ، الى عقلانييهم ــ الاشاعرة ·

ونأتي الى الشيعة ·

ان هذه الفرقة كغيرها من الفرق الاسلامية ذات فروع عديدة ، وان كـانت تنقسم الى ثلاث طوائـف كبرى هـي الاماميـة ــ الاثنـي عشريـة ، الزيديـة والاسماعيلية · وهناك تفرعات صغيرة يمثلها افراد ، كأصحاب ابي الخطـاب والشلمغاني ، او مجموعات داخل الفرقة الواحـدة كما هـو الحال فـي الاسماعيلية · وللشيعة بوجه عام خصوصيتها ، التي تتأكد في افكار وممارسات يتشكل منها خط منفصل ، بدرجـات متفاوتـه ، عـن الخـط السلفي الـذي سار فيه اهل السنة · ويرجع ذلك الى جملة عوامل يمكن ان نرى في مقدمتها ان الشيعة وجدت خارج السلطة ونضجت في المعارضة قبل ان يتهيأ لبعض خطوطها الوصول الى السلطة في امكنة وازمنة معينة · وقد منحها ذلك قدرا من مرونـة التفكير يتناسب مع تحللها من ضوابط الوضع الرسمي · ومن المعلوم من الناحية الاخرى ان الشيعة تحركت في اكثر من بيئة وتشكلت بنيتها التنظيمية من عناصر تنتمي الى اصول اجتماعية وحضارية مختلفة ، مما عرضها بدوره لتأثيـرات خارجيه ساعدت على استضافتها معتقدات وممارسات لا تتطابق بالضرورة مـع الاصول الدينية للاسلام · وقد عني البحث المعاصر باستقصاء هذه التأثيـرات

كمحور للظاهرة الشيعية على امتداد تاريخها · ويبدو لي مع ذلك اننا لن نستطيع تقدير هذا الدور جيدا ما لم ندرس خلفية النشأة وملابسات الموقع الذي تحددت فيه الحركة الشيعية من خلال المرحلة الاولى لصراعاتها ·

فلنرجع الى البداية · لقد ظهرت الشيعة كما قلنا خارج السلطة الاسلامية كمقابل ، وربما كنقيض ، لها وخاضت الصراع ضد عناصر اسلامية صرفة تتمثل في خلافة ابي بكر وعمر المدعومة باغلبية الصحابة ، ثم ضد الخلافة الاموية بدءا من عثمان · وقد واجهت في اثناء ذلك وضعين متعارضين يتشكل الاول من مؤسسي الاسلام ، والثاني من خصومه · وكان عليها ان تحدد موقفا ايديولوجيا ازاء ذلك يبرر لها المعارضة · ومن هنا كان الاستناد الى القربي في الصراع ضد الفريق الاول ، حيث امكن القول ان اهل بيت النبي اولى بخلافته من اصحابه · وهي حجة صيغت ببراعة ، لكنها لم تنقذ القائلين بها من الاشكال الناجم عن مجابهة زعامات كانت موضع ثقة النبي ، وكانت لها اشواط في تأسيس الاسلام ، دينا ودولة تعادل او تفوق ما قام به اهل البيت ، باستثناء علي بن ابي طالب · ومن الجدير بالملاحظة في هذا الصدد ان المعارضة الشيعية الاولى انحصرت بين اقلية من الصحابة لا تتجاوز بضعة افراد ، وهو ما تشير اليه رواية عن جعفر الصادق تقول : كان الناس اهل ردة بعد النبي الاثلاثة ، المقدار بن الاسود وابو ذر الغفاري وسلمان الفارسي (١) · وقد تفاقم الاشكال في خلافة علي حين اضطر الى خوض الحرب ضد ثلاثي الجمل المؤلف من زوجة النبي الاثيرة وصحابيين من العشرة المبشرة · وكان لهذه الحرب تأثيرات سلبية بين اتباع الامام علي لانها موجهة ، فضلا عن قدسية القيادة ، ضد جيش مسلم · ولذلك يشار الى علي بن ابي طالب بانه « اول من علم قتال اهل القبلة » ، اي اول من وضع المبادىء التي تحكم القتال بين المسلمين بوصفه اول من خاض هذه التجربة بشكل فرض عليه تبريرها دينيا · وفي حرب صفين ، تراجعت الاشكالات موقتا حيث استطاعت القيادة الشيعية استغلال تاريخ الامويين المناوىء للاسلام لاظهارهم كمشركين سابقين يطلبون ثأرهم في بني هاشم · على ان ذلك لم يجنبهم ردود الفعل الدينية التي اثارتها مكيدة رفع المصاحف حين انشقت الفئات المتدينة في جيش علي (القراء) وفرضت عليه وقف القتال احتراما لكتاب الله وتجنبا لسفك المزيد من دماء المسلمين · وربما كانت هذه اول مجابهة بين الموقف الشيعي والموقف السلفي · ويحتمل انها لم تخل من افرازات ايديولوجية اذ يتردد في بعض مصادر الشيعة كلام ينسب لعلي وضع فيه نفسه مقابل القرآن : هذا كتاب الله الصامت وانا كتابه الناطق · وذلك ردا على مطالبة القراء بوقف القتال والاحتكام الى القرآن · وقوله لابن عباس حين انتدبه لمفاوضة الخوارج ونهاه عن مجادلتهم بالقرآن لانه (حمال اوجه) · وفي هذه العبارات ، سواء صدرت من علي او كانت اختلاقا

شيعيا لاحقا ، شيء من التساهل تجاه كتاب المسلمين المقدس ٠

مع استمرار الصراع ضد الامويين كانت المذابح تتوالى ضد الشيعة وائمتهم فتثير سؤالا مصحوبا بشيء من الدهشة عن موقف المسلمين ٠ ورغما عن ان هذا السؤال قد يتخطى الامويين الاوائل المشكوك في ايمانهم فانه يبقى محوما حول الايدي المنفذة ، حول الجهاز الضخم من المؤمنين العاملين في معية بني امية او المتعاونين معهم ٠ وقد جاء السؤال مبكرا في صيغة شكوى جأر بها حجر من عدى (٢) ٠٠ اللهم انا نستعديك على امتنا فأن اهل العراق شهدوا علينا واهل الشام قتلونا ٠ وحين يقول عبد الله بن عمر لنفر من مسلمي العراق استفتوه في جواز قتل البعوض : تسفكون دم الحسين وتسألون عن دم البعوض ٠ فأنه يعبر عن شعور مر بالمفارقة كان يعتمل احيانا خارج الوسط الشيعي ٠ وبظهور العباسيين دخل السؤال نقطة التازم ، فالخلفاء الجدد من بني هاشم اى فصيلة من اهل البيت ليست بالضرورة اقل تمثيلا للدين من ائمة الشيعة ، وقد اعلنت الخلافة ممثلة في اوائل خلفائها حربا ضارية على الزندقة تساوقت مع حربها ضد الشيعة ضمن تاكيدها للحقيقة الدينية التي ينطوي عليها مجيء العباسيين الى الحكم ٠ ويجسد هذا الاحساس بالتازم الفقيه المعارض سفيان الثوري حين يقول وقد بلغه مقتل ابراهيم بن عبد الله بن الحسن (٣) : لن تقبل الصلاة بعد اليوم ، معبرا عن الاحتجاج ضد هذا المد الدموي الذي بدأته الخلافة العباسية ضد كل الناس وعن اليأس من هذه الامة التي انقسمت بين قاتل ومقتول ومتفرج ٠ ويتحول السؤال الى ادانة على لسان ثائر زيدى يدعى بشير الرحال كان يأتي الى المسجد فيخاطب المنبر (٤) :

« عليك ايها المنبر وعلى من حولك لعنة الله ٠ فوالله لولاك لما عصي الله في ارضه » ٠

ويبدو هذا الخطاب محيرا للمؤرخ الذي يعسر عليه ان يتصور كيف تكون بيوت الله في عز الاسلام هي السبب في عصيان الله ؟ لكننا بازاء موقفين : مسجدي ، واجتماعي يؤكد الثائر الزيدي ، بداية انفصامهما البالغ حد التلاعن قبل أن يتفاقم ليصل الى ضرب الحجر الاسود بدبوس على يد باطني من مصر وهو يخاطبه بهذه الصيغة المهينة : « الى كم تعبد في الارض وآل محمد لا يظهرون ؟ » ٠

« تعطينا هذه المقتربات التي شكلت خلفية النشاة الشيعية وتأزمها من خلال الصراع اساسا لفهم تلك الاتجاهات التي توطدت خارج الخط السلفي على يد الفرعين الكبيرين للشيعة : الامامي والاسماعيلي ، من دون الزيدية ، التي انزوت بعد حين في موقع معتدل شبه سلفي ٠ وننظر الان في ثلاثة مواقف للشيعة في هذا المجال هي :

التأويل ٠

القول بالتحريف ٠

النسخ ٠

التأويل

يقول الشريف الجرجاني في « التعريفات » ما يلي عن التأويل :

« صرف اللفظ عن معناه الظاهر الى معنى يحتمله اذا كان المحتمل الذي يراه موافقا للكتاب والسنة ٠ مثل قوله تعالى : يخرج الحي من الميت ، ان اراد بـه اخراج الطير من البيضة كان تفسيرا وان اراد به اخراج المؤمن من الكافر او العالم من الجاهل كان تأويلا » ٠

والتأويل بهذا التعريف اخراج الاية عن مدلولها المباشر ـ الحسي احيانا ـ الذي يتوصل اليه بالتفسير الى معنى مستمد من القرينة على افتراض مجازية العبارة الواردة في النص ٠ واشتراط موافقة المعنى المؤول للكتاب والسنة هو قيد عام على التأويل يشترك فيه اهل السنة مع سائر الفرق من حيث المبدأ ، ويختلفون معها في مدى وطريقة استخدامه ٠ فالاوساط السنية تتحفظ كثيرا في تطبيق المجاز على الايات وتميل الى الاخذ بمدلولاتها الحسية والمباشرة وان كانت تتفاوت في ذلك بحسب شعبها المختلفة ، فالفريق المتزمت من الحنابلة يرفض حتى تأويل ايات الصفات مما اوقعه في التجسيم بينما يظهر الاشاعرة قدرا من الحرية في التعامل مع هذه النصوص بحكم تأثرهم بالمنطق ٠ وتأويل منصوص عليه في القرآن بالصيغة التالية :

« هو الذي انزل عليك الكتاب فيه ايات محكمات هن ام الكتاب ٠ واخر متشابهات ٠ فاما الذين في قلوبهم مرض فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله الا الله والراسخون في العلم يقولون امنا به كل من عند ربنا » (ال عمران الآية ٧) ، وقد اثار الجزء الاخير من الاية جدالا بشأن اعراب (الراسخون في العلم) تحدد بموجبه مسلكان من التأويل ، فمن جعل « الراسخون » فاعلا معطوفا على « الله » اجازة ومن اعتبرها جملة استئنافية منعه ٠ ونص الاية اقرب الى المنع لا سيما وقد قرنت التأويل بالفتنة ، كما ان سياق العبارة الاخيرة يرجح كونها جملة استئنافية بدليل ما بعدها وهو فعل ، « يقولون » الذي يجب ان يكون تبعا للنسق البلاغي للقرآن في محل خبر ٠ وعلى اية حال فان فريقا من اهل السنة اقروا بالتأويل واستخدموه ضمن الشرط الذي نص عليه « الجرجاني » كما بينا وهو عندهم من وسائل الاجتهاد والفتوى ٠ أما الفرق الاخرى فهي متفقة على اباحة التأويل ، مع التفاوت في مراعاة الشرط السني ٠ فالفكر المعتزلي لا ينفصل عن التأويل ، لكن استخدامه لهذه الوسيلة

لم يتجاوز الشرط السني كثيرا ، وان حصل لديهم بحكم منطلقاتهم العقلية الصارمة تفريغ او تحوير لبعض النصوص من دلالاتها المباشرة ، لا سيما تلك المتعلقة بالقضاء والقدر والصفات · وظهر التأويل عند المتصرفة ، متحفظا اول الامر ، ثم انتهى مع تقدم الذوق الصوفي نحو المنزلقات الاشراقية الى جعل الايات رموزا قابلة لاي معنى يستشفه حدس المتصرف · ولجأ الفلاسفة كذلك الى التأويل في دفاعهم عن اطروحاتهم ضد الاتهامات السلفية ، وقد دارت حوله الكثير من دفاعات ابن رشد في كتابيه : مناهج الادلة ، وفصل المقال ·

اما الشيعة فيقبلونه عموما ، وقد اخذ عندهم منحيين :

الاول يقتصر على النصوص التي تتضن احكاما شرعية · وهو مسلك الامامية والفاطميين من الاسماعيلية · وقد جمع هؤلاء بين الظاهر والباطن فأخذوا بالمدلولات المباشرة لايات الاحكام وأولوا ما عداها · وتأويلهم باطني صرف لا يلتزم باية دلالة ظاهرة في النص ·

الثاني يمتد الى نصوص الاحكام · وتتمثل فيه ذروة التأويل الباطني الذي ينتهي الى الغاء الظاهر في جملته اى الى تعطيل الشريعة ، وهو مسلك القرامطة والنزارية واسماعيلية الشام بعد الفاطميين ·

ويعتمد التأويل الباطني على الملكة النقدية والحس البلاغي لدى المؤول بقدر ما ينظر الى النصوص كاستعارات وكتابات يقصد بها المعنى المجازي لا الحقيقي · اما هدف التأويل فهو خدمة اغراض العقيدة والدعوة · وفيما يلي امثله منه :

المنحى الاول

في بحار الانوار للمجلسي عن ابي بصير عن جعفر الصادق في تفسير الاية : ءاله مع الله بل اكثرهم لا يعلمون · قال الصادق : أي امام هدى ؟ مع امام ضلالة في قرن واحد ؟ ·

وفي تفسير آية : « وبئر معطلة وقصر مشيد » ينقل المجلسي ان البئر المعطلة هي الامام الصامت والقصر المشيد هو الامام الناطق · وهو معنى مشترك بين الامامية والاسماعيلية (٥) ·

المنحى الثاني

تأويل الصوم عند الاسماعيلية بانه كتمان سر الامام دون الامتناع عن الاكل والشرب · « اما ما يعمل من العنب والزبيب والحنطة وغيرها فليس حراما لانه مما تنبت الارض »·

وتأويل الجنابة بأنها موالاة الاضداد ، « اما المني فليس بنجس لانه مبدأ خلق

الناس والانبياء » · وتاويل الصلاة بانها محمد ·· وليس الركوع والسجود (٦)·

القول بالتحريف

ومن المتفق عليه بين المسلمين ان القران وصل الينا كما كان في حياة النبي محمد وانه جمع في زمن عثمان بنصوصه الكاملة التي تمت مراجعتها مع جبرائيل في السنة الاخيرة من حياة النبي · ويهدف الجمع الى ضم اشتات القران في كتاب موحد لان بقاءها متفرقة يعرضها للضياع والتحريف · ولم يختلف الصحابة على نسخة عثمان الا بشأن المعوذتين ـ سورتي الفلق والخناس ـ اللتين قال عبد الله بن مسعود انهما ليستا من القران واعترض على ضمهما الى النسخة الموحدة · كذلك لم تتعرض النصوص لاي تحريف اثناء الجمع بسبب رقابة الصحابة ، فيما خلا محاولة قال السيوطي في «الدر المنثور» انها استهدفت حذف الواو من آية الكنز في سورة التوبة ، وفشلت بعد ان هدد ابي بن كعب ، احد اعضاء لجنة الجمع ، بقية الاعضاء بقطع رؤوسهم اذا تجرأوا على حذفها ·

وتتفق الاكثرية الساحقة من الفرق الاسلامية ، على توثيق القران وانكار النقص او الزيادة فيه ويشمل ذلك اهل السنة ، بما فيهم الاشاعرة ، والمعتزلة والزيدية والخوارج ، مع استثناء يخص الفرقة الاخيرة وهو قول الميمونية ، احدى طوائفهم ، ان سورتي يوسف وحاميم عسق ليستا من القرآن كما نقله عنهم صاحب « البدء والتاريخ » · اما الشيعة ، فالاسماعيلية عنيت بالتأويل الباطني الذي يقوم على افتراض وثائقية القرآن ، اي انها اخذته كما هو واستخدمته لاغراضها على طريقتها · وفيما يتعلق بالامامية يتفق فقهاؤها على الاخذ بالقرآن المتداول كوثيقة تامة ، ولا يختلف الفقه الامامي من هذه الناحية عن الفقه السني الا في التفسير المأثور عن الائمة الاثني عشر ، وهو يتناول امورا جزئية في التشريع تدخل في باب الاجتهاد ، اي الخلاف على الفروع · لكن ذلك لا يعني ان الامامية توافق على نسخة عثمان ، فمصادرهم تدين خطة الجمع وتتهم القائمين بها بسوء القصد وهو احداث التغيير في القرآن بما يلائم مصالحهم واغراضهم · ويستدل من الروايات الواردة بهذا الشأن ان التغيير كان على شكلين : حذف ، وتحوير · ومن امثلة الحذف : ما نقله المجلسي عن جعفر الصادق انه تلا الاية : قل انما انا بشر مثلكم يوحى الي انما الهكم اله واحد فهل انتم مسلمون · واكمل : الوصية لعلي بعدي ـ ثم عقب : نزلت مشددة (٧)· وبهذا تصبح « مسلمون » وهي ختام الاية متصلة بعبارة محذوفة تكون مفعولا لها ·

ومن امثلة التحوير ما نقله المجلسي ايضا عن ابن سنان قال قرأت على ابي

عبد الله ـ الصادق ـ كنتم خير امة ٠٠ فقال : خير امة يقتلون امير المؤمنين والحسن والحسين ، فقلت جعلت فداك كيف نزلت ؟ فقال نزلت : انتم خير امة اخرجت للناس ٠٠ الا ترى مدح الله لهم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله (٨) ؟

وللامامية ادلة على وقوع التحريف في القرآن واتهام عثمان به ٠ ويذكر الفخر الرازي في تفسيره للاية : بل الانسان على نفسه بصيرة ولو القى معاذيره لا نحرك به لسانك لتعجل به ٠٠ ان قوما من الروافض ادعوا ان هذا القرآن قد غير وبدل وزيد فيه ونقص ، واحتجوا عليه بانه لا مناسبة بين هذه الاية وما قبلها ولوكان هذا الترتيب من الله لما كان الامر كذلك (٩) ويعتمد هذا الاستدلال على النقد الادبي للقرآن حيث يلاحظ انقطاع في العلاقة المنطقية بين الايتين يترجح معه وجود عبارة محذوفة ٠ ثمة استدلال هام وقفت عليه في مخطوطة شيعية بمكتبة الفاتيكان تطرق فيه كاتبه الى حرق عثمان للمصاحف بعد ان تم جمع القرآن في مصحف واحد وقال : ان ذلك لان في هذه المصاحف اشياء يكرهها ٠ وتأكيدا لذلك تساءل الكاتب الشيعي اذا كانت المصاحف مطابقة لمصحفه فما الداعي الى حرقها ؟ ثم اجاب : انه فعل ذلك تعطيلا لما فيها من القرآن باجماع اهل النقل للانام من الخاص والعام ان هذا الذي في ايدي الناس من القرآن ليس هو القرآن كله وانه ذهب من القرآن ما ليس هو في ايدي الناس (١٠) والاجماع الذي يشير اليه هو اجماع الامامية لان بقية المسلمين كما ذكرنا مجمعون على خلاف ذلك ٠ وقد خصص شيعي متاخر كتابا لهذا الغرض سماه (فصل الخطاب في اثبات تحريف كتاب رب الارباب) استقصى فيه اجماع الامامية على التحريف باستثناء اربعة من فقهائهم حمل افكارهم لهذا القول على محمل التقية ومراعاة بعض المصالح ٠

انسخ

راينا انفا ان التاويل الباطني يفرغ النصوص من مدلولاتها بوقوفه عند قرائنها اللغوية التي جعلت اداة للتفسير ٠ ويفتح التأويل بذلك بابا واسعا للاجتهاد من وراء ظهر النصوص ٠ اما القول بالتحريف فهو خطوة لاحقة تتضمن الطعن في وثائقية القرآن لتنتهي الى التحلل من الزاماته ٠

هنا اذن سبيلان يؤديان الى مقصد واحد هو ابطال الشريعة ٠ وهو ما فعله الجناح الاسماعيلي الذي اول اياتُ الاحكام ، وما صرح به الامامية في حديثهم عن الامام القائم الذي سيأتي بقرآن جديد يقوم على مصحف فاطمة ٠ وقبل التطرق الى تفصيل هذه الامور ارى ان الفت النظر الى اتجاهات مماثلة ظهرت لدى فئات وشخصيات من غير الشيعة ٠ ومن هؤلاء اليزيدية اصحاب يزيد بن

انيسة الاباضي ـ من شعب الخوارج ـ كانوا يقولون : سيبعث نبي من العجم بكتاب يكتب في السماء ـ وينزل عليه جملة واحدة ويترك شريعة محمد الى ملة الصابئة (١١) ·وهذا من الاعتقادات الغريبة عند الخوارج الذين عرفوا بتشددهم في الدين وقلة المارقين في صفوفهم · وهناك ميول لدى بعض المتصوفة لترك الظاهر اعتمادا على معرفة الباطن ، اى التحلل من الفرائض اتكالا على استبطانهم لاسرارها واغراضها · وهو نفس الاتجاه الذي اعرب عنه بعض فلاسفة الاسلام كالفارابي وابن رشد ، في تأكيدهم على دور الشريعة كمصدر للفضائل العملية لا يصلح للخاصة من اهل النظر · وقد جاهر بعض المتصوفة في تخطي الشرائع دون ان يعلنوا تخليهم عن الايمان ، كابن سبعين الذين نسب اليه تعليقا على مبدأ خاتم الانبياء (١٢) : لقد حجر ابن آمنة واسعا · وينقل عبد الكريم الجيلي عن ابو الغيث بن جميل : خضنا بحرا وقف الانبياء بساحله· وعن الشيخ عبد القادر الكيلاني : يا معاشر الانبياء اوتيتم اللقب واوتينا ما لم تؤتوه (١٣) · والكيلاني من سلالة اهل البيت وهو محسوب على التصوف السني وله مزار فخم في العراق مقدس عند اهل السنة · وعبد الكريم الجيلي بدوره لا يسجل هذه الشطحات الا لانها تجري على سننه ·

ولنعد الى الشيعة ·

جاء في اصول الكافي عن جعفر الصادق (١٤) :

« ان عندنا لمصحف فاطمة · وما يدريهم ما مصحف فاطمة ؟ مصحف فيه مثل قرانكم هذا ثلاث مرات · والله ما فيه من قرانكم حرف واحد » ·

واصول الكافي هو صحيح الامامية المعادل لصحيحي البخاري ومسلم عند السنة · وقد الف في حياة الامام الثاني عشر المعروفة بالغيبة الصغرى ويقال انه اطلع عليه ووثقه · وهو احتمال مقبول لاحد اعتبارين : مكانة مؤلفه كأحد مراجع الامامية في وقته مما يحمل على توقع اتصاله بالامام المختفي · ومع استبعاد ذلك يجب ان لا نستبعد الاطلاع على الكتاب بواسطة احد الوكلاء ، وهم الوسطاء بينه وبين اتباعه ، اذ من الصعب افتراض عدم معرفته بكتاب من هذا المستوى في حياته · وبناء على ذلك يمكننا اعتماد رواية الكليني لهذا النص موقفا رسميا للامامية اما ان يكون صادرا بالفعل عن جعفر الصادق او معبرا، على الاقل . عن رأي الامام الثاني عشر · وقد ترددت هذه الرواية في المصادر التالية للكليني بصيغ مختلفة مرفوع معظمها الى جعفر الصادق · ويتمتع نص الكليني باهمية مخصوصة في دلالته على موقف شيعي متفرد نخلص منه الى تصور كتاب مغاير لنسخة عثمان كلها : **ما فيه من قرانكم حرف واحد** · وتأخذ هذه الدلالة منحى توكيديا حاسما عبر الصياغة البلاغية للنص حيث نجد : لام التوكيد في خبران ، الاستفهام لغرض التعظيم ، تكرار كلمة مصحف ثلاث

مرات ، ربط القران بضمير المخاطب الدال على الغير دون الانا ، مـــع القسم الدال على التشديد · كما يفهم من مضمون النص ان هذا المصحف شامل لكل الامور التي تناولها مصحف عثمان بدليل حجمه الذي يزيد عليه ثلاث مرات ، ولكن هل وجد هذا الكتاب حقا ؟ من المؤكد انه لم يوجد والا لاحتفظ به الامامية، وتبعـا لمعلوماتي الشخصية كشيعي استطيع الجزم ان الاماميةلا يملكون كتبـا سرية ·· فماذا اذن يعني الحديث المكرر عن مصحف فاطمة ؟ ·

السؤال يعيدنا الى وضع الشيعة كفرقة مقابلة للفرق الممثلة للاسلام السني ، هذا التقابل الذي بدأ كما رأينا من النشأة عبر التصادم مع الصحابة ، وامهات المؤمنين ، والقراء ، مرورا بمقتل علي بن ابي طالب بسيف مؤمـــن متعصـب وتلطخ اهل القبلة بدماء اهل البيت ، وانتهاء بظهور دعوى التحريف واخضاع القران للتأويل الباطني · وعند هذه المرحلة يأتي الحديث عن كتاب بديل لما فـي ايدي القتلة لا سيما ان « قرآنهم هذا » لا يوفرالا ضمن عموميات (حمالة اوجه) اسلحة قاطعة للدفاع عن الطرف المنبوذ من الاكثرية ·· واذ نجزم بان الكتـاب البديل لم يوجد فعلا فلا بد للذهن من ان ينصرف الى وجهة التحلل من الزامات الكتاب القائم ، او التحرك دون استشارته بقدر ما يترتب ذلـــك ـ كتسلسل تاريخي ـ على موضوعتي التأويـل والتحريف ، الخلاصتيـن الايديولوجيتيـــن لتاريخ الشيعة الدامي ·

ولكن متى ؟

يتفق الامامية والاسماعيلية على ان ذلك رهن بظهور الامام المنتظر · هذا ما تدل عليه رواية للقرامطة عن جعفر الصادق (١٥) :

لو قام قائمنا علمتم القرآن جديدا ·

ويختلفان على هوية الامام المنتظر ، وبالتالي على موعده · فقـــد سارت الامامية ، لظروف وملابسات تخصها ، على خط التعايش مع اهل السنة ممـــا وضعها فعليا في دائرة الاسلام السني ، فتعاملت مع القرآن بنفس المنهجيـــة السنية ، تاركة لمستقبلها السياسي ان يقرر الشريعة التي ستسير عليها دولتهـا المنتظرة ، المعلقة بظهور محمد بن الحسن في وقت غير معلوم · اما الاسماعيلية فقد دفعت بها استراتيجيتها الناجحة الى الامتداد خارج تخوم الاسلام السنـي حيث أصبحت اكبر الفرق الاسلامية بعد اهل السنة ما بيـــن القرنين الثالث والسادس الهجري ·ومع ظهورهم قوة من هذا المستوى قام قائمهم ، بصفـــة قائد للدعوة التي عمت سواد الكوفة وبادية الشام حتى سلمية مركـز الدعـوة الواقع على امتداد البادية ، ثم بصفة خليفة في الدولة الفاطمية وحاكم في دولة القرامطة · ويعني دخول الدعوة هذه المرحلة حلول الوقت المناسب لاعلان نسخ الشريعة · وهو ما حصل فعلا · وعلى الصعيد اللاهوتي قال الاسماعيلية ان

الشريعة نسخت على يد محمد بن اسماعيل بن جعفر ، الامام المكتوم ، اي قبل ظهورهم بنحو القرن · وتاريخ محمد بن اسماعيل يتعذر ضبطه لتناقض الروايات بشأنه · ومن المعروف مع ذلك ان قادة الاسماعيلية الذين انتهوا الى السلطة في شمال افريقيا هم من احفاده ، وهو عندهم الناطق السابع الذي تتبدل الشريعة بظهوره · ويرجع هذا التحديد الى اعتبارات نوميرولوجية بحتة· لان محمد المكتوم لم يكن في حال تسمح له باعلان نفسه ناطقا ـ اي ناسخا للشريعة ·

على صعيد الفعل ، لم يطبق الفاطميون مبدأ النسخ ، ويرجع هذا في بعض اسبابه ، الى قيام دولتهم في محيط سني واسع لم تستطيع الدعوة التأثير في عقائده ، وان استطاعت فرض سلطتها السياسية عليه (لنتذكر الزوال السريع للتشيع من مصر بعد زوال الفاطميين) · اضف الى ذلك ان اتساع الدولة الى امبراطورية افرغها من نزوع الحركة الاجتماعية الهادفة التي لا تتلاءم بطبيعتها مع الامبراطوريات ، حيث تطامنت الدعوة الى عقيدة خالصة ، منفصلة تماما عن السياسة الفعلية للدولة · وخلافا للفاطميين ، كان استيلاء القرامطة على رقعة صغيرة لا تملك كثافة سكانية ، عاملا مساعدا على المضي في الاسفار عن مبادئها وانشاء دولة لا علاقة لها بشريعة محمد · وتمثل دولة القرامطة في هذه الصيغة الثمرة النهائية لتطور الشيعة ، المحدد سلفا في رواياتهم عن جعفر الصادق ـ الامام المشترك للاثني عشرية والاسماعيلية ·· ومن الملحوظ هذا ان القرامطة حملوا الصفة المزدوجة للشيعي المتزندق ، فهم ـ باستثناء العناصر التي تأثرت باراء الرازي المناوئة للانبياء ـ مؤمنون بمحمد محبون لال بيته ، هذا الحب الذي حير بعض الكتاب فاحالوه الى التقارب في الاهداف الاجتماعية اذ خفي عليهم خط التسلسل التاريخي للقرامطة ، وهم في نفس الوقت اصحاب شرعة جديدة تختلف عن شريعة القرآن تمام الاختلاف تبنتها وطبقتها دولتهم بحرفيتها ، على النحو المعروف في تاريخ هذه الحركة ·

على ان نسخ الشريعة لم يقتصر على القرامطة ، فقد طبقه اسماعيلية اليمن واسماعيلية آلموت واسماعيلية الشام بعد الفاطميين والنصيرية والدروز · وتتفق هذه الشعب في صفتها المزدوجة : التشيع لآل البيت والخروج على شريعة محمد (١٦) ·

ويمكن ان نجد اتجاهات من هذا القبيل لدى شخصيات شيعية مستقلة · وقد مرت الاشارة الى باطني يدعى اسحق بن محمد النخعي ذكره الخطيب · ونشير الان الى شخصية اخرى لعبت دورا في الاحداث السياسية ببغداد في اوائل القرن الرابع هو محمد بن علي الشلمغاني المعروف بابن ابي العزاقر ، وهو امامي مشى في مسألة نسخ الشريعة الى مداها الابعد · وكان الشلمغاني يقول ، تبعا لرواية ابن الاثير ، ان محمد بعث الى كبراء قريش وجبابرة العرب ونفوسهم ابية

فأمرهم بالسجود ، وان الحكمة الان ان يمتحن الناس باباحة فروج نسائهم ٠٠ وصرف النظر عن صدق الرواية في جزئها الاخير ، فان الشلمغاني ينطلق في هذا الرأي من فهم تاريخي خاص لدور محمد والقرآن ، مؤكدا وعيه للعلاقة بين الشرائع وظروفها ومنتهيا الى القول بشرعة جديدة قد لا تكون اباحة فروج النساء منها ، وقد لا تكون ـ اذا صدق ان الاثير ـ اهم بنودها !

يرتبط نسخ الشريعة كما رأينا بالمروق من احكام الدين ، ويعني ذلك ظاهرة (الشيعي المتزندق) التي اشرت اليها انفا ٠ ولهذه الظاهرة امتدادات تسبق الظهور الاسماعيلي وتستمر معه او من خلاله ٠ ففي وقت مبكر من تاريخ الامامية ، كانت الصلة بينها وبين الزندقة مبعث ريبة الخلفاء العباسيين ٠ وتردنا عن المهدي بن المنصور اشارة صريحة الى هذه الصلة (١٧) :

ما فتشت رافضيا الا وجدته زنديقا ٠

وفي تحف العقول لابن شعبة سؤال من هرون الرشيد الى موسى الكاظم ـ الامام السابع للاثني عشرية ـ جاء فيه (١٨) :

ان الزندقة كثرت في الاسلام ، وهؤلاء الزنادقة الذين يرفعون الينا في الاخبار ـ يعني في تقارير امن الخلافة ـ هم المنسوبون اليكم ٠ فما الزنديق عندكم اهل البيت ؟

وفي جوابه قال الكاظم : ان الزنديق هو الراد على الله وعلى رسوله ٠ وهم الذين يحادون الله ورسوله ٠ وهنا سأله الرشيد : اخبرني عن اول من الحد وتزندق ، فقال موسى : انه ابليس استكبر وافتخر على آدم فعتا عن امر ربه فتوارث الالحاد ذريته الى ان تقوم الساعة (١٩) :

ومن البين ان ابليس ليس زنديقا بل متمرد على أمر الله ، اي انه مؤمن عاص وجوهر موقفه ليس الالحاد بل التكبر ، والحاده ، الوارد في عبارة موسى الكاظم مجازي لا يحتمل معنى الجحود بالخالق كما هو المفهوم من الالحاد وانما هو مرادف للعتو والعصيان ٠ ويمكن ان يلاحظ ان تحديد هذا النموذج للزندقة يستهدف ربطها بالسلوك دون العقيدة ، وهذا ضرب من التخلص يراد به تجنب الاحراج من جهة ،وادانة العتاة ، المتمثلين في خلفاء بني العباس من جهة ثانية ٠ وانا مع ذلك لا افهم من عبارة موسى الكاظم ، او المصدر الشيعي الذي نسبها اليه ، انه يوافق على اطروحات الزنادقة ، لكن من الواضح انه لم يستطع ، ولعله لم يشأ ، ان ينفي الصلة بينهم وبين الشيعة ٠ ويبدو ان اتهامات الخلفاء العباسيين لم تذهب سدىً ، فمصادر الشيعة تتردد في تكفير ابن الرواندي ، الملحد المشهور المعاصر للكاظم والصادق ، ويورد عباس القمي ما يفيد ان الشريف المرتضى كان يزكيه (٢٠) ٠ وقد نشأ ابن الراوندي في وسط

شيعي ـ معتزلي وكان من شيوخه الشيعي المتزندق ابو شاكر ، صديق هشام ابن الحكم تلميذ جعفر الصادق وابو عيسى الوراق ، من زنادقة الشيعة · ويعاصر هذه الزمرة من الزنادقة عصبة المستخفين بالاحكام الذين يتصدرهم ابو نواس ، واغلبهم من ذوي الميول الشيعية ، وبين مؤرخي الامامية ما يقرب من الاتفاق على تشيع ابو نواس وقد افرد له محسن الامين العاملي فصلا وافيا في موسوعته « اعيان الشيعة » وخصه بمؤلف خاص به ، وابر نواس هو القائل :

هل جاءنا احد يخبرانه في جنة مذ مات او في نار ؟

البيت الشعري الذي ارغم الرشيد على حبسه رغم اعتزازه به كشاعر ونديم ·

وتستمر هذه الصفة المزدوجة للشيعي المتزندق في الازمنة اللاحقة ، فيظهر الحلاج ، الذي بدأ حياته السياسية داعية لال محمد ، كما يخبرنا ابن النديم في الفهرست ، وانتهى حلوليا معطلا للشرائع · وينقل الجوانساري في « روضات الجنات » عن « مجالس المؤمنين » ، وكلاهما من مصادر الامامية ، ان الحلاج كان من الشيعة الامامية وانه قتل بتهمة الزندقة والخروج من الدين بسبب نصرته لاهل البيت (٢١) · ويمكن ان نذكر المعري كمثال اخر ، وقد عده الاسماعيلي المعاصر مصطفى غالب في (اعلام الاسماعيلية) من رجالهم ، واعتبره الامامي محمد حسين كاشف الغطاء في (المراجعات الريحانية) شيعيا باطلاق · والمعري كما هو معروف زنديق يتردد بين ربوبية الرازي والحاد الدهرية · اما تشيعه فينعكس في الكثير من اثاره النثرية والشعرية المتداولة ·

مرتكسات النسخ عند الامامية

ان ابقاء الامامية على صلتهم بالشريعة لم يحل دون ظهور اثار لعقيدة النسخ في حياتهم الدينية · ولدينا ما يشير الى حالات نقض مباشر للاحكام ، وحالات استبدال لبعض الرخص بالقاعدة المشرعة · من ذلك الغاء صلاة الجمعة المنصوص عليها في اية غير منسوخة ، وهو تصرف يكرس المغزى السياسي لهذه الصلاة ، التي كانت تؤدى خلف شخص يتمتع بصفة سياسية كالخليفة او الوالي او من دونه ، تبعا لمستوى الوحدة الادارية · وقد جرى الالغاء في الاصل لعدم السلطة المعترف بها عند الشيعة ، لكنه تحول بمرور الزمن الى قاعدة يلتزم بها الشيعي خلافا للنص القرآني ·

وتقليص الصلوات اليومية الخمس الى ثلاث ، مع الابقاء على عدد الركعات، بدمج صلاتي الظهر والعصر ، وصلاتي المغرب والعشاء · ويستند هذا التقليص الى رخصة من النبي تعترف بها بعض مصادر الحديث السنية · لكن ، ورغم ان بعض روايات صحيح مسلم تصرح انه قام بالجمع لغير ضرورة ، فمن المتفق

عليه في مصادر السيرة والحديث انه لم يتابعها وانما واصل الصـــلاة فـي اوقاتها الخمسة · ويعني ذلك ان الجمع استثناء لا يجوز ان يطرد ، ما لم يلجأ المجتهد الى استنتاج حكم من تصرف النبي يفيد النية في التقليص مستقبلا · وهو استنتاج اذا اخذ به فتح بابا واسعا للتساهل في احكام كثيرة ·

هناك ايضا الاضافات التي دخلت على الاذان ، ومنها : (١) شهـادة علـي ولي الله بعد شهادة محمد رسول الله ، حيث جعلت الشهادتان ثلاث شهـادات خلافا للاصل الاسلامي المجمع عليه · (٢) اضافة « حي علـى خير العمـل » · ويستند الشيعة في الدفاع عن هذه الاضافة الى روايات في بعض المصـــادر الثانوية لاهل السنة تفيد انها كانت على عهد النبي وحذفها عمر بن الخطاب ·

واستحدث الامامية امورا غريبة على الشرع الاسلامي يجعل مراقد ائمتهـم مزارات تعادل الكعبة في قدسيتها · كما ترد احاديث في بعض مصادرهـم ان زيارة هذه المراقد تساوي عددا من الحجج الى الكعبة · وعوام الشيعة فـي العراق يعتبرون زيارة مرقد علي الرضا في ايران بمثابة حج ويطلقون على من يزوره اسم (حاج) · ولهذا الاتجاه عند الشيعة جذور تمتد الى عصر الائمة الاثني عشر الذين صدرت من بعضهم اشارات عدم ارتياح الى تردد المسلمين على الكعبة ولثم الحجر الاسود وتركهم موالاة اهل البيت · ففي المجلسي ، عن تفسير فرات بن ابراهيم ، ان محمد الباقر تساءل مستنكرا وهو يستمع الـى آية : اني اسكنت من ذريتي ·· افترون الله فرض عليكم اتيان هذه الاحجـار والتمسح بها ، ولم يفرض عليكم اتياننا وسؤالنا وحبنا اهل البيت ؟ والله مـا فرض غيره ·

وتبنى الامامية معتقدات لا تأتلف مع روح الاسلام كالقول بالرجعة ،وهي معتقد فيثاغوري مستمد من اصول بوذية · وقد يكون تسرب الى الشيعة من بعـض الغنوصيات الشرقية التي مارست تأثيرها على الاستذهان الشيعي مـن خـلال بيئاتها وعناصرها التي دخلت فيالتشيع · ويتمسك الامامية بهذا المعتقد الغريب حتى اليوم ، وقد صدر في السنوات الاخيرة كتاب لمؤلف شيعي عراقي يحمـل هذا العنوان المثير « ايقاظ الامة من الضجعة في اثبات الرجعة » ·

وينسب الامامية الى ائمتهم صفات الهية تقترن باحداث غريبة تروى عنهـم تتصل بهذه الصفات كالقول انهم قادرون على احياء الموتى وانهم يعلمون متى يموتون وان الامام يولد مختونا · وانهم يسمعون الصـوت دون الشخص اي يتلقون الوحي من جبرائيل دون ان يروه ، وينسبون الى علي قوله : لقد اقرت لي جميع الملائكة والروح بمثل ما اقرت لمحمد (٢٢) · وغني عن البيان ان هـذا القول مناقض لمبدأ خاتم النبيين ·

لم يكن من الغريب اذن ان تواجه الشيعة اتهامات بالمروق والكفر من اهـل

السنة وفي هذا الصدد نجد اجماعا على أن الاسماعيلية خارجة عن الاسلام وترددا بشأن الامامية بين التكفير والتبديع · واذا اخذنا الصيغة السنية للاسلام فان هذه الاحكام ليست جائرة بحق الشيعة · انها مسؤولية القرار الديني في ضوء الاصول المرعية · هو الاخر اي اصوله الثابتة في نفس الكيان ، هذا عندما نضع في الحساب انه يأخذ امتداده داخل المجتمع الاسلامي ، دون ان يتوصل الى حد اختراق الحاجز بين دار الاسلام ودار الكفر ، او ان يصبح شرخا في جسم الحضارة الاسلامية · نحن هنا بازاء امور لا يعيها الفكر السني الذي حكم على السهروردي بالاعدام ، فالمجتمع الذي ترعرت فيه هذه الفرق والاتجاهات كان يؤلف وحدة انثربولوجية عريضة تندرج تحت ما سمي في التاريخ « حضارة الاسلام »··ومقومات هذه الحضارة تتألف من نفس تلك الاتجاهات المتعارضة في رؤيتها الدينية ما بين التشبيه الحنبلي والالحاد الفلسفي ·وبالتالي فاذا استطاع الفكر السني ان يخرج عناصر كالسهروردي او الرازي او ابو طاهر القرمطي من دائرة الدين فقد تعذر عليه اخراجهم من دائرة الحضارة ، اي من هذه الوحدة الانثروبولوجية التي وقفت خلال **عصورها التاريخية المحددة** في مواجهة الوحدات الاخرى المعاصرة لها · والمروق الشيعي قطاع من هذه الحضارة يمكن ان يختلف معه القطاع الاخر ويحكم عليه بالموت والنار لكنه لا يملك تغريبه الى عالم اخر ، فيضعه مثلا على ملاك صليبي او مغولي او صيني · ولا مناص من القول هنا ان الحضارة الاسلامية لم تكن تجسيدا حاصرا للعقيدة بقدر ما هي ظاهرة عامة ترتبت ، سياقيا ، على الحركة التاريخية التي اثارها محمد في مكة · ونحن نعرف ان هذه الحركة كانت منذ البدء ذات افق شمولي اقترن بالنزوع الى الامتداد ، ومن ثم ، الى التشكل في كيان حضاري متكامل · ونحن نعلم ايضا انها بدأت من كتاب ، ثم استمرت في صعودها الى ان تجاوزته لتصبح في نهاية المطاف نفيه التاريخي المحتوم ·لكنه نفي يحمل بقدر ما هو امتداد للبدء ، ضروري وغير مقطوع ، جوهر النفي الديالكتيكي المستند الى اتصال الحركة الحلزونية ، اي انه نفي يتضمن المنفي بالغائه واستيعابه في سيرورة تطور هيغلي متدرج من اشكال الفكر البسيطة ـ مصادر صدر الاسلام الى اشكاله الارقى ـ فلسفة العصر العباسي الاندلسي وبكلمة اخرى : ان الحضارة الاسلامية لم تكن لتظهر لو لا هذا الكتاب ، ولم تكن لتنضج وتدرك غايتها القصوى ، **المحددة تاريخيا** ، لولا ان تتجاوزه ، اي لو لم تدمجه في كيانها اللاحق ، لتجعل منه جزءا منفيا في الكل · وقد واصلت الحضارة صعودها ما دامت ضمن هذا المنحنى الجدلي ، حتى اذا دنت من مرحلةالسقوط استعادت دورتها في عملية ارتداد شاملة وحادة عاد بها الكل منفيا في الجزء ، الذي استعيد آنذاك في حالة من غربة الانقطاع عن الجذور ،

عن الظرف التاريخي ، كان بها مشلولا ، غير قادر على التأثير · وعندئذ توقفت وربما صح لنا ان نفهم من هنا لماذا تواقت السقوط مع هيمنة الخط السلفي على كل قطاعات الحياة في ديـــار الاسلام ، واذا زالت المعتزلة نهائيـــا ، وآلت الاسماعيلية الى طوائف صغيرة معزولة والامامية الى اقلية ، ولماذا انتقل ابن رشد من العالم الاسلامي الى العالم اللاتيني ·· انه القدر الذي تنتمي اليه كل مرحلة خلافة في التاريخ بعد ان تستنفد دورها لحساب المرحلة الاتية ··

ومن هنا ايضا لا يصح لنا القول بالرجعة على اية صورة كانت ·

الحواشي

(١) انظر : **الدرجـــات الرفيعة فـــي طبقات الشيعة** ، ط النجف ١٩٦٢ ، ص ٢١٣ · ترد هذه الملحوظة ايضا عـــن محمد الباقر ، وفيها يسأل عن عمار بن ياسر فيقول : كان حاص حيصة ثم رجع ·

(٢) ابن سعد ، الطبقات ١٥٣/٦ ·

(٣) ابو الفـرج الاصفهانـي ، **مقاتـل الطالبيين** ، فصل ابراهيم بن عبد الله ·

(٤) **المصدر السابق** · نفس الفصل · والرجال من اتباع ابراهيم ، وقد قتل معه في معركة باخمري قرب الكوفة ·

(٥) ترد هذه التأويلات وامثالها في المجلد السابع ، ط ايران حجر ١٣٠٢ هـ ·

(٦) تراجع حـــول هذه التأويـــلات (**الرسالة المذهبة**) لابن حيون ضمـــن مجموعـــة (**خمس رسائل اسماعيلية**) لعارف تامر · « **اسرار البأطنية وفضائح القرامطة** » لليماني · اما التأويل الاخير فأورده الخطيب في تاريخ بغداد منسوبا الى اسحق بن محمد النخعي ، الـــذي استدل على تأويله (ان الصلاة تنهي عن الفحشـــاء والمنكر) مبينا ان النهي لا يكون الا من وحي قادر ·

(٧) **بحار الانوار** ، ج ٧٥/٧ ·

(٨) **المصدر نفسه** ص ١٢٢ ·

(٩) **التفسير الكبير** ، ج ٢٢٢/٣ ·

(١٠) المخطوطة ناقصة من الاول فلم يتهيأ لي معرفة عنوانها ولا اسم المؤلف· وقد جاء في اخرها : فرغ من تسويـــد هذه الرسالة في تاريخ شهر ربيـــع الاول سنة ١١٨٢ على يد اقل العباد ابراهيـم بن عبد الله هزار جريبي ·

(١١) **المواقف للايجي** ، ج ٣٩٤/٨/ط ساسي ١٩٠٧ م ·

(١٢) انظـــر : **رسائـــل ابن سبعين** ، مقدمة المحقق ·

(١٣) **الانسان الكامل** ، ط القاهـــرة ١٣٣٤ هـ ج ٨٠/١ ·

(١٤) ج ٢٣٩/١ ايران ١٣٨١ هـ ·

(١٥) **فـــرق الشيعـــة للنوبتي** ، ط النجف ص ٧٢ ·

(١٦) هنـــاك تفاوت في مواقـــف الاسماعيلية وغيرهم من غلاة الشيعـــة بشأن تقييم النبي محمد في ضوء عقيدة النسخ ، ففي رواية لابن تيمية يقول غلاة الرافضة ان علي كان فيلسوفا وانه كان اعلم بالعلميات من الرسول ، وعندهـم ان النبي كـــان يعرف العمليـــات دون العلميات التي هي شغل الفلاسفة (نقض المنطق · ص١٣١)· ومن هذه الزاوية يرى الاسماعيلية ان النبي سلم الامر الى علي

في حياته ، وان كان ذلك لا يعني انتقال النبـــوة الى علي فالوصي عندهم ليس نبيا وانما الناطق السابع في سلسلة النطقاء، وهو محمد بن اسماعيل. (انظر فرق الشيعة للنوبختي ،والرسالة الكافية والرسالة المذهبة ضمن مجموعة خمس رسائل اسماعيلية لعارف تامر). وللاسماعيلية رأي اخر يفيد ، تبعا لابـن تيمية، ان النبي كان كاملا في العلم وانه كان يظهر للعامة خلاف ما يبطن للخاصة (نقض المنطق ص ١٣٤) ولهذا الرأي ما يقاربـــه في حديث يرويه جعفـــر الصادق عن النبي : امرنا معاشر الانبياء ان نكلـــم الناس على قـــدر عقولهم .

والحديث يرد فـي بعض المصـــادر السنية ايضا .

(١٧) **سير السلف** ، لاسماعيـل بـــن الفضل الاصبهاني ، مخطوطة في مكتبة الاوقاف ببغداد مؤرخه في ٧٧٧ هـ رقـم ٤٨٨٣ ورقة ٧ .

(١٨) **تحف العقول** ، ط النجف ١٩٦٣ ص ٣٠٤ .

(١٩) من نفس الزاوية يحدد محمـــد الباقر في رواية للكليني مفهومي الكفـر والشرك فيقول : **الكفر اقدم من الشـرك واخبث واعظم** . ثم يفسره بقولـه : ان من اجترا على الله وابى الطاعة واقـام على الكبائر فهو كافر ، ومن نصب دينا غير دين المؤمنين فهو مشرك (ج ٢/ ٣٨٤) ونفهم من ذلك ان الكفر مسألـــة سلوك اجتماعي والشرك مسألة عقيدة . وان الاول اخطر على المجتمع . وفي الكليني ايضا عن جعفر الصادق : ان الكفر هو ما ينطوي على الاستخفاف مجردا مـــن الداعي اليه ، ولذلك لم يعتبر الزانـــي وشارب الخمر كافرا لوجود الداعي وهو الشهوة . وتـدور هذه التعريفات حـول نفس المعاني التي تضمنها النص المنسوب الى موسى الكاظم .

(٢٠) **الكنى والالقاب** ، ج ١/ ٢٧٧ ط صيدا ١٣٥٧ هـ .

(٢١) **روضات الجنات** ، ط ايـــران ـ حجر ـ ١٣٦٧ هـ ، ص ٢٧٧ .

(٢٢) **الكليني** ، ج ١/ ١٩٧ .

صبري جريس

العرب في اسرائيل
١٩٧٣ ـ ١٩٧٩

شهدت السنوات الخمس الاخيرة (منذ حرب تشرين الاول ١٩٧٣ وحتى اليوم على وجه التحديد) ، تطورات مهمة على اصعدة عدة بالنسبة للعرب الفلسطينيين الذين يعيشون داخل ذلك الجزء المحتل من فلسطين سنة ١٩٤٨ · وجاءت هذه التطورات موازية ، الى حد ما ، للاحداث التي شهدتها المنطقة خلال هذه الفترة ، والتغييرات التي نجمت عنها ، وخصوصا منها تلك التي اثرت في سير النضال الفلسطيني ، ايجابا او سلبا ، ومن هنا اهميتها على صعيد القضية الفلسطينية بأسرها · الا انه يلاحظ ، في هذا الصدد ، وجود فارق واضح بين مسار الاحداث التي شهدتها الساحة الفلسطينية خارج فلسطين عامة ، وبين ذلك الذي سيطر في داخلها ، ففي حين اتخذ النضال الفلسطيني في الخارج مسارا لولبيا ، تراوح بين مد وجزر ، نتيجة لظروف متغيرة واعتبارات سياسية عديدة ، سار ذلك الذي شنه الفلسطينيون في الداخل على خط مستقيم متصاعد ·

تبلور الوعي القومي وبروزه

ان اول ما يلفت النظر ، عند متابعة اوضاع العرب في اسرائيل ونشاطهم ومواقفهم عامة ، خلال هذه الفترة ، هو تعاظم شعور الوعي والانتماء القومي لديهم ، بشكل لا مثيل له في السابق ، واصرار قطاعات واسعة منهم ، ان لم تكن اكثريتهم ، على التعامل مع السلطة الاسرائيلية كفلسطينيين اولا · وقد وصل ذلك الشعور ، وما ترتب عليه احيانا من ظواهر او ردود فعل ، الى درجة

من الحدة والوضوح دفعت عددا من المسؤولين الاسرائيليين الى التخلي عن المقولات التقليدية ، التي كانوا يطلقونها في السابق ، زاعمين ان هؤلاء العرب ليسوا الا مجرد « مواطنين اسرائيليين » ، ولا يمكن التعامل معهم اسرائيليا الا على هذا الاساس ، والاعتراف علنا ـ ولو على مضض ـ بأن اولئك «المواطنين» ليسوا ، في نهاية الامر ، الا عربا فلسطينيين ، يعتبرون انفسهم جزءا من الشعب العربي الفلسطيني ، يهتمون بمصيره ، ويفرحون لانتصاراته ، ويتألمون لاله ، ويتأثرون ، عامة ، بسير نضاله ومتطلباته وامانيه (١) ٠

وهذه النهضة القومية بين العرب في اسرائيل لم تتبلور ، او تبرز فجأة ، على كل حال ، خصوصا اذا اخذنا في الاعتبار اصولها « التاريخية » من جهة ، والظروف الموضوعية التي سادت خلال السنوات الاخيرة وساعدت على ظهورها من جهة اخرى ٠ فجذوة الشعور بالانتماء القومي بين اولئك العرب ، وان ضعفت احيانا ، لم تنطفىء ابدا ، حتى خلال فترة السنوات العشر العصيبة التي اعقبت قيام اسرائيل ، وعلى الرغم من سياسة « اليد القوية » التي سادت خلالها، على ما تبعها من فرض الاحكام العسكرية على العرب ومصادرة اراضيهم واضطهادهم ، ثم ـ وهذا هو الاكثر ايلاما وضررا ـ قطع اية صلة لهم ، وبصورة مطلقة ، مع اخوانهم الفلسطينيين المحيطين باسرائيل خاصة ، والعالم العربي عامة ٠ بل ادت هذه السياسة القمعية الى تحقيق عكس ما كانت تصبو اليه تماما ، اذ تصاعدت المعارضة العربية لها ، واشتدت يوما بعد اخر ٠ وقبل ان يمر العقد الاول على قيام اسرائيل ، كانت تلك المعارضة قد تبلورت ، في صيف سنة ١٩٥٨ ، على شكل تنظيم سياسي (« الجبهة العربية » ـ وفيما بعد ـ « الشعبية ») هدفه المعلن مقارعة سياسة السلطة تجاه العرب (٢) ٠ وعلى الرغم من ان هذه الجبهة كانت قد انشقت فيما بعد ، لاسباب لا مجال لشرحها هنا ، فان مجرد انشقاقها لم يخل من خطورة ، من وجهة النظر الاسرائيلية ، اذ ادى الى نشوء تنظيم جديد ، ذي طابع قومي عروبي (« حركة الارض ») ، لم تجد السلطة وسيلة للتعامل معه ، في نهاية المطاف ، الا اصدار امر عسكري بحله وتصفيته (٣) ٠ الا ان ذلك النشاط العربي المعارض للسياسة الاسرائيلية ، عموما ، لم يذهب سدى ٠ اذ في الوقت الذي كان وزير الدفاع الاسرائيلي يصدر امره بحل « حركة الارض » ، كان هو نفسه ، بصفته رئيسا للحكومة ، يعلن عن عزمه على الغاء جهاز الحكم العسكري المفروض على العرب (وان تم الاحتفاظ بقوانينه ، للجوء اليها عند الحاجة) ، وهو ما تم تنفيذه في اواخر سنة ١٩٦٦ ، وذلك ضمن سياسة جديدة قررت الحكومة الاسرائيلية اتباعها آنذاك تجاه العرب في اسرائيل ٠ وكان جوهر تلك السياسة هو العمل على «دمج العرب في حياة الدولة » ، وذلك من خلال تشجيع العناصر « الايجابية » (اي

المتعاونة مع السلطة) مقابل مقاومة تلك التي وصفت بـ « السلبية » واحتوائها (٤) ٠

اما خلاصة تلك التجربة من التعامل بين العرب والسلطة الاسرائيلية ، خلال الستة عشر عاما الاولى من قيام اسرائيل (١٩٤٨ ـ ١٩٦٦) ، التي بدأت بانتهاج سياسة قمعية صارمة تجاه العرب ، وانتهت بالغاء جهاز الحكم العسكري ، رمز تلك السياسة ، فلم تكن عمليا الا بمثابة اعتراف من قبل السلطات بفشل سياستها السابقة ، ومن ثم اتجاهها الى اتباع طرق جديدة لاحتواء اولئك العرب ٠ وبالنسبة للعرب والسلطة سوية ، فقد خرجوا من تلك التجربة بـ « اتفاق » فيما بينهم ، مفاده انه من « المفهوم » للسلطة ان العرب في اسرائيل ليسوا يهود صهيونيين ، وان من حقهم الاعتراض على ممارسات الحكم التي لا تروقهم ، وابداء عدم رضاهم عنها ، والاصرار على الاحتفاظ بـ « هويتهم القومية » ، دون ان يمس ذلك بـ « الامن » و « النظام العام » ٠ اما العرب ، انفسهم ، فقد خرجوا من تلك الحقبة وهم اكثر ثقة بانفسهم وبقدراتهم على التصدي للاجراءات المناهضة لهم ، مصممين على مجابهة التمييز المطبق ضدهم في مجالات معيشية اخرى ٠

كانت حصيلة هذه التجربة من التعامل بين العرب والسلطة الاسرائيلية هي الخلفية التي حكمت علاقات الطرفين ، وسيطرت على مواقفهما المتبادلة ، تجاه بعضهم البعض ، عشية حرب ١٩٦٧ ٠ وهذه الحرب ، التي لم تكن حدثا عابرا في تاريخ المنطقة ، لم تكن كذلك بالنسبة للعرب في اسرائيل ايضا ٠ فالاحتلال الاسرائيلي للضفة الغربية وقطاع غزة ، بالغائه الحدود بين هاتين المنطقتين وتلك المحتلة من فلسطين سابقا ، فتح الطريق امام العرب في اسرائيل للاتصال باخوانهم الفلسطينيين في المناطق المحتلة حديثا ، واقامة مختلف العلاقات معهم، والتعرف من خلالهم (وبواسطة الجسور المفتوحة) على معظم القضايا والمشكلات التي يواجهها الشعب الفلسطيني ، في كافة مناطق وطنه ، او في المهاجر ، او تلك التي تشغل بال العالم العربي ٠ وسرعان ما راحت بصمات هذا الوضع الجديد تظهر على مواقف العرب وتصرفاتهم ، اذ انضمت اعداد منهم الى منظمات المقاومة ، اثر تبلور العمل الفدائي (والقي القبض على بضع مئات منهم) (٥) ، كما أزداد موقفهم راديكالية فيالوقت نفسه ، وخصوصا تجاه السلطة الاسرائيلية اثر تصاعد نشاطها القمعي في المناطق المحتلة انذاك ٠ غير ان تطورا آخر بارزا للغاية قد حدث في موازاة ذلك ، لعله الاهم في ما حدث نتيجة لحرب ١٩٦٧ ٠ فـ « الانفتاح » على المناطق المحتلة في الضفة الغربية وقطاع غزة ، ومن ورائهما العالم العربي بأسره ، مكن العرب في اسرائيل من الوقوف على حقيقة الفروق العديدة والمشاحنات الدائمة بين الانظمة العربية المختلفة ، والتباين بين المواقف العلنية والحقيقية تجاه القضية الفلسطينية ٠ كما

اتضح لهم « ان الشعب الفلسطيني هو النعجة السوداء في العالم العربي » (٦)، وخصوصا اثر المذابح التي ارتكبت بحق الفلسطينيين ، من قبل هذا النظام او ذاك · وكانت ردة الفعل ان تحول معظمهم من كونهم اكثر الفلسطينيين ، وربما العرب ، عروبة ، الى اكثرهم فلسطينية (٧) ·

وان كانت حرب ١٩٦٧ قد ارست الاسس التي ذكرناها ، فقد جاءت حرب ١٩٧٣ لتزيدها رسوخا · ويكاد يكون هنالك شبه اجماع ، بين مختلف المسؤولين والمعلقين الاسرائيليين ، على ان حرب تشرين ، التي مست « هيبة » اسرائيل ، وادت الى ضعضعة مركزها على الصعيدين الداخلي والخارجي ،كان لها تأثيرها الواضح على موقف العرب في اسرائيل وتصرفاتهم ، ومن ثم اتجاههم الى « الاستخفاف » بالسلطة ، وذلك بعد ان اسفرت تلك الحرب بالنسبة لهم ــ على حد تعبير احدهم ــ عن « تعاظم قوة الدول العربية على الصعيدين العسكري والاقتصادي » ، مما سيؤمن لها « النجاح في المستقبل » ، ثم « ظهور العالم العربي كعامل ذي نفوذ وتأثير كبيرين في الامم المتحدة والاقصاد العالمي ، الى درجة يستطيع معها فرض ارادته على تصرفات الدول الكبرى والتكتلات العالمية » (٨) · كما اثر على موقف العرب في اسرائيل ما نجم عن تلك الحرب من « اعتراف العالم بالقضية الفلسطينية [وتأييده] لاقامة دولة فلسطينية في [الضفة الغربية وقطاع غزة] بقيادة منظمة التحرير الفلسطينية » ، ثم « ادانة اسرائيل في الامم المتحدة وعزلها عن العالم والافتراض بانها تضعف تدريجيا وتغرق » (٩) · وعلى كل حال ، ومهما يكن من صحة هذا التحليل او مصداقيته ، فمن الواضح ان « صورة اسرائيل المنكمشة » (١٠) ، كما بدت بعد الحرب ، بالنسبة للسكان العرب الفلسطينيين ، قد زادت من جرأة اولئك السكان ودفعتهم الى اتخاذ مواقف لا تنم عن « احترام » كبير للسلطة الاسرائيلية او خوف منها ، بل يمكن اعتبارها ــ من قبل قطاعات واسعة من الصهيونيين ــ « استفزازا » صارخا · والامثلة على ذلك عديدة · ففي تشرين الثاني ١٩٧٤ ، قام يتسحاق رابين ، رئيس حكومة اسرائيل آنذاك ، بزيارة للمدرسة الثانوية في الناصرة ووقف خطيبا في الطلاب العرب ، الذين راحوا يقاطعون كلمته بالتصفيق الحاد ، كلما ذكر اسم منظمة التحرير الفلسطينية . ويجيبونه بصيحات الاستنكار عندما يعلن ان اسرائيل لن تخضع بالقوة (١١) · وفي الوقت نفسه ، كان عدد من الطلاب العرب في جامعة حيفا ينظمون « مسيرة » ، يصفقون ويهتفون فيها لاحد زملائهم ، الذي سار في المقدمة وهو يرتدي كوفية « على طريقة عرفات » (١٢) · وفي اواخر اذار ١٩٧٦ ، كان العرب ، في عدد من المدن والقرى ، يضربون ويشتبكون مع الشرطة ، في « يوم الارض » ، احتجاجا على مصادرة مساحات من الاراضي العربية ، حيث سقط عدد من القتلى منهم ، في حادث هو الاول من نوعه منذ قيام اسرائيل

(انظر ادناه) · وفي شباط ١٩٧٨ كان نحو ٥٥ مثقفا عربيا يوقعون ، ردا على تجاهل السادات لمنظمة التحرير الفلسطينية والقضية الفلسطينية اثناء زيارته لاسرائيل ، على بيان ، وزع على نطاق واسع ، يطالبون فيه باقامة دولة فلسطينية (١٣) · وفي كانون الثاني ١٩٧٩ ، بعث بعض الطلاب العرب في الجامعات الاسرائيلية ، الذين اطلقوا على انفسهم اسم « الحركة الوطنية التقدمية » برسالة تأييد الى المجلس الوطني الفلسطيني ، المنعقد آنذاك في دمشق ، مطالبين فيها ـ من بين ما طالبوا به ـ بالمثابرة على انتهاج سياسة الكفاح المسلح · ثم عقد بعض اولئك الطلبة مؤتمرا صحفيا اعلنوا فيه انه ليست لديهم اية تحفظات تجاه نشاط م·ت·ف· ، وأنهم لا يعتبرون اسرائيل وطنهم ، لانهم يشعرون بالغربة فيها · وقد اثارت تلك الظاهرة زوبعة في اسرائيل ، ودفعت بعض المسؤولين الاسرائيليين الى اطلاق التهديد تجاه العرب في اسرائيل باسرهم، مذكرين اياهم «بما حدث للفلسطينيين سنة ١٩٤٨» (١٤)، و امكانية طردهم من اسرائيل ·

الاكثرية مع المعارضة

ينعكس نمو الشعور القومي وتبلوره لدى العرب في اسرائيل بشكل واضح للغاية على مواقفهم السياسية ، ويدفعهم الى تأييد المعارضة ، على اختلاف اتجاهاتها ، اكثر فأكثر · ويتمثل ذلك بشكل جلي في نتائج الانتخابات العامة للكنيست (البرلمان) الاسرائيلي وللسلطات المحلية (البلديات والمجالس القروية ـ المحلية) من جهة ، وفي الاطر السياسية التي يؤيدها العرب او يفضلون العمل من خلالها من جهة اخرى ·

وفي مجال الحديث عن المعارضة العربية للسلطة في اسرائيل ، لا بد من الاشارة اولا الى ذلك الدور الفريد في نوعه الذي لعبه الحزب الشيوعي الاسرائيلي ، راكاح (وماكي حتى سنة ١٩٦٥ ، عندما انشق الحزب على نفسه) في قيادة تلك المعارضة وبلورتها ، وهو الذي تزعم حركة الدفاع عن حقوق العرب في اسرائيل ، وقاد نضالها خلال فترة طويلة · وكان ذلك قد تم نتيجة للظروف الموضوعية التاريخية التي مر فيها العرب داخل اسرائيل· فماكي/راكاح كان الحزب الاسرائيلي غير الصهيوني الوحيد الذي سمح له بالعمل رسميا في اسرائيل منذ اقامتها ، لاسباب لا مجال لشرحها هنا · وبصفته هذه ، وبحكم وجوده في المعارضة ، وكذلك بحكم احتلال عدد من الكوادر العربية مراكز قيادية فيه ، وجدت الجماهير العربية في ماكي / راكاح العنوان الرئيسي لتلقي تظلماتها وشكاواها ، بينما عمل الحزب كل ما في وسعه للدفاع عن القضايا العربية ، الى درجة يمكن معها القول ان تاريخ نشاطه عامة ، بالاضافة الى

صحافته وخطب نوابه واستجواباتهم في الكنيست ، تكاد تشكل سجلا متكاملا لنضال العرب في اسرائيل ، ولصراعهم مع السلطة حول حقوقهم ، منذ سنة ١٩٤٨ وحتى اليوم · ونتيجة لذلك كوفىء الحزب بمزيد من الاصوات العربية لصالحه ، في كل انتخابات للكنيست او للسلطات المحلية ·

ومنذ اقامة اسرائيل وحتى مطلع السبعينات ، كان ماكي/راكاح يخوض معاركه الانتخابية ضد « زلم » الحكومة اساسا ، الممثلين ـ الى حد ما ـ بالقوائم الانتخابية العربية المرتبطة بالسلطة.(حزب مباي سابقا ، ثم التجمع العمالي ، المعراخ) · ويلاحظ من متابعة نتائج « حروب » الانتخابات العامة بين الطرفين ، ان الغلبة ، في بداية الامر ، كانت للقوائم العربية المرتبطة بالسلطة ، التي كانت تحصل على اكثرية الاصوات العربية ، وان كانت هذه الاكثرية تقل من انتخابات الى اخرى ، حيث انخفضت ، مثلا ، من ٦ر٥٨٪ في الانتخابات للكنيست الرابع (١٩٥٩) الى ٨ر٤٠٪ في السابع (١٩٦٩) ، مقابل زيادة تدريجية في نسبة الاصوات التي كانت من نصيب راكاح · من ٣ر١١٪ الى ٥ر٢٩٪ ، خلال الفترة نفسها (١٥) · ومع بداية السبعينات ظهر التحول واضحا فيموقف العرب نحو مزيد من الراديكالية ، فانعكس على نتائج الانتخابات التي جرت خلال السنين الخمس الاخيرة ، ودفعت راكاح الى مرتبة الحزب الاول ، من حيث نفوذه في الشارع العربي · ففي الانتخابات للكنيست الثامن (١٩٧٣) حصل راكاح على ٦٤٢ر٤٢ صوتا (٩ر٣٦٪) من مجموع اصوات الناخبين العرب ، في المناطق العربية الصرفة ، الذين اشتركوا في الانتخابات ، والبالغ عددهم ٤٥٠ر١١٥ ناخبا (يشكلون ٧ر٨٦٪ من اصحاب حق الانتخاب العرب في اسرائيل بأسرها آنذاك) ، بينما حصلت القوائم العربية المرتبطة بالمعراخ (وهي اربعة ، فازت منها اثنتان في الانتخابات) على ٥٢٥ر٤١ صوتا (٠ر٣٦٪) (١٦) · اما في الانتخابات للكنيست التاسع (١٩٧٧) ، فقد ارتفع عدد الاصوات التي حصل عليها راكاح ، في المناطق المشار اليها ، الى ٢٥٣ر٦٥ (٨ر٥٠/) من بين ٨٢٤ر١٢٨ صوتا (يشكلون ٧ر٨٤٪ من اصحاب حق الانتخاب العرب) ، بينما انخفضت نسبة الاصوات التي حصلت عليها القوائم العربية (وهي ثلاث ، فازت منها واحدة فقط) الى ٦٨٣ر٢٧ صوتا (٥ر٢١٪) فقط (١٧) · كما انخفضت ، في الوقت نفسه ، نسبة الاصوات التي حصلت عليها كافة الفئات السياسية الاخرى التي تنافس راكاح في الوسط العربي · ويلاحظ ايضا ان نسب الاصوات التي حصل عليها راكاح قد ازدادت في كافة التجمعات العربية (قبائل بدوية ، قرى صغيرة او كبيرة ، او مدن) ، والشيء نفسه صحيح بالنسبة لانخفاض نسب اصوات القوائم العربية ، وان كانت هنالك فروق بين تجمع وآخر ، نتيجة للتباين في الوعي السياسي او لعوامل اخرى (١٨) ·

ولا بد من الاشارة هنا ان في مقابل تصاعد التأييد لراكاح في الوسط العربي ، هنالك انخفاض واضح في شعبيته بين اليهود · وخلافا للرأي القائل ان راكاح هو حزب الطبقة العاملة اليهودية والجماهير العربية في اسرائيل ، ليس للحزب نفوذ يذكر بين اليهود · ففي الانتخابات للكنيست السابع (١٩٦٩) مثلا ، حصل راكاح على ٧٤١ صوتا فقط في المناطق اليهودية الصرفة (القرى اليهودية والكيبوتسات والموشافيم وما شابهها) ، وذلك من بين ٣٨ر٧٢٨ صوتا كانت من نصيبه في تلك الانتخابات ، في كافة انحاء اسرائيل ، اي ان ما نسبته ٩ر١٪ فقط من مجموع الاصوات التي حصل عليها الحزب جاءت من المناطق اليهودية الصرفة (١٩) · ثم انخفضت هذه النسبة الى ٥ر١٪ (٧٧٧ من بين ٥٣ر٣٥٣ صوتا) سنة ١٩٧٣ ، والى ١ر١٪ (٨٨٨ صوتا من بين ٨٠ر١١٨ صوتا) سنة ١٩٧٧ (٢٠) · وفي المقابل ، شكلت الاصوات التي حصل عليها راكاح في المناطق العربية الصرفة ما نسبته ٩ر٧٦٪ و ٩ر٧٩٪ و ٤ر٨١٪ من مجموع الاصوات التي كانت من نصيب الحزب عامة في انتخابات سنوات ١٩٦٩ و ١٩٧٣ و ١٩٧٧ على التوالي (٢١) · اما ما تبقى من الاصوات ، فقد حصل عليه راكاح في المدن والقرى المختلطة ، ومعظمه اصوات عربية · وبلغة اخرى ، يمكن القول ان نحو ٩٠٪ من مجموع الاصوات التي يحصل عليها راكاح في الانتخابات العامة في اسرائيل ، منذ ١٠ سنوات وحتى اليوم ، هي اصوات عربية ·

وكان هذا التأييد المتزايد الذي حظي به راكاح بين العرب قد اثار غضب بعض الدوائر الصهيونية المتطرفة ، فطالب بعضها بحل الحزب وحظر نشاطه · الا ان بعض « العقلاء » سرعان ما تصدى لهذه الدعوات ، معلنا عن معارضته الشديدة لها ، ومحذرا من مغبة مثل ذلك العمل ، لان « راكاح ، كحزب في اسرائيل ، يمثل القومية العربية المعتدلة نسبيا » (٢٢) ، وهو بمثابة « صمام امان للعرب في اسرائيل ، يقيهم من الانزلاق القومي المتطرف » (٢٣) ، كما ان زعامته تدعو الى اتباع « طريق يهودية ــ عربية ··· ليست بالتأكيد طريق م·ت·ف » (٢٤) · وذهب احدهم الى حد القول انه « لو لم يكن راكاح قائما لوجب اقامته ، لان البديل اسوأ بكثير » (٢٥) ، والقول لا يخلو من الصحة ، اذ ان نشاط راكاح علني وقانوني ، يتم ضمن انضباط فائق في اطار « الشرعية » الاسرائيلية ، ولذلك فهو معروف للسلطة جيدا ، التي تستطيع مراقبته ، ومن ثم التحكم به ــ الى حد ما ــ وضبطه · والبديل ، فعلا ، اسوأ من ذلك بكثير ·

فرق ــ ولا تسد

مما لا شك فيه ان تأييد العرب الفلسطينيين في اسرائيل لراكاح ، والذي وصل الى ذروته في الاونة الاخيرة ، بالمقارنة مع الوضع سابقا ، غير ناجم

فقط عن تبني الحزب لمشكلاتهم المعيشية اليومية ، بل انه يعـود ايضا الى تبنيه لقضايا النضال الفلسطيني وشعاراته ، وعلى رأسها ذلك الداعي الى اقامـة دولة فلسطينية مستقلة ، وهو المطلب الذي يؤيده راكاح منذ فترة غير قصيرة ، ثم اعترافه بمنظمة التحرير الفلسطينية ممثلا وحيدا للفلسطينيين · كذلك لا بد من الاشارة الى ان التأييد العلني الذي حظي به راكاح من قبل بعض اجهـزة م·ت·ف· كان له تأثير ما على زيادة عدد المؤيدين له ·

غير انه على الرغم من الوقائع التي اشرنا اليها ، وحصول راكاح ، خلال الانتخابات الاخيرة ، على اكثر من نصف اصوات الناخبين العرب في اسرائيل، من الخطأ الاعتقاد ان ذلك يعني ، بالضرورة ، تأييدا كاملا من قبل اولئـك الناخبين ، او حتى اكثريتهم ، لعقيدة راكاح ومواقفه واتجاهاته السياسية ، او ان ذلك التأييد هو خير معبر عن مواقف العرب السياسية · فتصويت اكثريـة الناخبين العرب على الشكل الذي اشرنا اليه يعبر ، عمليا ، عـن مواقـف احتجاج « ضد الحكومة » ، اكثر من دلالته على اي اتجاه اخر ، باعتبار راكاح الحزب الرئيسي المناوىء للسلطة سياسيا ، وعندما تكون اعتبارات الناخبيـن العرب غير ذلك ، تخف نسبة الاصوات التي يحصل عليها راكاح بشكل ملحوظ · والامثلة على ذلك عديدة ، ونكتفي باثنين منها · ففي اواخر الخمسينات واوائل الستينات ،عندما وقع الخلاف بين عبد الناصر وعبد الكريم قاسم ثم الشيوعيين، وقف الحزب بقوة الى جانب الاخيرين ، وراح يهاجم بعنف عبد الناصروالعناصر المؤيدة له بين العرب في اسرائيل · وكانت النتيجة ان اعرض الناخبون العرب عن الحزب وتنكروا له ، وامتنع العديد منهم عن التصويت لصالحه ، فانخفض عدد نوابه نتيجة لذلك من ٦ نواب في الكنيست الرابع (١٩٥٩) الى ٣ فـي الخامس) ١٩٦١) ، ثم عاد الى الارتفـاع بعـد ذلـك ، عندمـا تغيـرت الاوضاع (٢٦) · وفي هذا المجال تلفت النظر ايضا الفروق بين نسب الاصوات التي يحصل عليها راكاح في الانتخابات للكنيست ، وبين تلك التي تكون مـن نصيبه ، عادة ، في الانتخابات للسلطات المحلية · ففي سنتي ١٩٦٩ و ١٩٧٣، جرت في اسرائيل الانتخابات للكنيست والسلطات المحلية ، العربية واليهودية ، في اليوم نفسه · وقد حصل راكاح في ٩ قرى ومدينة عربية (هي ام الفحـم وباقة الغربية ودالية الكرمل وطمرة والطيبة والطيرة وقلنسوة وكفر قاسم والمغار ويافا الناصرة وشفا عمرو ، والتي يزيد عدد سكان كل منها على ٥ الاف نسمة) على ٤ر٣٨٪ (٩١٩ر١٠ من ٤٥٠ر٢٨ صوتا) مـن مجموع الاصوات فـي انتخابات الكنيست ، مقابل ٠ر١٠٪ (٠٤١ر٣ من ٤٩٢ر٣٠ صوتا) في انتخابات السلطات المحلية ، وذلك سنـة ١٩٦٩ ، و ٥ر٤٦٪ (٣٤٤ر١٥ من ٩٧٨ر٣٢ صوتا) مقابل ٢ر١٢٪ (٥٣٤ر٤ من ١٤٢ر٣٧ صوتا) ، سنة ١٩٧٣ (٢٧) · وتكاد تنطبق هذه النتيجة ـ القاعدة على كافة التجمعات العربية ، عدا ـ ربما

ـ الناصرة · وتفسير ذلك هو ان الناخب العربي ، على وجه العموم ، يفضل راكاح في الانتخابات للكنيست ، لانه يريد التصويت « ضد الحكومة » ، ولكنه يغير موقفه ، عند الاقتراع للسلطات المحلية ، ويفضل القيادات المحلية ويصوت لصالحها ·

ومن ناحيته ، يعي راكاح جيدا هذه التيارات وغيرها ، التي تتفاعل في الوسط العربي في اسرائيل ، ويعمل كل ما في وسعه للقضاء عليها او ، على الاقل ، الحد من تأثيرها وتجييرها لصالحه ، وذلك بمحاولة منع بروز اية قيادات اخرى للعرب قد تؤثر عليه ، وان برزت ، يحاول ربطها به وابقاءها تحت كنفه ، حتى لا تصب اصوات الناخبين العرب في غير طاحونته ، وتبقى زعامتهم السياسية معقودة له · والحصول على اصوات العرب هي مسألة مصيرية بالنسبة لراكاح ، فهو يعيش على تلك الاصوات ، ويكاد ـ كما رأينا ـ لايحصل على غيرها · ولتأمين ذلك ، يبذل راكاح كل ما في وسعه على اصعدة عدة · فهو ، من ناحية ، يحاول دائما منع قيام اية قائمة انتخابية قد تنافسه على اصوات العرب ، او ربطها بعجلته ان فشل في ذلك ، او يحاربها ان كانت مرتبطة بالسلطة والاحزاب الصهيونية المختلفة ، ومن ناحية ثانية يحث العرب على التصرف ك « مواطنين صالحين » ، وفق قواعد « الشرعية » الاسرائيلية ، والاشتراك « بجماهيرهم » في الانتخابات ، للتصويت لصالحه ·

وحتى منتصف الستينات ، استفاد ماكي / راكاح ، سلبا ، من السياسة الاسرائيلية الرسمية التي اتجهت الى قمع اي تنظيم قومي بين العرب في اسرائيل (ومثل هذا التنظيم هو الوحيد القادر على منافسة راكاح في الشارع العربي) ، فبقي الحزب الوحيد الذي تصدر النشاط بينهم ، وحظي بتأييدهم · الا ان هذا الوضع راح يتغير ، تدريجيا ، خلال العقد الاخير · فالاحداث والتطورات التي وقعت خلال هذه الفترة واثرت على مواقف الفلسطينيين في اسرائيل ، بعد ان ازدادت حدة الشعور القومي لديهم ، دفعت قطاعات واسعة منهم نحو اتخاذ مواقف اكثر راديكالية تجاه السلطة ، وبالتالي الى التفتيش عن طرق اخرى للتعامل معها ، مما ادى ، من بين ما ادى اليه ، الى بروز قيادات ، او تبلور تيارات سياسية ، غير راكاحية ·

واول ما يلفت النظر ، في هذا المجال ، هو انشاء اتحاد رؤساء المجالس المحلية العربية (نحو ٥٠ مجلسا) ، في منتصف سنة ١٩٧٤ ، بهدف تنسيق نشاطهم وطلباتهم عامة تجاه السلطة ، والتعاون في حل مشكلاتهم المشتركة (٢٨) · والواضح ان اقامة اتحاد رؤساء المجالس المحلية العربية ، باعتباره هيئة تضم معظم القيادات المحلية العربية وتنسق نشاطها ، كان اجراء موفقا ، وربما « ضربة معلم » ، من حيث تأسيس « تنظيم » عربي يصعب على

السلطة الاسرائيلية ، التي تبدي حساسية تقليدية واضحة تجاه قيام تنظيمات عربية قومية في اسرائيل ، المس به او التعرض لنشاطه ، اذ ان البلديات والمجالس المحلية ليست هيئات شرعية فقط ، بل ان السلطة مضطرة الى التعاون معها لضمان حسن ادارة القرى والمدن العربية وحل مشكلاتها المعيشية اليومية، وما يتعلق باوضاعها عامة ، حاضرا او مستقبلا · ونتيجة لوضعه هذا ، تصرف الاتحاد ، منذ اقامته ، من خلال « ثقة بالنفس » واضحة ، ولم يمر وقت طويل الا ووجد نفسه يتصدى لمشكلات وقضايا عديدة ، يبدو ان بعضها ليس بالضبط ضمن صلاحياته· فقد كان الاتحاد ، مثلا ، احدى الهيئات البارزة التي عملت على تنظيم اضراب « يوم الارض » (١٩٧٦/٣/٣٠) ، احتجاجا على مشاريع مصادرة الاراضي العربية في الجليل (٢٩) · ونتيجة للاضطرابات التي وقعت يومذاك ، قامت الحكومة الاسرائيلية ببحث موقفها تجاه العرب في اسرائيل مرة اخرى ، وقررت ، في اواخر ايار ١٩٧٦ ، الاستمرار في سياستها السابقة الهادفة الى « دمج » العرب في المجتمع الاسرائيلي ونشاط الدولة عامة « على اساس المواطنية الكاملة والمتساوية ومن خلال مراعاة وحدانيتهم الدينية والثقافية » (٣٠) · الا ان رؤساء المجالس لم يقبلوا بهذا القرار ، فاحتج وفد منهم ، اثناء مقابلته لرئيس الحكومة رابين في اواخر الشهر نفسه ، عليه ، ثم تقدموا بمذكرة ، في اواخر حزيران ، طالبوا فيها اخذ « واقع العرب القومي » بالاعتبار ، عند تقرير السياسة الرسمية بالنسبة لهم (٣١) · ومنذ ذلك الوقت راح بعض رؤساء المجالس المحلية يتحدث عن الحقوق القومية للفلسطينيين في داخل اسرائيل ايضا (٣٢) · وقبيل الانتخابات العامة الاخيرة للكنيست التاسع ، في ايار ١٩٧٧ ، تحالف رؤساء المجالس المحلية العربية مع راكاح وجزء من الفهود السود ، فشكلوا قائمة انتخابية جديدة ، هي القائمة الديمقراطية للسلام والمساواة (حداش) ، التي خاضت تلك الانتخابات وحصلت على ٥ مقاعد في الكنيست ، كان أحدها من نصيب حنا مويس ، رئيس المجلس المحلي للرامة ، باعتباره « ممثلا » للاتحاد ·

واذا كان اتحاد رؤساء المجالس المحلية العربية نوعا من قيادة محلية جديدة للعرب في اسرائيل ، يمكن وصفها بانها « معتدلة » ، تتصرف في تعاملها مع السلطات الاسرائيلية من خلال المثل القائل « ضربة على الحافر واخرى على المسمار » (وقد يكون احد الاساليب الرئيسية لذلك أضطرار رؤساء المجالس ، من ناحيتهم ، الى التعامل مع الاجهزة الاسرائيلية المختلفة ، بحكم مناصبهم ومسؤولياتهم تجاه قراهم ومدنهم وسكانها) ، فهناك ايضا قيادة ، او ، على وجه التحديد ، تيار آخر ، وان كان ذا تشعبات عديدة ، يختلف عنها من حيث موقعه وموقفه السياسي ونظرته الى الصراع العربي ـ الاسرائيلي · ويضم هذا التيار العناصر الاكثر راديكالية ، واحيانا تزمتا ، بين العرب في اسرائيل ،

ويتألف في معظمه من الشباب · ولعل خير ممثل لهذا التيار هو الحركة ـ وربما كان من المستحسن تسميتها جماعة ـ « ابناء البلد » ، التي كانت قد اسست اصلا قبل نحو ٨ سنوات ، من قبل المحامي محمد كيوان من ام الفحم، على شكل قائمة انتخابية للمجلس المحلي في تلك البلدة (٣٣) ، مما دفع بعضهم في قرى عربية اخرى ، خصوصا الطيبة وعارة وعرعرة في المثلث ودير الاسد في الجليل ، الى اقامة « تنظيمات » مماثلة في تلك القرى ، تحت اسماء مختلفة · والواضح ان تحصن هذه « التنظيمات » وراء قوانين الانتخابات للمجالس المحلية ، وعدم محاولتها اقامة اتحاد يجمع فيما بينها ، تنظيميا على الاقل ، ناجم عن خشيتها من ان تلاقي المصير نفسه الذي لاقته « حركة الارض » في منتصف الستينات (٣٤) ، عندما صفيت بأمر من وزير الدفاع ، بناء على انظمة الطوارىء ، اثر اعلانها عن نفسها كتنظيم سياسي · ولاول وهلة يبدو كأن حركة « ابناء البلد » ليست الا امتدادا وتجديدا لـ « حركة الارض » · الا ان مؤسس « ابناء البلد » يرى عكس ذلك ، فـ « الارض » بالنسبة له كانت « مجموعة عروبية ، حركة قومية عربية آمنت بالوحدة العربية والناصرية » ، بينما « المشكلة ··· الان هي ليست اقامة الوحدة العربية ، بل قضية الشعب الفلسطيني· ولذلك فان اهم شيء بالنسبة لنا ·· هو هويتنا الفلسطينية »(٣٥)· وانطلاقا من هذا الموقف يرى « ابناء البلد » ان « منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الشرعي الوحيد للشعب العربي الفلسطيني ··· الذي يشكل ، اينما وجد ، كيانا واحدا»، ولذلك فان « اي حل للقضية الفلسطينية يجب ان يشمل اعترافا رسميا وضمانات دولية للحقوق القومية للفلسطينيين الذين يقطنون ·· اسرائيل ايضا » (٣٦) · وتحظى اراء « ابناء البلد » ومواقفهم السياسية بتأييد واضح لدى الطلاب العرب الجامعيين في اسرائيل · وكانت الانتخابات ، التي عقدت في اواخر سنة ١٩٧٧ ، للجنتي الطلاب العرب في الجامعة العبرية بالقدس وجامعة حيفا ، قد اسفرت عن فوز اكثرية ، في اللجنتين ، من الطلبة الذين يتعاطفون مع « ابناء البلد» (٣٧) ، (والذين فقدوا ، على كل حال ، السيطرة على لجنة طلاب القدس في انتخابات ١٩٧٨) · وتجدر الاشارة هنا الى ان وضع الطلاب العرب في الجامعات الاسرائيلية ، ونشاطهم ومواقفهم ، كانت مواضيع نقاش وجدل في اوساط اسرائيلية مختلفة ، اكثر من مرة ، خلال السنوات الاخيرة : مرة لانهم يرفضون الاشتراك في حراسة مساكن الطلبة التي يقطنونها مع الطلبة اليهود ، اذ « ان الفدائيين لن يهاجموهم » ، واخرى لان بعضهم يعلن عن تأييده الواضح والعلني لمنظمة التحرير الفلسطينية، وغير ذلك·

وانصار التيار الراديكالي القومي بين العرب في اسرائيل ، من « ابناء البلد » والطلاب الجامعيين العرب (« وحلفاؤهم » من الماويين ، والتروتسكيين اليهود وغيرهم) لا يكتفون فقط بمقارعة السلطة الاسرائيلية ، بكافة الطرق المتاحة

لهم ، حتى وان ظهر ان بعضها عديم الجدوى احيانا ، وانما لا يبدون اعجابا كبيرا ايضا براكاح او برؤساء المجالس المحلية العربية · والخلاف بين الطرفين لا يتعلق بالاهداف التي يسعى اليها كل منهما فقط ، بل يتعدى ذلك ايضا ، وما شابه ذلك · وفي المقابل ، دعوة العرب ، مثلا ، الى الاشتراك في اطار « الشرعية » الاسرائيلية ، ويحرص دائما وابدا ، واولا واخيرا ، على البقاء ضمن ذلك الاطار (ويكاد رؤساء المجالس المحلية ينتهجون الاسلوب نفسه) · ولذلك يتخذ نضال الحزب ونشاطه طابعا هادئا للغاية : تحريض في صحافته العربية والعبرية ضد سياسة الحكومة ، تقديم الاستجوابات الى الوزراء او التقدم بمقترحات عاجلة لجدول اعمال الكنيست لبحث ما يتعلق بالعرب في اسرائيل ، عقد الندوات المرخصة ، او القيام بالمظاهرات المرخصة ايضا ، وما شابه ذلك ـ وفي المقابل ، دعوة العرب ، مثلا ، الى الاشتراك « بجماهيرهم » في الانتخابات للكنيست والتصويت له · وهذا بالذات ما لا يسعى اليه الراديكاليون ، ولا يريدونه ، اذ انهم لا يهتمون كثيرا بالاطر « الشرعية » ولا يسعون اساسا الى كسب اية « شرعية » ، ويفضلون انتهاج طرق اكثر صدامية في تعاملهم مع السلطة من خلال اظهار « عدم اعترافهم » بها ، دون طلب مساعدة احد او موافقته (٣٨) ·

ويجد موقف « عدم الاعتراف » بالسلطة ، من قبل العناصر القومية الراديكالية بين العرب في اسرائيل ، تعبيرا عنه في اشكال عدة ، لعل اهمها امتناع اعداد متزايدة منهم عن الاشتراك في الانتخابات العامة للكنيست ، والامتناع عن الاشتراك في الانتخابات للكنيست كان ، دائما وابدا ، بالنسبة لاوساط معينة بين العرب في اسرائيل ، وسيلة للتعبير عن « عدم اعترافهم بالدولة » برفضهم التعامل مع « البرلمان الصهيوني » · ففي الانتخابات للكنيست السابع (١٩٦٩)، مثلا ، امتنع ١٦٪ من اصحاب حق الانتخاب العرب ، في المناطق العربية الصرفة ، عن الاشتراك في التصويت · ثم راحت هذه النسبة من الممتنعين تزداد بشكل ملحوظ ، فيما بعد ، اذ وصل عددهم في الانتخابات للكنيست الثامن (١٩٧٣) ، الى ٢٩٫٨٧٣ من بين ١٤٩٫٥٠٠ ناخب ، اي ما يعادل ٢٠٪ من اصحاب حق الانتخاب · وفي التاسع (١٩٧٧) امتنع ٤١٫٣٩٠ من بين ١٧٤٫٠٧٤ من اصحاب حق الانتخاب ، اي ما يعادل ٢٤٫٨٪ (٣٩) ، وذلك على الرغم من دعوة دوائر معينة في منظمة التحرير الفلسطينية ، العرب في اسرائيل علنا الى التصويت لجانب راكاح · ومما يلفت النظر ، في هذا الصدد ، ان نسبة الممتنعين عن التصويت في الانتخابين العامين الاخيرين فاقت نسبة الزيادة في عدد اصحاب حق الانتخاب عامة · ففي سنة ١٩٧٣ ازداد عدد الناخبين في المناطق العربية ٢٣٫٣٠٩ ناخبين ، عن عددهم سنة ١٩٦٩ ، بينما وصل عدد الممتنعين الى ٢٩٫٨٧٣ (اي ما نسبته ١٢٨٪ من الزيادة في عدد الناخبين) ·

اما في سنة ١٩٧٧ فقد ازداد العدد ٢٤٫٥٧٤ ناخبـــا ، بينما وصل عـــدد المتنعين الى ٤١٫٣٩٠ (اي ما نسبته ١٦٨٪) ، مما يدل على ارتفـاع نسبـة الامتناع عن التصويت لدى جيل الشباب ، الذين يحصلون على حق الانتخـاب لاول مرة ، على ما لذلك من دلالات رافضة للكيان الصهيوني ومعادية له ٠

ويبدو ، من ناحية ثانية ، ان ارتفاع نسب الامتناع عن التصويت هذه ، التي يمكن اعتبارها دلالة ، الى حد ما ، على اتساع الاتجاهات غير المؤيدة لراكاح في الوسط العربي ، ثم خشية الحزب من تقلص التأييـــد له بين العرب فـــي اسرائيل ، هي التي دفعته الى اعادة النظر في مواقفه السابقة والتنازل عـــن « كبريائه » ، وذلك بالموافقة على التحالف مع عناصر قومية وطنية اخرى ، ذات نفوذ في الشارع العربي ، وهو ما كان يرفض ان يفعله سابقا ٠ ولذلك يلاحـظ ان راكاح بدأ ، منذ عدة سنوات ، يخوض معاركـــه الانتخابية ، للكنيست او للسلطات المحلية ، بواسطة « القوائم الديموقراطية » ، وهي عبارة عن ائتلافات بين راكاح وعناصر وطنية اخرى ، هنا او هناك ٠ ويبدو انه كان لهذا الاسلوب فوائده ، بالنسبة للجميع ، نتيجة لتوحيد قواهم ٠ فتحالف القائمة الديموقراطية للسلام والمساواة هو الذي استطاع جذب اكثرية اصوات الناخبين العرب اليه ، في الانتخابات العامة الاخيرة ٠ كما ان قوائم الجبهة الديموقراطية ، التـــي خاضت انتخابات السلطات المحلية العربية ، خلال شهر تشرين الثاني الماضي ، فازت برئاسة ١٦ مجلسا محليا عربيا في اللواء الشمالي (اي نحو نصف عدد المجالس العربية في ذلك اللواء ، وثلث عددها في اسرائيل باسرها) ، بينمـــا ارتفع عدد ممثليها عامة من ٥٤ شخصا في ٢٣ مجلسا محليا في الانتخابـات السابقة ، الى ١٠٩ اشخاص في ٣٦ مجلسا (بالاضافة الى بلدية حيفا) في الانتخابات الاخيرة (٤٠) ٠ اما في قرى المثلث التسع ، التي عقدت فيها تلـــك الانتخابات ، فقد ضعفت قوة الجبهة الديموقراطية عامة ، كما يبدو نتيجة لمناوأة « ابناء البلد » لراكاح ، ففقدت رئاسة ٣ من القرى الاربع التي كانت قد فازت بها في الانتخابات السابقة (٤١) ٠ اما « ابناء البلد » انفسهم فيبدو انهم فازوا برئاسة مجلسين او ثلاثة في الجليل والمثلث (٤٢) ٠

وعلى كل حال ، ومهما يكن من امر الخلافات بين التيارات السياسية المختلفة الناشطة بين العرب في اسرائيل ، لا بد من الاشارة ، اخيرا ، الى ان النزاع فيما بينها ناجم ، اساسا ، عن الخلاف في وجهات النظر حول انسب الطرق التـي ينبغي اتباعها لمقارعة السلطة من ناحية ، وتأمين المتطلبات المعيشية والحقـوق القومية العربية من ناحية ثانية ٠ وليس في ذلك كما هو واضح ، ما يثلج صدر الكيان الصهيوني ، الذي بذل جهودا كبيرة في زرع بذور التفرقة بين العـرب في اسرائيل لتسهل سيطرته عليهم ، فوجد نفسه ، في نهاية المطاف ، في مواجهة

تنظيمات او تيارات لا هم لها الا تحسين وسائل مقارعتـــه ، حتـى وان كانت وجهات نظرها ومنطلقاتها السياسية مختلفة ٠

بين التهويـد والتعريب

لم تكن العوامل الخارجية السياسية ، التي شهدتهـــا الساحتان العربيـة والفلسطينية خلال السنوات الاخيرة ، هي فقط التي ادت الى نشوء حالة مـــن الزخم القومي بين العرب في اسرائيل ، اذ تضافرت معها ايضا عوامل سياسية داخلية وتطورات وتغييرات ملموسة ، ديموغرافية وثقافية ومهنية ومعيشيـــة وغيرها ، بالنسبة لاولئك العرب ، ساهمت في ذلك ايضا ٠

ولعل ابرز تلك العوامل هو ذلك الناجم عن التغيير الديموغرافي الملموس ، كما ونوعا ، الذي طرأ على اوضاع العرب في اسرائيل ، وزاد من ثقتهـــم بانفسهم ، وبالتالي قوى مركزهم وزاد قدرتهم على توجيه الضغوط في تعاملهم مع السلطة ٠ فخلال الثلاثين سنة الاخيرة ازدادت نسبة السكان العرب فـــي اسرائيل بنحو ٢١٥٪ ، فارتفع عددهم من حوالي ٠٠٠ر١٦٠ نسمة سنة ١٩٤٨ الى ما يقارب ٠٠٠ر٥٠٠ نسمة في اواخر سنة ١٩٧٨ (من دون العرب فـــي القدس القديمة ، التي تصر الاحصاءات الاسرائيلية الرسمية على اعتبار سكانها جزءا من العرب في اسرائيل ، اثر الاعلان عن ضم المدينة بعد حرب ١٩٦٧) ٠ وقد جاءت هذه الزيادة ، اساسا ، نتيجة لنسبة مرتفعة من التكاثر الطبيعي . لعلها من اعلى نسب التكاثر الطبيعي في العالم ، ان لم تكن اعلاها على الاطلاق ٠ وقد بلغ معدل هذه النسبة خلال السنوات ١٩٧٠ ــ ١٩٧٦ ، مثلا ، ٩ر٣٨ في الالف مقابل ٢ر١٧ لدى اليهود (٤٣) ٠ اما بين العرب انفسهم ، فقد بلغت هذه النسبة ، سنة ١٩٧٦ ، مثلا ، ١ر٤٢ في الالف لدى المسلمين (الذين يشكلـون نحو ٧٥٪ من العرب) ، ٩ر٣٨ لدى الدروز (ويشكلون ٩٪) و ٢ر١٨ لـــدى المسيحيين (ويشكلون ١٦٪) (٤٤) ٠ ونتيجة لهذه النسبة المرتفعة من التكاثـر الطبيعي من ناحية . وانعدام الهجرة تقريبـــا بينهم (٤٥) مـــن ناحية ثانية ، استطاع العرب المحافظة على نسبتهم التي تراوحت بين ١١ ــ ١٣٪ من مجموع السكان في اسرائيل ، منذ سنة ١٩٤٨ وحتى اليوم ، وذلك على الرغم مـــن موجات الهجرة التي ضاعفت عدد السكان اليهود ، خلال الفترة نفسها ، بشكل ملحوظ ٠

ومع ارتفاع عدد العرب ، على الشكل الذي اشرنا اليه ، نمت وكبرت ، بالطبع كافة المدن والقرى والتجمعات السكانية العربية ، في كافة انحاء اسرائيل ، بل ويبدو كأنه نشأت احيانا تجمعات سكانية جديدة ٠ ويتضح من مراجعة المعطيات والمعلومات التي تستند الى سجل الناخبين للكنيست (وقد اعتمدنا هذا السجل

لكونه احد اكثر النشرات الاحصائية الاسرائيلية مصداقية ، نظرا لحرص كافة القوى السياسية المتناحرة في اسرائيل على ضبطه وتدقيق محتوياته ، لما لذلك من تأثير على نتائج الانتخابات العامة ، التي تعني الجميع) انه وجد في اسرائيل ، في نهاية سنة ١٩٧٦ ، ١٣٩ تجمعا سكانيا عربيا : مدينتان ، ١٦ بلدة يزيد عدد سكان كل منها على ٥٠٠٠ نسمة ، ٣٣ قرية كبيرة يتراوح عدد سكان كل منها بين ٢٠٠٠ر٢ ـ ٥٠٠٠ نسمة ، ٥١ قرية صغيرة يقل عدد سكان كل منها عن ٢٠٠٠ نسمة ، ٩ قبائل بدوية يزيد عدد ابناء كل منها على ٢٠٠٠نسمة، و ٢٩ بطنا يقل عدد ابناء كل منها عن ٢٠٠٠ نسمة (٤٦) ٠ وتقع معظم هذه التجمعات السكانية ، حيث تعيش ايضا اكثرية السكان العرب (الذين بلغ عددهم ، في نهاية ١٩٧٦ ، ٤٥٤ر٧٠٠ نسمة) في ٣ مناطق رئيسية داخل اسرائيل ٠ واول هذه المناطق هي الجليل (اللواء الشمالي ، اي اقضية عكا والناصرة وطبريا وصفد) ، حيث توجد ٨٣ قبيلة وقرية وبلدة ومدينة عربية صرفة ، بلغ عدد سكانها (بالاضافة الى اولئك الذين يعيشون في عكا ، المدينة المختلطة) ٢٦٠ر٤٠٠ نسمة ٠ اما المنطقة الثانية فهي ما يعرف باسم « المثلث »، وهو عمليا عبارة عن مستطيل يمتد داخل حدود ١٩٦٧ ،بمحاذاة مثلث جنين ـ نابلس ـ طولكرم في الضفة الغربية ، ويتبع اداريا الوية حيفا والمركز وتل ابيب، ويضم ٣٣ قبيلة وقرية وبلدة عربية ، بلغ عدد سكانها (بالاضافة الى اولئك الذين يعيشون في المدن المختلطة حيفا ويافا واللد والرملة) ١٥٠ر٣٠٠ نسمة ٠ والتجمع الثالث هو عبارة عن بدو النقب ، الذين يشكلون ٢١ قبيلة وبطنا ، بلغ عدد ابنائها ٤٠ر٩٠٠ نسمة ٠ اما الباقون ، البالغ عددهم ٣ر١٠٠ نسمة فيعيشون في قريتين عربيتين تقعان الى الغرب من القدس (٤٧) ٠

والواضح ان توزيع السكان العرب على ٣ تجمعات رئيسية داخل اسرائيل ، في الجليل والمثلث والنقب ـ وهو ما تم نتيجة لاسباب « تاريخية » ، ناجمة عن حرب ١٩٤٨ ولا مجال لعرضها هنا ـ يضفي على تلك المناطق طابعا خاصا بها، يختلف عن ذلك الذي تتميز به المناطق ذات الاكثرية السكانية اليهودية ٠ كما يساعد هذا الواقع على المحافظة على مجتمع عربي متماسك وشبه مستقل له مشكلاته وطلباته ، وبالتالي قضاياه وتطلعاته الخاصة به ٠ وهذا ، بالطبع ، ما يقض مضجع السلطات الاسرائيلية ، على اختلاف مواقفها واتجاهاتها ،ويجعلها تتحسب من العواقب والقلاقل ، التي تثيرها الاقليات القومية في مثل هذه الحالات ، خصوصا وان « الاقلية العربية » في اسرائيل ليست الا جزءا من امة كبيرة تسيطر على المنطقة باسرها ٠ وتظهر خراجة هذا الوضع ، بالنسبة للاسرائيليين ، على اوضح ما يكون في الجليل ، حيث يعيش اكثر من نصف السكان العرب في اسرائيل (٤٠٠ر٢٦٠ نسمة من بين ٧٠٠ر٤٥٤ نسمة ، في اواخر سنة ١٩٧٦ ، اي ٣ر٥٧٪) وتكاد نسبتهم تعادل نسبة السكان اليهود في

اللواء الشمالي بأسره (٢٦٠ر٤٠٠ عربي مقابل ٢٨٥ر٧٠٠ يهودي) ، بينما يزيد عدد العرب في قضاء عكا بالذات ، على عدد اليهود بما نسبته ٧٥٪ (١٤٤ر٣٠٠ عربي مقابل ٨٣ر٥٠٠) (٤٨) · وتخشى السلطات الاسرائيلية ان يلجأ العرب ، في تلك المناطق ، استنادا الى اكثريتهم السكانية هناك ، وفي ظل أوضاع سياسية مناسبة الى المطالبة ، يوما ما ، بالانفصال عن اسرائيل ، مثلا، او اعلان استقلالهم · وتتغذى هذه المخاوف ايضا من حقيقة كون تلك المناطق جزءا ، وفقا لقرار تقسيم فلسطين لسنة ١٩٤٧ على الاقل ، من الدولة الفلسطينية · وبالاضافة الى ذلك ، يزداد الوضع حرجا بسبب موقع تلك المناطق الجغرافي ، اذ انها محاذية من جهة الشمال لجنوب لبنان ، حيث يتواجد الفلسطينيون بكثافة ، بينما تتصل في جنوبها بالضفة الغربية ، واي تغيير في وضعها قد يؤدي الى شطر اسرائيل الى قسمين ·

ولا بد من التأكيد هنا ، على كل حال ، ان السلطات الاسرائيلية قد انتبهت باكرا لهذا « الخطر السكاني » العربي ، وعملت كل ما في وسعها للحد من « اضراره » · فخلال السنوات التي اعقبت قيام اسرائيل مباشرة تمت عملية مصادرة واسعة لاراضي العرب في الجليل (وغيره من المناطق التي تواجد فيها العرب انذاك ايضا) ، اسفرت عن الاستيلاء على معظم الاراضي الزراعية الخصبة في المنطقة وتحويل ملكيتها الى المستوطنات اليهودية ، القليلة نسبيا ، التي كانت قائمة هناك انذاك ، في محاولة لتقويتها وتوسيعها ، وكذلك اقامة مستوطنات اخرى ، ومن ثم زيادة عدد السكان اليهود في المنطقة عامة · الا ان هذا المخطط لم يحظ بنجاح كبير ، اذ راح العديد من اولئك المهاجرين ـ المستوطنين الجدد يتركون مستوطناتهم ، تدريجيا ، وينزحون الى المدن ، بحيث لم تكن نسبة من بقي منهم في المنطقة كافية لمعادلة نسبة الزيادة في عدد العرب، نتيجة لتكاثرهم الطبيعي · وبعد غزوة سيناء سنة ١٩٥٦ ، ونتيجة لبروز مشاعر الانتماء القومي بحدة انذاك بين العرب ، وضعت خطة جديدة ، سميت مشروع تهويد الجليل (ولكن سرعان ما استبدلت كلمة « تهويد » بـ « تطوير ») بهدف تقطيع اوصال التجمع السكاني العربي الكثيف في تلك المنطقة ، وبالتالي تسهيل السيطرة عليه · ولتنفيذ هذه الخطة ، تمت مصادرة المزيد من الاراضي العربية ، واقيمت في المنطقة ٣ مدن جديدة ، اولها الناصرة العليا ، بالقرب من الناصرة ، « عاصمة العرب في اسرائيل » ، في محاولة لـ « خنق » المدينة العربية ، وثانيتها كرميئيل ، التي اقيمت على الطريق الرئيسية عكا ـ صفد ، في وسط تجمع عربي كثيف ، يضم قرى الرامة ونحف والبعنة ودير الاسد ومجد الكروم وغيرها ، في قلب الجليل ، وثالثتها معلوت ، بالقرب من ترشيحا، في الجليل الغربي (٤٩) · ومنذ ١٩٥٧ وحتى نشوب حرب حزيران ١٩٦٧ ،بذلت السلطات الاسرائيلية جهودا مكثفة لتقوية تلك المدن وزيادة عدد سكانها ، بكافة

الوسائل ، الا انها لم تحرز انجازات تذكر في هذا المجال ، اذ اتضح ، في نهاية الامر ، انه بدلا من ان تساعد تلك المدن على اضفاء طابع يهودي على تلك المنطقة ، تحولت هي ، الى حد ما ، الى تجمعات ذات طابع عربي ، اثر انتقال اعداد كبيرة من العرب للعمل فيها وسيطرتهم على الاعمال اليدوية والمهنية هناك ٠

ومع انتهاء حرب ١٩٦٧ ، تحولت انظار السلطات الاسرائيلية ، تلقائيا ، نحو المناطق المحتلة حديثا ، وكادت « تنسى » العرب داخل اسرائيل ٠ وبدا ، خلال فترة غير قصيرة ، كأن اجراءات مصادرة الاراضي والتهويد قد وصلت الى نهايتها ، بينما تصاعد الحديث عن ضرورة تحسين اوضاع العرب في اسرائيل ومعاملتهم بالحسنى ، ولو تم ذلك فقط من قبيل محاولات منعهم من التعاطف مع نضال اخوانهم في المناطق المحتلة حديثا ، او محاولة دق اسفين بين الشطرين ٠ الا ان هذا كله تغير فجأة ، مع تغيير الاوضاع السياسية ، على النحو الذي « اثار » اسرائيل ٠ فقرارات الامم المتحدة ، الصادرة في اواخر سنة ١٩٧٤ ، والتي شددت على حقوق الفلسطينيين واعترفت بـ م٠ت٠ف٠ ممثلا شرعيا وحيدا للشعب الفلسطيني ، « اغضبت » الاسرائيليين وحكومتهم ، التي قررت الرد عليها ـ وكما يليق بكيان استيطاني ـ بتقوية الاستيطان اليهودي في الضفة الغربية ، وذلك بعد يومين فقط من صدور تلك القرارات (٥٠) ٠ ولكن هذه الاجراءات الاسرائيلية كانت موضوع نقاش حاد ، خصوصا بعد ان اتضح ان عددا من المسؤولين الاسرائيليين لا يؤيدها ٠ وسرعان ما تحول ذلك النقاش ـ كالعادة ـ الى نوع من المجابهة الشاملة ، حول سياسة الاستيطان عامة ، بين « صقور » اسرائيل الذين ايدوا تلك الاتجاهات الاستيطانية بشدة ، وبين « الحمائم » الذين عارضوها بشدة اكبر ٠ وكان « للحمائم » ما يقولونه في هذا الصدد ، اذ عابوا على « الصقور » ضيق افقهم ، وانعدام المرونة السياسية لديهم ، مشيرين الى انه ينبغي على « الوطني » الاسرائيلي ، الذي يريد ان يعمل « في خدمة البلد » ، ان يتوجه للاستيطان في الجليل ، « الخالي من السكان » (اليهود طبعا) ٠ ثم ان الجليل « اسرائيلي » ، والضفة ليست كذلك (اضافة الى ان الاستيطان فيها يثير ردود فعل دولية غير ضرورية) ، فلماذا لا يوجه الاستيطان الى هناك ، الى الشمال ، خصوصا وان عرب الجليل ابدوا تأييدهم لـ م٠ت٠ف٠ ؟ وبسرعة ، اتفق الجميع على ضرورة تقوية الاستيطان اليهودي في الجليل ، فيما كان « الحمائم » يعتقدون انهم استطاعوا توجيه الزخم الاستيطاني الى داخل اسرائيل وتجنب الاعمال المربكة في الضفة الغربية ، حتى تحين ساعة البت في مصيرها ، بينما شعر « الصقور » بالغبطة، لانهم استطاعوا حمل السلطات على تبني سياسة تكثيف الوجود اليهودي في الجليل ، دون ان يتعهدوا بايقاف غزواتهم الاستيطانية في الضفة الغربية ٠

ولكن ، وعلى الرغم من هذا الاتفاق في وجهات النظر بين كافة الاطراف ، في شأن ضرورة الاستيطان في الجليل ، ترددت السلطات الاسرائيلية ، لفترة غير قصيرة ، في اتخاذ اجراءات لتنفيذه ، تحسبا من ردود فعل السكان العرب هناك · فقد امتنع ، اولا ، مستشار رئيس الحكومة للشؤون العربية عن اصدار توصية بمصادرة اية قطعة من الاراضي العربية في الجليل ، وطالب باحالة الموضوع الى لجنة حكومية مسؤولة ، احالته بدورها الى لجنة وزارية ، التي اوصت بمصادرة نحو ٢٠ الف دونم ، في اماكن مختلفة في الجليل (معظمها بالقرب من الناصرة وقرية المكر) · ولكن رغم موافقة هذه اللجنة ، امتنع وزير المالية ، الذي يملك حق المصادرة قانونيا ، عن التوقيع على اوامر المصادرة ، وطالب ببحث الامر في احدى جلسات الحكومة بكامل هيئتها ، التي جمعت باقي جرأتها ، وصادقت على مخطط المصادرة (٥١) · وقد كان هنالك ، على كل حال ، ما يدعو السلطات الاسرائيلية الى التزام جانب الحذر في اتجاهها لمصادرة المزيد من الاراضي العربية ، اذ ان العرب في اسرائيل قد ذاقوا الامرين من جراء هذه السياسة ، التي كانت قد ادت منذ اقامة اسرائيل الى مصادرة ما يزيد على مليون دونم من الاراضي الزراعية التي كانوا يملكونها ، ولذلك كان من المتوقع ان يعلنوا عن معارضتهم الشديدة لاية اجراءات مصادرة جديدة ، وهذا ما حدث فعلا · فمنذ راحت استعدادات السلطات لتنفيذ اجراءات المصادرة تتخذ طابعا جديا ، بدأ العرب ايضا يستعدون لمجابهتها . فاقيمت لجان الدفاع عن الارض ، وتم تنسيق النشاط بين كافة الفئات في هذا المجال ، وخصوصا بين راكاح ورؤساء المجالس المحلية العربية ولجان الطلاب العرب في الجامعات الاسرائيلية وغيرهم ، وعقدت عدة اجتماعات احتجاج وصدرت بيانات مختلفة في هذا الشأن · وبعد الاعلان عن المصادرة ، اطلقت الدعوة الى الاضراب العام في « يوم الارض » ، ٣٠ اذار ١٩٧٦ · ولم تشأ السلطات ان يمر ذلك اليوم هادئا ، وحاولت تحطيم الاضراب ، فعنفت المظاهرات واتسع مداها ، وقام الجنود الاسرائيليون باطلاق النار على المتظاهرين العرب وقتل ٦ منهم (ويقال ان الجنود قاموا بذلك لفك الحصار الذي فرضه عليهم المتظاهرون في بعض الاماكن ، وهو ما تكتمت عليه السلطات الاسرائيلية) ، لتتحول المظاهرات الى انتفاضة عارمة ، تلتقي مع تلك التي سادت الضفة الغربية ، تضامنا مع الجليل ، وتنتقل الى التجمع العربي الاخر في وسط اسرائيل ، في منطقة المثلث ، التي اعلنت تضامنها مع الجليل في انتفاضة مماثلة ، وان تم ذلك على نطاق اضيق (٥٢) ·

وفي اعقاب تلك الانتفاضة ، قامت الحكومة الاسرائيلية ببحث سياستها مجددا تجاه العرب ، وقررت ــ على غرار قرارات سابقة في هذا الشأن ــ الاستمرار في العمل على « دمجهم في حياة الدولة » · كذلك صدرت تصريحات،

عن هذا المسؤول الاسرائيلي او ذاك ، تكاد توحي كأن العرب سيستفيدون ايضا من الانشاءات التي ستقام على الاراضي المصادرة · غير ان هذه الوعود ، كما يتضح ، ليست الا من قبيل التخدير والضحك على الذقـــون ، لكي تستمـر السلطات في تنفيذ مشاريع التهويد بأقل قدر ممكن من المعارضة · بـــل يكاد يتضح ان الطبيعة الاستيطانية العنصرية عادت لتتحكم في سياسة اسرائيل تجاه العرب داخلها ، كما كانت عليه الحال قبل ١٩٦٧ · ففي الوقت الذي عاد فيـه مشروع تهويد الجليل الى حيز التنفيذ ، كانت ـ ولا تزال ـ تبذل المحـــاولات لتجريد بدو النقب مما تبقى بايديهم من اراض · ومشكلة اراضي بدو النقب لا تختلف كثيرا عن تلك القائمة بالنسبة لاراضي العرب في الجليل والمثلث ، مـن حيث تعرضها لاجراءات المصادرة ، خلال السنوات الاولى التي اعقبت قيـــام اسرائيل ، وان كانت لها « نكهة » خاصة بها · فخلال حرب ١٩٤٨ ، نقلـــت معظم القبائل البدوية ، التي تعاون عدد من زعمائها مع الهاغاناه ، من قبـــل الحكام العسكريين الاسرائيليين ، من اماكن تواجدها القدمة في كافة انحـــاء النقب الى مساحات محددة من الارض بالقرب من بئر السبع (٥٣) ، لتكتشف . فيما بعد ، ان اراضيها القديمة قد صودرت من قبل سلطة الانشاء والتعميـــر باعتبار انها « اراضي غائبين » ، بينما لا تعتبر الاراضي الجديدة ، التي نقلت اليها ، ملكا لها · ولم يعبأ البدو كثيرا بهذه الفذلكات القانونية ، اذ انتشروا في الاراضي الجديدة ، وراحوا يقيمون بيوتا لهم عليها ، دون الحصول عادة على ترخيص من احد ، بينما رفضوا ، في الوقت نفسه ، التنازل عن حقوقهـم في اراضيهم الاصلية · وازاء هذا الوضع حاولت السلطات الاسرائيلية ، اكثر من مرة ، العمل على تصفية هذه المشكلة ، وذلك بحمل البدو ، الذيـــن تحولت اكثريتهم ـ عمليا ـ الى فلاحين يعيشون على الزراعة وتربية المواشي ، علـى التنازل عن حقوقهم في اراضيهم الاصلية او تلك التي استوطنوها، لقاء موافقتهم على الانتقال للعيش في قرى جديدة تنشئها السلطات لاجلهم في اماكن محددة ومعروفة · الا ان معظم تلك المبادرات منيت بالفشل ، ولاسباب عديدة ، اهمها ان الهدف منها كان الاستيلاء على حقوق البدو في اراضيهم ، دون ضمان سبل العيش لهم مع انتقالهم للسكن في اماكن جديدة ، التي بدا كأنها ستتحول الـى تجمعات بشرية مصيرها تزويد المستوطنات اليهودية المجاورة بالايدي العاملـة الرخيصة (٥٤) · اما اخر المحاولات التي بذلت في هذا الصدد فكانت عبارة عن تعيين لجنة حكومية ، سنة ١٩٧٢ (٥٥) ، بهدف دراسة الوضـــع وتقديـــم مقترحات لحل المشكلات الناجمة عنه · وقد اوصت اللجنة بـــان يصار الـى تعويض البدو عن اراضيهم المصادرة ، وذلك بدفع بدل مالي عن جزء منها ،وان كانت المبالغ المقترحة بخسة للغاية (اذ قدرت ، وفقا لقانون اسرائيلي قديم ، بموجب اسعار الاراضي في اول كانون الثاني ١٩٥٠) وتسليمهم اراضي فـــي

اماكن جديدة لقاء الجزء الاخر (٥٦) · الا انه قبل البت في هذه المقترحات ، التي لم تقبل بها اكثرية البدو ، على كل حال ، قررت اللجنة الاقتصادية التابعة للكنيست ، التي كلفت ببحث الامر اثر مناقشة لمسألة اراضي البدو في البرلمان الاسرائيلي (٥٧) ، « ان التعويض ، مالا وارضا ، الذي اقترحته اللجنة ·· على البدو لحملهم على الاذعان لمطالبها ، فراحت ـ مثلا ـ تهدم من حين الى اخر ، النظر فيه » (٥٨) · وازاء هذا الموقف عاد الوضع الى ما كان عليه ، واستؤنف الصراع بين البدو والسلطات الاسرائيلية ، التي عادت الى توجيه الضغوط على البدو لحملهم على الاذعان لمطالبها ، فراحت ـ مثلا ـ تهدم من حين الى اخر ، بعض المساكن التي يقيمونها هنا او هناك ، بحجة انها انشئت دون ترخيص ، او توقف ضخ مياه الشرب اليهم ، او تقلص مساحات اماكن الرعي المعدة لقطعانهم (٥٩) ، بينما اتجه اولئك الى التصدي لهذه السياسة ومحاولةفضحها ، بعقد الندوات والمؤتمرات الصحفية او شن المظاهرات ، وبعضها امام مبنى الكنيست نفسه · غير انه مهما يكن من عناد البدو واصرارهم على التمسك بحقوقهم في اراضيهم واستعدادهم للدفاع عنها ، يكاد يبدو انهم يخوضون معركة خاسرة ، في وجه المخططات الاسرائيلية الهادفة الى « تطوير » النقب وتهويده ، خصوصا وان هذه العملية كادت تتوقف اثر حرب ١٩٦٧ لاسباب لا مجال لشرحها هنا ، مما ادى الى انخفاض عدد السكان اليهود في تلك المنطقة (٦٠) · ويتوقع ايضا ان تزداد الضغوط الاسرائيلية الهادفة الى الاستيلاء على تلك الاراضي حدة ، اذا وقعت اتفاقية سلم بين مصر واسرائيل ، واضطرت اسرائيل الى نقل جزء من مستوطني سيناء الى النقب ، واقامة معسكرات جديدة للجيش هناك ·

والواضح ان سعي السلطات الاسرائيلية الى الاستيلاء على المزيد من الاراضي العربية من ناحية ، واصرار العرب على التمسك بحقوقهم فيراضيهم او ، بصورة ادق ، بما تبقى في أيديهم منها من ناحية اخرى ، ليس فيه الا ما يبقي على العلاقات متوترة بين الطرفين ، ويدفع العرب نحو التمسك بحقوقهم القومية والتشديد عليها ·

من مجتمع زراعي الى طبقة عاملة

لم تكن العوامل التي اوردناها ، على اهميتها ، هي الوحيدة التي ساهمت في تغيير موقف العرب في اسرائيل ، على الشكل الذي تم فيه ذلك خلال السنوات الاخيرة . اذ اضيفت اليها ايضا عوامل اخرى ، لا تقل اهمية عنها ، ناجمة اساسا عن تطورات اجتماعية ـ مهنية ، غيرت تركيب المجتمع العربي في اسرائيل بصورة ملحوظة ، خلال الثلاثين عاما الماضية ، وخلقت علاقات وقيما

جديدة لديه ، كان لها اثرها الواضح على تبلور الشعور القومي بين ابنائه · ولعله من المناسب الاشارة هنا الى ان هذه التغييرات ، وما تبعها ، جاءت – الى حد كبير – نتيجة لـ « جهود » مختلفة بذلتها السلطات الاسرائيلية في هذا الصدد ، والسياسات المختلفة التي انتهجتها ، وردود الفعل التي ترتبت عليها ، سواء اتم ذلك عن قصد او غير قصد ·

لقد كانت اكثرية الـ ١٦٠٫٠٠٠ عربي فلسطيني ، الذين بقوا في اسرائيل بعد اقامتها سنة ١٩٤٨ ، من سكان القرى الفلاحين ، الذين يعيشون اساسا على الزراعة · الا ان السياسة التي انتهجتها اسرائيل ، منذ خطواتها الاولى تجاههم ، مست هذا الوضع بشكل بالغ · فمتطلبات توسيع الاستيطان اليهودي – وهو هدف صهيوني رئيسي – في كافة المناطق المحتلة انذاك ، وما نجم عنها من مصادرة المساحات الشاسعة من الاراضي العربية الزراعية الخصبة ، قلصت مساحة الاراضي الصالحة للزراعة ، بينما اتخذت ، في الوقت نفسه ، اجراءات تهدف الى تقوية الزراعة اليهودية على حساب العربية ، بمنح الاولى الدعم والمساعدات المالية والحفاظ على اسعارها وضمان تسويقها ، مقابل اهمال الثانية (٦٠) ، وهي سياسة لا تزال تتبع حتى اليوم ، مما ضيق امكانات عيش العرب من الزراعة عامة · وبموزاة ذلك ارتفع عدد السكان العرب ، نتيجة لتكاثرهم الطبيعي ، وازدادت نسبة القوى العاملة بينهم ، ومعظمها من الشباب الذين اضطروا الى التسلل خلسة الى سوق العمل اليهودي ، حيث كانوا يتعرضون للاستغلال لكونهم « عمالا غير شرعيين » (٦١) · ومع مرور العقد الاول على قيام اسرائيل ، في اواخر الخمسينات ، كانت الضغوط المعيشية على السكان العرب قد وصلت الى ذروتها ، ولم يعد بالامكان السكوت عليها ، فقامت الحكومة الاسرائيلية باتخاذ بعض الاجراءات الهادفة الى التخفيف منها ، كان من ابرزها الغاء بعض قيود التنقل المفروضة انذاك على العرب ، والسماح بدخولهم الى المدن اليهودية الرئيسية في مناطقهم ، وبالتالي وصولهم الى اماكن العمل هناك · وبعد ذلك بفترة قصيرة ، وفي اوائل الستينات ، اتخذ اجراء اخر لا يقل اهمية عن الاول ، من حيث تأثيره على القوى العاملة العربية ، وذلك عندما قررت الهستدروت ، النقابة العامة للعمال في اسرائيل ، قبول العمال العرب اعضاء فيها ، مما حسن من امكانات حصولهم على العمل ، بالمقارنة مع الماضي ، والمحافظة على حقوقهم النقابية · ولم تأت هذه الاجراءات ، على كل حال ، مصادفة او من قبيل الاهتمام باوضاع العرب ، بل جاءت نتيجة لحاجة الاقتصاد الاسرائيلي الى الايدي العاملة العربية ·

ومع اتخاذ تلك الاجراءات وتمكين العرب من العمل ، الى حد ما ، في اي مكان يجدون فيه عملا في اسرائيل ، بدأ تطور جديد في حياة اولئك السكان وطرق معيشتهم · فقد راحت اعداد متزايدة منهم تتجه نحو المدن ، للتفتيش عن

عمل تعتاش منه ، حيث استوعب العديد منهم في تلك الانواع من الاعمال ، التي تتصف بصعوبتها او قلة الاجور التي تدفع من اجلها ، كأعمال البناء او المطاعم او الكراجات وما شابهها ، والتي كان العمال اليهود يتركونها متجهين نحو اعمال او مهن اخرى ، تدر دخلا اكبر · ومع مرور نحو عشرين سنة على بداية هذا التحول ، كان التركيب المهني للعرب في اسرائيل قد تغير بشكل جذري واضح للغاية ، بتحولهم من مجتمع زراعي الى طبقة عاملة (٦٢) · ونتيجة لهذا التغيير انخفضت ، مثلا ، نسبة العاملين العرب في الزراعة (من مجموع العاملين العرب عامة) من ٨ر٤٨ ٪ سنة ١٩٥٥ الى ٤ر١٥ ٪ سنة ١٩٧٦ ، بينما ارتفعت النسبة ، خلال الفترة نفسها ، في كافة فروع العمل الاخرى ـ في فرع البناء والاشغال العامة : من ٧ر١٢ ٪ الى ١ر٢٢ ٪ ، المحاجر والمعادن : من ٤ر١٣٪ الى ٧ر١٨٪ ، المطاعم والفنادق والتجارة : من ٦ر٧٪ الى ٣ر١١٪ . المواصلات : من ٦ر٣٪ الى ٨ر٦٪ ، الخدمات العامة والموظفون : من ٢ر٩٪ الى ٣ر١٥٪ والخدمات الشخصية : من ٥ر٢٪ الى ٢ر٨٪ (٦٣) ·

وكان لهذا التغيير في التركيب المهني ، بالنسبة للعرب ، تأثيره على اوضاعهم الاقتصادية ، ومن ثم مواقفهم السياسية · فقد تفككت الروابط العائلية ـ الحمائلية ـ « القبلية » التي كانت تشد الفرد العربي الى « مجتمعه » وبيئته الضيقين ، وخف تأثير الزعماء عليه ، بعد ان تضعضع مركزهم عامة · كما اصبح الفرد ، على وجه العموم ، اكثر استقلالية من الناحية الاقتصادية ، وكذلك اكثر اعتمادا على نفسه ، وتغيرت نظرته نحو العديد من المشكلات والهموم التي تواجهه · ونتيجة لهذه التغييرات ، وما تبعها ، اضمحلت تدريجيا القيم القديمة، السائدة في المجتمعات الزراعية ـ القروية عادة ، وحلت محلها اخرى جديدة ، شبيهة بتلك التي تسود المجتمعات العمالية ، واحيانا الصناعية ، او تلك التي تسير على طريق التصنيع (٦٤) · وبالنسبة للعرب في اسرائيل ، وبحكم كونهم اقلية ليست على علاقات طيبة مع الاكثرية اليهودية ، التي تعيش بجانبها ، بل انه تفصل بين الشطرين مشكلات سياسية اساسية وحادة ، كان من بين ابرز القيم التي تبلورت نتيجة لتلك التغييرات الاقتصادية ـ الاجتماعية ، ضرورة المحافظة على الهوية القومية ، ونمو مشاعر الانتماء القومي ·

« مواطنون من الدرجة الثانية »

لم تكن العناصر التي اشرنا اليها ، « الايجابية » ، هي الوحيدة التي ساعدت على تطوير المواقف السياسية للعرب في اسرائيل ، بل ساهمت في ذلك ايضا عوامل اخرى ، « سلبية » في جوهرها ، ناجمة اساسا عن سياسة التمييز والتفرقة والاهمال التي تتبعها السلطات الاسرائيلية تجاه اولئك العرب ، وكافة

قضاياهم ومشكلاتهم وهمومهم · وعلى الرغم من شغف المسؤولين الاسرائيليين، عادة ، عندما يتطرقون الى الحديث عن اوضاع العرب في اسرائيل ، بالاشادة بمدى التقدم الذي حققه اولئك خلال الثلاثين سنة الاخيرة ، بالمقارنة مع اوضاعهم سنة ١٩٤٨ ، تكفي نظرة سريعة على واقعهم للاثبات انه لا اساس لتلك الادعاءات ، وان مدى التقدم الذي كان من نصيبهم يكاد لا يقارن مع ما حققه اليهود خلال تلك الفترة ، بل انه يقل عن ذاك الذي احرزه اكثر من تجمع فلسطيني اخر ·

ويظهر وضع السكان العرب المتردي بالمقارنة مع غيرهم ، على اوضح ما يكون ، في مجال التعليم ، على ما لذلك من تأثير على مستوى معيشتهم وتقدمهم عامة · فبعد مرور ٣٠ سنة على قيام اسرائيل ، مثلا ، وعلى الرغم من تطبيق احكام قانون التعليم الالزامي منذ مطلع الخمسينات ، فان نحو ٢٠ ٪ من الاحداث العرب لا يكملون تعليمهم الابتدائي (وبالنسبة للبنات ـ نحو ٣٠٪) (٦٥)، لاسباب لا مجال لشرحها هنا (مقابل ـ ٣ ـ ٥٪ بين اليهود) · أما نسبة اولئك الذين يستأنفون دراستهم في المدارس فوق الابتدائية فتصل الى ٤١٪ للذكور ، و ٣١ ٪ للاناث (٦٦) ·

كما ان اوضاع التعليم عامة في القطاع العربي غير مرضية ، وتؤثر على مستوى تحصيل الطلاب ، والاسباب عديدة ومتنوعة ومتداخلة بعضها ببعض ، وتكاد تكون قائمة منذ سنة ١٩٤٨ وحتى اليوم ، دون ان يطرأ على الوضع أي تحسين يذكر · بل يكاد يبدو ـاستنادا ، مثلا ، الى استنتاجات لجنة المعارف والثقافة التابعة للكنيست (٦٧) ، التي كانت قد حققت في الموضوع ، خلال النصف الاخير من سنة ١٩٧٦ ، اثر احالته اليها من قبل الكنيست ـ انه ليست هناك ناحية واحدة على ما يرام من نواحي التعليم العربي · « فخلال سنوات عديدة لم تبذل [بالنسبة للتعليم العربي] الامكانات والجهود الكافية فيما يتعلق بمسألة بناء [المدارس] وتطويرها » ، ولذلك « تنقص القطاع العربي نحو ٤٠٠٠ ـ ٥٠٠٠ غرفة تعليم » ، بسبب الصعوبات في « تخصيص اراض [البناء] للاغراض العامة » · ونتيجة لذلك نجد « الصفوف مكتظة بكثافة » و « مباني [المدارس] المستأجرة موزعة على كافة انحاء القرية » ، وتعاني من « نقص شديد ··· في المختبرات والمكتبات وقاعات الرياضة وغيرها » (٦٨) · يضاف الى ذلك « ان الرسوب [بين الطلاب] في القطاع العربي يصل الى نسب تثير القلق » · اما « كتب التعليم فانها ليست على مستوى لائق » ، كما ان « التعليم المهني والزراعي غير متطور » · ثم « ان ٤٥ ٪ من المدرسين غير مؤهلين » ، نتيجة « لنقص شديد في القوى البشرية المؤهلة للتعليم » من ناحية ، ولعدم استخدام مدرسين مؤهلين ، من خريجي الجامعات او دور المعلمين الاسرائيلية ، لاعتبارات سياسية من ناحية اخرى · وقد انحت لجنة المعارف

والثقافة باللوم ، نتيجة لهذا الوضع ، على كل من السلطات المحلية العربية وقسم المعارف والثقافة العربية في وزارة المعارف والثقافة لعدم قيامهم بواجباتهم ، وطالبت السلطات باعداد خطة خاصة لتطوير التعليم العربي عامة (٦٩) ٠

والواضح، بالطبع ان اوضاع التعليم العربي غير المرضية، في المراحل الابتدائية والاعدادية والثانوية ، تؤثر سلبا على اوضاع التعليم الجامعي ، وتحد من عدد الخريجين الجامعيين العرب ، الذين لا يكفي عددهم لتلبية متطلبات مجتمعهم الضرورية للغاية ٠ فقد وصل عدد الجامعيين العرب في اسرائيل حتى سنة ١٩٧٤ ، مثلا ، الى ١٫٨٠٠ خريج (مقابل ٩٤٫٩٠٠ بين اليهود) ، منهم ١٫٤٠٠ انهوا دراستهم للدرجة الجامعية الاولى (٧٠) ٠ ويعمل نحو ٥٠ ٪ من اولئك الخريجين في التدريس ، و ٢٠٪ في المحاماة ، و ٨٪ في الطب و ٧٪ في الشؤون الاجتماعية و ٦٪ في المهن الهندسية ٠ كما ان ٧٥٪ منهم اجراء ، والباقون ذوو اعمال مستقلة (٧١) ٠ وليس انخفاض مستوى التعليم العربي عامة هو العامل الوحيد الذي يقلل من عدد الجامعيين العرب ، اذ تضاف اليه صعوبات الحصول على عمل بعد التخرج ٠ وكانت هذه الصعوبات قد وصلت الى حد دفع الحكومة ، سنة ١٩٧٤ ، الى تخصيص ٢٤ وظيفة كبيرة في مختلف الدوائر للعرب (٧٢) ، الا ان هذا القرار لم ينفذ ، نتيجة للمعارضة التي ابدتها دوائر اسرائيلية عديدة ذات نفوذ (٧٣) ٠

غير انه على الرغم من الصعوبات العديدة التي تعترض طريق التعليم الجامعي العربي ، يلاحظ ان هناك ، بالمقارنة مع الماضي ، ارتفاعا نسبيا في عدد الطلاب العرب في الجامعات الاسرائيلية ، اذ ازداد عددهم من ٥٤٥ طالبا في السنة الدراسية ١٩٦٩ / ٧٠ الى ٨٦٠ و ٨٩٠ و ١٠٩٠ و ١٢٥٠ و ١٥٠٠ في السنوات التالية (٧٤) ، ويكاد يصل حاليا الى نحو ١٧٠٠ طالب ـ اي نحو ٣٣٠ طالبا لكل ١٠٠ الف نسمة (مقابل ١٣٠٠ لليهود و ٣٠٠٠ بالنسبة للفلسطينيين في الضفة الغربية و ٤٠٠٠ في الولايات المتحدة) (٧٥) ٠ ونتيجة لهذه الزيادة في عدد الطلاب ، ارتفع ايضا عدد الخريجين العرب ، بالمقارنة مع الماضي ٠ فمن بين الـ ١٫٤٠٠ جامعي عربي (للدرجة الجامعية الاولى) الذين وجدوا في اسرائيل سنة ١٩٧٤ ، تخرج ٣٢٥ شخصا خلال السنوات العشر : ١٩٦٠ ـ ١٩٧٠ (٧٦) ، بينما تخرج الباقون ـ اي ١٠٧٥ شخصا ـ خلال السنوات الاربع : ١٩٧٠ ـ ١٩٧٤ ٠

وتجدر الاشارة ، هنا ، من ناحية ثانية ، الى ان الطلاب العرب من اكثر العناصر راديكالية بين العرب في اسرائيل ، اذ تم ذلك نتيجة للصعوبات التي يواجهونها اثناء دراستهم او تفتيشهم عن عمل ، او لكونهم جيل التحول في

المجتمع العربي ، أو للاوضاع السياسية العامة التي يواجهها العرب هناك (٧٧)، ويكادون يقومون ـ على حد تعبير احدهم ـ بدور « وكيل الصراع » (٧٨) في علاقات السكان العرب مع السلطات ، ويستفاد من بحث حول اوضاع الطلاب الجامعيين العرب ومواقفهم ان جيل الشباب العربي المتعلم في اسرائيل ، على الرغم من « استعداده [لاقامة] علاقات اجتماعية وثيقة مع اليهود اكثر من ابناء الجيل السابق » ، فانه « اكثر تطرفا في قوميته من ذلك الجيل » ، بل يتضح « ان الطلاب اكثر تطرفا من ابناء جيلهم العمال » (٧٩) ٠

واوضاع التعليم المتردية بين العرب في اسرائيل تكاد تكون مثالا على اوضاعهم عامة ، في اكثر من مجال ، كالخدمات والاسكان ومستوى المعيشة وغيرها ٠ فعلى صعيد الخدمات ، مثلا ، تلعب السلطات المحلية في اسرائيل (البلديات والمجالس الاقليمية او المحلية) دورا بارزا في تقديمها ، لا يمكن الاستغناء عنه ٠ ولذلك يلاحظ ان تلك السلطات قائمة في كل تجمع سكاني يهودي ، مهما بلغ صغره ٠ وحتى سنة ١٩٧١ ، مثلا ، كان نحو ١ر٠٪ فقط من السكان اليهود يعيشون خارج نطاق السلطات المحلية (٨٠) ، بينما تصل هذه النسبة لدى العرب الى نحو ٢٠٪ ، يعيشون في نحو ٣٥ تجمعا سكانيا ، معظمها من القرى الصغيرة ، مما يؤدى الى انعدام وجود خدمات منتظمة في تلك القرى ٠ والوضع ليس احسن بكثير حتى في تلك القرى التي تعمل فيها السلطات المحلية ، اذ ان ميزانية تلك السلطات تعتمد الى حد كبير على الهبات والمساعدات التي تقدمها الحكومة لها ، والتي تنتهج سياسة تمييز واضحة بين القطاعين اليهودي والعربي ٠ ويتضح ، مثلا ، من تقرير قدمته لجنة جرايسي سنة ١٩٧٤ ، والتي كانت قد عينت سنة ١٩٧٢ ، من قبل وزارة الداخلية ، للتحقيق في اوضاع السلطات المحلية والعربية ومتطلباتها ، ان معدل الهبات التى منحتها الحكومة للسلطات المحلية ،حتى ذلك الوقت ،تراوح بين ٤ـ١٠ليراتللفرد في القطاع العربي ، مقابل ٧٠ ـ ١٢٥ ليرة في القطاع اليهودي (٨١) ٠ ونتيجة لذلك يبدو ، على سبيل المثال ايضا ، ان نحو ربع السكان العرب في اسرائيل لا يزالون يعيشون حتى اليوم في اماكن لا تصلها الكهرباء (٨٢) ٠

كذلك تعاني القرية العربية عامة من سياسة تهدف الى تضييق الخناق عليها ومنع توسعها ، لمجابهة ما يحلو لغلاة الصهيونيين تسميته « الاستيطان العربي في اسرائيل » وتحجيمه ٠ وانطلاقا من هذه السياسة ، لم تنجز حتى سنة ١٩٧٦ ، مثلا ، الخرائط الهيكلية ، الا بالنسبة لـ ١١ قرية عربية فقط ، بينما لا تزال ، بالنسبة لـ ٥٨ قرية اخرى ، قيد الاعداد ، منذ سنين عديدة (٨٣) ٠ والواضح ان هذا الواقع يعيق عملية تطور القرية العربية ، ويعرقل مخططات بنائها ، ويسيء الى وضع الاسكان فيها ٠ ونتيجة لهذا الوضع من ناحية ، وازدياد عدد سكان القرى من ناحية ثانية ، اضطر العديد منهم الى اقامة

المساكن دون رخص بناء ، مما دفع السلطات الى الرد على هذه الظاهـــرة بتقديم المخالفين الى المحاكمة ، واستصدار قرارات بهدم المساكن التي اقيمـــت دون ترخيص · وحتى سنة ١٩٧٤ كانت المحاكم الاسرائيلية، بحسب رأيأحدهم، قد اصدرت نحو ١٢الاف امر هدم من هذا النوع ، بالاضافة الى ٢٤ الف ملـف مخالفة ، كانت قيد الاعداد لتقديمها للمحاكم (٨٤) · ويبدو ان هذا العـــدد الكبير من المخالفات قد « اخاف » السلطات ، مما دفعها الى الغاء عدد لا بأس به منها واغلاق ملفاته (٨٥).الان السلطة تقوم ، على الرغم من ذلك ، ومـن حين الى اخر ، بهدم بيت عربي ، اقيم هنا او هناك دون ترخيص ، ممـا يثيـر ردود فعل غاضبة بين السكان العرب ويدفعهم احيانا الى الصدام مع الشرطة ·

وما تقدم لا يعطي الا فكرة مقتضبة عما تعانيه القرية العربية في مجـــالات محددة فقط ، اذ ان المجالات الاخـرى ليست احســن وضعـا · ولعل رؤوساء المجالس المحلية العربية هم المؤهلون ، اكثر من غيرهم ، لعرض المشكلات التـي تواجهها قراهم · ففي اجتماع ، هو الاول من نوعه منذ قيام اسرائيل ، كان عدد من رؤوساء تلك المجالس قد عقده في الناصرة ، قبل بضع سنوات ، تقدم اولئك بطلبات ، يكفي مجرد عرضها للدلالة على مدى التردي في اوضاع القرى العربية عامة · فقد نصت تلك التظلمات ـ الطلبات ، من بين ما نصـت عليه ، علـــى « تحقيق المساواة التامة بين السلطات المحلية العربية واليهودية ، والتعجيـــل بتنفيذ مشروع الخرائط الهيكلية في [القرى العربية] ، ومنح المجالس المحليـة العربية صلاحية ضم اراض الى نطاق سلطاتهـا ، واضافـة صفـوف تعليـم ، وتشجيع المعلمين العرب على اتمام دراساتهم ، وبناء منشآت رياضية ، ومنـــح المجالس المحلية العربية صفة منطقة تعمير درجةأ[وهي المناطق التي تحصلعلى اكبر نسبة ممكنة من المساعدات والهبـات الحكوميـة] ، واسكـان الشبـــان المتزوجين والعائلات كثيرة الابناء ، وتوسيع شبكتي المياه والكهرباء ، واعادة الضرائب التي حبيت كضرائب رأسمنذ سنة١٩٦٦، ولمتحولالى المجالس »(٨٦)· واضـاف مصـدر اخـر الـى هـــذه المطالب : « الغـــاء اوامـــر الهدم ··· وشق طرق ··· والحصول على مساعدات لبناء ··· نواد وخدمات صحية ··· وتعميم المراسلات الرسمية ، باللغـة العربيـة ··· » (٨٧) · وكـان رؤوساء المجالس المحلية العربية قد تقدموا بهذه المطالب ، كما اشرنا ، قبـل بضـــع سنوات ، الا انه ليس هنالك ما يؤكد ، ان تلك الطلبات لا تزال قائمة حتى اليوم. اذ لم يطرأ منذ ذلك الوقت اي تحسن يذكر على الاوضاع التي اشتكى رؤوساء المجالس منها · ولا يتوقع ، على كل حـال ، ان يحـــدث تحسن يذكـر في هذا الصدد ، ولاسباب سياسية اساسا ، فالعرب في اسرائيل هم ـ على حد تعبيـر مستشار سابق لرئيس الحكومة الاسرائيلية ، وهو شموئيل طوليدانو . الـــذي

امضى في منصبه هذا ١٢ سنة ، حتى استقالته سنة ١٩٧٧ ـ « مواطنون من الدرجة الثانية » (٨٨) ٠

فلسطينيون ، لا اسرائيليون

كان العرب « مواطنين من الدرجة الثانية » في اسرائيل ، منذ اقامتها ، ولا يزالون كذلك ٠ والاسباب واضحة للغاية ، وناجمة عن طبيعة الكيان الصهيوني : فاسرائيل دولة صهيونية ، أقامها الصهيونيون ، لمصلحتهم وخدمة اهدافهم ٠ ومن لا ينطبق عليه مثل هذا التصنيف لا يمكن ان يكون الا مواطنا من الدرجة الثانية ، ان لم يكن اسوأ من ذلك ٠

ومشكلة العرب في اسرائيل مع الكيان الصهيوني ، او مشكلة ذلك الكيان معهم ، على كل حال ، ليست جديدة ، بل على العكس ان عمرها كعمر اسرائيل٠ وهي ايضا ليست مشكلة « مواطنين » او رعايا ، بل انها عبارة عن واقع غريب لطرفين لم يقبل اي منهما بالاخر ، على اقل تعديل ٠ فالفلسطينيون الذين شاءت ظروف حرب ١٩٤٨ ان يبقوا في اماكنهم في ذلك الجزء الذي احتل من فلسطين انذاك لم يرحبوا بالاحتلال الجديد الذي فرض نفسه عليهم ، بينما لم يكن النظام نفسه تواقا الى ضم عرب فلسطينيين ، مهما قل عددهم ، تحت كنفه ، بل ان بعض اركانه بذل كل ما في وسعه للتخلص منهم جميعا ٠ ولكن اتفاقيات الهدنة العربية ـ الاسرائيلية لعام ١٩٤٩ سرعان ما وقعت ، وبقي اولئك العرب في اماكنهم ٠

لقد احتار كل من الطرفين ، العرب في اسرائيل ، واسرائيل نفسها ، في شأن كيفية التعامل بعضهما مع بعض ، في ضوء ذلك الواقع الجديد ٠ الا ان السلطة ، بحكم كونها الطرف الاقوى ، كانت السباقة الى تحديد صيغة ذلك التعامل ، فاخضعت العرب لنظام عسكري قمعي لم يكن هدفه الا الاستيلاء على اراضيهم لتحويلها لاغراض الاستيطان اليهودي من ناحية ، والحرص على اتقاء « شرورهم » الامنية من ناحية ثانية ٠ ومع مرور بضع سنوات على قيام اسرائيل ، عندما استنفدت اغراض تلك السياسة ، تصاعدت الدعوات الى تغييرها واضفاء طابع ما من الليبرالية عليها ، فاعلن ان اولئك العرب ليسوا الا مواطنين اسرائيليين ، ينبغي التعامل معهم على هذا الاساس ٠ غير ان هذه الاعلانات لم تكن الا من قبيل الدعاية الجوفاء وذر الرماد في العيون ، فاسرائيل كانت منهمكة انذاك في حل مشكلاتها الداخلية ، من جهة ، والعمل لضمان مستقبلها وامنها ، بمحاولة فرض الصلح على العرب من جهة اخرى ، من خلال تجاهل وجود الفلسطينيين او قضيتهم ٠ ولذلك فان السياسة التي انتهجت تجاه

العرب في اسرائيل ، والتي جاءت مكملة لتلك المتبعة تجاه العالم العربي بأسره ، كانت في جوهرها سياسة اضطهاد لاولئك العرب ، همها « اطفاء الحرائق » التي قد تنشب بينهم ، على امل ان يذوبوا في المجتمع الاسرائيلي كافراد ، باعتبار انه ليست هناك اي طريق اخرى ، بالنسبة لهم او للسلطة ٠

وانطلاقا من هذه المواقف ، لم تنتهج السلطة الاسرائيلية ، عامة ، تجاه اولئك العرب ، سياسة « كسر عظم » عنصرية مقيته ، كتلك التي اوحت بها ، مثلا ، وثيقة كينيغ (٨٩) والهادفة الى طرد العرب من اسرائيل من جهة ، ولم تصغ ايضا الى المقترحات « حسنة النية » والساذجة ، كتلك التي كان قد تقدم بها المستشارون الاخيرون لرئيس الحكومة للشؤون العربية (٩٠) والهادفة لتحويل العرب الى « مواطنين صالحين » من جهة اخرى ، بل سلكت ، عمليا ، طريقا ما في الوسط ، منتهجة اسلوب ضربة على الحافر واخرى على المسمار ٠ ولم تعط هذه السياسة ، على كل حال ، ثمارا كثيرة ، الا انها لم تخلق ، في الوقت نفسه، مشكلات كبيرة ، خارجة عن قدرة السلطة على استيعابها ٠ وكان بالامكان ، لو بقيت الاوضاع السياسية العربية والفلسطينية على ما كانت عليه ، المثابرة على انتهاج تلك السياسة الى اجل غير مسمى ٠ الا ان تغير تلك الاوضاع ، الذي رافقته تغييرات سكانية ومهنية واجتماعية وغيرها لدى العرب في اسرائيل ، قلب الطاولة على وجهها ، وجعل من اولئك العرب جزءا من طليعة الفلسطينيين المناضلين من اجل حقوقهم ، مع تحول قضيتهم الى مسألة ولاء وانتماء في الدرجة الاولى ، قبل ان تكون موضوع مساواة في الحقوق بين العرب واليهود، وبعد ان نقلوا القضية الفلسطينية الى داخل اسرائيل نفسها ٠

وتطورات المستقبل ، على هذا الصعيد ، جديرة بالمراقبة ٠

الحواشي

(١) انظر ، على سبيل المقارنة ، **كتاب الحكومة [الاسرائيلية] السنوي ، ٥٧٣٧** (٧٧/١٩٧٦) ، القدس ، مركز الاعلام ، ١٩٧٧ ، ص ٤٤٣ (بالعبرية) ٠

(٢) انظر ، للتفاصيل ، صبري جريس، **العرب في اسرائيل** ، بيروت ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، ١٩٧٣ ، الطبعة الثانية ، ص ٣١٦ ـ ٣١٨.

(٣) **المصدر نفسه** ، ص ٣٢٥ ٠

(٤) **المصدر نفسه** ، ص ١٢٠ ـ ١٢٥ ٠

(٥) يقدر عدد اولئك الذين القي القبض عليهم ، من العرب في اسرائيل ، بتهمة القيام بنشاط فدائي بنحو ٤٠٠ شخص ٠

(٦) محمد وتد ، عضو سكرتارية حزب مبام ، في ندوة مع مجلة **بشاعار** ، العدد ١٢٠ ـ ١٢١ ، آذار ـ حزيران ١٩٧٥ ، ص ١١٣ ٠

(٧) انظر ايضا **المصدر نفسه** ، ص ١١٣ ـ ١١٤ ٠

(٨) النائب امنون لين ، اثناء تقديمه اقتراحا حول اوضاع العرب في اسرائيل، في **محاضر الكنيست** ، ٨ /١٢/١٩٧٥ ، ص ٦٣٣ ٠

(٩) **المصدر نفسه** ·

(١٠) من اعلان ـ بيان للتكتل اليميني ليكود في هآرتس ، ١٩٧٤/١٢/٢٥ ·

(١١) راجع وصف اللقاء في **يديعوت احرونوت** ، ١٩٧٤/١١/٢٨ ·

(١٢) **دافار** ، ١٩٧٤/١٢/٢٠ ·

(١٣) راجع نص البيان في **الارض** ، آذار ١٩٧٨ ، نقلا عن **الشعب** · وانظر ايضا التعليقات التي نشرت ، عقب اصدار البيان ، في **معاريف** ، ١٩٧٨/٣/٢ **ودفار**، ١٩٧٨/٣/٣ **وهآرتس** ، ١٩٧٨/٣/٥ ·

(١٤) انظر ، مثلا ، تصريحات وزير الخارجية موشي دايان في هذا الصدد ، في **معاريف** ، ١٩٧٩/١/٢٤ ·

(١٥) انظر جريس ، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٨٦ ـ ٢٨٧ والمصادر المثبتة هناك·

(16) Israel, Central Bureau of Statistics, *Results of the Elections to the Ninth Knesset, 17. 5. 1977*, Special Series No. 553 (Jerusalem, 1977), pp. 49 - 51.

(١٧) **المصدر نفسه** ·

(١٨) **المصدر نفسه** ·

(19) Israel, Central Bureau of Statistics, *Results of the Elections to the Eighth Knesset and to Local Authorities, 31. 12. 1973*, Special Series no. 461 (Jerusalem, 1974), pp. 46 - 47.

(٢٠) راجع المصدرين رقم (١٦) و (١٩) اعلاه ·

(٢١) **المصدر نفسه** ·

(٢٢) دانيئيل بلوخ في **دافار** ، ١٩٧٥/١٢/١١ ·

(٢٣) داني روبينشتاين في **المصدر نفسه** ، ١٩٧٥/١٢/١٨ ·

(٢٤) **المصدر نفسه** ·

(٢٥) انظر المصدر رقم (٢٢) اعلاه ·

(٢٦) انظر ، للتفاصيل ، جريس ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٣٠٤ ـ ٣١٤ ·

(٢٧) انظر المصدر رقم (١٩) اعلاه ، ص ٢٦ ـ ٣١ و ٢٤٤ و ٣٠٠ و ٣٠٥ ـ ٣١٣ ، **والعرب في اسرائيل** ، ص ٣١٢ ·

(٢٨) صحيفة **الاتحاد** ، ١٩٧٤/٦/٢١ ·

(٢٩) انظر ، للتفاصيل ، ايلي ريخس، **عرفي يسرائيل فيهفكعات هاكركعوت بجليل** (عرب اسرائيل ومصادرة الاراضي في الجليل) ، تل ابيب ، معهد شيلواح في جامعة تل ابيب ، ١٩٧٧ ، ص ١٧ ـ ٣٢·

(٣٠) **المصدر نفسه** ·

(٣١) **المصدر نفسه** ·

(٣٢) انظر ايضا **المصدر نفسه** ، ص ٣٣ ـ ٣٨ ·

(٣٣) من مقابلة مع المحامي محمد كيوان في

The Arab Nation : Some Conclusions and Problems, MERIP Reports, No. 68 , April 1978, p. 15.

(٣٤) انظر ايضا مقالة يوئيل دار في **دافار** ، ١٩٧٨/٢/٣ ·

(٣٥) انظر **المصدر رقم (٣٣)** اعلاه، ص ١٦ ·

(٣٦) **المصدر نفسه** ·

(٣٧) يوئيل دارفي دافار، ١٩٧٨/١/١٠· **ويديعوت احرونوت** ، ١٩٧٨/١/١٦ ·

(٣٨) انظر ، لمزيد من التفاصيل ، مقالة زاحي اسكندر في مجلة **بمرحاف** ، كانون الثاني ١٩٧٩ ، العدد ٢٦ ص ١٢ ـ ١٤ . وانظر ايضا المقابلات مع منصور كردوش ومحمد كيوان وسالم جبران في **المصدر نفسه** ، ص ١٣ ـ١٥ .

(39) Results of the Elections to the Eighth Knesset..., *op. cit.*, pp. 46 - 47; Results of the Elections to the Ninth Knesset ..., *op. cit.*, pp. 49 - 51.

(٤٠) نشرة **ر١٠١** ، العدد ١٦٣٣ ، ١٩٧٨/١١/١٣ ، ص ٤١٢ ـ ٤١٣ .

(٤١) **المصدر نفسه** .

(٤٢) انظر ايضا ملخص نتائج الانتخابات في **معاريف** ، ١٩٧٨/١٢/٨ .

(43) Statistical Abstract of Israel, 1977, p. 63 - 64.

(٤٤) **المصدر نفسه** ، ص ٦٥ .

(٤٥) **كتاب الحكومة [الاسرائيلية] السنوي** ، ٥٧٣٧ (٧٧/١٩٧٦) ، مصدر سابق ، ص ٤٣٤ .

(٤٦) المعطيات مستخرجة من

Results of the Elections to the Ninth Knesset..., *op. cit.*, pp. 123 - 238.

(47) *Statistical Abstract of Israel, 1977*, p. 32.

(٤٨) **المصدر نفسه** .

(٤٩) انظر ، للتفاصيل ، جريس ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ١٧٧ ـ ١٨٧ .

(٥٠) التفاصيل في **هآرتس** ، **دافار ومعاريف** ، ١٩٧٤/١١/٢٥ .

(٥١) **الجريدة الرسمية** ، مجموعة النشرات رقم ٢٢٠٦ ، ١٩٧٦/٣/١٩ .

(٥٢) التفاصيل في ريخس ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ١٧ ـ ٢٤ .

(٥٣) جريس ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٢٠٢ ـ ٢٠٩ . وانظر ايضا بياني النائبين مئير باعيل وبوعاز موآف في **محاضر الكنيست** ، ١٩٧٤/١٢/٦ ، ص ٢٥٧ و ١٩٧٦/٥/١٢ ، ص ٢٥٩٨ .

(٥٤) من وقائع مؤتمر صحفي لاعضاء لجنة الدفاع عن اراضي البدو في النقب في تل ـ ابيب ، كما نقلته **يديعوت أحرونوت** ، ١٩٧٧/١٠/١١ .

(٥٥) وزير الزراعة **أهرون** اوزن ، ردا على استجواب في **محاضر الكنيست** ، ١٩٧٤/١٢/٣٠ ، ص ١٠٢٤ . وانظر ايضا **المصدر نفسه** ، ١٩٧٤/١١/٦ ، ص ٢٥٩ .

(٥٦) انظر ، للتفاصيل ، مداخلة لطيف دوري في ندوة بشاعار ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ١٤٨ ـ ١٤٩ .

(٥٧) انظر النقاش في **محاضر الكنيست** ١٩٧٤/١١/٦ ، ص ٢٥٦ ـ ٢٦٠ .

(٥٨) استنتاجات اللجنة الاقتصادية بشأن مشكلة اراضي البدو في النقب ، **المصدر نفسه** ، ملحق جلسات ٢٦ـ٢٨/ ١٩٧٦/٧ ، ص ٣٩٥٢ .

(٥٩) انظر ، للتفاصيل ، **المصدر نفسه**، ملحق جلسات ١٠ـ١٩٧٧/١/١٢ ، ص ١٠٨٢ ـ ١٠٨٣ .

(٦٠) انظر ، للتفاصيل ، « استنتاجات لجنة العمل [التابعة للكنيست] بشأن توطين النقب ، تطويره وتصنيعه » في **المصدر نفسه** ، ملحق جلسات ١٤ـ١٩٧٧/٣/١٦ ، ص ٢١٣٢ ـ ٢١٣٧ .

(٦١) انظر ، للتفاصيل ، جريس ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٣٧٦ ـ ٣٨٩ .

(٦٢) راجع ، في هذا الصدد ، مقالة

Elia T. Zureik, *From Peasantry to Proletariat,* Journal of Palestine Studies, Vol. VI, No. 1, Autumn 1976, pp. 39 - 66.

(٦٣) النسب مستخرجة من *Statistical Abstract of Israel.* 1963, pp. 498 - 501; 1977, p. 301.

(٦٤) **كتاب الحكومة [الاسرائيلية] السنوي** ، ٥٧٣٧ (١٩٧٦ / ٧٧) ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٤٤٢ ـ ٤٤٤ ٠

(٦٥) وزير المعارف والثقافة اهرون يدلين ، ردا على استجواب في **محاضر الكنيست** ، ١٩٧٧/٣/٥ ، ص ١٩٩٢ ٠ وانظر ايضا « استنتاجات لجنة العمل بشأن وضع المواطنين العرب في الدولة » في **المصدر نفسه** ، ملحق جلسات ٢٨ـ١٩٧٥/٧/٣٠ ، ص ٤٠٤٩ ـ ٤٠٥١ ٠

(٦٦) يدلين ، **المصدر السابق** ٠

(٦٧) « استنتاجات لجنة المعارف والثقافة بشأن اوضاع الطلاب في المدارس العربية في البلد » ، **محاضر الكنيست** ، ملحق جلسات ٢/٢٨ ـ ١٩٧٧/٣/٢ ، ص ١٧٧٦ ـ ١٧٧٨ ٠

(٦٨) **المصدر نفسه** ٠

(٦٩) **المصدر نفسه** ٠

(70) *Statistical Abstract of Israel, 1977,* p. 630.

(٧١) رئيس الحكومة يتسحاق رابين ، ردا على استجواب في **محاضر الكنيست**، ١٩٧٥/١/١٥ ، ص ١٣٠٠ ٠

(٧٢) **المصدر نفسه** ٠

(٧٣) شموئيل طوليدانو ، المستشار السابق لرئيس الحكومة للشؤون العربية في مقابلة ، بعد استقالته ، مع ملحق **هآرتس** ، ١٩٧٧/١/٢٨ ٠

(٧٤) رئيس الحكومة يتسحاق رابين ووزير المعارف والثقافة اهرون يدلين ، ردا على استجوابات في **محاضر الكنيست** ١٩٧٥/١/١٥ ، ص ١٣٠٠ و ١٩٧٤/٨/١٥ ص ٢٨٩٧ ٠

(75) Sami Mar'i *Arab Education in Israel,* Syracuse University Press, 1978, p. 109.

(٧٦) وزير المعارف والثقافة اهرون يدلين ، ردا على استجواب في **محاضر الكنيست** ، ١٩٧٤/٨/١٥ ، ص ٢٨٩٧ ٠

(٧٧) انظر التفاصيل في Mar'i, *op. cit.*, pp. 115 - 123

(٧٨) ابراهام بنيامين وراحيل بيليغ ، **هاهسكلاه هاغفوهاه فيهعراكيم بيسرائيل** (التعليم العالي والعرب في اسرائيل) ، تل ابيب ، عام عوفيد وجامعة حيفا ، ١٩٧٧ ، ص ٥٦ ٠

(٧٩) **المصدر نفسه** ، ص ٢٩ ٠ ولتحليل أوضاع التعليم العالي بين العرب عامة ، انظر ص ٢٨ ـ ٥٦ ٠

(٨٠) انظر **العرب في اسرائيل** ، ص ٣٩٢ ، الجدول ١٤ والمصادر المثبتة هناك٠

(٨١) كما اوردها النائب توفيق طوبي في **محاضر الكنيست** ، ١٩٧٤/٧/٣٠ ، ص ٢٥٢٦ ٠

(٨٢) انظر ، على سبيل المقارنة، اقوال النائبة حايكه غروسمان في **المصدر نفسه**، ١٩٧٣/١/٣٠ ، ص ١٤٦٦ ٠

(٨٣) وزير الداخلية ، يوسف بورغ ، في **المصدر نفسه** ، ١٩٧٦/٧/٢١ ، ص ٣٧٢٩ ٠

(٨٤) النائب توفيق طوبي ، اثناء تقديمه اقتراحا لجدول الاعمال حول

اوضاع السلطات المحلية العربية ، في **المصدر نفسه** ، ١٩٧٤/٧/٣٠، ص ٢٥٢٦ .

(٨٥) شموئيل طوليدانو في ندوة بشاعار ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ١٥٥ .

(٨٦) كما اوردتها **نشرة م.د.ف.** ١٩٧٥/٣/١ ، نقلا على **دافار** ، ١٩٧٥/٢/١٧ .

(٨٧) **المصدر نفسه** ، نقلا عن معاريف، ١٩٧٥/٢/١٧ .

(٨٨) من تصريحات طوليدانو ، بعد استقالته ، في مقابلة مع ملحق **هآرتس** ، ١٩٧٧/١/٢٨ .

(٨٩) **عل همشمار** ، ١٩٧٦/٩/٧ . وقد نشرت ترجمة عربية لهذه الوثيقة في **شؤون فلسطينية** ، تشرين الاول ـ تشرين الثاني ، العدد ٦٠ ، ص ١٦٧ ـ ١٨٤ ، **ونشرة م.د.ف.** ، ١/٥ ـ ١٩٧٦/١١/١، ص ٣٣٣ ـ ٣٤٧ .

(٩٠) انظر ، مثلا ، مقابلة شموئيل طوليدانو ، بعد استقالته ، مع ملحق **هآرتس** ، ١٩٧٧/١/٢٨ ومقابلة الدكتور موشي شارون ، بعد استقالته ، مع **يديعوت احرونوت** ، ١٩٧٩/٢/٢٦ .

الياس شوفاني

الحاضر الغائب والغائب الحاضر

الحاضر حاضر ، والغائب غائب · هكذا يستقيم منطق الامور · وهذا هو العرف والعادة · حتى ناطور القرية يعرف ذلك ، ويعيه تماما · وهو عندما يعمم على الناس اوامر السلطة ، ينادي عليهم بأعلى صوته : يا اهل البلد : الحاضر يعلم الغائب ··· فهو يميز بين الاثنين ، ويدعو كلا باسمه ، ولا يخلط بينهما · واذا فعل ، فانما لامر في نفسه · اما في اسرائيل ، فالمسائل البسيطة كهذه ، والتي يفهمها ناطور القرية ، لا تقوم على منطق سليم · ولذلك يصعب فهمها ، وتبدو مستهجنة · والفلاحون يقولون : درب القيظ عوجاء · فاسرائيليا، الفلسطيني الغائب غائب بطبيعة الحال · ولكن ، واسرائيليا ايضا ، قد يكون بعض الحاضر غائبا كذلك ، وهذه بدعة · وهي طريفة : فبحسب هؤلاء القوم ، لا يرتبط حضور الفلسطيني وغيابه بجسده ، وانما بارضه · فان احتاجوها ، غاب هو عنها · وان استغنوا عنها ، وهو الشاذ دون القاعدة ، حضر هو عليها · والارض في نظر الاستيطان الصهيوني ، هي العامل الثابت · اما الانسان ، خاصة الفلسطيني ، فهو المتغير · وعليه فبالامكان « تحضيره » او « تغييبه » وفقا لما تقتضيه حاجة ذلك الاستيطان · والاصل في الممارسة الصهيونية ، امتلاك القوة السياسية ، وبالتالي القدرة العسكرية ، لتجسيد ذلك في الواقع · وصاحب السلطة يرسم الحدود ، ويضع القوانين · وباستصداره « قانون املاك الغائبين » ، حول الكيان الصهيوني الاف الفلسطينيين ، ممن آثروا الاحتلال على التشرد ، الى بشر حاضرين باجسادهم، غائبين بحقوقهم · وكنت انا منهم · وكذلك كان بعض اخوتي وامي ، دون البعض الآخر من الاخوة ، ممن كانوا في عداد « الحاضر ـ حاضر » · اما والدي

فكان من فئة « الغائب ـ غائب » · وعليه ، ونحن عائلة واحدة ، اصبحنا بنعمة الاحتلال الصهيوني من فئات ثلاث · وهذا التصنيف « القانوني » ليس له علاقة بوجودنا المادي بطبيعة الحال ، وانما يستهدف بالاساس ارضنا وممتلكاتنا · وكذلك الحال بالنسبة الى الالاف من ابناء صنفنا ·

و « قانون املاك الغائبين » هذا ، هو الغطاء « القانوني » لعملية النهب الواسعة لممتلكات العرب الفلسطينيين · فاسرائيل « كيان سياسي حضاري » ، بواقع انتمائها الى الغرب الرأسمالي ، اصلا وفرعا · وعليه ، فلا يليق بها ان تستولي وتنهب الا بموجب «القانون » · وكيفما اراد الفاخوري ركب اذن الجرة ·ولكي تستولي دولة الاستيطان الصهيوني على الارض العربية في فلسطين وتهودها ، كان لا بد من تغييب سكانها الاصليين عنها · فكأنما ذلك لا يستقيم دون تغطية قانونية · ومن لم تقتلعه الحرب ويشرده الارهاب والعنف الفاشي ، لحقه التغريب والابعاد · ومن افلت من هذا وذاك ، اطبق عليه التغييب بمقتضى قانون تهويد الاراضي العربية · والعبرة في هذا القانون ليست في التهويد والاستملاك ··· الخ ، فهذه ظواهر نابية فعلا ، ولكنها رافقت الاستيطان الصهيوني فيفلسطين منذ البداية · انما العبرة في تعريف « الغائب » وفقا لهذا القانون · والغياب ، في هذا المجال ، لا ينحصر فيمن شردته الحرب ، فظل خارج رقعة الاحتلال الصهيوني ، وانما يتعداه الى من بقي داخلها · والغائب بحسب هذا القانون الاسرائيلي ، لا يتطابق تماما مع اللاجيء الفلسطيني ، في المصطلح العربي والدولي · فهناك غائبون عن اسرائيل فيها · وهناك لاجئون فلسطينيون في اسرائيل ، لم يخرجوا الى البلاد العربية ، فيحظوا باللقب عن جدارة · وهناك من خرج من بيته ، او اخرج منه عنوة ، الى احد البلدان العربية المجاورة ، فاكتسب « جنسية اللجوء » ، ثم عاد الى فلسطين المحتلة ، محتفظا ، رغبة او قسرا ، بجنسيته المكتسبة · وكنت من هذه الفئة الاخيرة · ومثلي الالاف · وعلى اي حال ، هذا هو القانون ، والجهل به لا يعفي منه ·

لقانون « الحاضر ـ غائب » هذا قصة · وهي ، على حد تعبير الفلاحين في فلسطين ، « كقصة الافعى » ، لا تنتهي · لها بالتأكيد بداية ، ولكنها لم تنته بعد· بدأت بتاريخ ١٢ كانون اول (ديسمبر) ١٩٤٨ ، ولم تنته الى يومنا هذا (آذار ١٩٧٩) · وفي كل مرة ، يخرج القانون على الناس في صيغة تختلف شكلا عن سابقتها ، ولو بمقدار · لكن الجوهر واحد : نهب اراضي الفلسطينيين وتهويدها · فكأنما روح ذلك القانون تتقمص في كل مرحلة من تقلباتها جسدا جديدا · ولكل جسد اهاب للتمويه ، يتلاءم والظرف الراهن · والاصل في كل الصيغ المنمقة تغييب الفلسطيني عن ارضه وممتلكاته « قانونا » · اما الالفاظ فتختلف شكلا ولونا ، وفقا للزمان والمكان · وعن الاسماء حدث ولا حرج :

اموال الغائبين ، مناطق مغلقة ، مناطق امنيـــة ، الاراضي البـور ، الانشـاء والتعمير ، تركيز الاراضي الزراعية ، الاراضي الحرجية ، وغيرها كثير · وفي ذلك التاريخ (٤٨/١٢/١٢) ، اصدر وزير مالية الكيـان الصهيوني حكـم « الغائب » ، على كل فلسطيني غادر بيته ، طوعا او كراهيـــة ، منذ قـرار التقسيم (٤٧/١١/٢٩) ، وحتى تاريخ صدور القانون · وعليه ، انتقلت املاك ذلك الغائب الى ايدي « القيم على املاك الغائبين »ورعايته · ولكن القانون ظل رهن التجديد والصدور بطبعات متتالية ، مع حفظ حقوق النشر كاملة ، فتـرة طويلة بعد ذلك · وظل تاريخ ١ ايلول (سبتمبر) ١٩٤٨ ، الذي جعل مبدئيا حدا فاصلا بين الغياب والحضور ، يستبدل ليواكـب عمليـات الابعـاد والتهجيـر والمصادرة حتى اول (اغسطس) ١٩٥٨ · وعندها فقط حسم الامر ، وانتهـى تصنيف الناس الى فئات ، وفقا لاطماع الاستيطان الصهيوني في اراضيهـم وممتلكاتهم · وبانتهاء عملية التصنيف هـذه ، لم يسدل الستار على نهـب الاراضي العربية وتهويدها ، وانما راحت تستند الى « اساس قانوني » بديل ·

وقانون « الحاضر ـ غائب » هذا لم يأت مقطوع الجذور ، فور قيام الكيان · فباستطاعة هذا الفرمان ان يدعي شجرة انساب عريقة في الفكـر والممارسـة الصهيونيين · والفكر الصهيوني غيبي بطبيعته ومنشئه · اما الحركة الصهيونية فتتميز عن قريناتها من حركات الاستيطان الاوروبي الاخرى بسمتها التغييبيـة البارزة · واذا كانت حركات الاستعمار الغربي قد مسخت الانسان من سكـان البلاد الاصليين في المستعمرات ، فان الصهيونية قد تفوقت عليها بـأن غيبت الفلسطينيين عن رقعة استيطانها بالمرة · وهي عندما القت عصا ترحالهـا فـي فلسطين ، نفت الوجود المـادي لاهلهـا الاصليين · ثـم خرجـت على الناس ، والمقصود « البيض » طبعا ، بمقولة « ارض بلا شعب ، لشعب بـــلا ارض » · وبذلك تجاوزت الصهيونية حتى اصولها اليهودية · فهذه الاخيرة ، وحتى فـي تاريخها الاسطوري ، لم تنف وجود الكنعانيين المادي في « ارض الميعـاد » · صحيح انها انتحلت ملكية الارض بعهد قطعه الرب على نفسه ، ولكنها ، مـع الوعد الالهي ، اعترفت بان الارض تخص كنعان · وكنعان حي يرزق · وهـو يعمل ويبني ويتوالد · ولكن ارضه ميراث لشعب اسرائيـل · هكـذا جـاء فـي الاسفار ، وفي اساطير الاولين · وبقدرة قادر ، غاب الكنعاني عـن « ارض الميعاد » · فصارت هذه حلالا لـ « شعب الله المختار » · وعندما غاب الشعـب المختار عن الارض ، ظل كل منهما بلا تاريخ · فالاصل في الجمع بين الاثنين · اذ ليس للشعب تاريخ بدون الارض ، ولا لهذه تاريخ في غيابه عنها · والتاريخ، تاريخهم ، لا يستقيم مسارا الا اذا عبد الشعب ربه على ارضه · وان توانـى الشعب المختار عن العبادة ، فرق الرب بينه وبين الارض ، واخرجهما معـا من دائرة التاريخ ، فبقيا في دائـرة الجغرافيـا وحسب · وهـو جل جلاله ، لـن

يثوب على « شعبه » حتى يثوب هذا اليه · اما الصهاينة فلم يثوبوا الى ربهم ، وانما عبدوا الهة اخرى من دونه ، وقاموا على خدمة اصنامهم ، املا في دخول التاريخ من بابه الخلفي ، بعد الجمع بين مستوطنيهـــم والارض ، بنعمـــة الاستعمار الغربي وبركته · ومن اجل الاستئثار بالارض ، كلها ، كان لا بد من تغييب اهلها ، كلهم ، عنها ، فجاء الاستيطان الصهيوني اجلائيا · وبهذا تكمن فرادتـــه ·

ولكن الشعب الفلسطيني قاوم الاستيطان الصهيوني منذ البداية · وفلاحوه، المالكون منهم او المرابعون والمقاسمون ، لم يستكينوا للارض تنتزع من ايديهم ، فينقطع رزقهم ويضيع وطنهم · وقد قاوم هؤلاء بوسائلهم المتوفرة : هاجمـــوا المستوطنات · اغاروا على من فيها · خربوا مزروعاتها ··· الخ · والكتابات الصهيونية عن تلك الفترة ، تطفح بالكلام عن مقاومة فلاحي فلسطين وبدوهـــا لتهويد الارض · وهذا فصل من تاريخ نضال الشعب الفلسطيني لم يدون بعـد عربيا · واربكت هذه المقاومة قادة العمل الصهيوني ، كما كشفت بشكل فاضح زيف مقولة ان الارض كانت خالية خاوية ، وبالتالي ، فابوابها مشرعة للاستيطان الغريب · وازاء هذه المقاومة ، بدأ قادة العمل الصهيوني ببناء الاداة العسكرية لحماية مشروعهم · فكانت « حركة الحارس » · وتطورت هذه خلال فترة بنـاء الكيان ، فاصبحت بعد قيامه الالة العسكريـة الاسرائيليـة ، عبر تشكيلـة مـن التنظيمات السرية والارهابية · ولما لم يعد بالامكان انكار الوجـود المـــادي للشعب الفلسطيني ، بواقع الاشتباك الجسدي معه ، تحول الاعلام الصهيونـي الى تغييبه حضاريا · واستعانت ابواقه في هذا المجال ، بمـــا تفوقت عنـــه عبقرية المستشرقين الاغيار من افرازات الحضارة الغربية عن الشرق ،واهلـه وارضه · وعاد الفلسطيني الى الوجود صهيونيا ، ولكن فيإطاره المرجعـــي الغربي · هذا هي اللغو الصهيوني انسانا حقيرا متخلفا ، ينعم بكسله ، ويسعد بفيئه · ولما اكتملت اللوحة ، برز العربي ،وبالتالي الفلسطيني ، رمز العداء للحضارة والعمران ، وعنوان الفوضى والتخريب · بدا انسانا لا عقلانيـــا ، تحكمه نزواته وتسيطر عليه شهواته ، فظا ، جافي القلب والضمير ، لا يحلم بغير الشر والعدوان · كيف لا ، وقد حول الارض التي كانت تدر العسل واللبن ، الى رقاع من الصحراء قاحلة ، او الى مستنقعات موبوءة بالملاريا وغيرها· وشيـع هؤلاء ان المواعات الخضراء في صحراء فلسطين ، انما هي من صنع المستوطنين الصهاينة ، ونتاج عملهم وجهدهم · ودأب هؤلاء على تجريد الفلسطيني مـــن جميع معالم التمدن والحضارة ، ونفوا عنه كل المثل الانسانية والاخلاقيـــة · فصار وصمة عار ، عدوا للبشرية والتاريخ ·

في تغييبها الحضاري للشعب الفلسطيني سخرت الصهيونية مجمل ما انتجـه الاستشراق والمستشرقون عن شعوب المنطقة ، من اجـــل خدمة اغراضهـــا

الاستيطانية الاجلائية · كما انتجت هي ايضا اسوة بالاستعمار الغربي من قبلها ، مستشرقيها واستشراقها الخاص · وليس ذلك غريبا ، فقد قامت الصهيونية على ارضية ذلك الاستعمار ، وفرخت في حضانته ، فجاءت تقليدا له، ولو على مستوى متدن · واذا جعل المستشرقون الاغيار من الاسلام وحضارته محاولة فاشلة لتزييف النصرانية وتراثها ومثلها ، فان المستشرقين الصهاينة نسبوا ذلك الى اليهودية ، وفي احسن الاحوال الى التراث اليهودي – النصراني · وبينما جهد الاولون في تمهيد طريق الاستعمار الغربي للنفوذ الى الشرق وحكمه ، عمل اتباعهم الصهاينة على الغاء الشعب الفلسطيني تمهيدا لاستيطانهم الاجلائي : وفي حين اعمل الاولون طاقاتهم الذهنية في تصوير شرق مستضعف ،عاجز عن حكم نفسه ، وحتى عن تمثيلها ، وبالتالي فهذه مهمة الغرب التحضيرية ورسالته ، نشط الاتباع في تجريد الشعب الفلسطيني من كل معالم الحضارة والتمدن ، وبالتالي اخراجه من عائلة الشعوب ، اعدادا لاحتلال مكانه · وما هذا الجهد الا تبريرا لجريمة تقترف بحق شعب كامل ، وتغطية لوعي زائف تخلقه الصهيونية على مستوى جماهيري في اطارها المرجعي – الحضارة الغربية · فجاء هذا العمل وكأنه تزكية للعمل الصهيوني ، وتبرئة مما يقترف بحق الشعب الفلسطيني · وكأنما اراد الاعلام الصهيوني ، ومن ضمنه استشراقه ، ابراز ان ما يجري في فلسطين ليس منكرا في الاعراف الغربية ، ولا بالمعايير الرائجة هناك · وبالاختصار ارادوا القول بان ما يلغى في فلسطين ليس شعبا بالمعنى الدارج للمصطلح في الغرب ، لان افراد ذلك الشعب لا يتمتعون بالميزات اللازمة ، والتي تهيئوهم لانطباق التسمية على المسمى · من هنا ، فالعمل الصهيوني بريء من كل المنكرات ، وجدير اصلا بنيل الشرعية الدولية والتأييد الشامل · هذا طبعا الى جانب اراحة ضمائر ذلك النفر من اليهود ، ممن تأرجح بين ميوله الصهيونية وكوابحه الاخلاقية ·

وقد ادى التغييب الحضاري للشعب الفلسطيني مهمته الصهيونية ، اذ خلق مناخا غربيا ملائما لتأييد العمل الصهيوني ، استنادا الى أن ما ستقدمه الصهيونية الى الشرق وشعوبه ، يفوق مرات ومرات اذاها على اشلاء شعب متخلف · وعلى هذا الصعيد ، اسهمت اللاسامية بقسط وافر في خدمة المشروع الصهيوني · فبين الرغبة في التخلص من اليهود ، او الشفقة عليهم ، وكلاهما وجهان لعملة واحدة ، صار اقتلاع الفلسطيني من وطنه من اجل اقامة « الوطن القومي اليهودي » ، اهون الشرين · وفي هذا المناخ ، تحركت الصهيونية السياسية ، وطرحت فكرة الدولة اليهودية في فلسطين ، في قلب المشرق العربي · ولكن شعوب الشرق كانت قد هبت تناضل من اجل استقلالها وتقرير مصيرها · ولم يعد التغييب الحضاري كافيا لحذف الشعب الفلسطيني من اللوحة · فكان

لا بد من التغييب السياسي ٠وانصب جهد الاعلام الصهيوني ،بما فيه استشراقه، على الغاء التاريخ السياسي للشعب الفلسطيني ، وبالتالي لفلسطين كلهـــا ، وعلى الحاقهما بالمراكز السياسية في الدول العربية المجاورة ، على مدى التاريخ العربي ٠ وكأنما اريد بذلك الايحاء بأن طرد الفلسطينيين الى الدول العربيـــة المجاورة ، وتوطينهم هناك ، انما هو وضع للامور في نصابها ٠ وذهب بعـض غلاة الصهاينة الى حد القول بعودة العرب الفلسطينيين الى الجزيرة العربية٠ فاذا « عاد اليهود الى مواطن ابائهم » ، والى « ارض ميعادهم » ، فالمنطـــق ، الصهيوني طبعا ، يقضي بعودة العرب الى ارض اجدادهم ٠ هذا ، وما زلنـــا الى يومنا (اذار ١٩٧٩) في اوج مرحلة التغييب السياسي للشعب الفلسطيني في العمل الصهيوني ٠

وفي اطار التغييب السياسي ، يغيـب حـق تقريـر المصيـر ٠ وفيـه يجـرد الفلسطينيون من جميـع ميزات الشعـوب ، حسب تعريفـات الاطـار المرجعـي الغربي ، وبالتالي من حقهم في الاستقلال ٠ واذا لم تقم في فلسطين دولة عربية مستقلة في الماضي ، فلماذا تقوم الآن ؟ وفيه يشوه النضال الفلسطيني ، ويحرف تاريخه ، القديم والحديث ، فتصبح الحركة الوطنية الفلسطينية اداة لقـــوى خارجية ، عربية او سواها ٠ ويصير الحاج امين الحسيني مثلا ، عميلا نازيا ، لا اكثر ولا أقل ٠ وتوصم الحركة بشتى النعوت ، ويشكك في قياداتها ، وفـــي شرعية تمثيلها لشعبها ٠ ويطرح على الـــدوام السؤال : مـــن يمثـل الشعب الفلسطيني ، وهل انتخبت قيادته بشكـل ديمقراطي ؟ امـا حركـة الجماهيـر الفلسطينية العفوية فتصبح انتفاضات غوغائية ، تثور استجابة لتحريض بعض الديماغوجيين والعملاء ٠ وليس في نظر الصهاينة مـــا يدعـــو الجماهيـــر الفلسطينية للوقوف ضدهم ٠ فهم على العكس ، يرون ان من واجب هـــؤلاء الشكر والتقدير لهم ، لما جلبوه على الناس من خير وتقدم ٠ وما دام نضـــال الشعب الفلسطيني لا اساس شرعيا له ، فانه يصبح بطبيعة الحال عدوانا على المستوطنين الابرياء ٠ وعندها تصير المساندة العربية لكفاح هذا الشعب تدخلا في الشؤون الداخلية للكيان الصهيوني ، وبالتالي عدوانا عليه ٠ والذريعة هي ان الجيوش العربية هاجمت اسرائيل المسالمـة فـور قيامهـا ، وليس العكس ٠ وعليه ، فقد تسبب الغزو العربي لاسرائيل بكارثة اللاجئين ٠ وعلى الدول التي دفعت جيوشها الى المعركة يقع وزر المسألة ٠ اما الثورة الفلسطينية فتصيـــر جيشا من المرتزقة المخربين ، اداة طيعة في ايدي الانظمة العربية المعاديـــة ٠ وتتركز وسائل الاعلام الصهيوني على التشهير بفكر الثـــورة وممارساتهـا ٠ فتصور وكأنها مجموعة من القتلة الجبناء ، افرادها من محترفي اختطـــاف الطائرات وسواها ٠ والدولة الفلسطينية ، ان قامت ، فانما ستكون قاعـــدة سوفياتية ٠ وعندما يعترف العالم بمنظمة التحرير الفلسطينية ممثلا شرعيـــا

وحيدا للشعب الفلسطيني ، تتكرم القيادة الصهيونية بالاعتراف بوجود قضية لذلك الشعب · وبالتأكيد فانها تستحق حلا انسانيا ، ولكن في اطار الاردن ومن خلاله · واذا جاز الكلام عن « تسوية عادلة » ، فانما تتحول التجمعات السكانية العربية في اطارها ، الى بانتوستانات تحت الاحتلال ، بغطاء الادارة الذاتية · ومع ذلك يتبجح قادة الكيان الصهيوني بأن ما يطرحونه من حل للقضية ، ينطوي على اعطاء الشعب الفلسطيني تعبيرا سياسيا ذاتيا ، لم يحصل عليه في كل تاريخه ·

« الهوية الحمراء »

لم تأت حمراء لانني اردتها هكذا · اي ليس على الطلب · ولا كان لونها مؤشرا الى انتمائي الحزبي · وانما توخى من منحني اياها تغييبي السياسي · كانت هذه بطاقة هويتي في اسرائيل · حصلت عليها بوساطة مطران الطائفة · ولم تكن لتصدر بسهولة · جرى ذلك بعد عودتي الى البلد بحوالي ثلاثة اشهر · عدت اليها من لبنان متسللا ، بعد ان ابعدتني سلطات الاحتلال · لقد ارادت في البداية تغييبي الجسدي ، لاكون من فئة الغائب ـ غائب · لكن بوساطة المطران وكفالته ، تحولت الى فئة الغائب ـ حاضر ، او العكس · والهوية الحمراء شهادة على ذلك · الفئة الاولى تحمل هويات زرقاء ، وهي للاقامة الدائمة · اما الحمراء الفاقعة فللمؤقتة · ولما كنت قد اكتسبت « جنسية اللجوء » ، اثر عبوري في البلدان العربية ـ الاردن ، سوريا ، لبنان ـ فقد استحق علي الغياب · وهذا بطبيعة الحال ، وفقا للقانون الاسرائيلي · وهو ما توخاه واضعوه · لكنني عدت الى البلد · وتوسط المطران من اجلي ، وقبلت الوساطة فبقيت · الا أن قبول الوساطة توقف عند حد الحضور الجسدي ، ولم يتجاوزه الى السياسي · فبقيت ، على هذا الصعيد ، غائبا · وهو ما تشهد به ، وتعلنه في كل مناسبة ، هويتي الحمراء · هكذا قضيت « اقامة مؤقتة » في بلدي ، امتدت من العام ١٩٤٩ الى ١٩٦٢ · بدأت بالابعاد فاللجوء ، وانتهت بالسفر في طلب العلم ، فالهجرة · ثلاثة عشر عاما من الاقامة المؤقتة في ظل الاحتلال الصهيوني هي حصيلة تجربتي مع ذلك الكيان · فيه وليس منه · يمد سلطانه علي ، ولا فعل لي فيه · يتعاطى معي ، ولا يتيح لي مجالا للتعامل معه · فانا حاضر متى شاء ، غائب متى اراد · والارادة في جانب واحد ·

لم تكن لي املاك يصادرها القيم على اموال الغائبين · وسواء حضرت ام غبت ، ام كنت في منزلة بينهما ، فلن يغير ذلك من الامر شيئا · اما املاك والدي فقد صودرت على اي حال ، اذ كان من فئة الغائب ـ غائب · لكن الهوية الحمراء كانت تحرمني ، ولو نظريا ، من ميراث والدي · فبالاضافة الى

كونها شهادة تغييب ، فهي ايضا صك حرمان · ولو حدث ، والكلام نظـــري ايضا ، ان امتلكت شيئا ، قطعة ارض او بيت ، حتى وان كان من نتاج عملي ، فباستطاعة القيم ان يصادره قانونا · والاكيد ان شيئا من ذلك لم يحصل · الا ان شبح المصادرة كان يطاردني ، اسوة بغيري من ابناء صنفي · والكلمـــة الاخيرة والحاسمة هي للقيم · وما دام هذا قد اعتمد المصادرة مبدأ ، فقـــد آليت انا الا افتح له بابا ·

والهوية الحمراء فرمان فك ارتباط مع الحياة السياسية في الكيان · فهـــي تستثني صاحبها من حق الانتخاب مثلا · الا انها لا تذهب الى حد تخطيه فـــي جباية الضرائب · وفي اسرائيل لعبة ديمقراطية ، بكـــل طقوسها الغربية · وبحسب قانونها الاساسي ، وكذلك في صك اعلانها دولـــة ، تعتبر اسرائيـل الفلسطينيين تحت احتلالها مواطنين · وعليه ، فهم يشاركون في الانتخابـــات العامة للكنيست ، ولهم ان يرشحـوا انفسهم ويخوضـوا الانتخابات لعضويته · وبالفعل ، فقد كان هناك اعضاء عرب حتى في الكنيست الاول · ومنهم مثـــلا سيف الدين الزعبي ، الذي استقال قبل ايام ، دون ان ينهي الدورة الحاليـة ، وهي التاسعة في ترتيبها (شباط (فبراير) ١٩٧٩) · ولهؤلاء النواب العـرب في الكنيست قصة ، سنفرد لها بابا خاصا · اذ لا يجوز تناولها مرور الكرام · اما هويتي الحمراء فلم تقف حائلا بيني وبين عضوية الكنيست وحسب ، وانما تعدت ذلك الى حقي في انتخاب من يمثلني هناك ايضا · والكلام فـي الموضوع نظري طبعا ، اذ لم تكن عضوية الكنيست تخطر لي على بال · اما القاء صوتي في صندوق الاقتراع ، مرة كل بضع سنين ، لصالح هذا المرشح او ذاك ، فلم تكن مسألة تهمني كثيرا ·

والواقع انه اتيحت لي اكثر من فرصة لاستبدال هويتي الحمراء باخـــرى زرقاء · كان ذلك في الاعـــوام ١٩٥٥ ، ١٩٥٩ ، ١٩٦١ · اي في مواســـم الانتخابات العامة للكنيست · ففيها كانت الاحزاب الصهيونية تتنافس على صيد الاصوات العربية · وتتبارى فيما بينها على تقديم الخدمات ، بما فيها حل بعض المشاكل الفردية للناخبين الملتزمين · وهكذا يبدأ باستبدال بطاقة الهويـة لمن هم في وضعي · والاجراء معروف : محكمة شكلية · ينـــال المدعي فيهـا حـــق الانتخاب ، بناء على شهادة حضور ، كما فقده بناء على شهادة غياب · ومـا دامت المهمة الاساسية قد انجزت ، والارض صودرت ، فالباقي تفاصيل هامشية · وقد حصل كثيرون ، ممن كانوا في حكم الغائب ، على حقهم في استبـــدال هويتهم ، وبالتالي الاقتراع في الانتخابات العامة · بل واكثر من ذلك ، ففـــي حالة واحدة على الاقل ، اعرف من جرى استبدال بطاقة هويتـه الشخصيـة ، كي يدخل معركة الانتخابات في قائمة عربية ملحقة بحزب العمال الحاكم · وكان هذا قد غادر قريته عندما وقعت تحت الاحتلال ، في نهاية العام ١٩٤٨ · وبقي

في لبنان بضع سنين · ثم عاد الى القرية في اطار « جمع شمل العائلات » ، عام ١٩٥٣ · فما كان منه الا ان دخل الانتخابات للكنيست الثالث (١٩٥٥) ، مرشحا في القائمة الديمقراطية ، المؤتلفة مع الحزب الحاكم عندئذ ، مبـاي · وكان على رأس تلك القائمة سيف الدين الزعبي ، المذكور انفا · وفيها عضـو الكنيست الحالي ، جبر معدي · اما صاحبنا فقد نجح في حل جميع مشاكلـه الفردية : استبدل هويته ، نال حق الانتخاب ، رشح نفسه لعضوية الكنيست ، ونجح · ولكن ذلك لم يسعفه قيد انملـة في صراعه من اجـل استرجاع ارضـه من براثن القيم على اموال الغائبين · وهو على حد علمي ، لا يزال يصـارع الى الآن ، لكن من خارج الكنيست · واخيرا علمت انه انضم الى « لجنة الدفاع عن الارض » في الجليل · اما انا فقد احتفظت بهويتي الحمراء ·

كنت محصنا ازاء المصادرة · لم املك ما يستهوي القيم على اموال الغائبين· فالابناء في القرى الفلسطينية لا يملكون في العادة وآباؤهم احياء · والعيب كل العيب ان يقتسم الابناء التركة في حياة والدهم ، او حتى فور مماته · وما دمت قد امنت شرّ المصادرة ، فلم يعد استبدال بطاقة هويتي امرا ملحا · وعليه ، فلم اكلف نفسي عناء المحاولة · كان مجلس القرية البلـدي يعنيني اكثر مـن الكنيست · وقانون الانتخابات البلدية في اسرائيل ، لا يحصر حق الاقتـراع فيها باصحاب الهويات الزرق ، بطاقتي الحمراء كانت كافية لممارسة هذا الحق · وقنعت · اذ تحت الاحتلال يتعلم الناس القناعة · هناك يصبح النزر اليسيـر نعمة · وكان يهمني طبعا ان احصل على اذن عمل · والهوية الحمراء كفيلـة بذلك · على اساسها جاز لي اذن العمل ، وكذلك التأمين الطبي والضمـان الاجتماعي · كل شيء بحسابه طبعا · لقد عملت بأجر مقطوع ، استوفيت منه جميع الضرائـب سلفا · بمـا فيهـا ضريبـة « الصندوق القومي » (الكيرن كاييمت) ، القائم على تهويد الاراضي العربية · وكذلك « ضريبة الدفاع » · عملت في التدريس ، فدخلت نقابة المعلمين · وفي هذا الاطار تستوفى الضرائـب جماعيا · وفيه انطبقت علينا جميع الواجبات ، اما الحقوق ، فلها شأن آخر·

وكنت بطبيعة الحال ، كغيري من العرب تحت الاحتلال ، ملزما بالحصول على تصريح عسكري للتنقل في الاماكن المفتوحة من البلد · اما الاماكن المغلقـة ، وحدودها اسرار عسكرية ، فمحظور دخولها قطعا · والتصريح ينال بناء على بطاقة الهوية · وصاحب الهوية الحمراء ، بين ابناء قومه ، كالثور الابلـق · وهي عندما تلوح في مكتب الحاكم العسكري ، او يلمحها الشرطي فيالبـاص او الطريق ، يبدأ التحقيق · والاكيد كنت احصل على تصريح للتنقل في داخـل داخل البلد ، رغم هويتي الحمراء · ولكن في كل مرة تقدمت بطلب تصريـح كهذا ، عادت الاسطوانة القديمة من جديد : كيف ؟ ولماذا ؟ والى اين ؟··· واذا

كانت حرية الانتقال محدودة للعرب عامة ، فهي لاصحاب الهوية الحمراء شبه معدومة · وعلى العموم ، كانت هذه موضع شك وتساؤل ، وبالتالي مضايقات لا حصر لها · في البداية ، كان التواجد خارج منطقتي العسكرية مسموحا في ساعات النهار فقط · فبموجب التصريح ، وكما هو مرقوم في نصه ، لا يجوز لي التواجد خارجها بعد السادسة مساء · والمخالفة جنحة ، ولها عقابها · حتى وان كان ذلك خارجا عن ارادتي ، فانه لا يغير شيئا · واذا تأخر المباص فرضا ، وضبطت بعد السادسة خارج المنطقة ، او في الطريق اليها ، تعرضت للمحاكمة · وكانت محاكم اسرائيل تغص بالمخالفين العرب · فكنت ترى طوابيرهم مصطفة امام تلك المحاكم كل صباح · يدخلون على القاضي ، وكان عسكريا في البداية · يعرضون دواعي مخالفاتهم · يصغون بصمت الى الاحكام الصادرة بحقهم ، بالسجن او بالغرامة المالية · ويتوجهون من ثم ، بناء على ارادتهم الحرة ، الى السجن او الى محاسب المحكمة · والغرامات مصدر دخل وافر للدولة · والقضاة يعون ذلك جيدا · فكانوا يخفضون الغرامات المالية نسبيا ، ويرفعون معدل ايام السجن · فكأنما لسان حالهم يقول : « الدين ممنوع ، والعوض على الله » · الا انه والحق يقال ، بدأت وطأة الاحكام العسكرية تخف في النصف الثاني من الخمسينات · فصار باستطاعتي مثلا ، عندما ذهبت لاستكمال تحصيلي في الجامعة العبرية في القدس (١٩٥٨) ، ان احصل على تصريح سنوي للاقامة فيها · وكذلك للتنقل بينها وبين قريتي في الجليل الاعلى الغربي ·

اذن ، للهوية الحمراء محاسن : تجيز الاقامة في البلد ، ولو مؤقتا · تفي بالحد الادنى من الحاجات ، دون الانفلاش · وليس في ذلك ضير كبير · تسمح بالتنقل المحدود داخل البلد ، دون مغادرته الى الخارج · ولا بأس ، فالسفر مؤجل · ومن كان يفكر بالسفر اصلا ! هذا يحتاج الى جواز · والجواز للمواطنين ، من حاملي وثيقة التجنيس · ولن يصدر الا بشهادة اداء الخدمة في الجيش · والا فباستصدار فرمان بالاعفاء منها · وكل ذلك يستوجب معاملات ووساطات ، همها اكبر من جدواها · وفوق ذلك ، فالتأشيرة رهن بموافقة السلطة · وهذه لا تمنحها جزافا · ولا تمنح للعرب على أي حال · ولنيلها لا بد من سبب شرعي مقبول · والقبول ينطوي على ترخيص بشراء مبلغ محدود من الدولارات · وهذه لا تتداول في السوق الحرة ، وانما تخضع لرقابة حكومية صارمة · لهذا كله فالسفر مؤجل · وعندما انتهى الاجل ، وازمعت اخيرا على السفر ، تحملت وزر التجربة كاملا · ومع ذلك ، شعرت بالاسى وانا افارق هويتي الحمراء · لقد رافقتني ثلاثة عشر عاما ونيف ، وكانت رفقة مريحة نسبيا · فلا قسوت عليها حتى تثور في وجهي ، ولا هي غررت بي فاجحد فضلها · ويوم سلمتها لأمور احصاء النفوس ، وتسلمت مكانها اخرى رزقاء ، احسست فجأة باكبال

الانتماء التام الى الكيان ، رغم وعيي بصورية الامر كله · وكان عزائي ان موعد فك الارتباط مع الكيان قد اضحى قاب قوسين · وبالفعل ، فقد غادرت مينـاء حيفا ، متوجها الى نيويورك ، بعد اقـل مـــن اسبوعين ، بتاريـــخ ١٥ آب (اغسطس) ١٩٦٢ ·

غمامة صيف

هكذا ، عدت الى بلدي ، معليا ، بعد حوالي نصف سنة على ابعادي عنها · عدت اليها وقد اكتسبت « جنسية اللجوء » ، بواقع مروري العابر فـي الاردن وسوريا ، واقامتي في لبنان حوالي خمسة اشهر · وبالفعل فقد جرى تسجيلي في احصاء اللاجئين الفلسطينيين هناك · واصدرت وكالة الغوث لي بطاقة تموين (اعاشة) · وفي الاردن ، كانت السلطة قد اصدرت لي بطاقة هوية ، لضرورات السفر الى لبنان ، مرورا بسوريا · وما دمت قد ابعدت ، واصبحت لاجئًا فـي فترة معينة ، هي المحددة في « قانون احوال الغائبين » ، فقد حق علي الغيـاب قانونا في اسرائيل · وعليه ، ولتثبيت ذلك وتوثيقه ، اعطيت الهوية الحمراء · فصارت اقامتي في بلدي مؤقتة · وعزلت عن المشاركة في حيـــاة الكيـــان السياسية · اذن ، الابعاد للتغييب ، والتغييب للعزل ، والهوية الحمراء تذكـرة عدم الاستقرار · وما دام الكيان قد غيبني عنه ، فقد اصبح هو بطبيعة الحال غائبا عني ايضا · ولما عزلني عن الانتماء اليه ، وُهو الاقدر على الحسم فـي الامر ، فقد فرض مبدأ الاعتزال المتبادل بيننا · واذا هو اصدر فرمانه بـــأن اقامتي في بلدي مؤقتة ، وذلك بشهادة الهوية الحمراء ، فانه لم يتـرك لي الا فرصة الرد بالمثل ، واعتبار اقامته هو في بلدي انا مؤقتة ايضا · ودونت سجل العلاقات بيننا بالاحمر ، كلون هويتي ، واعتبرت الامر كله غمامة صيف وترحل· وكذا فعل الكثيرون من « عرب الداخل » ·

نعم ، « عرب الداخل » · مصطلح جديد ، ومدلول مستحدث · كانت هناك اسماء لمسميات كثيرة ، قسمت العرب الى اعراب · واليوم كنية جديدة ، مؤشر الى مزيد من التفتيت · « عرب الداخل » لتمييزهم عن « عرب الخارج » ، الامر متعلق بالشعب الفلسطيني طبعا · وعرب الداخل هم ايضا « عرب اسرائيل » ، او « العرب الاسرائيليون » · وهذه مفارقة غريبة · ونحن في الداخل عشنـــا مفارقات كثيرة · لقد فرض علينا التقولب في هذا الاناء غير محدد الشكل · لا الاناء تكورليتلاءم مع شكلنا ، ولا نحن تقولبنا لنتكيف مع تضاريسه · وبقيت تنقصنا المرونة اللازمة للتأقلم فيه ، كما ظل تصلبه هو يحول دون تطابقه مـــع قدنا · وبتنا على تنافر مستمر · لقد حشرنا فيه قسرا · فاصبح لا يطمئن الى وجودنا في احشائه ، بقدر ما لم نستكن الى مستقرنا في جوفه · والاكيد انه

كان من الافضل له ان يلفظنا ، ويستريح من عناء المكابدة · كما كنا على يقين من ان اسارنا فيه لن يطول · كنا على قناعة بأن اطار العلاقة هذا سيتحطم ، فنأخذ راحتنا · او على الاقل ، سيلين بحيث يتيح لنا حرية الحركة والتنفس · ومهما يكن من امر ، فالغالب على تفكيرنا كان عبور الظاهرة ، ولا معقولية ديمومتها · اذ كيف يعقل ان يستديم الشواذ !

قام الكيان الصهيوني · حقا قام ! لكنه لم يحل « المسألة اليهودية » · كما انه لم يقف عند حد خلق « المسألة الاسرائيلية » ، بل تعداها الى ايجاد «مسألة عربية » جديدة ، هي مسألة « العرب الاسرائيليين » · لقد انطلقت الصهيونية السياسية من مقولة ان « المسألة اليهودية » لا تحل دون دولة يهودية ، تكون باليهود ، ومنهم واليهم · ونشرت مقولتها بأن اللاسامية هي اصل البلاء ، اذ جعلت اندماج اليهود في الشعوب التي عاشوا بين ظهرانيها مستحيلا · وبحركها الاستيطانية ، وارتباطها العضوي بالاستعمار الغربي ، خلقت الصهيونية «المسألة الاسرائيلية » ، المتمثلة في التجمع الاستيطاني خلف اسوار الغيتو الانعزالي ، على ارض فلسطين المحتلة · وعلاوة على ذلك ، اقتطعت جزءا من الشعب العربي الفلسطيني ، وعزلته عن امته داخل حدود استطانها · وكأنما ارادت الايحاء ، بانها اسوة بغيرها ، لها « فلسطينيوها » ايضا · ومسألة هؤلاء انهم يعيشون في كيان سياسي ، لا مجال لهم للذوبان فيه · بل اكثر من ذلك ، فهم مواطنون في الكيان الذي يشكل العدو القومي ، باجماع جماهير الامة · وهذه مسألة ، في الظروف المعطاة ، لا تحل الا بانسلاخهم عنه ، اي بالتحرر منه ،او بتحريره هو من عنصريته · ودون ذلك ، لن يتسنى لهم تحقيق ذاتهم ، وتقرير مصيرهم السياسي · والانسلاخ عنه يضعهم امام احد خيارين : فاما النزوح عنه واللجوء ، واما انتزاع حق تقرير المصير · والاول بمثابة الاستجارة من الرمضاء بالنار · اما الثاني فمؤجل · وعليه ، فالسكوت عنه مؤقت · والعيش في ظل الاحتلال ، دون هذا وذاك ، هو اهون الشرين · ولكن الى حين · المهم ان تقلب المعادلة الصهيونية ، ويثبت الناس على الارض ، فيصير هذان عاملين ثابتين ،وبالتالي يصبح المتغير هو السلطة السياسية · وهو عكس خط الصهيونية ·

في « الداخل » ، كنا نعرف ما يلاقيه اخواننا في « الخارج » · كنا نعلم ان هاجسهم الاول هو العودة · لقد تشردوا وذاقوا الامرين · وكان طبيعيا ان يتطلعوا الى العودة · اما نحن ، فقد ذقنا المر مرتين ، ولكننا ، على العموم ، لم نتشرد · وعليه ، فلم تكن العودة على رأس همومنا · كنا في بلدنا ، وفي بيوتنا احيانا ، ولو اختلفت الاحوال وانقلبت الامور · كنا نتعاطف مع تطلعات ابناء شعبنا في « الخارج » ، ولكننا كنا نشفق عليهم من العودة · كنا نخشى ان يعودوا وينضموا الينا · كما نحن · فلا تكون عودتهم افتداء لنا من اسارنا،

كما لا تكون انعتاقا لهم من محنتهم · كنا نريدهم معنا ، ليس من اجلهم فقط ، وانما من اجلنا نحن ايضا · لكننا كنا نشفق عليهم ان يتخلصوا من اللجوء من اجل ان يغرقوا في القمع · والقمع الذي مورس علينا لم يكن قوميا فحسب، وانما تعداه الى النواحي الاقتصادية والاجتماعية من حياتنا · هم في وطنهم العربي الكبير ، يعيشون تناقض الانتماء والغربة · ونحن في وطننا الصغير ، نعيش تناقض الانتماء والعزلة · وكلانا يعايش تناقض الانتماء القومي والانتساب السياسي · هم عرب ولكنهم لاجئون في بلادهم العربية · ونحن عرب ولكننا « اسرائيليون » ، في بلادنا العربية ايضا · الخيار بين « الاسرائيلية » واللجوء وكلاهما مر · وكنا نأمل ان يحل التناقض ، بأي شكل · واعتقدنا اننا القلة القليلة ، التي نسيها الجميع وآمنا انهم الاغلبية الغالبة ، التي لا تغيب عن الذاكرة ـ ذاكرة اهل العقد والحل · وكيف السبيل الى نسيانهم ! الصحف والمجلات ، الاذاعات ، الخطابات ، البيانات ، الشعارات الخ ، كلها تتحدث عن اللاجئين ونكبتهم · واذا كان الكلام بهذه الغزارة ، فانه لا بد متمخض عن شيء · والشيء علمه عند ربي ، الا انه لا بد وان ينطوي على حل · والحل في اعادة الامور الى نصابها · والامر لا يحتمل التأجيل طويلا ، فمئات الالوف في مخيمات مؤقتة · وكما المخيمات مؤقتة ، كذا وضعنا الراهن · الكل مؤقت ، ظواهر عابرة ، لن تلبث ان تزول ·

انتظرنا ، وطال انتظارنا · وفي كل تشرين من كل عام ، توسمنا الخير · الجمعية العمومية ستنعقد ، والقضية على جدول الاعمال · القرارات اياها : حق العودة لمن اراد ، والتعويض على من اعرض · ويأتي التصويت الى جانب القرار باغلبية ساحقة · اذن ، اسرائيل معزولة · الضغط الدولي سيجبرها على الرضوخ · الدول العربية لا تتوانى عن القضية · الكتل الدولية ـ اسيوية ، افريقية ، غير منحازة وسواها ـ تدعم القضية · وصوت العرب في كل فج : « الله اكبر والعزة للعرب » · انقلابات فيسوريا · كلها بسبب فلسطين ·اغتيال الملك عبد الله ، ثأرا لفلسطين · ثورة في مصر نتيجة للحرب في فلسطين ·حرب السويس ··· فلسطين · انقلاب في العراق ··· فلسطين · طار نوري السعيد· انتصرت فلسطين · وحدة بين سوريا ومصر · اذن ، اسرائيل بين فكي كماشة· ايام صلاح الدين على الابواب · الحماس شديد· التحرير قريب · ولكن لا دلائل ملموسة · وانفكت الوحدة · واستولى اليأس على الناس · وفي خضم كل ذلك كأنما نسينا اهلنا في « الخارج » ، وغابوا عنا كما غبنا عنهم ·

ومرت الاعوام تباعا · واتسعت الهوة بيننا في « الداخل » ، وبين ابناء شعبنا في « الخارج » · واختار كل طريقة ، او اضطر الى ذلك الخيار · وبين العمل والنضال او القعود والاتكال ، اصبح كل في واديه ، يغني على ليلاه · العودة من خلال النظم ، او الاحزاب ، او الحركات الوطنية والقومية · قالوا

التحرير قبل الوحدة · وقالوا الوحدة قبل التحرير · وقيل الكثير ، وانجز النزر اليسير · اما في «الداخل» ، فقد طورنا ، بفعل الظروف المحيطة بنا ، نمط حياة فريد · لم تكن هناك استكانة الى الوضع الجديد · ولا كان سكوت على الانقلاب السياسي في الوطن · ولكن لا ثورة عليه ايضا · وقالوا الثورة من الخارج · رهين القفص لا يثور ، وان فعل ، فلا مجال للنجاح · وبين الثورة والسكوت ، تأرجح السلوك · وظل يتأرجح دون حسم · هناك حماس للخروج على « الشرعية الجديدة » · لكنه مشوب بالقلق والخوف · واحيانا ، هناك ميل للقبول بها ، ولكنه مشوب بالتردد والحذر · التجمعات العربية جيوب · فيها اطمئنان نسبي الى الاكثرية العددية · ولا خوف من الذوبان · فالكيان يرفض ذلك بكل اصرار · والانتماء القومي الى الاكثرية الساحقة عبر الحدود، يحول دونه · ولكننا كنا اقلية ضئيلة داخل الكيان · بعيدين عن الهيمنة ، حتى على مناطقنا المحصورة · ويسودنا ارتباك وضياع · لقد شهدنا انقلاب اوضاعنا ، وكذلك اوضاع وطننا · ورأينا كيف تنتزع القدرة على تقرير العلاقة بين الناس والارض من اليد العربية ، لتودع الايدي الصهيونية · وشعرنا بغياب قيادة سياسية · وكان شعورنا صادقا · اذ لم تكن قيادة كهذه لنا · وبغيابها تعثرنا في اجتياز المحنة · لقد برزت قيادات جديدة فعلا · لكنها كانت من فئتين: متعاملة مع السلطة ، وهي مرفوضة ومشكوك فيها · واخرى ضدها ، لكن بلا مصداقية لفاعليتها · ولم تتبلور قيادة محلية حقيقية ، خلال سنين طويلة · والعلة فينا ، كما كانت في ممارسات السلطة ·

وسلطات الاحتلال كانت تمارس من موقع القوة · فكانت بالتالي ، الاقدر على تحديد العلاقات وتقريرها · لقد تركز جهدها على تهويد الارض ، وعلى تدجين « العرب الاسرائيليين » ، وفرض شرعية الكيان السياسية عليهم · وارادات تحقيق ذلك دون استيعابهم في مؤسساتها ، ولا استثنائهم منها بشكل قاطع ، او طردهم من الكيان بشكل مباشر · ولم يستطع هؤلاء ان يفرضوا على الاحتلال استيعابهم في مؤسساته · وظلت مسألة الطرد كابحا لنضالهم · كما بقي هذا سيفا مسلطا عليهم· اما التدجين فمسألة في القلب· والقبول بالشرعية دونه « التقية » · وهكذا دار الصراع المكشوف حول التهويد · فارتبط نضال « عرب الداخل » بقضية الارض · ومن خلاله عبر هؤلاء عن مواقفهم ازاء المسائل الاخرى المطروحة · الارض ، شعار النضال ، اسم لحركات سياسية ، عنوان لجان الدفاع عن ··· الخ · الارض ، ليس كوسيلة انتاج فحسب ، وانما كوطن قومي ايضا · وامام الالتصاق بالارض ، والتمسك بها ، كان يهون كل امر · لكن النجاح الذي اصابه « عرب الداخل » في هذا المجال ، كان محدودا·

ولكن ، رغم انقطاع الصلة وانفصام العرى ، ظل نضال « الداخل » ضد التهويد ، متأثرا الى حد كبير بواقع « الخارج » · فكان يزداد حدة كلما تصاعد

المد القومي واتخذ اشكالا اكثر تحديا · وكان ينحسر ويتقلص كلما بدا ان الكفة تميل في صالح العدو · وقد بلغ هذا النضال اقصى درجات تراجعه في الستينات · فاصبح وجهه الغالب الدفاع عن الحق من خلال شرعية المغتصب · وتحول الناس الى الطعن في قانونية الاستيلاء على الارض استنادا الى القوانين التي استصدرتها سلطات الاغتصاب · وكان هذا النضال قد بدأ بخط مختلف · كما عاد واتخذ شكله الاصلي في السبعينات ، خاصة بعد حرب تشرين · عندها انقلبت صورة موازين القوى في المنطقة · وبدا ان كل تحجيم لسطوة العدو قد صب في كفة القوى القومية العربية ، ومن ضمنها الثورة الفلسطينية · وقد ترك كل ذلك اثره في نضال « عرب الداخل » ، الذي بلغ ذروته في انتفاضة « يوم الارض » (٧٦/٣/٣٠) ·

اذن ، كل شيء مؤقت ، الاقامة ، الوضع العربي العام ، الكيان الصهيوني ، الاحتلال ، اللجوء ، اغلاق الحدود ، الاستيلاء على الاراضي ، وكذلك قوانين الطوارىء · هكذا اعتقد الناس في الداخل · وكنت واحدا منهم ، لم يتميز موقفي بشكل يستدعي التنويه · وفي مجالسهم ، كان الشيوخ يستعيذون بالله مما يحصل امام عيونهم · هذا شيء لم يرد سابقا ، لم يخطر لهم على بال · بالتخصيص ، اجلاء الناس من ديارهم ، او الاستيلاء على املاكهم · لقد عرفوا القمع والظلم · خبروا التمييز ضدهم ، واعتادوا على العبث بكرامتهم · امـا ما يحصل الان فهو محنة · وهي شيء لا شك مؤقت · قالوا رأينا الحرب العالمية الاولى (السفر برلك) ، وذهب الاتراك وجاء الانجليز · رأينا الحرب العالمية الثانية ، والحرب في فلسطين ، وذهب الانجليز وجاء اليهود · هكذا سنة التاريخ في فلسطين · الغزاة يأتون ويروحون ، والناس في ديارهم قابعون · جيل يأتي وآخر يذهب ، والارض هي هي · فلماذا يكون شأن اليهود مختلفا · وفوق كل هذا ، مكتوب في الاسفار ان حكم اليهود لن يطول ، والا كانت نهاية العالم · وهذا لا يبدو على وشك الانهيار · ولكن ربما ، فمن يدري سوى الله ! الشائع على اي حال ، ان حكم اليهود مؤقت · وعليه ، وما دام في عنفوانه ، فلا بأس من التعامل معه على هذا الاساس ، والانحناء امام العاصفة · وفي المجالس الخاصة ، الكلام عن الكيان الشيء ونقيضه على الدوام · والسائد الا دوام لغير وجه الله · اغلقت الحدود ، فقيل اجراء مؤقت ، او ستفتحها الجيوش العربية · قسمت البلاد الى مناطق عسكرية ، وقيل اجراء مؤقت ، او « اذا زال المسبب زال السبب » · بدأ الاستيلاء على الاراضي ،وبناء المستوطنات عليها ، واخذ الشك يتسلل الى القلوب · لكن ، وربما لضرورات ذاتية ، ظل الاصرار على عبور الظاهرة· يتحرك شيء في العالم العربي، فتتضاعف القناعة باقتراب الساعة · ويخمد التحرك فيقوى الشك في صدق المقولة · وبين هذا وذاك تمر الايام والاعوام ·

وكان طبيعيا ان يعمد الناس الى اختبار جدية سلطات الاحتلال في تنفيذ مراسيمها · فظلوا في البداية يعبرون الحدود ، ذهابا وايابا ، كأنما لا يعترفون بوجودها · وشددت السلطة مراقبتها على الحدود ، وكثفت دورياتها على طولها · ولما لم يرتدع الناس ، اعطيت الاوامر الى الدوريات باطلاق النار على العابرين · وقد قتل عدد كبير منهم عندها ، فعدل الناس عن العبور الحر وانتقلوا الى التسلل · ولم يمض وقت طويل قبل ان يصبح هذا محفوفا بمخاطر جسيمة ايضا · فتقلص الى اعمال التهريب ، ثم انقطع تماما · وسرعان ما تعلم الناس ان الانتقال داخل الكيان ، دون تصريح عسكري ، يعني العقاب بالسجن او الغرامة المالية ، فلزموا حدودهم · ثم فقهوا ان ايواء اي متسلل عبر الحدود قد يجلب عليهم الكوارث فتجنبوه · ولكن اصرار القرويين على فلاحة حقولهم كان اكثر عنادا · وكانت حدود المناطق العسكرية ، كل واحدة ورقمها ، تفصل بين القرى واراضيها المحكوم عليها بالمصادرة · وذهب المزارعون الى تلك الحقول ، كالعادة في كل موسم ، وكأنما شيئا لم يحدث · ودهمتهم الشرطة العسكرية وساقتهم الى قراهم · وعادوا الى الارض ، فاوقفوا وعاودوا المحاولة فاقتيدوا الى المحاكم وعوقبوا ، فانكفأوا · وقيل ان الامر متعلق بالاوضاع العسكرية وبالظروف الامنية غير المستقرة بعد · وعليه فانه سيزول بزوالها · واذا كانت هذه مراسيم طوارىء ، فمن طبيعتها ان تكون مؤقتة · وكذا الرضوخ لها ·واذن ، فالفصل بين الفلاحين وارضهم مسألة عابرة ايضا · والصبر مفتاح الفرج · ولم يقتنع الناس بان قوانين الطوارىء انما توظفها سلطات الاحتلال في خدمة مصادرة الاراضي ، الا بعد حين · وعندها ، عم الارتباك ، وقوي الشك في المقولات ، وتضاربت التقييمات · مع ذلك لم يفقد الامل ·

وبدأت سلطات الاحتلال عملية « تجميع » السكان والارض في السنوات الاولى لقيام الكيان · فضمت تجمعات قروية الى بعضها · خاصة حيث تخلف نفر من الاهالي دون الاكثرية · فاخلت بذلك عددا منها ، كان مصيره النسف ومسح المعالم · واستتبع ذلك نزع واسع لملكية الاراضي في القرى المخلاة · كما ترتب عليه احيانا توزيع جديد للملكية في مراكز التجميع ، اتى على املاك الغائبين · ولكن الناس لم يروا في نقلهم الى اماكنهم الجديدة نهاية مطاف · كما لم يعتبروا نزع الملكية او اعادة توزيعها على يد سلطات الاحتلال ، الكلمة الفصل في الموضوع · فالملكية في عرفهم ، نزعها او منحها ، لها وجه آخر · والخروج عنه، او عليه، لا يمر دون سؤال · ومنهم من لا يزال يرى الاجراء مؤقتا الى الآن (١٩٧٩) · ويبرز بين هؤلاء اهالي قريتي اقرت وكفر برعم · لقد اخلي سكان هاتين القريتين بعد الاحتلال مباشرة ، بحجة الدواعي الامنية · وهم ما زالوا يناضلون من اجل العودة الى بيوتهم ، رغم تهديمها ، والى اراضيهم ، رغم

توزيعها على المستوطنات اليهودية المجاورة · وفي حينها ، ردت غولده مئيـر على مطالبة اهالي القريتين ومؤيديهم ، من عرب ويهود ، السماح لهم بالعودة الى قراهم ، بقولها ان ذلك يعني بداية تراجع الصهيونية وانحسارها · وبحسهم العفوي كان الفلاحون الفلسطينيون من « عرب الداخل » يعون هذه الحقيقة · فهم بتمسكهم بمبدأ « القديم على قدمه » ، ورفضهم الاعتراف بحق سلطـــات الاحتلال في ادخال تعديلات جذرية على العلاقة بينهم وبين الارض ، واصرارهم على اعتبار كل اجراءاتها مؤقتة ، حتى وان قبلوا بها الى حين ، انما يرفضون الاعتراف بشرعية قيام الكيان وديمومته ، ويطعنون في جميع الاجراءات المترتبة عليه ، او المستندة اليـــه ·

حسام الخطيب

القضية الفلسطينية
على منبر الاتحاد البرلماني الدولي

مدخـــل

تستند القضية الفلسطينية الى تاريخ طويل وحافل في المنابر الرسمية الدولية ، ابتداء من الهيئات التي تجمع معظم دول العالم مثل عصبة الامم المتحدة سابقا وهيئة الامم المتحدة حاليا ، وانتهاء بالهيئات الاقليمية التي تضم مجموعة من الدول المتجاورة الباحثة عن أقنية للعمل المشترك ، مهما كان نوعه ، من مثل دول الكوميكون والمجموعة الاقتصادية الاوربية ومنظمة الوحدة الافريقية · الا أن تاريخ القضية الفلسطينية في المحافل البرلمانية الدولية سواء منها الشاملة او الاقليمية بقي حتى الآن محدودا جدا ، ولولا النشاط الذي تم خلال بضع السنوات القليلة الماضية لامكن القول ان هذا التاريخ قصير العمر لا يتجاوز المرحلة الجنينية · ولدى تلمس هذه الظاهرة يمكن ان تعتبر الاسباب التالية هي الاكثر أهميـــة :

اولا : ضعف المؤسسة البرلمانية العربية ، وما يترتب على ذلك من ضعف اسهامها في المؤسسات البرلمانية الدولية او الاقليمية · ويتجلى هذا الضعف في النواحي التالية :

أ ـ غياب هذه المؤسسة من الحياة السياسية لعدد من الاقطار العربية لا يقل عن النصف في المعتاد · وبما ان البرلمانات العربية تروح وتجيء وفقا للتقلبات السياسية فانه يمكن القول انه في احسن الحالات لم يتجاوز عدد البرلمانات العربية ثلاثة عشر برلمانا من البرلمانات العاملة (اي غير المعطلة) ويتراوح عدد البرلمانات المشاركة في الاتحاد البرلماني العربي عادة بين ١١ ـ ١٣ برلمانا ·

ب ـ ضآلة الدور الذي يسند اليها في الحياة السياسية لكل قطر ، وفي اغلب الاحيان تكون مهمة هذه البرلمانات شبه صورية ، ومن النادر ان تكون لها سلطة تشريعية بالمعنى الحقيقي او حتى النسبي · وهناك عدد من البرلمانات يتم تشكيله عن طريق التعيين المباشر من السلطة التنفيذية ويقتصر دوره على ابداء الرأي بمسائل محدودة ·

ج ـ تعلق مصير معظم البرلمانات ان لم يكن كلها بمشيئة السلطة التنفيذية ، اذ تستطيع السلطة التنفيذية ان تعطل البرلمانات او تلغيها او تعلقها · فمشكلة العضوية مثلا في كل دورة تعرض مشكلة برلمانات عائده الى الحياة وأخرى مختفية عن المسرح · وقد امتدت هذه المشكلة الى الاتحاد البرلماني الدولي حيث لا يخلو بند العضوية عادة من مناقشة مشكلة برلمان عربي ما يعود الى الحياة بعد توقف طويل او اعادة تشكيل ·

ثانيا : افتقار سياسة تشكيل الوفود البرلمانية الى الاسس الموضوعية في كثير من الاحيان · ومن الحق ان يقال ان هناك برلمانات عربية تراعي تعدد الاختصاصات في تشكيل الوفود وتحرص على انتقاء عناصر جيدة وذات كفاءة مقبولة · ولكن بالمقابل هناك حالات تظهر فيها الطبيعة السياحية للوفود البرلمانية العربية · كذلك تتفاوت الوفود العربية في مدى ما تعده من دراسات للمؤتمرات ، وفي حين يوجد برلمانيون متخصصون في موضوعات المؤتمرات وقادرون على اعطاء وجهة نظر علمية يوجد اعضاء آخرون لا يعرفون شيئا عن جدول اعمال المؤتمرات التي يحضرونها · بل يحدث في كثير من الحالات ان يأتي برلمانيون الى بعض المؤتمرات الدولية ويعودوا دون ان يكون في ذهنهم فكرة كافية عن طبيعة الموضوعات التي دارت او القرارات التي اتخذت · ويدخل في هذا الباب ايضا تغيير اعضاء الوفود بين مؤتمر وآخر · وبالطبع يعمد بعض البرلمانات ، من باب عدالة توزيع المهمات او تكافؤ الفرص ، الى تبديل اعضاء الوفود في كل مرة واذا كان لهذا التدبير فائدته من حيث منع احتكار عضوية الوفود فان له من ناحية المصلحة العامة آثارا سيئة جدا · لان مداومة حضور المؤتمرات تعطي الموفدين فرصة لادراك خفايا الامور ولتوسيع المعرفة الشخصية كما تنمي لديهم المقدرة على المرافعة والمناورة والاقناع · ونحن نلاحظ في وفود الدول الكبرى والمتقدمة بوجه خاص نوعا من السياسة المستمرة في تشكيل الوفود بحيث لا تحدث تغييرات اساسية في الوفود الا حينما تتغير موازين القوى الحزبية داخل البرلمانات بسبب الانتخابات او التحالفات السياسية الجديدة · ومن الحق ان يقال ان بعض الدول العربية يحقق هذه الثبوتية في سياسة تشكيل الوفود ·

وبالطبع هناك امور اخرى تتعلق بصلاحيات الوفود ووضوح التوجيه المعطى لها وقوتها السياسية الداخلية وغير ذلك مما لا يدخل في نطاق البحث الحالي ·

ثالثا : ضعف معرفة كثير من المندوبين العرب باللغة الاجنبية ، ذلك ان هناك مزايا كثيرة لمعرفة اللغات الاجنبية الحية في المؤتمرات من اهمها :

أ ـ سهولة الاتصال بالمندوبين الاخرين ، ليس من اجل شرح وجهات النظر فحسب ، بل من اجل المداولة في شؤون القرارات وتهيئة ماينبغي تهيئته في الاروقة تحضيرا لما يجري في الاجتماع العام ·

ب ـ سهولة الاسهام في اللجان الخاصة والمصغرة التي يقتصر الكلام فيها على لغة او اثنتين كالانكليزية والفرنسية ·

ج ـ سهولة كسب الاصدقاء واقامة العلاقات الشخصية التي تعتبر شديدة الاهمية في المؤتمرات البرلمانية للسببين التاليين :

الاول ـ ان هذه المؤتمرات ليست ذات سلطة اجرائية وبالتالي تأتي اهمية قراراتها في الدرجة الثانية بعد اهمية الكسب الاعلامي من الاقناع ·

الثاني ـ ان الوفود البرلمانية بطبيعة تشكيلها غير الهرمي تمنح للافراد فرصة اكبر

للمداولة والاقتناع ، ولا سيما اذا كانت مشكلة من احزاب متعددة ، حيث تكون الوسيلة المجدية هي الاتصال المباشر ٠

ومن الملاحظ في الفترة الاخيرة ان هناك حملة قوية في البلاد العربية باتجاه التخفيف من اهمية معرفة الوفود للغات الاجنبية بحجة وجود ترجمة فورية في المؤتمرات الدولية ٠ وارجو ان اوضح ان المشاركة في المؤتمرات لا تعني القاء خطاب بالعربية تجري ترجمته الى اللغات الاخرى وكفى الله المؤمنين شر القتال ٠ ان اهمية الخطابات المكتوبة بالمعنى التقليدي تتضاءل يوما بعد يوم ٠

رابعا : وهناك بالطبع أسباب من وراء ضعف دور المؤسسة البرلمانية خارجة عن ارادة هذه المؤسسة ، من أهمها عدم وضوح سياسة البلدان التي يمثلها البرلمانيون تجاه كثير من القضايا السياسية والاجتماعية والاقتصادية المطروحة ، وتذبذب سياسات هذه البلدان بشكل يجعل اسلم طريق للوفود الخارجية هي طريق السلبية والانتحاء الجانبي ويتجنب الدخول في صميم المشكلات ٠ وان معظم النقاط المذكورة سابقا تحتاج الى تفصيل ومناقشة لو كانت مقصودة لذاتها ، ولكنها ترد هنا مقدمة لفهم طبيعة تطورات المواقف البرلمانية الدولية من القضية الفلسطينية فحسب ، ونحن معنيون هنا بالمؤسسة البرلمانية العربية فقط من حيث انها الاداة الطبيعية لطرح القضايا العربية في المحافل البرلمانية الدولية ٠

على ان من الحق الاشارة الى ان المحافل البرلمانية الدولية ليست احسن ، حالا بكثير ، وهي محدودة دورا وفعالية ٠ ان هذه المحافل المتمثلة في الاتحاد البرلماني الدولي وفي اللقاءات البرلمانية الاقليمية لا تبدي اي اتجاه نحو اتخاذ المبادرات تجاه القضايا الدولية الكبرى التي تعرض عليها وتقنع في الغالب بتكرار المناقشات التي تجري في هيئة الامم المتحدة والمنظمات الاخرى الدولية المتخصصة ٠

وسوف ينحصر الكلام هنا على اي حال بالنشاط العربي من خلال الاتحاد البرلماني الدولي ٠

مع العلم ان المنبر الثاني الذي ظهر فيه نشاط المؤسسة البرلمانية العربية هو الحوار البرلماني العربي الاوروبي ، ويمكن ان يكون هذا المنبر موضوعا لدراسة مستقلة ٠

منبر الاتحاد البرلماني الدولي

الاتحاد البرلماني الدولي مؤسسة قديمة برزت الى الوجود عام ١٨٨٩ وظلت حتى اليوم تحمل تقاليد الديمقراطية الغربية من ناحية حرية الكلام وتنظيمه وحقوق وترتيب الرئاسات وغير ذلك ٠ ونظرا لقدم هذه المؤسسة (حوالي قرن من الزمان) ، فقد تعقدت انظمتها وتداخلت حتى أصبح فهم هذه الانظمة والنفاذ منها الى حق طرح الموضوعات على جدول الاعمال ومن ثم المناقشة وتقديم المقترحات اشبه بمشكلة ، ولا سيما بالنسبة للمشاركين الجدد من البرلمانيين او بالنسبة للبرلمانيين القادمين من العالم الثالث ٠ وقد ظلت ادارة هذا الاتحاد ورئاسات لجانه ومحاور نشاطاته بيد ممثلي البرلمانات الغربية الى عهد قريب جدا حيث بدأت تدخل روح جديدة في الاتحاد من البلدان الاشتراكية والعالم الثالث٠

ومن المعروف عن الاتحاد البرلماني الدولي انه منبر محافظ تحاول ادارته دائما ان تتناول

القضايا الانسانية الكبرى بروح تصالحية وعمومية ، وتبتعد ما امكن عن اضواء الصحافة وضجيجها · وبالمقابل لا تهتم الصحف العالمية الكبرى عادة باجتماعات هذا الاتحـــاد · ومع ذلك حدث تغيير واضح منذ ان بدأت تعرض قضية الصراع العربي الصهيوني (أو ما يسمى بقضية الشرق الاوسط) على منبر الاتحاد (١) ·

ولكن الامر غير مقتصر على الصحافة ، وهناك برلمانيون كثيرون ــ ولا سيما مـــن الاوروبيين ــ لا يترددون في اظهار ازدرائهم للاتحاد البرلماني الدولي ومقرراته ، ووجهة نظر هؤلاء ان الاحزاب المحافظة هي التي تسيطر على الوفود الاوروبية الغربية الى الاتحاد وان هذه الوفود جامدة ولا تمثل التغييرات الجديدة ، كما انها لا تعكس الصورة الصحيحة لبرلماناتها · ويبدو ان هذه الفكرة منتشرة في اوروبة الغربية الى درجة ان كثيرا مـــن البرلمانيين النشيطين لا يكترثون ابدا بمسألة المشاركة في اجتماعات الاتحاد (٢) ·

ولكن من الثابت ان هناك تغيرا كبيرا يأخذ مجراه في الاتحاد البرلماني الدولي ، وان المشاركة الاشتراكية والاسيوية والافريقية بدأت تعطي اجتماعاته لونا انسانيا جديدا ونغمة واقعية حارة كانت مفقودة في الاجتماعات السابقة ، ولا تخفي القوى التقليدية ومعهـــا الممثلون الاسرائيليون ، امتعاضها من هذه الظاهرة التي تعتبرها خروجـا عـن تقاليـد الاتحاد (٣) · وعلى الرغم من اختلاف الآراء في هذا المجال فان مجرد حضور ما يقارب الالف من البرلمانيين والمستشارين الذين يمثلون حوالي ٧٥ دولة من قارات العالم الخمس يعتبر بحد ذاته فرصة سياسية واعلامية منقطعة النظير في مؤتمرات الاتحاد ·

وعلى اي حال يحسن بنا ان نلقي نظرة على جدول اعمال المؤتمـر البرلمانـي الدولـي الاخير الذي عقد في (بون) خلال النصف الاول من شهر ايلول ١٩٧٨ ، حتى نستطيـع تصور عمـل الاتحاد ·

هناك اولا بنود روتينية واجرائية متكررة مثل تقرير الامين العام وانتخاب نواب لرئيس المؤتمر وانتخابات اللجنة التنفيذية وتشكيل مجلس الاتحاد والعضوية وما أشبه ذلك · اما المسائل الاخرى فتتلخص فيما يلي :

١ ــ الحاجة الملحة لانهاء سباق التسلح ومنع انتاج اسلحة الدمار الشامل ·

٢ ــ مشكلة الشرق الاوسط ·

٣ ــ دور البرلمانات في دراسة وتمتين وسائل محاربة الارهاب الدولي ·

٤ ــ تثبيت اسعار السلع الاولية التي تقدمها بشكل رئيسي البلدان النامية ·

٥ ــ دور البرلمانات في محاربة الامية قوميا ودوليا ·

٦ ــ استمرار اقوى الجهود من أجل المحو الكامل للاستعمـار في العالم ·

والجدير بالذكر ان هذه الابحاث او ما يتصل بها تعتبر بنودا متكررة على جدول اعمال المؤتمرات السنوية للاتحاد ، وباستثناء البند المتعلق بالشرق الاوسط ، تتولى اللجـــان المختصة عادة من سياسية واقتصادية وثقافية دراسة البنود خلال اجتماعـــات مجلس الاتحـــاد ووضع مشروعات القرارات المتعلقة بها · ويعقد الاتحاد في شهر ايلول من كل سنة مؤتمرا عاما في احدى عواصم الدول المشاركة ، ويبني قراراته ومناقشاته عـــادة على الدراسات والمشروعات التي تعد اثناء انعقاد دورة الربيع (شهر نيسان) لمجلس الاتحـــاد ·

البرلمانيون ومشكلة الشرق الاوسط

يجب الا يتصور المرء ان مناقشة مشكلة سياسية معقدة مثل مشكلة الصراع العربي الصهيوني تعالج على منابر الاتحاد البرلماني الدولي معالجة اختصاصية وافية ، كما يحدث مثلا على منابر هيئة الامم المتحدة · ان المسألة مختلفة هنا تماما ، ذلك أن اكثر البرلمانيين المشاركين في مؤتمرات الاتحاد قليلو الاهتمام بالقضايا العالمية الكبرى او بالمشكلات الاقليمية البعيدة عن مناطقهم ، وهم يهتمون بهذه المسائل فقط من الناحية التي يمكن ان تؤثر على مصالح بلدانهم او موقفهم الحزبي أو موقعهم الانتخابي · وكثيرون منهم يكشفون عن جهل بأبسط حقائق قضية حساسة وعالمية مثل القضية الفلسطينية ، وبعضهم لا يبدي حماسة لسد جهله في هذا المجال ما دام ذلك لا يؤثر تأثيرا مباشرا في وضعه الانتخابي · ان الاحتفاظ بالمقعد النيابي هو الشغل الشاغل للنمط البرلماني العادي ولا سيما في بلدان اوروبا الغربية واميركا ، ولذلك ينفر البرلماني عادة من الخوض في مسائل سياسية قد لا يكون لها تأثير مريح في وضعه الانتخابي · وبالطبع يخشى النواب الغربيون عادة ان يؤدي تدخلهم في المشكلات المعقدة للصراع العربي الصهيوني بغرض فهم وجهة النظر العربية الى اثارة نقمة الناخبين اليهود والموالين للصهيونية ضدهم ·

على أن الاكثرية الصامتة ـ في جميع المؤتمرات ـ ليست هي التي تصنع القرار وتدير المناقشات · وفي اجتماعات الاتحاد البرلماني الدولي هناك (مجموعات ضاغطة) و (قوى محركة) و (شخصيات سياسية) تعي ما تفعله تماما وتصدر عن معرفة بشؤون الشرق الاوسط ومتابعة لتطورات الاحداث فيه · وبعض هؤلاء النواب يحاول جاهدا تفهم وجهات النظر المختلفة ، وبعض آخر يصدر عن موقف نفعي تماما ، فحيثما برزت مؤشرات تنبىء بتقدم وجهة النظر العربية بسبب عوامل سياسية واقتصادية واحيانا عسكرية (مثل حرب تشرين) يسارع هؤلاء الى الاعلان عن تأييدهم بدرجات متفاوتة طبعا · ويكثر الاهتمام بوجهة النظر العربية عادة كلما لاحت في الافق امكانات تدابير اقتصادية او سياسية عربية مثل قطع الامداد النفطي ، أو سحب الارصدة المالية من المصارف الغربية ، او تشديد احكام المقاطعة الاقتصادية العربية ، او قطع العلاقات السياسية الخ ··· مع الدول المتعاونة مع اسرائيل ·

على ان الملاحظات السابقة تنطبق بشكل اشد على موقف ممثلي البرلمانات الغربية من اوروبية واميركية وربما يابانية · ومعظم الكلام يدور حول هذه الفئة لان معاناة العرب في المؤتمرات الدولية تصدر عنهم · وبالمقابل يجد المرء ان المختصين بالشؤون السياسية في وفود الدول الاشتراكية وكثير من دول آسية وافريقية وبعض دول أميركا الجنوبية متفهمون جيدا لعناصر الصراع وصريحون في تأييد وجهة النظر العربية في فضح تعنت اسرائيل وعدوانيتها وارتباطها بعجلة الامبريالية ومخططاتها ·

القرارات والمواقف

جرى طرح مسألة الصراع العربي الصهيوني وايضاح الحق العربي في قضية فلسطين بشكل متدرج خلال السنوات العشر الماضية · وبالتدرج انتقل الاتحاد من خلال مقرراته ومناقشاته من موقع المؤسسة المحايدة المطمئنة للصيغ العامة المبهمة الى موقع الاعتراف بالوجود الفلسطيني وبالحق العربي على تفاوت في مدى تحديد الصيغ المتعلقة بهذه النقاط·

وتشير ملفات الاتحاد البرلماني الدولي الى ان مشكلة الشرق الاوسط طرحت لاول مرة على منبر الاتحاد البرلماني الدولي في نيسان ١٩٦٨ خلال انعقاد الدورة ١٠٢ لمجلس الاتحاد في داكار · وقد فاز القرار باغلبية ٨٩ صوتا ضد لا شيء وامتناع ٤ اصوات ، وسر هذا الفوز الساحق ان القرار لا يتضمن أية اضافة الى قرار مجلس الامن المرقم ٢٤٢ ، وانما يستند الى تفصيلاته ·

ولكن الشيء الذي يلفت النظر هو ان هذا القرار اتبع بقرار آخر فاز فقط باغلبية خمسين صوتا ضد خمسة وثلاثين مع استنكاف ثلاثة عشر صوتا ·

وينص هذا القرار على ما يلي : مجلس الاتحاد البرلماني الدولي : يقرر تشكيل لجنة تحقيق وارسالها باسرع وقت ممكن لتستقصي بنفسها الظروف الفعلية وطريقة المعاملة للشعب في تلك المناطق من الارض الاردنية المحتلة حاليا من قبل اسرائيل · وعلى رئيس الاتحاد البرلماني الدولي بالوكالة ، السيد عبد الرحمن عبد النبي ، والسكرتير العام للاتحاد ، تنفيذ القرار المذكور » ·

ومن الملاحظة ان هذا القرار يستخدم مصطلح (الاراضي الاردنية) ويخلو من اية اشارة الى ادانة اسرائيل ·

وتشير القرارات التي اتخذت في الاجتماعات التالية الى أن لجنة التحقيق المذكورة في القرار لجأت الى تحقيقات هيئة الامم المتحدة ، ولم تنته الى اية ادانة لاسرائيل من اي نوع كان ، وغلبت الصيغ العامة والحيادية تماما على قرارات الاتحاد حتى مؤتمر روما لعام ١٩٧٢ ·

وبعد مؤتمر روما ظهر شيء من التغير باتجاه التمييز بين المعتدي والمعتدى عليه في مجلس الاتحاد البرلماني الدولي (الدورة ١١٣) في جنيف (٢٠-٢٣ تشرين الاول ١٩٧٣) ، اي في اعقاب حرب تشرين مباشرة ، ثم تصاعد هذا التغير حتى بلغ قمته في مؤتمر لندن لعام ١٩٧٥ ·

ويعتبر المؤتمر البرلماني الدولي الثاني والستون (لندن ، ايلول ١٩٧٥) نقطة التحول الرئيسية في مقررات الاتحاد ومواقفه ، ففي هذا المؤتمر تمت الموافقة نهائيا على دعوة المجلس الوطني الفلسطيني للمشاركة بصفة مراقب في مجالس الاتحاد ولجانه ومؤتمراته، وتبين ان الاتحاد لا يستطيع ان يستمر في تجاهل المشكلة الفلسطينية ووجود الشعب العربي الفلسطيني · وبالطبع حين تتوافر مثل هذه القناعة تصبح النقاط الاخرى التفصيلية أقل أهمية ، ويصبح كذلك اختيار لهجة قوية او معتدلة في صياغة القرارات امرا تابعا للمناخ السياسي وطبيعة المداولات والاتفاقات داخل المؤتمر ·

على ان الكلام على التدرج يجب الا يصرف النظر عن قصر المدة التي تم فيها التغيير ، فبين مؤتمري روما ١٩٧٢ ولندن ١٩٧٥ ليس هناك سوى ثلاث سنوات ومؤتمر واحد هو مؤتمر طوكيو · وفي خلال هذه المدة القصيرة حدث التغير الكبير · واذا كان هذا التغير يعود في جانب منه الى النشاط البرلماني العربي فانه يعود في الجانب الاكبر منه الى تغير الجو السياسي العالمي لصالح العرب بعد انكشاف العدوانية الاسرائيلية ، واتضاح الوجود الفلسطيني في ساحة الصراع وكذلك على الساحة السياسية الدولية ، وصدور مقررات هيئة الامم المتحدة الواضحة في تأييد الحق العربي وادانة العدوان الصهيوني ·

١ ـ مؤتمر روما لعام ١٩٧٢

ولقد كان قرار الشرق الاوسط في المؤتمر البرلماني الدولي الستين (١٩٧٢) آخر القرارات ذات الصياغة العامة ، وفي هذا القرار هروب الى صيغ عمومية قصد بها ان تتجنب ذكر اي طرف من اطراف النزاع او أن تشير الى اي موقف من أطراف النزاع · وفيما عدا الاشارة العامة الى قرار مجلس الامن في المدخل والمتن فانه من الصعب العثور على أية نقطة نوعية في القرار ·

ان القرار :

ـ يعبر عن أسفه لاعمال العدوان والعنف (دون ان يذكر من المعتدي او يشير اليه على الاقل من طرف خفي) ·

ـ ويؤكد على احترام حقوق الشعوب (دون ان يسمي الشعب الذي مزق وشرد وانتهكت ابسط حقوقه) ·

ـ ويطالب بتسوية سلمية ومقبولة مبنية على المصالح الشرعية للشعوب · (دون ان يشير الى أي عنصر من عناصرها) ·

ومثل هذا القرار هو الذي كانت الوفود الاسرائيلية تسعى الى اتخاذه لانه يساوي بين المعتدي والمعتدى عليه وبين القاتل والقتيل ، ويتجاهل تماما مسألتي الاحتلال وانتهاك حقوق الشعب العربي الفلسطيني ·

ب ـ مجلس جنيف لعام ١٩٧٣

ولقد كان قرار روما آخر القرارات الغامضة ، وبعد سنة واحدة فقط من صدوره أمكن القفز بمقررات الاتحاد البرلماني الدولي خطوة مهمة على طريق ايضاح الحق العربي · ولم تكن هذه الخطوة سهلة ولا كانت طريقها مفروشة بالورود · وبعد نضال وجهد ودأب أمكن للوفود العربية ان تنجح قرارا في مجلس الاتحاد المرقم ١١٣ (تشرين الاول ١٩٧٣) يكاد يحتوي على جميع عناصر الموقف العربي · ذلك انه تضمن النقاط التالية :

ـ المطالبة بالانسحاب الفوري للقوات الاسرائيلية من كافة الاراضي العربية المغتصبة بالقوة ، واعتبار ذلك أساسا للسلام ·

ـ التأكيد على الحق الثابت لكل بلد باستعادة اراضيه المحتلة بكافة الوسائل المتوفرة·

ـ ربط امكانية تحقيق التسوية باحترام شرعية حقوق الشعب الفلسطيني ·

ـ التأكيد على ضرورة تطبيق قرار مجلس الامن المرقم ٣٣٨ (وخاصة البنود المتعلقة بانسحاب القوات الاسرائيلية المسلحة منجميع الاراضي العربية المحتلةمنذ حزيران١٩٦٧)·

والملاحظ ان هذا القرار اغفل الاشارة الى القرار المرقم ٢٤٢ الذي جعله قرار روما اساس كل شيء واتجه اتجاها واضحا الى القبول بالعناصر الاساسية لوجهة النظر العربية ، ويعود هذا التغير الى العوامل التالية :

١ ـ المناخ العالمي الذي ساد على أثر حرب تشرين والذي بني على أساس الاعتقاد بعدم امكان اهمال وجود الطرف العربي وحقه في التخلص من الاحتلال وفي استرجاع حقوق الشعب العربي الفلسطيني ٠

٢ ـ اتفاق الكلمة العربية على موقف موحد ، والانطلاق من روح معنوية عالية (٤) ٠

٣ ـ تطور موقف هيئة الامم المتحدة باتجاه التأكيد على الانسحاب وادانة اسرائيل واعتبار الطرف العربي صاحب حق وموقف ٠

ج ـ مؤتمر طوكيو لعام ١٩٧٤

وفيما بعد سار المؤتمر البرلماني الدولي الحادي والستون في اتجاه مجلس جنيف من حيث :

أ ـ المطالبة بالانسحاب الاسرائيلي من جميع الاراضي المحتلة ٠ وكانت كلمة (جميع) موضع أخذ ورد، وقد جرى التصويت عليها فيجولة منفردة وأقرها المؤتمر بأغلبيةواضحة٠

ب ـ التأكيد على الحقوق الوطنية المشروعة لشعب فلسطين ٠ وقد أضيفت هنا كلمة الوطنية الى كلمة المشروعة في القرار السابق ٠ وهي خطوة مهمة (٥) ٠

وكان الموقف العربي حينذاك قد تبلور في هذين المطلبين : الانسحاب وحقوق الشعب العربي الفلسطيني ٠ ولكن الامر لم يقف عند هذا الحد ، اذ أضاف القرار ثلاث نقاط شديدة الاهمية هي :

أ ـ الاعتراف بسلطة المنظمات المؤهلة المثلة لهذا الشعب ٠ وتعتبر هي الاساس لما حظي به المجلس الوطني الفلسطيني من انتساب بصفة مراقب الى الاتحاد البرلماني الدولي٠ وقد تم اتخاذ هذا القرار في وسط موجة من التضليل الاسرائيلي القائم على الصاق تهمة الارهاب الدولي بالمنظمات الفدائية ولم تكن هذه التهمة بعيدة عن قناعات كثير من البرلمانيين ٠ ولكن فيما بعد امكن تبديل قناعات الكثيرين من المشاركين ٠ الا أنهم طالبوا في تلك المرحلة بألا تذكر منظمة التحرير الفلسطينية بالاسم ، ولم تكن لدى الرأي العام البرلماني في ذلك الحين معطيات كافية للحكم على قضية التمثيل ولذلك جرى تفضيل الصيغة العامة ، وقبلت ذلك الوفود العربية بخطوة تمهيدية في طريق اعتراف الاتحاد بمنظمة التحرير الفلسطينية ٠

ب ـ الاشارة الى ضرورة التوصل الى حل عادل ودائم ، وكذلك شامل ، واعتبار اتفاقيات وقف اطلاق النار مجرد شرط جزئي للحل الدائم ٠

وفي هذا استبعاد للاتفاقات الجزئية والمنفردة وما اشبهها ٠

ج ـ المطالبة الصريحة بتوقيف السلطات الاسرائيلية عن كافة الاجراءات التي من شأنها تغيير معالم القدس التي كانت عليها قبل عام ١٩٦٧ ٠

وبذلك اكتملت العناصر التي يقوم عليها الموقف العربي في المجال الدولي : المطالبة بالانسحاب الكامل ، العمل على احقاق تسوية عادلة وشاملة تتضمن اعادة حقوق الشعب العربي الفلسطيني ، بما في ذلك اعادة القدس الى وضعها السابق ٠

والجدير بالذكر ان بحث مشكلة الشرق الاوسط اثار توترا شديدا في مؤتمر طوكيو وظهر جليا بدء تحول الرأي العام البرلماني باتجاه الحق العربي ، وكانت المعركة حادة بين الاتجاهات المحافظة والغربية في المؤتمر وبين الاتجاهات الجديدة التي تمثلها الكتلة الاشتراكية ودول آسيه وافريقية ، وعبر كثير من البرلمانيين المحافظين عن خوفهم على مستقبل الاتحاد البرلماني الدولي ، وهدد بعضهم بالانسحاب من الاتحاد اذا ادينت اسرائيل بشكل صريح · وفي الوقت نفسه بدا واضحا عقم المنطق الاسرائيلي وتخلفه ، ولم تلق مداخلات المندوبين الاسرائيليين اي تجاوب في الاجتماعات ، بل كان الاصدقاء التقليديون لاسرائيل ، في بعض الاحيان ، يتجاهلون مرافعات المندوب الاسرائيلي ، ولا سيما تلك التي تتعلق بانكار صلة اسرائيل بقضية الشعب الفلسطيني ، وهي اضعف نقطة في المناقشات الاسرائيلية ، ذلك أن الموقف الاسرائيلي الثابت من قضية اللاجئين الفلسطينيين بالذات هو ان هذه القضية مشكلة عربية وليست مشكلة تخص اسرائيل ، وان على الدول العربية ان تجد لهم الحل المناسب وان الدول العربية هي المسؤولة عن بقائهم في الخيام · وقد لقي هذا الموقف اشمئزازا لدى اكثر الوفود · وكان هناك فرق واضح بين الكلمات البليغة والمفعمة بالمفهوم الانساني وبالقيم الرفيعة التي القاها في الدفاع عن الحق العربي وعن قضية الشعب الفلسطيني برلمانيون بارزون عالميا مثل النائب المكسيكي (كاريو) الذي رفع القضية الفلسطينية يومذاك الى اعلى مستوى انساني ، والنائب البلغاري (تارابانوف) الذي قدم مرافعة سياسية دقيقة لصالح الحقوق الوطنية للشعب العربي الفلسطيني ، وحق العرب في ارضهم المحتلة ، وبين الكلمات المتهافتة المهترئة سياسيا التي القاها مندوبون صهيونيون قدامى يعتقدون بان اسرائيل لها الحق في ان تدمر العالم وتقلب عاليه سافله في سبيل ان تضمن عدم تعرضها لاي خطر امني ولو بعد الف عام · أما الفلسطينيون فأمامهم ارض الله الواسعة ويمكن للبلاد العربية أن تستوعبهم فلماذا الضجة حول الحقوق الفلسطينية ·

ولا بد من الاشارة هنا الى ان الاتحاد البرلماني العربي الذي تأسس خلال صيف ١٩٧٤ قد حضر مؤتمر طوكيو لاول مرة ، وأصبح فيما بعد عضوا مراقبا ، وقد مثله الامين العام للاتحاد ، وكذلك حضر مع الوفد العربي السوري مندوب عن المجلس الوطني الفلسطيني، وكان حضوره لافتا للنظر ومدعاة للاهتمام لان معظم الوفود البرلمانية كانت خالية الذهن مما وصلت اليه منظمة التحرير الفلسطينية من تقدم في بناء مؤسساتها التنفيذية والتشريعية (٦) · وفي هذا المؤتمر جرى التمهيد لادخال المجلس الوطني الفلسطيني عضوا مراقبا في الاتحاد البرلماني الدولي واتفق على اثارة الموضوع رسميا في اجتماع مجلس الاتحاد في كولومبو ·

د ـ مجلس كولومبو لعام ١٩٧٥

في ربيع عام ١٩٧٥ عقدت في كولومبو الدورة الـ ١١٦لمجلس الاتحاد البرلماني الدولي· وحضرت هذه الدورة وفود من ٧٤ بلدا ووفود مراقبة لعدد من الهيئات الدولية · وقد طرحت فيها عدة قضايا عربية من بينها نقطتان تتعلقان بالقضية الفلسطينية ·

ففي لجنة القضايا السياسية والامن الدولي ونزع السلاح تعرض المندوبون العرب والعديد من الوفود المناصرة للحق العربي الى مسألة الاحتلال الصهيوني للاراضي العربية والى السياسة الصهيونية العدوانية ، وما تشكله من تهديد للسلام العالمي ، وايضا الى

استخدام القوات الاسرائيلية للاسلحة المحرمة دوليا كالنابالم والاسلحة الكيماوية ضد المدنيين والعسكريين العرب ٠

وفي لجنة الاقاليم غير المستقلة ودراسة القضايا العرقية تحدث العديد من المندوبين العرب والاجانب عن التمييز المبني على اسس دينية وعرقية ضد السكان العرب في اسرائيل ٠ وحدث الامر نفسه في لجنة دراسة القضايا البرلمانية والقضائية وحقوق الانسان اذ اشار المتحدثون الى المعاملات المهينة واللاانسانية التي يتعرض لها المواطنون العرب في فلسطين المحتلة والى ما تعانيه المرأة خاصة ، من صنوف الاضطهاد والتنكيل ٠

على ان الشيء الاكثر اهمية في مؤتمر كولومبو هو مطالبة بعض المندوبين العرب ادراج القضية الفلسطينية في جدول اعمال المؤتمر ٠ فقد تلقت رئاسة المؤتمر رسالة من الدكتور رشدي سعيد مندوب جمهورية مصر العربية يطالب فيها ادخال مادة تحت عنوان (الوضع المتفجر في الشرق الاوسط نتيجة لرفض اسرائيل الانسحاب من الاراضي العربية المحتلة منذ ١٩٦٧) في جدول أعمال المؤتمر الـ ٦٢ للاتحاد البرلماني الدولي الذي سيعقد في لندن في خريف ١٩٧٥ ٠

كما تلقت رئاسة المؤتمر رسالة من السيدة سلمى نجيب رئيسة الوفد البرلماني العربي السوري تنص على ما يلي :

« بالاشارة الى قرار الامم المتحدة المؤرخ في ١٩٧٤/١١/٢٢ الذي اعترف بحق الشعب العربي الفلسطيني في تقرير المصير والاستقلال والسيادة الوطنية وبحقه في العودة الى وطنه واستعادة حقوقه بكافة الوسائل وبالاشارة الى نفس القرار الذي ادخل موضوع المسألة الفلسطينية في جدول اعمال الدورة الثلاثين للجمعية العامة للامم المتحدة ٠

اطلب من المجلس ان يتضمن جدول أعمال المؤتمر الـ ٦٢ للاتحاد البرلماني الدولي الذي سيعقد في لندن في أيلول القادم موضوع المسألة الفلسطينية » ٠

وفي رسالة اخرى طلبت السيدة نجيب ادراج قضية « التدمير لمدينة القنيطرة في جدول الاعمال » ٠

وقد نوقشت هذه الرسائل في اللجنة التنفيذية لمجلس الاتحاد البرلماني الدولي ٠ واوصت هذه اللجنة بادراج القضايا الثلاث على جدول اعمال المؤتمر الـ ٦٢ للاتحاد البرلماني الدولي في لندن تحت عنوان واحد هو : (الوضع في الشرق الاوسط) ٠

وفي نفس المؤتمر تقدم السيد محمود فلاحة ، بصفته عضوا في المجلس الوطني الفلسطيني برسالة الى الامين العام للاتحاد البرلماني الدولي يطلب فيها قبول المجلس الوطني عضوا مراقبا في هذا الاتحاد ٠ وفيما يلي النص الكامل لتلك الرسالة :

« السيد الامين العام

باسم المجلس الوطني الفلسطيني لي الشرف أن أطلب منكم ان تنظروا في قبول مجلسنا عضوا مراقبا في الاتحاد البرلماني الدولي ٠ وبهذا الخصوص يمكن ان اذكر بقرار الجمعية العامة للامم المتحدة المؤرخ في ٢٣ تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ ١٩٧٤ والذي دعا منظمة التحرير الفلسطينية الى المشاركة في مداولات كافة الاجتماعات الدولية التي تعقد برعاية هيئة الامم المتحدة ٠

يتألف المجلس الوطني الفلسطيني من ١٨٧ عضوا ويجتمع سنويا ليناقش ويقر السياسة العامة لمنظمة التحرير الفلسطينية ٠

ويتم اختيار الاعضاء كل ٤ سنوات ليمثلوا الفلسطينيين في تجمعاتهم في شتى بقاع العالم ٠

اني اتطلع الى دعمكم ومؤازرتكم » ٠

الا ان اللجنة التنفيذية رفضت طلب انضمام المجلس الوطني الفلسطيني الى الاتحاد البرلماني الدولي بأكثرية خمسة أصوات مقابل ثلاثة ٠ وفي اليوم الاخير للمؤتمر عرض قرار اللجنة التنفيذية أمام الاتحاد ٠ فطالب الكثيرون من المندوبين اللجنة بتوضيح أسباب الرفض ٠ وكانت الاجابات غير المقنعة لاعضاء اللجنة مدعاة لفتح النقاش مجددا حول قبول المجلس الوطني الفلسطيني عضوا مراقبا في الاتحاد البرلماني الدولي ٠ وبعد نقاش حاد وطويل صوت المجلس على الاقتراح وأقره بموافقة ٥٤ صوتا ومعارضة ٣٤ صوتا وامتناع ١٤ صوتا ٠

وهكذا سجلت القضية الفلسطينية على الصعيدين السياسي والتنظيمي نصرا هاما في احدى الساحات الدولية ، واصبح لها صوت ناطق باسمها في الاتحاد البرلماني الدولي الذي يعتبر نافذة للصلة مع ممثلي مختلف الشعوب ٠

ومن هنا يعتبر اجتماع كولومبو خطوة للامام في الاتجاه الصحيح ونقطة تحول في موقف قطاع واسع جدا من الرأي العام الدولي ازاء القضية الفلسطينية ٠ وتعود أهمية اجتماع كولومبو أيضا الى انه وضع الاساس الذي نال بموجبه المجلس الوطني الفلسطيني عضوية الاتحاد البرلماني الدولي ٠ بصفة مراقب من ذلك في مؤتمر لندن ٠

هـ ـ مؤتمر لندن لعام ١٩٧٥

تراكمت التحولات السابقة لتحدث القفزة الحقيقية في المؤتمر الثاني والستين للاتحاد البرلماني الدولي (لندن ١٩٧٥) ٠ وقد كان أمام هذا المؤتمر امتحانان كبيران :

الاول : تثبيت قبول المجلس الوطني الفلسطيني عضوا مراقبا في مختلف هيئات الاتحاد٠

الثاني : مناقشة القضية الفلسطينية وقضية الصراع العربي الصهيوني ٠

عضوية المجلس الوطني الفلسطيني

وبالنسبة للموضوع الاول كانت هناك مشكلة حقيقية ، ذلك ان انظمة الاتحاد البرلماني الدولي قاسية نوعا ما ، وليس فيها ما يسمح بادخال مجالس منظمات التحرير في اجتماعات الاتحاد لان النصوص المتعلقة بوضعية العضو المراقب تحصر هذه الصفة بممثلي المنظمات والخبراء ٠ ولذلك يجب ان تفهم موافقة مجلس الاتحاد وفي كولومبو على منح المجلس الوطني الفلسطيني صفة مراقب على أنها تجاوز لانظمة الاتحاد ومخالفة له ، والبرلمانيون كما نعلم هم اكثر الناس تمسكا بالانظمة ٠ ولقد كان أمام مؤتمر لندن ان يعالج هذه المسألة ، وظن الاسرائيليون انهم يستطيعون ان ينفذوا من خلال هذه الثغرة البسيطة ٠ وهكذا قدمت الشعبة البرلمانية الاسرائيلية الى اللجنة التنفيذية للاتحاد

البرلماني الدولي مشروع قرار يتضمن الغاء الدعوة الموجهة الى المجلس الوطني الفلسطيني التي أقرها مجلس كولومبو باعتبارها مخالفة لانظمة الاتحاد · وكان من المقرر ان يبحث هذا المشروع في جلسة الثاني من أيلول ١٩٧٥ وهي الجلسة التي تسبق عقد المؤتمر ·

وحاول الصهيونيون الضغط على اللجنة والمؤتمر من الخارج وذلك بتنظيم مظاهرات في لندن ، احتجاجا على قبول المجلس الوطني الفلسطيني في الاتحاد · وقد سارت مظاهرة يوم ١٩٧٥/٨/٣٠ من ميدان الطرف الاغر الى مبنى وزارة الداخلية في لندن لتطالب الوزير بالغاء تأشيرات الدخول الى بريطانيا التي منحت الى ممثلي المجلس الوطني الفلسطيني · ولكن الاسرائيليين ادركوا أن الجو العام للمؤتمر لم يكن مواتيا لهم ، ولذلك اقدموا على سحب مشروع قرارهم قبيل عقد جلسة اللجنة التنفيذية · ولكن المشكلة ظلت قائمة واستمر الصهيونيون وانصارهم في التشويش · واخيرا تقدمت بعض الوفود بحل للمعضلة يتضمن مشروع قرار بتعديل انظمة مؤتمرات الاتحاد ومجالسه المتعلقة بوضع الاعضاء المراقبين بحيث يصبح النص اكثر مرونة ويتماشى مع تطورات مبدأ العضوية في أنظمة هيئة الامم المتحدة ، وهكذا اضيف الى المادة ـ ٢ ـ من أحكام مؤتمرات الاتحاد البرلماني الفقرة التالية : (ممثلو الهيئات الاخرى التي منحتها الجمعية العامة للامم المتحدة صفة مراقب يمكن ايضا ان يدعوا من قبل المجلس كمراقبين) ·

وقد عدل نظام لجان الدراسة التابعة للاتحاد على النحو نفسه · والجدير بالذكر ان الدعوة للمؤتمر الذي يليه ، ومن الواضح الآن أن مكانة المجلس الوطني الفلسطيني لم تعد موضع نقاش لان التجديد يتم دون اعتراض واحيانا دون علم عدد كبير من الوفود العربية ·

ولقد كان دخول المجلس الوطني الفلسطيني في عضوية الاتحاد البرلماني الدولي خطوة ذات مغزى سياسي كبير يجب الا يستهان به للاسباب التالية :

١ ـ لانه يعني الاعتراف العام بشرعية النضال الفلسطيني وبحق الفلسطينيين في أن يكون لهم كيانهم السياسي المتمثل في دولتهم ومؤسساتها ·

٢ ـ لانه يعني الاعتراف بأن الحركة الفلسطينية حركة موحدة وديمقراطية ولها مجلسها البرلماني المعترف به من قبل السلطة الشرعية الدولية الاولى وهي الاتحاد البرلماني الدولي

٣ ـ لانه يشير الى تحول جذري في الاتجاه السياسي للرأي العام البرلماني الدولي صريح وواضح وجريء · ذلك لأن قبول المجلس الوطني الفلسطيني قد تم في ظل مخالفة أنظمة الاتحاد · وقد فضلت الاغلبية ان تخرق اولا ثم تعدله ثانيا ، وليس هناك ما يدل على وجود سابقة من هذا النوع في تاريخ الاتحاد البرلماني الدولي وربما في تاريخ المنظمات الدولية · وبالطبع دل هذا الامر على ان القانون الذي اعتادت الاقلية الغربية استخدامه لتقييد الاكثرية قابل للخرق والتعديل ·

٤ ـ لانه على الصعيد العملي يتيح للحركة الفلسطينية ان تخاطب ممثلي الرأي العام البرلماني بشكل مباشر ، والاتحاد كما أسلفنا منبر دولي كبير ، واجتماعاته منتظمة ، ويمكن من خلال هذه الاجتماعات ايضاح مختلف التطورات المتعلقة بالنضال الفلسطيني ·

٥ ـ لانه اخيرا أكد بما لا يقبل الشك حقيقة عزلة اسرائيل وانحسار تأييدها الدولي وتراجع مقدرتها على التأثير (٧) ·

مناقشة القضية الفلسطينية من جميع جوانبها

وكان الامتحان الثاني الكبير أمام مؤتمر لندن هو مناقشة القضية الفلسطينية من جميع جوانبها ، ويمكن القول ان مؤتمر لندن تعرض لجميع هذه الجوانب تقريبا واستوفاها استيفاءا جيدا ، واتى قراره بشأن الشرق الاوسط على معالجة المشكلة من حيث هي مشكلة شعب مضطهد مشرد يبحث عن حقوقه ، ومن حيث هي قضية احتلال واكتساب للاراضي بالقوة ومن حيث هي مشكلة انتهاك عدوان سافر تقوم في ظله سياسة استيطان منظمة ، وكذلك من حيث هي مشكلة انتهاك لحقوق الانسان والحاق للارض وتغيير في طبيعة الارض المحتلة · واخيرا وضع القرار اسسا للسلام العادل · وكانت المشكلة التي أثارت جدلا كبيرا هي مشكلة اتفاقية سيناء التي اثارت خلافا كبيرا بين المندوبين العرب وتسببت أيضا في انقسام مواقف المؤيدين للقضية العربية من غير العرب · وعلى الرغم من كل الصعوبات فاز قرار الشرق الاوسط للمؤتمر الثاني والستين بأكثرية ٤٨٣ صوتا مقابل معارضة ٢١٥ صوتا وامتناع ٥٧ عن التصويت · ان هذه الارقام تشير الى التعبئة التي قام بها الصهيونيون في ذلك المؤتمر ، وساعدهم وجود المؤتمر في عاصمة الاستعمار العريقه التي هي لندن فكان هناك ٢١٥ صوتا ضد القرار · وهي نتائج تصويتية مختلفة عما حصل في طوكيو · لكن من يقرأ القرار بدقة يتوقع ان تكون هناك معارضة اكثر في موضوع الشرق الاوسط · ان القرار يدعو : **اولا** : الى التنفيذ الفوري لقرارات الجمعية العامة ومجلس الامن للامم المتحدة حول الشرق الاوسط ولا سيما انسحاب اسرائيل الكامل من كافة الاراضي العربية المحتلة · **وثانيا** : يدعو اسرائيل الى وضع حد للقمع وانتهاك الحريات الانسانية في الاراضي العربية المحتلة · **وثالثا** : يطلب من برلمانات العالم ومن جميع الاعضاء البرلمانيين اتخاذ خطوات لدى حكوماتهم وشعوبهم لارغام اسرائيل على تطبيق قرارات الامم المتحدة · ويطلب استئناف مؤتمر جنيف للسلام لبحث المشكلة الفلسطينية ،ويطلب الضمان الكامل للحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني وفقا لقرار الجمعية العامة للامم المتحدة رقم ٣٢٣٦ تاريخ ٢٢ تشرين الثاني ١٩٧٤ · **رابعا** : يؤكد من جديد دعمه للقرار المذكور اعلاه للجمعية العامة للامم المتحدة الذي نص على ان الشعب الفلسطيني ممثلا بمنظمة التحرير الفلسطينية هو طرف رئيسي في اقامة سلام عادل ودائم في الشرق الاوسط · **خامسا** : يؤكد الحقوق الراسخة للشعب الفلسطيني وبشكل خاص : أ ـ حقه في تقرير المصير · ب ـ حقه في الاستقلال والسيادة الوطنيين · **سادسا** : يؤكد الحق الراسخ للفلسطينيين في العودة الى بيوتهم واستعادة اطلالهم بعد ان كانوا طردوا واجتثوا منها · **سابعا** : يعترف بحق الشعب العربي الفلسطيني باستعادة حقوقه وفقا لمبادىء واهداف هيئة الامم المتحدة وفي هيئة الامم المتحدة مقررات تعطي الشعب المظلوم شرعية التوصل الى حقه بجميع وسائل النضال · **ثامنا** : يحث برلمانات العالم على بذل جميع الجهود الممكنة لتقديم الوسائل للفلسطينيين لاستعادة حقوقهم الوطنية الكاملة ورفض تقديم اية معونة او مساعدة قد تساعد اسرائيل على الاحتفاظ بالاراضي العربية المحتلة والاستمرار بتجاهل الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني ·

ان الرأى العام العالمي بعد ان اعطانا كل هذه الامور يحق له ان يقول : اذهبوا وحرروا بلادكم · ها نحن اعطيناكم الغطاء الشرعي اللازم · لقد كانت مقررات مؤتمر لندن صريحة وشاملة وعكست تصاعد القوة العربية عسكريا وسياسيا واقتصاديا وايضا عكست تصاعد دور المؤسسة البرلمانية العربية في المحافل البرلمانية الدولية · وقد اضطر المؤتمر الى تعديل انظمته حتى يتمكن من قبول عضوية المجلس الوطني الفلسطيني · وكان معنى ذلك كله ان

العرب استطاعوا ان يؤمنوا شرعية برلمانية دولية شاملة لحقهم ونضالهم ضد الصهيونية ٠

و ـ مؤتمر صوفيا لعام ١٩٧٧ ٠

تغيرت الخطة العربية بعد مؤتمر لندن واتجهت الى البحث عن صيغ معتدلة في سبيل التوصل الى ما يشبه الاجماع ، وكذلك الى طرح موضوعات خاصة تمثل جوانب مهمة من الصراع فمثلا في : مؤتمر صوفيا ١٩٧٧ طرحنا مسالة سلوك السلطات الاسرائيلية في الاراضي العربية المحتلة ، ومن جملة هذا المسلك طبعا اقامة مستوطنات وانتهاك حقوق الانسان ، اي حاولنا التركيز على نقطة فرعية خاصة لا يستطيع اي انسان ان يتأخر فيها عن ادانة اسرائيل لان السياسة المعلنة حتى للولايات المتحدة الامريكية تقول بالضبط : (أن سياسة الاستيطان غير شرعية وعقبة في وجه السلام) ٠ هذا النص الامريكي أعلن منذ سنوات ولم يغير الامريكيون موقفهم الظاهر المعلن من هذا الموضوع ٠ فقلنا نمسك الاميريكيين من فمهم ، وطرحنا هذا الموضوع على مؤتمر صوفيا ٠ وقدمت مرافعات عربية واجنبية غير عربية من الدول الاشتراكية بالذات كانت كلها تقريبا مرافعات علمية وموثقة تماما ، وكانت مبنية على حصيلة لجان التحقيق وحصيلة لجان هيئة الامم المتحدة ٠ ويمكن القول ان السيطرة العربية على الساحة كانت كاملة بمؤتمر صوفيا ، وساعدنا على هذه السيطرة تبدل الحكم في اسرائيل وبروز كتلة ليكود ، مما ادى الى تبديل في الوفد الاسرائيلي الذي يتألف معظمه من الاحزاب الحاكمة ومن البرلمانيين الاقل خبرة وتدريبا على العمل الدولي من الوفود السابقة وقد حمل الاسرائيلي معه تبجح ووقاحة حزب الليكود في اسرائيل ، وكان كثير من الكلمات التي القاها المندوبون الاسرائيليون هي كلمات استفزاز لاعضاء المؤتمر ، وللمرة الاولى كان الانسان يستطيع ان ينظر اليهم مستريحا فقد حدث تبادل الادوار ٠ كان العرب يتكلمون بهدوء وبدقة وبعلمية في معظم الاحيان وكان الاسرائيليون يصرخون في صوفيا ٠ ولقد كان الموقف العربي واضحا ومنسجما ، واستطاعت اللجنة التي شكلتها الوفود العربية لرسم خطوط الموقف ان تحدد خطين رئيسين للتصرف : الاول هو عدم المطلبة بقررات حادة وحازمة حتى لا نسبب خسارة بعض الاصوات ٠ الثانية التكلم بهدوء وروية مع الناس ٠ واعطت هذه الوسيلة ثمرتها وقد تقدم العرب بمشروع قرار معتدل مع انه كان بامكاننا أخذ قرار مشدد من المؤتمر ونجح القرار بأغلبية فائقة ، واخذنا نسبة ٧٧ في المئة من مجموع الاصوات الثمانمئة وكانت الاصوات المناهضة فقد ٩ في المئة ٠ فكأنما كان هناك اجماع ٠ ويعنينا من هذا القرار الفقرة التالية : يقول القرار :

« مستذكرا القرارات السابقة للاتحاد البرلماني وهيئة الامم المتحدة ومعتبرا ان السلطات الاسرائيلية في اعلى مستوياتها صرحت بعزمها ومضاعفة المستوطنات في الاراضي العربية المحتلة وعلى تطبيق التشريع المدني المحلي الإسرائيلي فيها مما يحمل خطر جعل احتلالها دائما ،

ومعتبرا تزايد عدد الحوادث والمظاهرات المعادية لاحتلال تلك الاراضي ومعتبرا ان هذا الاحتلال يدفع السلطات الاسرائيلية الى اعمال انتقامية تضير الاشخاص والممتلكات ٠

اولا : يشجب بشدة هذه السياسة وتلك الممارسة التي تخرق خرقا خطيرا اتفاقية جنيف في آب عام ١٩٤٩ وكذلك قرارات كل من الجمعية العامة لهيئة الامم المتحدة ومجلس الامن ٠

ثانيا : يحث اسرائيل ان تحترم التزاماتها المتعلقة بالإعلام العالمي لحقوق الانسان وباتفاقية جينيف وان تجتنب كل الاجراءات التي من شأنها ان تزيد في توتر الموقف في الاراضي العربية التي احتلت عام ١٩٦٧ وتطيل امد الاحتلال اذ ان هذه الاجراءات لا تؤدي الى زيادة الصعوبات في وجه استئناف مؤتمر جينيف بين كل الاطراف المعنية ٠٠ الخ ٠٠ »

ونستطيع القول اننا كسبنا اجماعا عالميا في مؤتمر صوفيا عام ١٩٧٧ ٠ وايضا في هذا المؤتمر لم يجد المندوبون الاسرائيليون من يدافع عنهم بل اكثر من ذلك عن طريق اعتدالنا استطعنا ان نحقق انشقاقا في موقف الوفود الامريكية والاوروبية الغربية فقد صوت الى جانب القرار ١٢ مندوبا امريكيا من اصل ٢٢ ٠وحدث ان دولة مثل كندا قسمت اصواتها الى قسمين ٧ اصوات مع القرار العربي و ٧ أصوات ضد القرار ٠ اما استراليا فقد اعطت ستة اصوات للقرار وعارضته باربعة واستنكف ثلاثة ٠ وكانت المانيا الغربية اسوأ دولة وكانت مناقشات مندوبيها منحازة انحيازا اعمى ٠

ز – مؤتمر بون

عقد المؤتمر البرلماني الدولي الخامس والستون في بون عاصمة المانيا الغربية في الفترة الواقعة بين ٣ – ١٣ ايلول ١٩٧٨ ٠ وكان مجلس الاتحاد البرلماني الدولي « لشبونه ، نيسان ١٩٧٨ ، قد ثبت على جدول اعمال المؤتمر موضوع الشرق الاوسط ٠ ولم تكن ظروف هذا المؤتمر طبيعية لعدة اسباب منها :

الاول : انه يعقد في ظل توقعات متعلقة بتوقيع اتفاق كامب دافيد ٠ ان اجتماع كارتر – بيغن – السادات كان قدا بدأ مع بداية المؤتمر ، وكان معظم المندوبين الغربيين وعدد اخر من مندوبي كثير من الدول خارج نطاق المجموعتين الاشتراكية والاسلامية يفضلون ان يقدم المؤتمر تمنياته بنجاح عملية التسوية ، لان كل ما يعنيهم من الامر هو الوصول الى اتفاق ٠

الثاني : ما ترتب على اتصال السادات بالعدو الاسرائيلي واتفاقه مع الامريكيين من انقسام في الصف العربي فقد كان هناك طرفان عربيان متضادان ، وكان بينهما وفود تحاول ان تراب الصدع باية طريقة ، ولم تكن سياسات هذه الوفود قد اتضحت بعد ٠

الثالث : النزاع الحاد بين المغرب والجزائر حول قضية الصحراء الغربية ، اذ ان مجلس لشبونة كان قد اقر توصية تتعلق بحق تقرير المصير للشعب الصحراوي ، وحاول الوفد المغربي ان يبطل هذه الفقرة في حين ان الوفد الجزائري تشبث بها ٠ واثار ذلك نقاشا حادا وتراشقا في التهم ، واخفقت كل محاولات الوفود العربية واحيانا بعض وفود دول عدم الانحياز في ايجاد حل وسط يرضى عنه الطرفان ٠ ولذلك لم يكن هناك بد من طرح الموضوع على المؤتمر العام للتصويت ١١ وقد شغلت هذه القضية جانبا كبيرا من اهتمام المؤتمر سواء في الجلسات العامة او في اللقاءات الثنائية ٠

الرابع : انعقاد المؤتمر في المانيا الغربية ، حيث الجو الاعلامي غير مؤيد للعرب من جهة ، وحيث امكن من جهة اخرى لعدد كبير من مندوبي الدول الغربية ان يحضر المؤتمر بسبب قرب المسافة من العواصم الاوربية ٠ وقد علمتنا التجربة ان المناخ المحلي له تأثيره في مناخ المؤتمرات ٠ وهكذا كانت الفرصة مهيأة للوفدين الاسرائيلي والامريكي لمحاولة

القيام بما يمكن ان يسمى هجوما مضادا يهدف الى محو الادانات التي لحقت باسرائيل خلال المؤتمرات السابقة ويضعها على قدم وساق مع الطرف المعتدى عليه ٠

وقد عقدت الوفود العربية اكثر من اجتماع واحد لتعمل على تلافي الاخطار والتوجه الى المؤتمر برأى واحد ٠ ولم يكن ذلك سهلا ، ولكن مرونه المندوبين المصريين ساعدت على ذلك ، وكان هؤلاء المندوبون من ذوى الاتجاه العربي السليم وممن لهم خبرة في المحافل البرلمانية ٠ وهكذا جرى الاتفاق على مشروع قرار عربي يؤكد على القرارات السابقة لهيئة الامم المتحدة والاتحاد البرلماني الدولي ويهمل ذكر محادثات (كامب دايفيد) ويدعو الى انعقاد مؤتمر جينيف ، ويؤكد على الانسحاب الاسرائيلي الكامل من الاراضي العربية المحتلة ، ويشير الى ضرورة احترام حق تقرير المصير للشعب العربي الفلسطيني (٨) ٠ وكلها امور ايجابية ذكرت في القرارات السابقة ، ولكن اعادة الاشارة اليها هنا مع افقال (كامب دايفيد) كانت خطوة جيدة لصالح القضية العربية ٠

وفي نهاية القرار كانت هناك فقرة خاصة بالدعوة الى ضمان سيادة لبنان واستقلاله ووحدة اراضيه ووحدة شعبه ٠

وقد تمت الموافقة على قرار بون بالاغلبية التالية : ٦٠٣ نعم ٣٥ ضد ١٦٣ استنكاف ٠

وقد توافرت هذه الاغلبية المتازة على الرغم من الظروف السياسية غير المواتية ، وهي ثمرة الجهود السياسية المكثفة التي بذلتها الوفود العربية ، والعقلية المرنة التي عولجت بها بعض النقاط المختلف عليها ، وتعكس هذه النتيجة حقيقة مؤكدة هي وصول الصوت العربي الى الوجدان البرلماني الدولي وسقوط الحجج المصطنعة للعدوانية الصهيونية ٠

خلاصة

يتبين من العرض السابق ان القضية الفلسطينية حققت خطوات سريعة على صعيد الرأي العام البرلماني من خلال اجتماعات الاتحاد البرلماني الدولي ٠ وقد انطلقت القضية من الصفر تقريبا في مؤتمر روما ١٩٧٢ حيث كانت الصيغ الهامة والحيادية هي التي تحكم موقف الاتحاد ، ثم تطور عرض القضية بسرعة مدهشة ، وظهر استعداد واضح لدى البرلمانيين من مختلف البلدان لتفهم عناصر الصراع العربي الصهيوني ٠ وهكذا تم تحقيق الخطوات التالية في قرارات الاتحاد :

١ ـ الدعوة الى انعقاد مؤتمر جينيف والسعي لتحقيق تسوية سلمية عادلة على اساس مقررات هيئة الامم المتحدة ٠

٢ ـ اعتبار الانسحاب الاسرائيلي الكامل من جميع الاراضي العربية المحتلة وتحقيق الحقوق الوطنية المشروعة للشعب العربي الفلسطيني وخلق مناخ عام للتعايش في المنطقة هي الشروط الرئيسية لتحقيق السلام العادل والدائم ٠

٣ ـ ادانة الممارسات الاسرائيلية في الاراضي العربية المحتلة ولا سيما سياسة بناء المستوطنات ورفض تطبيق اتفاقية جينيف السابقة على الاراضي المحتلة ٠

٤ ـ الاعتراف بالمجلس الوطني الفلسطيني كبرلمان للشعب الفلسطيني وقبوله عضوا مراقبا في مجالس الاتحاد البرلماني الدولي ومؤتمراته ولجانه ٠

ولدى دراسة توزع المواقف من مشكلة الشرق الاوسط والقضية الفلسطينية يمكن القول ان المواقف البرلمانية لا تكاد تختلف كثيرا عن المواقف الرسمية للدول والاحزاب ، مع استثناءات قليلة تبدو فيها وجود قابليات لمحاكمات شخصية غير مرتبطة بموقف الحزب او الدولة ٠

ويبدو اختلاف المواقف واضحا لدى الوفود البرلمانية القادمة من دول الديمقراطيات ذات الاحزاب المتعددة حيث يصوت ممثلو كل حزب على طريقتهم الخاصة ٠

وبوجه عام يمكن تقسيم اتجاهات الرأى العام البرلماني على النحو التالي :

١ ـ اتجاه الاغلبية المتمثلة في مندوبي الدول العربية والاشتراكية والاسلامية وعدد من دول عدم الانحياز ٠ وتتطابق وجهة نظر هذه المجموعات في المرحلة الحالية :

أ ـ من حيث التأكيد على ضرورة قيام سلام عادل ودائم في منطقة الشرق الاوسط ، وضرورة تطبيق مقررات هيئة الامم المتحدة بكاملها ، وفي مقدمتها الانسحاب الاسرائيلي الكامل وتحقيق حقوق الشعب الفلسطيني في تقرير المصير وفي اقامة الدولة المستقلة على ارضه « المناطق المحتلة من فلسطين بعد الجلاء عنها » ٠

ب ـ من حيث الادانة الكاملة للعدوان الاسرائيلي والتوسع وانتهاك حقوق الانسان في الاراضي العربية المحتلة والحاق القدس بأسرائيل والتنكر لحقوق الشعب العربي الفلسطيني ٠

وتنصب اصوات هذه المجموعات دفعة واحدة ودون تحفظ الى جانب الحق العربي ٠ وهذه الاصوات وحدها تؤمن اغلبية مطلقة ٠ ومن هنا تتجه الوفود العربية نحو الاعتدال لاخذ قرارات حاسمة تؤدي الى نفور الاقلية ، وليس لها بالتالي اى اثر عملي ، ذلك لان منبر الاتحاد الدولي ليس لمقرراته نتائج عملية مباشرة بل ليس لها اى مفعول الزامي ٠

٢ـ اتجاه الاقلية المدافعة عن اسرائيل : وتتألف هذه الاقلية من الوفد الامريكي ووفد كوستاريكا وبعض مندوبي اوربا الغربية « بالاضافة الى الوفد الاسرائيلي طبعا » ٠ وهي اقلية متناقضة ومعزولة فيما يتعلق بمشكلة الشرق الاوسط وسائل التحرر من الاستعمار بوجه عام ٠ والقضية الاساسية التي تطرحها هذه المجموعة هي أمن اسرائيل وهي تردد باستمرار حق اسرائيل في الوجود وفي حماية هذا الوجود ، وتعترض على حقوق الشعب العربي الفلسطيني من هذه الزاوية ، اذ تخشى ان يؤدى احقاق هذه الحقوق الى المساس بأمن اسرائيل ٠ ومن هنا كان مفهومها للانسحاب ايضا مرتبطا بهذا الموقف ، فهي لا تؤيد مبدأ الانسحاب الكامل ٠ وتقوم هذه المجموعة على تبني صيغ عمومية والمراوغة بشأن اية ادانة لاسرائيل ، وغالبا ما تحاول اثارة موضوع الارهاب الدولي والصاق جزء كبير من مسؤوليته بالفلسطينيين ٠ وبوجه عام لا تشكل هذه الاقلية مجموعة ذات خط سياسي واضح بتفاصيله ، وانما هي مجموعة تعاطف وتآزر مع اسرائيل ٠

٣ ـ اتجاه المترددين : ويتألف هذا الاتجاه من معظم ممثلي برلمانات كندا واستراليا واوربا الغربية باستثناء ممثلي الاحزاب الشيوعية ٠ ويفضل هؤلاء التصويت بالاستنكاف على قرارات الشرق الاوسط كما يحاولون ان يلعبوا دور الوسيط ٠ وفي خلال المناقشات يظهرون اهتماما شديدا بأمن اسرائيل ولكنهم لا ينكرون حقوق الشعب الفلسطيني ٠ الا ان هذه الحقوق غامضة جدا في مصطلحهم السياسي ، وهم يلتزمون غالبا ببيانات دول

المجموعة الاقتصادية الاوربية ، ويتفاوت موقفهم من الحق العربي بتفاوت الظروف السياسية ، الا انهم دائما يفضلون عدم اغضاب الوفد الاسرائيلي · ويجب ان يعترف المرء بوجود تفاوت كبير في مواقف كل فرد منهم · ويتراوح عدد هؤلاء بين ١٥٠ ـ ٢٠٠ نائبة من بين حوالي ثمانمئة نائب يشكلون المؤتمر السنوي للاتحاد · ولكن تأثيرهم السياسي ، انطلاقا من مواقع حكوماتهم ومن تمرسهم بالعمل البرلماني ، يفوق بكثير عدد اصواتهم ·

وفي النهاية هناك حقيقة واضحة يجب التأكيد عليها وهي ان وجهة النظر العربية لم تعد مجهولة لدى معظم البرلمانيين وهي تبدو محقة الى درجة ان الجميع يتجنبون معارضتها بشكل سافر ، وان وجهة النظر الاسرائيلية لم تعد مقنعة على الاطلاق ، وانصارها غالبا بحكم الولاء الصهيوني او الاستعماري : يدافعون عنها باستحياء ·

وان استمرار الجانب العربي في سياسة المرونة والاعتدال كفيل بان يجعل من الرأى العام البرلماني قناة جيدة من قنوات الضغط العالمي على العدو الصهيوني باتجاه تنفيذ مقررات هيئة الامم المتحدة واحقاق الحقوق العربية ·

الحواشي

(١) خلال السنوات الاخيرة اصبحت هذه المسألة مثار مزاح دائم في الجلسات الخاصة للمشاركين في اجتماعات الاتحاد ، اذ كلما حاولت الاكثرية تجنب الخوض في موضوع الشرق الاوسط وما يتفرع عنه كان جواب مؤيدي هذا الموضوع بأن الاتحاد يجب الا يفوت على نفسه فرصة اثارة الاهتمام الصحفي والاعلامي وان طرح موضوع الشرق الاوسط يشكل نوعا من التهوية للهواء الخامل في الاتحاد · ولكن المسألة ليست بهذه البساطة لدى الصحافة الغربية التي ما زالت تميل الى اهمال الاتحاد على الرغم من حدة القضايا التي يعالجها الآن ، وذلك لان اتجاه المعالجة يسير في خط وجهة النظر العربية ·

(٢) حدث مثلا في لقاء روما البرلماني العربي الاوروبي (ايلول ١٩٧٨) ان ابدى كثير من ممثلي الجانب الاوربي استخفافهم بما يجرى في الاتحاد البرلماني الدولي وانكارهم للصفة التمثيلية للوفود الاوربية الغربية الى اجتماعاته ·

وقد أتى هذا الكلام في محاولة للتخفيف من سخط الوفود البرلمانية العربية على مواقف البرلمانيين الغربيين خلال المؤتمر البرلماني الدولي الخامس والستين (بون) ·

(٣) وهي تقاليد تأثرت تدريجيا بالروح السياحية التي أخذت تغلب على النواب المحافظين والموسرين ·

(٤) يقتضي الانصاف ان نشير هنا الى الجهود العظيمة التي بذلها الوفد البرلماني العربي السوري ومبادرته الفائقة في هذا المجال بالتعاضد الكامل مع سائر الوفود العربية ·

(٥) كاد العرب يضيعون الفائدة من هذا التقدم في التحديد النوعي للحقوق الفلسطينية ، بسبب عدم تمسكهم بمصطلح واحد وعدم مبادرتهم الى تعريف مدلولات كل مصطلح · وفيما بعد قامت لجنة خاصة منبثقة عن هيئة الامم المتحدة بتوصيف الحقوق الثابته او الراسخة او غير القابلة للتصرف ولكنها مع ذلك لم تدخل في تحديد المصطلحات ·

(٦) كان شرفا لكاتب هذه السطور ان يكون ممثل المجلس الوطني الفلسطيني في مؤتمر طوكيو ٠

(٧) لم يستطع الوفد الاسرائيلي لمؤتمر لندن تحمل الصدمة بهدوء ٠ وقد خرج الوفد الاسرائيلي من المؤتمر ، برئاسة أبا ايبان ،عندما تولى رئيس الوفد الفلسطيني الكلام ٠ وحين تحدث ابيان في المؤتمر شتم الاتحاد البرلماني الدولي « لدعوته الفلسطينيين لحضور المؤتمر بصفة مراقبين » ثم تشكى من « انحطاط » المعايير البرلمانية وتباكى على القانون المهزوم ، واتهم الاغلبية بالنفاق ومجاملة العرب على حساب امن اسرائيل الذي يهدده الارهاب الفلسطيني ٠ والحقيقة انه منذ قبول المجلس الوطني الفلسطيني في الاتحاد البرلماني الدولي بدأت تتصف تصرفات المندوبين الاسرائيليين بالعصبية والنزق ٠

(٨) تمت الاشارة الى حقوق الشعب الفلسطيني بمبادرة من الدكتور جمال العطيفي ، رئيس الوفد المصري ، مما اثار استياء واضحا لدى الوفد الاميركي ٠

ادمون دانيـال

ادمون حنا دانيال • اسم عادي لرجل عادي من بلادي • قليلون سمعوا بالاسم من قبل • وقليلون عرفوا صاحب الاسم •

قصته ، بل حياته ، هي قصة وحياة الاف الرجال في بلادي • قصة عادية وحياة عادية • ابن تسعة وعشرين عاما • فلسطيني ولـــد في واحد من المهاجـــر الفلسطينية : في لبنان • درس بعض الدراسة ثم عمل في التوزيع ثم الارشفة فـي مركز الابحاث التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية ، بل انه كان اول موظف في هـذا المركز ، يوم تاسيسه في الاول من اذار (مارس) ١٩٦٥ • موظف عادي في عمـل عـــادي •

مع هذا كله ، يبرز ادمون حنا دانيال ، من هذا الاطار العـــادي ، وينطلق • ويتفوق • ويصبح الشاب العادي معلما (بشداللام وكسرها) ومعلما (بفتح اللام) • ويصبح امثولة وقدوة • ويصبح سيرة تحتذى • ويصبح نبراسا يهتدى به •

فالشاب الصامت الخجول الهادىء ، المنطوي على نفسه وقليل الصلات مـــع الاخرين ، شجاع • شجاع الى اقصى حدود الشجاعة ، شجاع بالارادة والتصميم وليس بالطيش والانفعال • شجاع الى درجة انه كان هو صاحب فكرة ان يتولى العاملون في مركز الابحاث حماية مركزهم وانفسهم ، امام الاعتداءات والتهديدات الصهيونية المتكررة ، وكان هو اول من حمل البندقيـة واشرف علـى حراسة المركز كجزء من عمله في المركز ، معتبرا ، بحق ، ان البندقية مكملة للقلم ، وان لا قيمة للواحد منهما بدون تكامله مع الاخر • وبدون كثير من التنظير والتفلسف ، ولكن بالممارسة والاثبات العملي ، تحققت فكرة ادمون داخل واحدة من اشهر المؤسسات الفلسطينية ، واصبحت الحراسة الذاتية اسلوبا اساسيا في العمل الثوري وفـي حمايتـــه •

كان ادمون حنا دانيال فلسطينيا اولا واخرا • فلسطينيا عربيا • فلسطينيا امميا• فلسطينيا انسانيا • فلسطينيا اشتراكيا • فلسطينيا تقدميا • فلسطينيا علمانيا • فلسطينيا متحررا • لكنه في كل الحالات كان فلسطينيا • واعتمر قلبه وذهنه بهـذا الايمان الكبير • غير انه لم يعبر عن ايمانه بالكلام والتنظير والتشدق بتعابير اكبر منه ومن مستمعيه• انما عبر عن ايمانه بما هو اهم واكثر مغزى : بالممارسة• وهي

اسلوب في العمل تفقد امامها التعابير معانيها وتفقد الكلمات بالنسبة اليها اهميتها ٠

فلسطين ، عند ادمون ، هي الكل ٠ هي الهدف ٠ وكل شيء امامها وبالنسبة لها انما هو مجرد ثانوي ، مجرد تفصيل ٠ والتنظيمات الفلسطينية ، على اهمية وجودها ونضالها ، انما هي طرق ومسالك ترتسم على خارطة العمل الثوري ، فتتوازى احيانا وتلتقي احيانا وتصطدم احيانا ، ولكنها لا تعدو كونها دروبا تؤدي ، في حال نجاحها ، نحو الهدف الاسمى ٠

من هذا المنطلق عمل ادمون حنا دانيال مع التنظيمات الفلسطينية وتعامل مع اعضائها وتفاعل مع افكارها ٠

ومن اجل هذا الايمان ، والدفاع عنه ، وتعبيرا عن هذا الايمان والدفاع عنه ، دفع ادمون حنا دانيال حياته وضحى بشبابه وسمح بان يهدر دمه ويراق ٠

قرار واحد ـ حاسم حازم ، اتخذه ادمون لنفسه ، منسجما فيه مع نفسه (مع ايمانه ومع شجاعته الواعية) افقده حياته واعطاه الخلود ٠ وتحول ، ادمون حنا دانيال الفلسطيني العادي الى المعلم في طريق النضال والمعلم في دروب الثورة ٠ واصبحنا ، نحن الذين زاملناه ورافقناه في عمره القصير ، نغبط استشهاده ونقتدي بعبرته ٠

لقد لقن ادمون زملاءه ورفاقه ، ولقن الاساتذة والدعاة وكتبة البرامج ووعاظ المنابر وصانعي النظريات ، ولقن قاتليه ، درسا غاليا (بسعر دم ادمون الغالي جدا على محبيه) ان فلسطين اكبر منهم جميعا ، وان اكبرهم صغير جدا امام فلسطين ٠

جثمان الشهيد ، قيل لنا ، ضاع ٠ اتخيل ابتسامة على شفتيه ، وهو يتلقى الرصاصات [رصاصات الانتقام ، او رصاصات «التاديب» ، او رصاصات الغدر ، او سمها ما شئت] تسخر من القاتل ومنا جميعا ٠ نحن الذين تخاذلنا امام شجاعته ٠ وقد اصبح هو الكبير الكبير ٠ وكشف غيره ، كشفنا نحن ، كم نحن صغارا ٠

د٠ انيس صايغ

حول تسليح اسرائيل
للانظمة العنصرية الفاشية

كشف النزاع المسلح بين قوات نظام سوموزا الدكتاتوري وثوار جبهة التحرير الوطنية في نيكارغوا في شهر أيلول (سبتمبر) ١٩٧٨ عن معلومات جديدة حول علاقات اسرائيل مع نظام سوموزا وغيره من الانظمة الفاشية في اميركا اللاتينية ومع سائر الانظمة العنصرية والفاشية في العالم · فقد كشفت تقارير الصحف الامريكية ان اسرائيل زودت الجنرال سوموزا بالاسلحة الاسرائيلية المصنوعة محليا والتي استخدمها لاخماد الجولة الاولى من صراعه ضد الثوار وضد الالاف من المدنيين في نيكاراغوا · وان هذه الشحنات من الاسلحة الاسرائيلية المنقولة الى مناغوا سرا هي الاسلحة التي سيستخدمها الجنرال الفاشي ضد شعب نيكاراغوا في الجولة او الجولات القادمة ·

اسلحة جديدة تحت ستار الليل ومنع التجول

ذكرت مجلة « نيوزويك » (٢٠ / ١١ / ١٩٧٨) في تقرير لمراسلها في مناغوا ،عاصمة نيكارغوا ، انه خلال الصدمات الدامية بين الثوار وحرس الدكتاتور سوموزا في ايلول (سبتمبر) الماضي وصلت من اسرائيل عن طريق الجو شحنات اسلحة سرا ، خلال الليل وخلال ساعات منع التجول ، وان هذه الشحنات اشتملت على صواريخ ارض ـ جو ·

واكدت صحيفة النيويورك تايمز (١٩٧٨/١١/١٩) هذا التقرير وكشفت النقاب عن ان اسرائيل زودت نظام سوموزا قبل احداث ايلول (سبتمبر) بالاضافة الى الشحنات الجديدة · بانواع عديدة من الاسلحة الاسرائيلية منها : المدفع الرشاش (عوزي) والبندقية الاوتوماتيكية (جليل) والذخائر المختلفة وزوارق الدورية وطائرات (عرفا) وغيرها · وذكرت النيويورك تايمز ايضا ان اسرائيل هي المزود الرئيسي ليس فقط لنظام سوموزا بل لكل الانظمة العسكرية في اميركا اللاتينية وخاصة الشيلي وبوليفيا والاكوادور والسلفادور وهندوراس وغيرها · ولكن هل تقتصر سوق الصناعات الحربية الاسرائيلية على النظم العسكرية الدكتاتورية في اميركا الجنوبية ؟

قائمة الزبائن طويلة

ان السلطات الاسرائيلية تحرص على ابقاء قائمة زبائنها في الكتمان · وهو نفس الامر بالنسبة لقائمة الاسلحة التي تزود بها هؤلاء الزبائن · الزبون الوحيد الذي اعترفت اسرائيل بمده بالسلاح رسميا وعلى لسان رئيس وزرائها مناحيم بيغن هو الانعزاليون في لبنان · عدا ذلك من الصعب العثور على زبائن اخرين في تصريحات المسؤولين الاسرائيليين وعلى غير القليل في تقارير الصحف الاسرائيلية ·

لكن حسب مصادر الصحف الغربية ومعهد الدراسات الاستراتيجية في لندن ، هناك قائمة طويلة لزبائن اسرائيل وهذه القائمة تشتمل على جنوب افريقيا وزائير وكينيا وتايوان وهندوراس والتشيلي وايران وبوليفيا والاكوادور والسلفادرو والمكسيك والارجنتين وغواتيمالا وغيرها ·

وحسب هذه المصادر تبيع اسرائيل المدفع الرشاش (عوزي) الى اكثر من ٦٠ دولة ، منها الولايات المتحدة التي تجهز اجهزةمخابراتها بهذا السلاح ، (النيويورك تايمز ، ١٩ / ١١ / ٧٨) · اما انواع الاسلحة الاخرى التي تبيعها اسرائيل فتشمل البندقية المطورة (جليل) ، طائرتي (عرفا) و (كفير) صاروخ بحر – بحر (جبرئيل) صاروخ جو – جو (شفير) بالاضافة الى اجهزة الاتصال الالكترونية وغيرها ·

والملاحظ ان حجم مبيعات الاسلحة الاسرائيلية ينمو باستمرار ، فبينما كانت تبيع من الاسلحة في العام ١٩٧٣ ما قيمته ٦٠ مليون دولار سنويا ، زاد حجم هذه المبيعات في العام ١٩٧٨ بنسبة كبيرة بحيث تقدر المصادر الغربية مبيعات اسرائيل من الاسلحة هذا العام بقيمة ٤٠٠ مليون دولار · (النيويورك تايمز ١٩/١١/١٩٧٨) ·

وعلى الرغم من ندرة المعلومات وخاصة من المصادر الاسرائيلية حول التورط الاسرائيلي مع الانظمة الدكتاتورية العسكرية في العالم ، تبدو منطقة امريكا الجنوبية من حيث المعلومات المتوفرة وكأنها الساحة الاولى التي بلغ التورط العسكري الاسرائيلي فيها حجما كبيرا في هذه المرحلة ·

لقد نشر الكثير في الماضي عن التورط العسكري الاسرائيلي في القارةالافريقية تحت غطاء « مشاريع التعاون » الممولة من قبل الولايات المتحدة الامريكية ، والتي كان هدفها لجم المد الثوري التحرري والابقاء على افريقيا تحت الهيمنة الاستعمارية · ولكن كما هو معلوم ، ادت الاحداث التي شهدتها افريقيا ومنطقة الشرق الاوسط خلال العقد الماضي الى تقلص الدور الاسرائيلي في هذه القارة ، الامر الذي ادى بدوره الى انفضاح وتقوية الروابط مع النظام العنصري في جنوب افريقيا · وقد يكون تقلص هذا الدور في افريقيا احد العوامل التي ادت الى مزيد من التركيز في امريكا اللاتينية ·

اشكال التورط

لم تكن المعلومات التي نشرتها الصحف الغربية حول تزويد اسرائيل لنظام سوموزا في نيكاراغوا بالاسلحة الاسرائيلية المتنوعة (والتي استخدمها هذا النظام الدكتاتوري ليس فقط في حربه ضد جبهة التحرير الوطنية بل في ما اعقب ذلك من الفظائع ارتكبها حرسه الوطني ضد الاف المدنيين وهدم بيوتهم الى حد تخريب بعض المدن بكاملها) · لم تكن

هذه المعلومات التي نشرت في اواخر عام ١٩٧٨ امرا مفاجئا ، فبعض المعلومات التي نشرتها الصحف الاسرائيلية قبل ذلك تكشف مدى تورط اسرائيل في بيع الاسلحة للانظمة الدكتاتورية العسكرية في اميركا الجنوبية ،بل هذه المعلومات كشفت ايضا ان هذا التورط لا يقتصر على تزويد الاسلحة بل انه يتسع الى ثلاثة اشكال : (١) التزويد بالاسلحة · (٢) التزويد بالخبرة والخبراء المتخصصين بالنشاط البوليسي و « مكافحة الارهاب » · (٣) الدعم الاعلامي والدعائي لهذه الانظمة ·

١ ـ تزويد الاسلحة

تحدث تقرير نشر في صحيفة هآرتس (١٩٧٧/٣/٢٢) عن زيارة قام بها كل من الجنرال (احتياط) رحبعام (غاندي) زئيفي والممثل الاسرائيلي المعروف حاييم توبل واسرائيليان اخران الى الاكوادور في تلك الفترة · وقال التقرير ان الاسرائيليين عرضوا على حكومة الاكوادور بيعها اسلحة ومعدات حديثة ، وبشكل خاص معدات حديثة تستخدم في «الحرب ضد الارهاب » · واضاف التقرير ان العرض نفسه قدم الى دول اخرى في امريكا اللاتينية ·

وفي مقابلة اجرتها صحيفة « يديعوت احرونوت » (١٩٧٧/٤/١) مع الجنرال رحبعام زئيفي ، قال : « ··· اقول لك بصراحة ليس من العيب ان يكون الانسان تاجر اسلحة ·· انها حقيقة ، اننا متحمسون لتصدير الاسلحة · اسرائيل متعطشة لاسواق ضخمة ولزيادة عدد زبائنها · وفي رأيي اننا نطمح الى بلوغ وضع تصبح فيه دول اكثر ، تحارب الارهاب داخل اراضيها ، قادرة على القضاء على هذا الارهاب بمساعدتنا » · ومن الجدير بالذكر ان هذه المقابلة اجريت مع الجنرال زئيفي عقب الاخبار التي تحدثت عن سفره الى دول اميركا اللاتينية لعرض خدماته عليها ·

وتحدثت صحيفة « هآرتس » (٧٨/٨/١٠) عن زيارة الجنرال مردخاي غور رئيس الاركان السابق الى كل من التشيلي والارجنتين ، واقتبست الصحيفة مقابلات مع الجنرال غور في الصحف المحلية في البلدين كشف فيها النقاب عن بيع الاسلحة الاسرائيلية بكميات كبيرة الى البلدين ·

وكتب الدكتور اسرائيل شاحك في نشرته رقم١٤(١٩٧٨) ما يلي : « ست دول هي التشيلي والاكوادور وهندوراس والسلفادور وغواتيمالا والمكسيك تتلقى معظم معداتها العسكرية من اسرائيل · وهناك دولتان هما الارجنتين ونيكاراغوا ، اصبحت الاسلحة الاسرائيلية تشكل جزءا هاما من اسلحتها · هناك مبيعات من الاسلحة بنسب اقل ولكن بكميات كبيرة كانت تتلقاها حتى الفترة الاخيرة كل من بوليفيا وبنما وهايتي وكولومبيا · ومن بين السلع الهامة الاخرى التي تتلقاها كل هذه الدول من اسرائيل الاسلاك الشائكة والاسلاك الشائكة المكهربة و « الالكترونية » والتي تصنعها « الصناعات الجوية » في اسرائيل · وهذه السلعة تنشر الاعلانات عنها بكثرة في مجلة « افييشن ويك » او نشرة غرفة التجارة لاسرائيل ـ اميركا اللاتينية · واما الخوذ التي يستخدمها الجيش التشيلي فهي مصنوعة في كيبوتس « مشمار هعيمك » التابع لحزب « مبام » ولا شك ان ذلك يتم باسم «الاشتراكية !» · وتهكم الدكتور شاحل على حزب مبام «الاشتراكي» في محله ، لان هذه الخوذ تباع الى الزمرة العسكرية الدكتاتورية التي تحكم شعب التشيلي اليوم بالحديد والنار والتي اطاحت بنظام سلفادور الليندي الاشتراكي في العام ١٩٧٣ ·

٢ ـ رجال ومعدات « لمكافحة الارهاب »

يتضح مدى تورط اسرائيل في مساعدة الانظمة العسكرية الدكتاتورية في قمع شعوبها وحماية هذه الانظمة من هذه الشعوب وحركاتها التحررية الوطنية من المعلومات التي تسربت حول زيارة الجنرال احتياط رحبعام زئيفي وغيره من الجنرالات الى اميركا اللاتينية في العام ١٩٧٧ ٠

والجنرال (احتياط) رحبعام زئيفي كان قائد المنطقة الوسطى بعد حرب حزيران ١٩٦٧ ، وقد اشتهر حتى بين الاسرائيليين بقسوته وجرائمه البشعة ضد الشعب الفلسطيني ٠ وفي ١ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٤ عين رسميا مستشارا لرئيس الحكومة (أسحاق رابين حينذاك) في شؤون « مكافحة الارهاب » وشغل هذا المنصب حتى آذار (مارس) ١٩٧٧ ٠

وفي ذلك الشهر كان الجنرال زئيفي في اميركا اللاتينية وكان معه المثل حاييم توبل والمقاول من تل ابيب بتساليل مزراحي ورجل الاعمال مردخاي تصرفاتي الملقب « مينش » (والذي سبق وان نشرت الصحافة الاسرائيلية عن ارتباطه بالمافيا في تل ابيب) وشخص اسرائيلي رابع ٠ وقد ذكرت صحيفة « هآرتس » (١٩٧٧/٣/٢٣) التي نشرت هذا التقرير ان الاسرائيلي الرابع « لم تفصح المصادر في تل ابيب عن اسمه لانه ذو ماض امني وقد ترك خدمة الحكومة منذ فترة وانشأ شركة عملت على تقديم الحماية العسكرية لحكومات اجنبية ٠ وشركاء هذا الشخص كانوا نشيطين في افريقيا لسنوات طويلة وقد ارتبطت اسماؤهم بقضايا مختلفة ٠ وتقول الدوائر المهتمة بشؤون الاكوادور ان الاسرائيليين الاربعة قد عرضوا على حكومة الاكوادور خدماتهم ومعدات متطورة لمكافحة الارهاب في بلادهم وانهم عرضوا ايضا رجالا لتنفيذ خدمات مرتبطة بمكافحة الارهاب » ٠

ان لكيفية تسرب المعلومات عن رحلة الجنرال زئيفي الى الاكوادور وغيرها قصة ذات دلالات هامة ٠ فسبب تسرب هذه المعلومات تقرير بعث به السفير الاسرائيلي في الاكوادور الى وزارة الخارجية الاسرائيلية في اذار (مارس) ١٩٧٧ يطلب فيه كشفا عن الاسرائيليين الاربعة بعد ان طلبت حكومة الاكوادور ذلك منه ٠ فالسفير الاسرائيلي لم يكن لديه علم مسبق بطبيعة مهمة الاسرائيليين الاربعة ولا حتى بوصولهم الى الاكوادور ٠ وعندما وصل تقرير السفير الى وزارة الخارجية احيل الى مكتب رئيس الحكومة لان الوزارة نفسها لم يكن لديها معلومات عن هذه المهمة ٠ وكان جواب مكتب رئيس الحكومة على طلب تعليمات للسفير هو اعطاء كشف عن الاسرائيليين ولكن بدون اعطاء توصية لا ايجابية ولا سلبية ٠

هذا يدل على ان مكتب رئيس الحكومة وهو المشرف المباشر على المخابرات الاسرائيلية (الموساد) كان على علم بالزيارة على الاقل ٠ وهذا بدوره يدل على ان هناك خطة اسرائيلية محكمة يتم بموجبها تزويد الدكتاتوريات العسكرية بالاسلحة والرجال والخبرات لقمع الثورات الداخلية ، ليس بالطرق الرسمية المألوفة وبشكل يضمن عدم تورط الحكومة رسميا ٠والملفت للنظر ان ممثلا سينمائيا اسرائيليا معروفا ـ حاييم توبل ـ كان مشتركا في هذه المهمة ٠ وعندما اتصل به مراسل صحيفة « هآرتس » حاول الادعاء في بادىء الامر ان هدف رحلته الى الاكوادور هو فقط بيع افلام عن التوراة ، ولكن تبين فيما بعد وباعتراف الجنرال زئيفي انه كان معه في نفس المهمة ٠ مما يدل على محاولة التمويه في هذه العمليات وضمان امكانية تنصل الحكومة الاسرائيلية منها ٠

ولكن في المقابلة التي اجرتها صحيفة « يديعوت احرونوت » مع الجنرال (احتياط) زئيفي قال : لقد طلبت من الحكومة الاسرائيلية امرين : « ١ ـ ان يكون كل نشاطي في الخارج تحت اشراف السلطات الاسرائيلية · ٢ ـ ان يكون هناك اشراف أمني على كل ما اقوم به في الخارج وانني اوافق على كل فيتو او منع من الحكومة الاسرائيلية » · (يديعوت احرونوت ، ١ / ٤ / ١٩٧٧) ·

اما الرجال الذين يستخدمهم زئيفي في هذه البلدان « لمكافحة الارهاب » فقد صرح الجنرال في المقابلة المذكورة بانهم من مسرحي خدمات الامن الاسرائيلية والجيش الاسرائيلي ·

ومن الجدير بالذكر ان الصحف العبرية تنشر الكثير من الاعلانات وباجور مغرية عن مثل هذه الاعمال « لمكافحة الارهاب » واحد الاعلانات الشائعة يعد : راتبا يصل الى ٨٥٠٠ ليرة اسرائيلية بعد الضريبة ، جزء منه يدفع بالدولار · الطعام والسكن بالمجان واجازة سنوية مدفوعة كاملا في اوروبا وعلاوة بعد خدمة سنة متواصلة ·

٣ ـ الدعم الاعلامي

يظهر التقرير الذي نشرته صحيفة « هآرتس » في ١٩٧٨/٨/١٠ للمراسلة مارسل زوهار في بيونس ايرس بالارجنتين الدعم الاعلامي الذي تقدمه اسرائيل بشتى الوسائل للدكتاتوريات العسكرية في اميركا الجنوبية · فقد تحدث التقرير عن زيارة ثلاثة جنرالات اسرائيليين الى الارجنتين والتشيلي وغيرهما في فترة ٦ اسابيع سبقت تاريخ نشر الصحيفة · وهؤلاء الجنرالات هم حاييم لاسكوف ومردخاي هود وموتا غور · وعدا عن الصفقات العسكرية التي ابرمت مع هذه الدكتاتوريات ، فقد اتضح ان كلا منهم حاول اعطاء الدعم الدعائي لهذه الانظمة عن طريق المقابلات الكثيرة التي اعطوها للصحف ووسائل الاعلام المحلية ، وعن طريق المحاضرات التي القوها في النوادي والكليات العسكرية هناك · ومن جملة ما قاله الجنرال غور في احدى حفلات الاستقبال احيتها له « الجونتا » في التشيلي « ان الجيش التشيلي معتاد على النصر ولديه شهية لاحراز الانتصارات » (المصدر نفسه) !! وطبعا لا يقصد الجنرال غور انتصارات الجيش التشيلي على جيوش دول اخرى بل على الشعب التشيلي نفسه !

هذا بالنسبة للدعم الدعائي الاسرائيلي داخل هذه الانظمة · وهناك دعم خارج هذه الدول وخاصة في واشنطن حيث ان « اللوبي الاسرائيلي » قام بالضغط من اجل تزويد سوموزا بالاسلحة الاميركية · بل ان الدكتور اسرائيل شاحك يذكر في نشرته رقم ١٤ (١٩٧٨) ان جماعات الضغط الصهيونية « توجه ضغوطا قوية على المنظمات المختلفة التي تؤيد او تدعي انها تؤيد حقوق الانسان لكي تبرىء او تقلل من هجومها على هذه الانظمة الدكتاتورية ، هذه الانظمة التي تبقي معارضي اضطهادها داخل اسلاك شائكة ·

وهناك سؤال مهم هو : ما هي علاقة الولايات المتحدة الاميركية بكل ذلك ؟· ولكني نستطيع الاجابة يجدر بنا الالمام بالحقائق التالية :

اولا : بدون المساعدات الاميركية الخارجية كان من الصعب وجود صناعات عسكرية داخل اسرائيل · فطائرات « كفير » مثلا ، التي تصنع في « المصانع الجوية الاسرائيلية »

تسير على محركات اميركية · وهذه الصناعات تقوم على التمويل والتكنولوجيا التي تقدمها الولايات المتحدة الاميركية لاسرائيل ·

ثانيا : الامبريالية الاميركية التي تكفل وجود الكيان الصهيوني هي نفسها التي اقامت وحافظت على وجود الانظمة العسكرية الدكتاتورية من نظام سوموزا في نيكارغوا الى نظام موبوتو في زائير مرورا بنظام الشاه في ايران · مما يجعل امرا بديهيا ضرورة التحالف بين كل هذه الاطراف ·

ثالثا : النظام الصهيوني في الارض العربية متفوق ـ بحكم كونه قطعة منقولة من الجسد الامبريالي الغربي ـ على الانظمة العميلة في العالم الثالث مما يجعله مرشحا طبيعيا للعرض ويجعلها مرشحة طبيعية للطلب ·

رابعا : النظم الدكتاتورية العسكرية في العالم الثالث غالبا ما تجد نفسها في حرب مع شعوبها الممثلة بحركاتها التحررية ، وفي نفس الوقت تواجه نزاعات على الحدود مع جاراتها وهي نزاعات تقليدية خلفها الاستعمار الغربي في كل المناطق المستعمرة · وخبرات اسرائيل الطويلة بحكم حربها الطويلة لاخضاع الشعب العربي الفلسطيني في الداخل وصد كفاحه المسلح من الخارج ، بالاضافة الى حروبها مع الدول العربية الاخرى يجعلها مرشحة لان تبيع خبراتها ومعداتها ورجالها المسرحين الى انظمة تعمل على قمع شعوبها وفي نفس الوقت تريد ان تكون مستعدة لكل مواجهة على الحدود ·

خامسا : قانون المساعدات الخارجية الاميركية لا يسمح للادارة الاميركية ان تزود بالاسلحة حكومات اجنبية تنتهك بشكل صارخ حقوق الانسان ضد شعوبها · وبما ان النظام الاسرائيلي هو النظام الوحيد الذي يستطيع التستر على انتهاكاته لحقوق الانسان بسبب نفوذه وامتداداته داخل المؤسسات الامريكية ، فهو من جهة يستطيع اعفاء مؤسسة الحكم الامريكية من مخالفة القانون ، ومن جهة اخرى يستطيع افساح المجال امامها في ان تواصل الحديث عن « حقوق الانسان » ·

سادسا : في محادثات الحد من الاسلحة وبيعها بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي ، تعتقد الولايات المتحدة انها ستكون في وضع افضل فيما اذا كان تسليح الانظمة العسكرية الدكتاتورية في العالم لا ياتي منها مباشرة ·

ان ارتباط النظام الصهيوني بالانظمة الفاشية العنصرية ناتج اولا من الاساس الايديولوجي المشترك لهذه الانظمة من حيث ان الصهيونية هي في جوهرها نظرية عنصرية فاشية ، وثانيا من الارتباط المصلحي لهذه الانظمة بالامبريالية الامريكية · مع ذلك يحرص النظام الصهيوني على ان يكون مميزا عن غيره من الانظمة المرتبطة بالامبريالية بحيث يستحق منها دعما اقوى ومساعدات اكثر · وعندما تدعم اسرائيل نظام الشاه او نظام سوموزا فانها تستطيع ان تقول لمؤسسة الحكم الاميركية انها تفعل ذلك لصالحها ·

من هنا ان نظام السادات يستطيع من خلال تنافسه مع اسرائيل في خطب ود الامبريالية الاميركية ان يصبح شاهنشاها آخر او سوموزا اخر ، ولكن مع ذلك ستبقى اسرائيل مفضلة عليه ، فهي ستقول في النهاية ان هذا « الانجاز » تم بفضلها ·

يوسف حمدان
نيويورك

الطلاب العرب في مواجهة الفاشية الصهيونية

مرة اخرى يواجه الطلاب العرب في الجامعات الاسرائيلية ، حملة تحريض واعتداء مسعوره (١) لم يسبق لها مثيل ، تشنها عليهم قوى اليمين الصهيوني العنصرية المتطرفة وفاشيو الليكود وغوش ايمونيم ، بوحي ودعم من اجهزة القمع والهيئات التشريعية واجهزة الاعلام الصهيونية ، متبارين في اكتشاف العلاج لمشكلة وجود الطلاب في الجامعات الاسرائيلية ، التي تقلقهم ، حيث يدور النقاش في ادارات الجامعات والصحف الاسرائيلية ووزارة التربية والكنيست الاسرائيلي حول اقتراحات العلاج المطروحة ، لطرد الطلاب العرب الذين يؤيدون م٠ت٠ف من الجامعات فقط ، ام من فلسطين المحتلة أيضا ؟! او تقديمهم للمحاكمة امام المجالس التأديبية في الجامعات ام تقديمهم للمحاكم الجنائية ؟! وما اذا كان ينبغي محاكمتهم وفقا للبنود ٩٧و٩٩و١٠٠ او البندين ١٣٤ و ١٣٦ من قانون العقوبات لعام ١٩٧٧ ؟! او المطالبة بأن تصل العقوبة على مواقفهم المؤيدة لـ م٠ت٠ف والمعادية للكيان الصهيوني الى السجن المؤبد فقط ان الحكم بالاعدام؟! مما يدل على مدى امعان هذه القوى وشراسة تحريضها ، وعلى مدى امعان الدولة اليهودية الصهيونية في عدائها وحقدها للشعب العربي الفلسطيني والشعب العربي برمته ، واللذين وصلا بموشي دايان وزير خارجيتها ان يقف امام وفد يهودي من الولايات المتحدة وكندا ليتوج هذه الحملة بتحريضه الدموي الفاشي على عرب فلسطين المحتلة كافة ، مهددا انه « اذا كان العرب في الضفة الغربية وفي اسرائيل لا يريدون العيش معنا بسلام ومساواة في الحقوق ، فعليهم ان يعرفوا بانهم سيدفعون الثمن غاليا جدا كما دفعوا في عام ١٩٤٨ عندما رفضوا الفرصة في ان يقيموا معنا حياة سلام ومساواة » (عل همشمار ودافار ، و ، معاريف ، ١٩٧٩/١/٢٤) ٠

وتأتي هذه الحملة المسعورة في اعقاب المقال الذي نشره مراسل صحيفة يديعوت احرونوت للشؤون العربية في ١٩٧٩/١/١٨ حول البيان الذي اصدرته « الحركة الوطنية التقدمية » للطلاب العرب في الجامعات الاسرائيلية ، والذي وزعه اعضاؤها في الجامعات ، ابان انعقاد المجلس الوطني الفلسطيني الاخير في دمشق ، والذي يعلن فيه الطلاب المنتظمون في هذه الحركة عن تضامنهم مع م٠ت٠ف وسياستها تجاه اسرائيل ، وعدم اعترافهم بالكيان الصهيوني ، وكان مراسل يديعوت احرونوت قد ادعى بأن « التنظيم الطلابي العربي الاسرائيلي الحركة الوطنية التقدمية ، والذي يضم غالبية الطلاب العرب في البلاد ، قرر ان يتوجه للمجلس الوطني الفلسطيني ، والذي يضم كل فصائل التخريب بما فيها جبهة الرفض ، ليعرب له عن تضامنه مع اهداف المخربين وسياستهم تجاه اسرائيل ، وانه لا يعترف بالكيان الصهيوني » (يديعوت احرونوت ، ١٩٧٩/١/١٨) ٠ واضاف المراسل

---

(١) انظر **شؤون فلسطينية** ، العدد ٨١/٨٢/ ، ١٩٧٨ ٠

توفيق خوري بأن نص البيان كان قد « سلم لي لنشره في جريدة يديعوت احرونوت لكي يصل عبر هذه الطريقة الى قادة منظمات التخريب ، وذلك لانهم لم يجدوا اية وسيلة مشروعة اخرى لابلاغ قرارهم للدول العربية » (**المصدر نفسه**) ومن ضمن القرارات التي جاءت في هذا البيان والتي اشارت هذه الحملة التحريضية العاصفة على الطلبة العرب:

☐ « ان الحركة الوطنية التقدمية ، باعتبارها جزء لا يتجزأ من الشعب الرازح تحت نير الاحتلال الصهيوني في كل فلسطين المحتلة ، والذي يقاوم ضد الاحتلال ببطولة نادرة ، لا تعترف بالكيان الصهيوني » .

☐ « ان شعبنا العربي الفلسطيني مستمر في نضاله البطولي ضد كل محاولات الابادة والحل السلمي ، في نفس الوقت الذي يواجه فيه كل مؤامرات وتحديات الاستعمار والصهيونية في عام ١٩٤٨ و ١٩٦٧ » .

☐ « اننا نرفض محاولات حزب راكاح في ان يتولى قيادة شعبنا العربي الفلسطيني لان حزب راكاح يعترف بالكيان الصهيوني وينشيده القومي اهاتيكفا ، هذا النشيد الذي يجسد خلاصة الفكر الصهيوني. ان حزب راكاح يشكل حاجزا في وجه الشعب العربي الفلسطيني ابتداء من حركة الارض وانتهاء بيوم الارض » (يديعوت احرونوت ، ١٩٧٩/١/١٨) ، هذا بالاضافة الى عدة قرارات تتعلق بادانة « الرجعية العربية العميلة التي انعكست في الزيارة الخيانية للسادات » و « دعم الشعب المصري الكادح في نضاله ضد الحلول الاستسلامية وفقا للقرارين ٢٤٢ و ٣٣٨ » و « اقامة جبهة وطنية عربية تضم معظم حركات التحرر والحركات الوطنية والشعبية في الوطن العربي » و « اقامة جبهة وطنية اردنية فلسطينية لاسقاط النظام الاردني الرجعي » و « تأييد الشعب الايراني في نضاله العادل ضد الحكم الرجعي للشاه و « تأييد توحيد فصائل المقاومة الفلسطينية وفقا لخطة عمل للنضال بما يتوافق وروح وثيقة طرابلس » و « تأييد جبهة الصمود والتصدي ، ما دامت هذه الجبهة تعمل على القضاء على مبادرة السادات الرجعية الخيانية » (المصدر نفسه) . وينتهي البيان بالشعارات « يحيا النضال الفلسطيني » و « تحيا وحدة النضال لشعبنا العربي » و « تحيا الثورة الوطنية الشعبية الديموقراطية العربية» (المصدر نفسه) .

وبما ان البيان تطرق في احد بنوده لحزب راكاح الشيوعي ، ولتوضيح بعض الملابسات التي قد تنجم عن تنصل اتحاد اللجان للجامعيين العرب في الجامعات الاسرائيلية من « الحركة الوطنية التقدمية » ومعارضته للبيان ، ونعت جريدة الاتحاد الشيوعية لهذه الحركة بانها « مجموعة صغيرة وهامشية من الطلاب العرب في القدس تقف وراءهم وبينهم عناصر مشبوهة ومدسوسة على الحركة الطلابية لم تعد هويتها بخافية على احد » (الاتحاد ١٩٧٩/١/٣٠) ، فلا بد اذن من التطرق للتنافس بين الكتلتين العربيتين المتصارعتين بين الطلاب العرب في الجامعات الاسرائيلية وهما حزب « راكاح » ومؤيدوه وتنظيم « اولاد البلد » ومؤيدوه ، الذي يتفرع منه واضعو البيان التأييدي لـ م.ت.ف من « الحركة الوطنية التقدمية » .

فالمجموعة الاولى من « ابناء البلد » كانت قد تألفت عام ١٩٧٢ من حوالي ٢٠ عضوا من الشباب الوطنيين المتحمسين الذين يتمتعون بتأييد جماهيري واسع ، لخوض معركة الانتخابات

للمجلس المحلي بزعامة المحامي محمد توفيق كيوان ، احد اعضاء حركة « الارض » القومية التي نشطت في فلسطين المحتلة في الاعوام ١٩٥٩ ـ ١٩٦٥ ، حيث حلت بقرار من محكمة العدل العليا وحظر عليها اي نشاط · ولذلك فان حركة « ابناء البلد » تعتبر لدى السلطات الاسرائيلية كامتداد لحركة « الارض » · وسرعان ما برزت هذه الحركة كقوة سياسية منافسة لحزب « راكاح » في استقطاب الجماهير الفلسطينية وخاصة ابناء الجيل الجديد الذي يشكل حوالي ٧٥٪ من العرب في فلسطين المحتلة منذ عام ١٩٤٨ ، في الانتخابات للمجالس المحلية ولجان الطلاب في الجامعات الاسرائيلية · برامجها المعلنة وصيغ انظمتها هي الكفاح من اجل تحسين اوضاع الحياة المعيشية في القرى والمدن العربية الفلسطينية ، الا ان معظم نشاطها الاجتماعي ينحصر في اساسه بالكفاح السياسي ضد مصادرة الاراضي وهدم البيوت ومن اجل المعتقلين السياسيين وضد « وثيقة كينيغ » ، ومن قبل مظاهرات الاحتجاج والاضرابات في « يوم الارض » وغير ذلك · اما الخط السياسي لـ « ابناء البلد » فيما يتعلق بمنظمة التحرير الفلسطينية والقضية الفلسطينية ، فهو التأييد الكامل لمنظمة التحرير الفلسطينية بكل فصائلها واهدافها السياسية ، باعتبارها الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني ، واقامة دولة فلسطينية على كامل التراب الفلسطيني ، وعدم الاعتراف بالكيان الصهيوني ووجود دولة اسرائيل ، على عكس حزب « راكاح » الذي يعترف بوجود دولة اسرائيل ، ولكنه يطالب بالانسحاب الشامل من الاراضي المحتلة بعد عام ١٩٦٧ ، ويدعو لاقامة دولة فلسطينية الى جانب دولة اسرائيل ، ويعتبر منظمة التحرير الفلسطينية ممثلا شرعيا ووحيدا للشعب الفلسطيني ·

ولهذا ، ففي الصراع الحاد الذي نشب بين حزب « راكاح » و « ابناء البلد » في انتخابات اللجان الطلابية في معاهد التحصيل العالي السبعة التي تضم حوالي ٣٠٠٠ طالب عربي ، لعام ١٩٧٨ فاز « ابناء البلد » بالاكثرية الساحقة في اللجان المنفردة وبالتالي في اتحاد اللجان للطلاب العرب ، حيث احتلوا ٧ مقاعد من مجموع ٩ · الا ان سلطات الجامعات سرعان ما سحبت اعترافها باتحاد اللجان العرب كجسم تمثيلي منفرد عن الاتحاد العام للطلاب الاسرائيليين في اعقاب الحملة التحريضية التي شنها اتحاد الطلاب الاسرائيليين واجهزة الاعلام الاسرائيلية وعدد من اعضاء الكنيست ، بعد المظاهرة التي نظمها اتحاد اللجان العربية ضد المفاوضات الاسرائيلية المصرية ·

اما في الانتخابات الاخيرة فقد استطاع حزب « راكاح » ان « يزيد من قوته على حساب الكتلة المتطرفة [ابناء البلد] ، حيث حصل على الاكثرية في لجان الطلاب العرب في كل المعاهد الاكاديمية ، باستثناء جامعة حيفا ، حيث حصل راكاح على ٥ ممثلين في لجنة الطلاب والكتلة المتطرفة [ابناء البلد] على ٦ ممثلين · ومن بين الـ ٥٥ مقعدا في كل لجان الطلاب العرب في الجامعات هناك ٢٨ مقعدا لراكاح ومؤيديه و ٩ مقاعد للكتلة المتطرفة [ابناء البلد] و ١٨ لغير المصنفين من الناحية السياسية » (دافار ١٩٧٩/٢/٢) ، وبهذا تكون السيطرة على اتحاد اللجان العربية في الجامعات قد انتقلت الى حزب « راكاح » · وقد عقد مجلس اتحاد الطلاب الجامعيين العرب اجتماعه الاول في الناصرة في ١٩٧٩/١/٦ وبعد اقرار

البيان تم انتخاب سكرتارية للاتحاد ضمت كلا من الطلبة : « عزيز حيدر وجمال زحالقه من جامعة القدس ، وعصام مخول وهشام اسدي من جامعة حيفا ، ومحمد بركة ورياض قدسي من جامعة تل ابيب ، وجورج حلو من التخنيون ، ومازن نصار من جامعة بارايلان ، وثابت ابوراس من جامعة بئر السبع · كما انتخب المجلس الطالب عصام مخول سكرتيرا للاتحاد وناطقا باسمه (الاتحاد ١٩٧٩/١/٩) ·

ورغم هذه النتيجة في الانتخابات والتي اعتبرها المراقبون « انتصارا للخط الاكثر مرونة بين الطلبة العرب » (دافار ١٩٧٩/٢/٢) ، ورغم ان البيان المذكور لم يكن صادرا عن اتحاد الجامعيين العرب ولا يحمل توقيعه ، الا ان اتحاد الطلاب الاسرائيليين سارع بعد ساعات قليلة من نشره في صحيفة يديعوت احرونوت وتوزيعه ، الى شن حملة تحريض واسعة ضد الطلاب العرب بشكل عام وفي جميع الجامعات ، باعتباره « الحركة الوطنية التقدمية هي من متفرعات ابناء البلد » وان جمهور الطلاب العرب انتخب في الانتخابات الاخيرة لصالح « قائمتين من المرشحين فقط ، كتلة ابناء البلد وكتلة راكاح » ، وان « ابناء البلد » رشحوا انفسهم « في القائمتين وجرفوا نصف اصوات الطلاب تقريبا » وان الطالب العربي يكون بهذا قد « دعي للاختيار بين جبهة م·ت·ف بصيغة ابناء البلد وبين جبهة م·ت·ف بصيغة راكاح » (معاريف ١٩٧٩/١/٢٦) وبناء عليه فقد طالب الاتحاد العام للطلاب الاسرائيليين « بالطرد الفوري لعملاء م·ت·ف من الجامعات » ، كما وجه رئيس الاتحاد موشي شيف كتابا الى رئيس الجامعة العبرية في القدس ابراهام هرمان يطالبه بأن « تفي الجامعة بتعهداتها ولا تعترف بأي جسم تمثيلي للطلاب العرب بل باتحاد الطلاب الاسرائيليين فقط » (معاريف ١٩٧٩/١/١٩) وجاء في كتابه « يؤسفني بأن السياسة الليبيرالية التي وصلت بنا الى حد دعوتهم للتمرد » انتهجناها حيال الطلاب العرب هي التي معلنا ان اتحاد الطلاب الاسرائيليين «يقطع اتصالاته مع اتحاد الطلاب العرب ، الى ان يعلن شجبه لبيان التضامن مع م·ت·ف » (المصدر نفسه) ، في نفس الوقت الذي كانت تقوم فيه « مجموعة من الطلاب اليهود القاطنين في مساكن الطلبة في القرية الجامعية بتنظيم نفسها للنيل من الطلاب العرب ، والحديث هنا عن اعمال عنف ضد الطلاب العرب » (المصدر نفسه) · وقد صرح رئيس الجامعة العبرية ابراهام هيرمان ردا على كتاب رئيس اتحاد الطلاب الاسرائيليين في نفس اليوم بأن « الجامعة العبرية كانت قد اسستها المنظمة الصهيونية كمشروع مركزي لحركة الفصل اليهودية القومية، ومن وجهة النظر هذه سوف تتعامل الجامعة مع اي نشاط داخلها » (المصدر نفسه) · اما في الكنيست الاسرائيلي فقد سارع كل من الائتلاف الحكومي بلسان عضو الكنيست امنون لين (ليكود) و « المعارضة » بلسان نائبة رئيس الكنيست شوشانه اربلي الموزلينو (العمل) ، وفي نفس اليوم ١٩٧٩/١/١٨ ايضا ، لنقل حملة التحريض المحمومة هذه الى قاعة الكنيست الاسرائيلي بتقديم اقتراحين عاجلين على جدول اعماله ، طالبا فيهما « بحث بيان الطلاب العرب الذين يسمون انفسهم الحركة الوطنية التقدمية ، المعارضين للكيان الصهيوني، وبادانة تصريحات واعمال الطلاب العرب الذين يؤيدون م·ت·ف وطردهم من الجامعات باعتبار ذلك خيانة لدولة اسرائيل ·· والغاء اعتراف الجامعة العبرية الذي منحته لاتحاد الطلاب العرب

باقامة اطار تنظيمي مستقل » (معاريف ودافار ١٩٧٩/١/١٩) · وفي شرحها لاقتراحها ذكرت نائبة رئيس الكنيست شوشانه اربلي الموزلينو بأن « القرار الذي اتخذه تنظيم الطلاب العرب الاسرائيليين الحركة الوطنية التقدمية ، بالتوجه للمجلس الوطني الفلسطيني الذي تنتظم فيه جميع فصائل المخربين ، والاعلان عن تضامنه معها مع اهدافها وسياستها تجاه اسرائيل ، هو عمل تآمري ، ويشكل خرقا للقانون وتحريضا علينا ضد الدولة » (المصدر نفسه) · واضافت شوشانه الموزلينو بأنه « نظرا للحقيقة في ان التضامن مع منظمات التخريب واعمال الارهاب والقتل التي تنفذها ، يجب اعتبار قرار التنظيم الطلابي العربي ونشره عملا معاديا لدولة اسرائيل لا يقل عن الخيانة » (المصدر نفسه) ·

وامام هذه الحملة التحريضية المخططة التي انتشرت بتنسيق كامل بين اتحاد الطلاب الاسرائيليين في كل الجامعات الاسرائيلية ، والذي راح يهدد « بشل الدراسة في الجامعات ما لم يطرد الطلاب الموقعين على البيان » و « ايذاء الطلاب»، وبين السلطات الاسرائيلية واجهزة اعلامها في اليوم التالي ، سارع عصام مخول (راكاح) سكرتير اتحاد الطلاب الجامعيين ، لشن حملة هجومية على « تلك القلة من الطلاب التي تسمي نفسها الحركة الوطنية التقدمية » ، والتصريح في اجتماع اللجنة القطرية للدفاع عن الاراضي العربية الذي عقد في الناصرة يوم ١٩٧٩/١/٢٠ ، اي بعد يومين من نشر « البيان » ، بأن « هذا البيان لا يمثل موقف الطلاب الجامعيين العرب ، كما ان اتحاد الطلاب ولجان الطلاب لم يصدروه» (الاتحاد ١٩٧٩/١/٢٣ و ، علهمشمار ، ١٩٧٩/١/٢٤) ، واضاف الطالب عصام مخول ان « المواقف المغامرة التي رفعها اصحاب البيان المعزولون ، رفضتها الجماهير العربية في انتخابات السلطات المحلية في تشرين الثاني وفي انتخابات لجان الطلاب الجامعيين العرب » (المصدر نفسه) ، حاملا في كلمته على اتحاد الطلاب الاسرائيليين واجهزة الاعلام وعضوي الكنيست امنون لين وشوشانه اربلي الموزلينو لانتهاز « البيان » لشن الحملة التحريضية ضد الطلاب العرب في الجامعات الاسرائيلية · وفي الاجتماع الطارىء الذي عقدته سكرتارية الاتحاد القطري للطلاب الجامعيين العرب برئاسة عصام مخول في تل‌ابيب في ١٩٧٩/١/٢٢ لتطويق هذه الحملة التحريضية العدائية التي اخذت تتسع وتزداد شراسة داخل الجامعات وفي كل اجهزة الاعلام الاسرائيلية ، اصدر الاتحاد بيانا جاء فيه :

١ ـ « ان الضجة الاعلامية التي اثيرت حول بيان ، غامض اصدرته مجموعة مجهولة الهوية ·· نحن نشجب محاولة نسب البيان لجمهور الطلاب العرب في البلاد، ونشجب حملة التحريض ضد هذا الجمهور » ·

٢ ـ « ان « البيان » لا يعبر عن رأي الطلاب العرب ، ولا عن رأي مؤسسات الاتحاد ، كما ان اية لجنة طلاب عرب جامعيين منتخبة في اية جامعة في اسرائيل لم تقم بارسال اية برقية او بيان » ·

٣ ـ « ان مواقف الاتحاد القطري للطلاب العرب معروفة وواضحة، فالاتحاد يطالب :

☐ بالمساواة التامة في الحقوق القومية واليومية للجماهير العربية في اسرائيل ، والتعايش على اساس الاحترام المتبادل ·

□ وبسلام عـــادل يقـوم على اساس احترام الحقوق القومية العادلـة للشعب العربـــي الفلسطيني ولشعب اسرائيل · وذلك يتم بالانسحاب من جميع المناطـــق المحتلة منذ عام ١٩٦٧ ، واقامة الدولـة الفلسطينية المستقلة الى جوار اسرائيل ، والاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينيـــة على انها الهيئة الممثلة للشعب العربـــي الفلسطيني وعنوان التفـــاوض في اي حل سلمي » ·

٤ ـ اننا نطالب حالا بوقـف حملـــة التحريض التي لم يسبق لها مثيل ضـــد جمهور الطلاب العرب حول قضية «البيان»، الذي لا يعبر عن رأي الطلاب الجامعيين العرب · ونحذر من المحاولات الخفيـــة لاستغلال هذه الحملة للصيد فـي المـــاء العكر ، ومحاولات المس بالطلاب العـرب في الجامعات » (الاتحاد ، ١٩٧٩/١/٢٣ و ، علهمشمار ، ١٩٧٩/١/٢٤) ·

كما ردت لجنة الطلاب فـي الجامعـــة العبرية في القدس ، هي الاخرى بدورها علـــى « البيان » فـــي ١٩٧٩/١/٢٤ ، موضحة في بيان لها ان « ناشري البيان لا يمثلون كل جمهور الطلبة العـرب » ، وان النشر في الصحف خلق انطباعا ليس له اساس في الواقع بأن الحركة الوطنية التقدمية ، تنظم في صفوفها معظم الطلاب العرب ، والحقيقة هي ان القائمة التـــي حظيت بالاكثريـــة فـــي انتخابـات اتحـاد الطلاب ، تضمنت فـــي برنامجها مبـــدأ المطالبة بحق تقريـر المصيـر للشعبيـن » (عل همشمار ١٩٧٩/١/٢٥) كما ونددت لجنة الطلاب العرب في الجامعة العبريـة في القدس في بيانها بـ « حملة التحريض المغرضة والعنصرية التي يقودها اتحـاد الطلاب الاسرائيليين على الطلاب العرب في وسائل الاعلام ، وحملة التحريض التي يشنها عدد من اعضاء الكنيست د· بـن مئير وشوشانه اربلي الموزلينو وبالطبـــع امنون لين الذي لا يوفر فرصة للاعلان عن ارائه الفاشية وكرهه للمواطنين العرب ، (المصدر نفسه) ·

الا ان اتحاد الطلاب الاسرائيليين في الجامعة العبرية في القدس ، اعلن بلسان رئيسه موشي شيف في رده على هـــذا البيان الذي تسلم نسخة عنه : « نحـــن نرى في هذا البيان صفعة لنا ، بعد ان كنا نتوقع ان يتضمن تنديدا واضحـــا ببيان الحركة الوطنية التقدمية ، واننـــا سوف نتوقف عن اية مباحثات مع لجنـة الطلاب العرب الى أن تنشر اعتذارا علنيا عن هذا البيان » (المصدر نفسه) · اما في جامعة حيفا فقد قامت مجموعه مـن الطلاب اليهود « بجمع ٢٥٠٠ توقيع في الايام الاخيرة من زملائهم الطلاب علـى عريضة تطالب بطرد مؤيدي م·ت·ف من معاهـــد التعليـم العالي في اسرائيل » (المصدر نفسه) · كما وشـدد اعضاء الكنيست د· بن مئير (مفدال ، وامنـون لين (ليكود) وشوشانه اربيلي الموزولينو (العمل) في حملتهم على الطلاب العرب كافة في الكنيست ، رغم بيان اتحـــاد الطلاب الجامعيين العرب ولجنة الطـلاب العرب في الجامعة العبرية في القـدس ، وطالبوا بأن « ليس لاولئك الطلاب الذين يؤيدون م·ت·ف واهدافها اي مكان فـي الجامعات التي تمولها الدولة اليهودية والشعب اليهودي ، وعلى الحكومـة ان تقدم واضعي « البيان للمحاكمة » موجهين انتقاداتهم التحريضية على انها « حكومة ضعيفة تزيد في قوة المتطرفين العـرب ولا ترى الواقع » (علهمشمارو،دافار ، ١٩٧٩/١/٢٥) ، ثم انضم اليهم وزيـر التربية والتعليم زفولون هامر (مفدال) معلنا بأن « ليس من حقوق طلابية لمـن يتآمر على كياننا » (المصدر نفسه) ·

ولكن زفولون هامر هذا الذي ساهـــم في اذكاء حملة التحريض على الطـــلاب

العرب دون استثناء ، ومن خلال موقعه الرسمي ، عاد و « قرر أن يعمل على « تهدئة » الخواطر في الجامعات فيما يتعلق بالبيان الذي اصدره عدة طلاب عرب بادانة دولة اسرائيل وبشرعية العمل الارهابي ضدها » (عل‌همشمار ١٩٧٩/١/٢٨) بعد حالة الغليان والاستنكارات التي عمت قرى ومدن فلسطين المحتلة منذ عام ١٩٤٨ واوساط الطلبة العرب في الجامعات الذين راحوا ينتظمون لصد اي عدوان عليهم من قبل الطلاب اليهود الذين سيطرت عليهم الهستيريا الفاشية ، حاصرا تحريضه هذه المرة بـ « افراد من الطلبة فقط المعروفين للسلطات وفقا للمعلومات التي لدى وزارة التربية والتعليم » (عل همشمار ، ١٩٧٩/١/٢٨) ، اذ في رأيه « يجب الحذر من الانجرار خلف الاتهامات ضد الاغلبية الساحقة من الطلاب العرب الذين يقومون بكل الواجبات المنتظرة من كل مواطن في الدولة » ولكنه مع ذلك يمهد الطريق لاجهزة القمع الاسرائيلية ويمنحها المبررات لاتخاذ اي اجراء قمعي « باعتمادها » السبل المتبعة حيال هؤلاء الافراد من الطلبة العرب « لانه » لا يحق لمن يتآمر على وجود الدولة ، التمتع بالحقوق المعطاة للطلاب ، ولكن يجب ابقاء ذلك للشرطة كي لا تتحول الجامعات الى ساحة قتال بين الطلاب اليهود والطلاب العرب ، كما مهد ذلك قبله رئيس الجامعة العبرية في القدس ابراهام هيرمان حين صرح بأن « لا شك لديه بأن موضوع « البيان » الذي يرى فيه تحريضا واضحا على التمرد ، يجب أن يحال لاهتمام الشرطة » (عل همشمارو ، معاريف ، ١٩٧٩/١/٢٤ · وعل‌همشمار ، ١٩٧٩/١/٢٨) ناهيك عن تمهيد الصحف السوداء والكنيست الاسرائيلي ذلك ·

وبالفعل ، وكأن الامر كان مدبرا سلفا بين سلطات الجامعة العبرية ووزير التربية واجهزة القمع الاسرائيلية ، اذ ما كادت تمضي عدة ساعات فقط على تصريح رئيس الجامعة العبرية في‌القدس ابراهام هيرمان ، ووزير التربية والتعليم زفولون هامر حتى « داهمت قوات من الشرطة في الساعة الثانية عشرة من‌ليل ١٩٧٩/١/٢٥ مساكن الطلبة على جبل المكبر ، وسلموا ستة من الطلاب العرب اوامر بالاقامة الجبرية وفقا لبند ١١٠ من انظمة الدفاع في حالة الطوارىء لعام ١٩٤٥ تأمرهم بالعودة فورا الى قراهم واثبات وجودهم في مراكز الشرطة مرتين في اليوم في الساعة العاشرة صباحا واخرى في الثالثة من بعد الظهر ، بتهمة التضامن مع م·ت·ف (عل‌همشمار ، ١٩٧٩/١/٢٨ و ، الاتحاد ، ١٩٧٩/١/٣٠ و ، هعولام هزيه ، ١٩٧٩/١/٣١) وقد صدرت هذه الاوامر عن « حاكم منطقة الشمال الجنرال افيغدور بن غال » (المصادر نفسها) · وهؤلاء الطلبة الستة هم : « وليد امين عمري من قرية صندلة ، وجمال محاجنه من ام الفحم ، وسعود اعتبارية من قرية مصمص ، وناصر سمارة من كفر ياسيف ، ومصطفى عسلي من قرية عرابة، ولطفي ابو الهيجا من قرية طمرة ··· كما واصدرت اوامر متشابهة لعشرات من الطلاب العرب في الجامعات الاخرى (المصادر نفسها)·

وفي اعقاب اوامر الاقامة الاجبارية هذه اصدرت لجنة الطلاب العرب في الجامعة العبرية في القدس بالاشتراك مع منظمة « كامبوس » الطلابية التابعة لحزب مابام ، بيانا وزع على الطلاب اليهود والعرب في جامعة القدس « نددوا فيه باستخدام انظمة الطوارىء الانتدابية ضد الطلاب العرب » على اعتبار ذلك كما اكدا « يشكل اعتداء على حرية التعبير في الجامعة واسرائيل عامة » (الاتحاد ، ١٩٧٩/١/٣٠) · واشار البيان الى

ان « الآراء السياسية التي تضمنها بيان تلك المجموعة القليلة من الطلاب العرب ليست جديدة » واكدا « تحفظهما على تلك الآراء » . كما ندد البيان بدور اتحاد الطلاب الاسرائيليين العام في القدس والذي « ساهم في حملة التحريض على الطلاب العرب عامة ويؤيد الاجراءات المنافية لحرية التعبير في الجامعة » (المصدر نفسه) واتهم البيان « ادارة الجامعة بتأييد استخدام انظمة الطوارىء وبتشجيع وتدخل الشرطة في مثل هذه الامور » محذرا ادارة الجامعة ومؤكدا على ان « عليها ان تدرك انه لا يمكن قيام مؤسسة جامعية بدون ضمان حرية التعبير » ، داعيا اياها للمطالبة « بالغاء اوامر الاقامة الاجبارية المفروضة على الطلاب العرب وضمان حرية التعبير السياسي في الجامعة » (المصدر نفسه) .

كما وتقدم النائب الشيوعي مايرفلنر بطلب مستعجل الى رئاسة الكنيست ، دعاها باسم كتلة « الجبهة الديموقراطية للسلام والمساواة » ، الى « بحث فرض اوامر الاقامة الاجبارية على الطلاب العرب الستة من اجل الغائها » وجاء في الطلب : « اننا ننظر بخطورة بالغة الى هذه الخطوة التي اتخذت بالنسبة لستة طلاب عرب بسبب تعبيرهم عن رأيهم السياسي ، رغم اننا نتحفظ على مضمون البيان الذي نشر . ان هذه الاوامر تعني ابعادهم عن مقاعد الدراسة، وهي خطوة غير ديموقراطية ومعادية للمواطنين العرب . بينما تنشر الصحف في الوقت نفسه وبتوسع تصريحات الراب كهانا ومئير هارتسيون والسيدة شمئور الذين يطالبون بطرد العرب من البلاد » (الاتحاد ، ١٩٧٩/١/٣٠) .

اما « الحركة الوطنية التقدمية » للطلاب العرب فقد اصدرت بالاشتراك مع لجنة العمل للدفاع عن حرية التعبير والفكر في الجامعة العبرية بيانا تضمن دعوة « لالغاء اوامر الاقامة الجبرية ضد الطلاب العرب » (عل‌همشمار ١٩٧٩/١/٢٨) ، كما ويوضح البيان ان « هذه الاوامر اعطيت في اعقاب حملة تحريض شعواء محشوة بالاكاذيب والتزييف ، عبر وسائل الاعلام واتحادات الطلبة الاسرائيليين ضد الطلبة العرب »، ولذلك فان « الحركة الوطنية التقدمية ولجنة العمل للدفاع عن حرية التعبير تريان في اوامر الاقامة-الاجبارية ظاهرة جديدة خلال السنوات الثماني الاخيرة وبداية لاعادة الحكم العسكري على المواطنين العرب في البلاد من جديد » (المصدر نفسه) . كما واصدرت « الحركة الوطنية التقدمية » بيانا اخر تشرح فيه « مضمون البيان الاصلي وكنهه » . وقد جاء في هذا البيان انه « صحيح ان «البيان» يعرب عن الرأي ضد الصهيونية كعقيدة وممارسة ، القائمتين على التمييز العنصري والاضطهاد القومي الذين يطبعان النظام القائم بطابعهما . الا انها وجهة نظر مشروعة ولا يمكن المعاقبة لمجرد التفكير » (المصدر نفسه) . اما في البند الاخير من البيان فقد جاء : « صحيح ان البيان، يعرب عن الرأي الصريح المؤيد لنضال الشعب الفلسطيني من اجل تقرير مصيره، الا انه يخلو من اية اشارة او تلميح يفهم منهما التأييد لنهج هذا النضال ، وهذا يدحض دحضا قاطعا ما افترته الصحف بشكل حقير ومغرض وكأن«البيان» يدعو للكفاح المسلح ضد دولة اسرائيل» (المصدر نفسه) .

اما جمال محاجنة من أم الفحم فقد قال معقبا على الامر بالاقامة الاجبارية في مقابلة صحفية اجرتها معه مجلة هعولام هزيه : « .... اننا لسنا محرضين ، وانما نعبر عن رأي سياسي ... اننا

حركة وطنية تقدمية ولسنا حركة قومية متطرفة ، والفرق في اللفظ في هذه الحالة مهم جدا ٠٠٠ حركتنا مؤلفة من جميع الطلاب والطالبات الذين يعتبرون أنفسهم عربا فلسطينيين ، ولكن بحكم الظروف هم مواطنون في دولة اسرائيل ٠ معظمنا اصحاب ميول ماركسية ونسعى الى تغيير الواقع الطبقي والسيادي للعرب في البلاد» (هعولام هزيه ١٩٧٩/١/٢١) ،واضاف جمال محاجنة « ٠٠٠ إننا نعتبر م٠ت٠ف الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني كما اقر العالم بأسره ، ونحن كحركة نناضل ضد الرجعية العربية وضد الاستعمار والصهيونية والفكرة الصهيونية ٠٠٠ انني موجود هنا في هذه البلاد بحق ، وليس منة من اي شخص ، انني موجود هنا منذ اجيال واجيال ٠٠٠ في يوم الخميس في الساعة ١٢ ليلا داهمنا رجال الامن واعلموني بأنهم يفرضون علي اقامة جبرية ، وان علي مغادرة غرفتي في مساكن الطلبة قبل الساعة السادسة صباحا ٠٠ انها اول الغيث ، فهم يسعون لتطبيق سياسة كاملة على العرب في هذه البلاد ، (هعولام هزيه ١٩٧٩/١/٣١) ٠

ان الحملة التحريضية التي يتعرض لها الطلاب العرب في فلسطين المحتلة ، لم تهدأ باعتقال الطلاب الستة ، وانما ازدادت حدة وسعارا ، وازداد الطلاب في مواجهتها صلابة ، ويعدون لخوض معركة اعلامية واسعة مع اجهزة الاعلام الصهيوني الفاشي ، وينتظمون للتصدي لمجموعات الطلاب اليهود الفاشية التي تعد نفسها للاعتداء عليهم ٠

توفيق فياض

النتائج الاستراتيجية للثورة الايرانية

لا شك في ان نجاح ثورة الشعب الايراني في اسقاط نظام الشاه في ١١ / ٢ / ١٩٧٩ ، وترسيخ السلطة الثورية الجديدة على اسس ديمقراطية وطنية قومية في وجه مؤامرات الرجعية المحلية والامبريالية الاميركية ، سيؤدي الى تحولات استراتيجية بالغة الاهمية في هذه المنطقة الحيوية من العالم ، خاصة بالنسبة لمنطقة الشرق الاوسط والخليج العربي وشعوب الامة العربية ، في نضالها الدائب والمستمر ضد العدو الصهيوني والامبريالية . فمنذ العام ١٩٦٨ ، اي في اعقاب الهزيمة العربية عام ٦٧ ، واثر اعلان بريطانيا عن نيتها في الانسحاب من منطقة الخليج العربي في العام ١٩٧١ ، بدأت ايران بزعامة الشاه ، وبدعم متزايد من الولايات المتحدة الاميركية ، في بناء قوة عسكرية متنامية تعمل في خدمة المصالح الامبريالية العالمية ، والاميركية منها خاصة ، والمتمثلة اساسا في تأمين المصالح النفطية للغرب الامبريالي في ايران ذاتها والدول العربية المطلة على الخليج العربي .

وعلى هذا الاساس تزايدت النفقات العسكرية الايرانية من ٣ر٣٦٦ مليون دولار عام ٦٧ الى ٧ر٤٦٥ مليون دولار عام ٦٨ ، ثم الى ٥ر٦١٩ مليون دولار عام ١٩٧٠ ، والى ٩١٥ مليون دولار عام ٧٢ . وجاءت القفزة الكبرى في العام ٧٣ اذ ارتفعت النفقات الى ٢٠٩٦ مليون دولار .

واستمر التصاعد في الميزانيات العسكرية الايرانية بصورة بالغة التزايد ، اذ بلغت النفقات المذكورة ٥٥٥٠ مليون دولار عام ٧٤ ، ثم ٨٨٠٠ مليون دولار عام ٧٥ ، ٩٥٠٠ مليون دولار عام ٧٦ ، و ٧٨٩٤ مليون دولار عام ٧٧ ، ثم وصلت الى ٩٩٤٢ مليون دولار عام ١٩٧٨ .

واتجهت معظم هذه النفقات الى صفقات اسلحة ضخمة ، عقدت في اغلبها مع الولايات المتحدة الاميركية ، بحيث اصبحت « ايران الشاه » هي الزبون الاول للاسلحة الاميركية ، التي شكل تصديرها وسيلة رئيسية لاستعادة الاموال المدفوعة في النفط ، واصلاح الخلل المتزايد في ميزان المدفوعات الاميركي ، فضلا عن تأمين الارباح لاحتكارات السلاح . وانتقلت ايران من دولة تتلقى المساعدات العسكرية والمالية من الولايات المتحدة في الخمسينات واوائل الستينات ، الى دولة مستوردة للاسلحة والمعدات الحديثة للغاية ، التي تفوق بعضها قدرات استيعاب قواتها المسلحة تقنيا ولا تتطلبها متطلبات امنها القومي ، مثل المقاتلات « ف ـ ١٤ » وطائرات الانذار المبكر «اي ـ ٣ او اكس» . ولم تقتصر صفقات الاسلحة الضخمة التي عقدها « الشاه » على الولايات المتحدة ، وانما امتدت ايضا الى بريطانيا التي اشترت منها ايران مئات من دبابات « تلاسيفتين » وتعاقدت معها على صفقة ، لم يتم تنفيذها بعد ، ضمت اكثر من ١٢٠٠

« شيرايـــران » ، وهي تطوير للدبابـــة تشيفتين من حيث التدريج ، كانـت ايران اول دولة ستستخدمه في العالم ، فضـلا عن اشرائها لاربع مدمرات « فوسبـــر » وقوارب حوامة « هوفركرافت » وصواريخ مختلفة · وامتدت ايضا الى ايطاليا التي اشترت ايران منهـــا طائرات هليكوبتر ، وتعاقدت معها على شراء ٦ قرفاطـــات حديثة من فئة « لوبو » · وكـذلك مـــع فرنسا التي اشترت منها طائرات هليكوبتر وزوارق صواريخ ، والمانيا الغربية التي تعاقدت معها على شراء ٦ غواصات من طراز ٢٠٩ ·

وهكذا انتقل تسليح الطيران الايراني مثلا من نحو ١٠٠ طائرة مقاتلة « فـ ١٥ » في اعوام ٦٥ـ٦٨ الى طائرات « فـ ٤ » « الفانتوم » التي بدأت تصل أيران عام ٦٩ ، في الوقت ذاته الذي بـــدأت تتسلمها اسرائيل ايضا ، وذلك الـــى جانب النوع المطور من « فـ١٥ » المسمى « ف ـ ٥ اي تايغر » ، ثم طائـــرات « ف ـ ١٤ » التي بدأ التعاقد عليها عـام ١٩٧٢ وكانت كلفة الطائرة مـع قطـــع غيارها وصيانتها نحو ٣٠ مليون دولار ، ثم طائرات « ف ـ ١٦ » التي تم التعاقد عليها عام ١٩٧٨ ولم يبدأ تسليمها بعد ·

وهـــذا ما دفع صحيفـــة « نيويورك تايمس » الى التعليق في ٧٤/٢/٢٥ قائلة « لقد اصبح الشـــاه يبتاع الطائـــرات الاميركية بصورة اسرع من انتاجها » !

وفي الوقت ذاته انشأ الشاه العديـــد من القواعد البرية والجويـة والبحريـــة الحديثة في مناطق قريبة من ، او مطلـة على الخليج العربي مثل « بندر عباس » و « شاهبـــا هار » قرب الحـــدود الباكستانية ·

وقد صرح الشاه عام ٧٤ بأن «الجيش الايراني سيصبح قويا الى درجة لا تجعله محل اهتمام المنطقـة وحدهـا ، ولكـــن العالم كله سيجد نفسه مضطرا لادخاله في حسابه ، ومن المحتمل ان يتحقق ذلك في عام ١٩٧٧ » ·

وفي النتيجة اصبحت القوة العسكريـة الايرانية تضم عام ٧٨ قوة برية مؤلفـــة من نحو ٢٨٥ الف جندي ، موزعين على ٣ فرق مدرعة و٣ فرق مشاة ، و٤ ألوية مستقلة اخرى (١ مدرع و ١ مشاة و ١ محمول جوا و ١ قوات خاصة) ، و ٤ كتائب صواريخ « هوك» مضادة للطائرات، ولدى هـــذه القوات نحو ٧٦٠ دبابـــة « تشيفتين » و ٤٠٠ دبابـة من انـــواع « م ـ٤٧» و « م ـ٤٨»، ونحو ٤٦٠ دبابـة « م ـ٦٠ » و ٢٥٠ دبابة استطلاع خفيفه بريطانية الصنع من طراز « سكوربيون » ونحو ٨٢٥ ناقلة جنود مدرعة من انواع اميركية وسوفيتية · وحوالي ٧١٠ مدافع ميدان وهاوتزر مقطورة من عيـــارات مختلفة (اميركية وسوفيتية) ، ونحـــو ٥٠٠ مدفع ذاتي الحركة من عيارات ١٥٥ مـــم و ١٧٥ مم و ٢٠٣ مم (اميركيـــة الصنع) فضلا عن ٧٢ راجمة صواريخ « ب م ـ ٢١ » عيار ١٢٢ مم (سوفيتية الصنع) ، وعدد من قاذفـات الدبابات « س يو ـ ٨٥ » (مدافع ذاتية الحركـة مضادة للدبابات سوفيتية الصنـــع) · وبالاضافة الى نحو ١٨٠٠ مدفع مضـاد للطائرات مقطور من عيارات مختلفـــة (بعضها سوفيتي من عيارات ٢٣ مـــم و ٥٧ مم و ٨٥ مم) ، وحوالـــي ١٠٠ مدفع م/ط ذاتي الحركة من نوعي « زدس يـــــو ـ ٢٣ـ٤» و «زدس ـ ٥٧ـ٢ » السوفيتية الصنع · فـضلا عن نحو ٦٢٠ طائرة هليكوبتر من مختلف الانـــواع منها نحو ٢٠٠ هليكوبتر هجومية مضادة للدبابات من طراز « كوبرا » ·

أما القوة الجوية الايرانية فتضم ١٠٠ الف رجل ونحو ٤٥٩ طائرة قتال ، منها

نحو ٢٢٥ « فانتوم » ، ونحو ٨٠ «ف ـ ١٤ » « توم كات » ، وحوالي ١١٠ طائرات نقل ، و ٢٥ طائرة امداد بالوقود في الجو · ولدى السلاح الجوي الايراني صواريخ جو ـ جو بعيدة المدى من طراز « فونيكس » لطائرات « ف ـ ١٤ » (يبلغ مداها نحو ٢٠٠ كلم) وصواريخ « سبارو » الخاصة بطائرات «الفانتوم»، وصواريخ ارض جو « شرايك » المضادة للرادار و « مافريك » و « كوندور » والاخير مداه ١١٠ كلم ·

أما القوة البحرية الايرانية الراهنة فتضم ٢٨ الف رجل ، و ٣ مدمرات بريطانية الصنع ، و ٤ فرقاطات بريطانية الصنع ايضا ، وكلها مسلحة بصواريخ « سطح ـ سطح » و « سطح ـ جو » ، و٤ كورفيت اميركية الصنع ، و ٥ زوارق صواريخ « لاكومباتانت » فرنسية مجهزة بصواريخ سطح ـ سطح من طراز « هاربون » الاميركية الصنع والبالغ مداها ١١٠ كلم ، و ٧ زوارق دورية كبيرة و ٥ كاسحات الغام ، وسفينتا انزال وزورقا انزال وزورقا وسفينتا دعم لوجيستيكي و ١٤ مركبة « هوفركرافت »· وكان من المفروض ان تتسلم ٤ مدمرات اميركية حديثة من طراز « سبراونس » و ٦ فرقاطات ايطالية من طراز « لوبو » و٣ غواصات اميركية من طراز « تانغ » و ٦ المانية من طراز ٢٠٩ ، و ٧ زوارق صواريخ اخرى مسلحة بصواريخ « هاربون » ، و ٤ سفن دعم لوجيستيكي (وهي سفن امداد وصيانة تسمح بعمل الاسطول لفترة طويلة بعيدا عن قواعده)·

وهذه القوة العسكرية الضخمة ، والتي كانت في طريقها الى مزيد من القوة اذا ما استكملت صفقات الطائرات « ف ـ ١٦ » والدبابات « شيرايران » والمدمرات « سبراونس » الخ ، انما نشأت اصلا لتمارس دور « الحارس » القوي ضد شعوب المنطقة الغنية بالموارد النفطية ، اي الدول العربية المنتجة للنفط في الخليج العربي ، لصالح الامبريالية· واستعراض سريع لتصرفات حكومة الشاه منذ العام ١٩٦٨ تؤكد هذه الحقيقة ، فمنذ ان اعلنت بريطانيا قرار الانسحاب من المنطقة في كانون الثاني (يناير) ٦٨ طالب الشاه بامارة البحرين ، ولكن لجنة تابعة للامم المتحدة اجرت استفتاء عاما ١٩٧٠ اسفر عن تصويت الاغلبية العربية هناك الى جانب الاستقلال التام · وفي حزيران (يونيو) ١٩٧٠ ، طالب الشاه بثلاث جزر عربية قرب مضيق « هرمز » هي « أبو موسى » و « طمب الكبرى » و « طمب الصغرى » ، ثم احتلها بالقوة في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧١ ·

وقبل ذلك حشد الشاه قواته على الحدود العراقية في ايلول (سبتمبر) ١٩٦٩ ، وجرت نتيجة لذلك عدة صدامات على الحدود مع القوات العراقية ، حتى اذار (مارس) ١٩٧٤ ، وطوال هذه الفترة كان الشاه يدعم الحركة الانفصالية للاكراد في شمال العراق ، كما شاركت قواته بفاعلية في القتال ضد ثوار « ظفار » لدعم السلطان «قابوس»، ومارس التهديد ضد اليمن الجنوبي الخ· أي ان القوة العسكرية الايرانية كانت في الحقيقة تحاول ان تلعب دور اسرائيل في الخليج العربي · ولذلك لم يكن الامر مصادفة ان يساهم الشاه بطريقة غير مباشرة في المفاوضات الهادفة الى اجراء صلح بين مصر واسرائيل · وبطبيعة الحال لم تكن القوة الايرانية موجهة اساسا ضد الاتحاد السوفييتي ، لان حجم هذه القوة وفاعليتها العملية لا تسمح لها بمثل هذا الدور · والاتحاد السوفييتي نفسه لم يكن يعتبرها كذلك ، بدليل انه امدها ببعض الاسلحة والمعدات الحربية (مدافع مختلفة الانواع وناقلات

جنود مدرعة وصواريخ « سام ـ ٧ » مضادة للطائرات) · ولا شك ان قيام نظام وطني ديمقراطي جديد في ايران على انقاض النظام الرجعي القديم المتحالف مع الامبريالية الاميركية واسرائيل ، سيؤدي الى اختلال ميزان القوى في هذه المنطقة الحيوية من الشرق الاوسط ، حيث يوجد الاحتياطي الرئيسي للنفط العالمي ، وحيث توجد طرق الملاحة البحرية لتجارة النفط المذكور عبرالمحيط الهندي والبحر الاحمر نحو اوروبا والولايات المتحدة واليابان وجنوب افريقيا واسرائيل ، وذلك بين قوى الامبريالية والرجعية المحلية والقوى الوطنية الهادفة الى السيطرة على ثرواتها الطبيعية ووضعها في خدمة مخططات التنمية الاقتصادية والاجتماعية على اسس وطنية ·

ومما يؤكد مؤشرات هذا التغيير ، موقف الثورة الايرانية من اسرائيل والثورة الفلسطينية ، الذي اكده بوضوح رئيس اركان القوات الايرانية الجديد ، الجنرال « محمد قرني » ، في حديث نشرته صحيفة « الوطن » الكويتية يوم ٧٩/٣/٤ قال فيه ان ايران توقفت عن لعب « الشرطي » في منطقة الخليج نيابة عن الولايات المتحدة ، وان بلاده تعتبر نفسها دولة مواجهة ضد الدولة العبرية الى جانب البلدان العربية الاخرى · وانها ستسحب قواتها من « عمان » خلال ٤ ايام · ان شعوب الامة العربية تستطيع الآن ان توجه جهودها بفاعلية اكبر في صراعها ضد عدوها الصهيوني والامبريالي بعد ان زال التهديد الايراني السابق لجناحها الشرقي الحساس ،حيث يكمن الجزء الرئيسي من ثروتها النفطية · خاصة بعد ان اعلنت الحكومة الثورية الايرانية ، يوم ٧٩/٣/١١ ، خروجها رسميا من حلف « السنتو » ، الامر الذي نتج عنه خروج كل من باكستان وتركيا من الحلف ايضا بعد ذلك ، ومن ثم اصبح الحلف غير قائم عمليا وقانونيا ·

واذا ما استمرت الثورة الايرانية قابضة على زمام السلطة بقوة ، وارست نظاما وطنيا ديمقراطيا قادرا على الاستمرار وتطوير ايران اقتصاديا واجتماعيا على اسس وطنية وتقدمية لصالح اوسع فئات الجماهير ، فلا شك ان القوة العسكرية التي ورثتها ، والتي تستطيع تطويرها فيما بعد من مصادر اخرى للسلاح ، ستكون احتياطيا قويا غير مباشر للقوى العربية المناضلة ضد الصهيونية والامبريالية ·

طائرات «ف ـ ١٤» الايرانية تقلق اميركا

مع ازدياد نمو حركة الثورة في الايران في كانون الثاني (يناير) ١٩٧٩ بدأت الولايات المتحدة تقلق على مصير طائراتها الثمانين من طراز « ف ـ ١٤ توم كات» ، التي باعتها لايران منذ العام ١٩٧٤ والاعوام التالية له · فأعلنت وزارة الدفاع الاميركية في ٧٩/١/١٦ ان هذه « الطائرات وصواريخها من طراز « فونيكس » في مأمن على الرغم من سفر الشاه والوضع الهش في البلاد » ·

وفي ٧٩/٢/٨ قالت مجلة « جافان » الايرانية ان مقاتلات من طراز «ف ـ ١٤» تابعة لسلاح الطيران الايراني نقلت اخيرا الى منطقة الظهران في السعودية · واضافت المجلة المذكورة « ان هذه الطائرات التي كانت في قاعدة خراسان القريبة من الحدود السوفيتية وضعت في مأمن لان فيها اجهزة متطورة سرية » · وتملك ايران نحو ٨٠ طائرة من هذا الطراز · واوضحت المجلة ان عملية النقل تمت قبل ١٠ ايام في وقت كان المجال الجوي الايراني تحت مراقبة

الجيش نتيجة اغلاق المطارات الايرانية ٠

وفي ٧٩/٢/٦ قالت صحيفة «الواشنطن بوست » ان الرئيس السادات عرض خلال اجتماعاته الاخيرة مع شاه ايران في اسوان السماح بنقل طائرات « ف ـ ١٤ » ٠ ولكن مصادر حكومية اميركية اوضحت تعليقا على هذا الخبر بأن ارسال الطائرات المذكورة الى مصر من اجل المحافظة عليها قد يثير قلق اسرائيل، لانها مجهزة بصواريخ «فونيكس» المتطورة وبأجهزة اخرى شديدة السرية ٠ وقد نسبت الصحيفة الى خبراء عسكريين قولهم ان انقلابا سيحصل في مجال الاستخبارات اذا استطاع الاتحاد السوفييتي الوصول الى هذه الطائرات ٠

وتجدر الاشارة الى ان للاتحاد السوفييتي ثأرا لم يحققه بعد تجاه الاستخبارات الاميركية ، منذ دبرت الاخيرة عملية فرار احد الطيارين السوفييت بطائرة مقاتلة من طراز « ميغ ـ ٢٥» الى احد مطارات شمال اليابان في ٧٦/٩/٦ وبقاءها هناك فترة كافية لفحصها بدقة لمعرفة كافة اسرارها التي ظلت مجهولة منذ العام ١٩٦٦ ، قبل السماح لحكومة اليابان باعادة الطائرة للاتحاد السوفييتي ٠

وفي ٧٩/٢/١٢ صرح الناطق باسم وزارة الخارجية الاميركية « هودينغ كارتر » ان الطائرات الاميركية المتطورة والصواريخ التي تستعمل فيها لا تزال في مأمن في ايدي العسكريين الايرانين ٠ واشارت اوساط اميركية الى ان الاتفاقات المعقودة مع ايران التي تمنعها من نقل التكنولوجيا العسكرية الاميركية الى بلد ثالث من دون اذن مسبق من واشنطن لا تزال قائمة على رغم تغيير الحكومة الايرانية ٠ واوضحت مصادر البنتاغون انه يمكن اقناع الحكومة الجديدة في ايران بهذه الاتفاقات لانها ستحتاج الى قطع غيار لا تتوافر الا في الولايات المتحدة ٠

والمعروف ان ايران هي الدولة الوحيدة ، خارج الولايات المتحدة ، التي تسلمت طائرات « ف ـ ١٤» وصواريخها بعيدة المدى « فونيكس »٠ وفي ٧٩/٢/١٤ قالت صحيفة النيويورك تايمس « ان مسؤولا سعوديا اقترح في الاسبوع الماضي نقل الـ ٨٠ طائرة « ف ـ ١٤ » الى السعودية ، خشية ان تقع هذه الطائرات المتطورة في ايدي السوفييت ٠ وقالت الصحيفة المذكورة ايضا ان السعودية اقترحت على الولايات المتحدة شراء الطائرات المقاتلة المذكورة ، لكن « البنتاغون » رفض هذا الاقتراح ٠

وفي ٧٩/٢/١٥ اكدت وزارة الدفاع الاميركية ان السلاح الجوي الايراني يحتفظ بـ ٧٨ طائرة متطورة من طراز « ف ـ ١٤ » في مكان امين الى جانب ٥٠٠ صاروخ من طراز « فونيكس » ، وذلك على الرغم من الاضطرابات الحالية في ايران ٠ واوضحت ان اجهزة القيادة فككت من هذه الطائرات وخبئت ٠ ونفت الوزارة المذكورة ان تكون فكرة ارسال هذه الطائرات الى السعودية طرحت جديا ٠

والمعروف ان هناك عددا كبيرا من الخبراء الاميركيين الموجودين في ايران كانوا يشرفون على طائرات « ف ـ ١٤ » ، من حيث الصيانة والتشغيل والتدريب ، نظرا لصعوبة استيعاب السلاح الجوي الايراني لهذه الطائرات ٠ وهو ما اكده تقرير المسح الاستراتيجي الصادر عن معهد الدراسات الاستراتيجية البريطاني عام ١٩٧٦ حيث قال « ان العديد من الدول الاقل نموا تفضل الحصول على اسلحة يبدو انها لا تتلاءم مع حاجاتها على

الاطلاق ، على الاقل في المستقبل القريب · فلقد زودت ايران ، مثلا ، بقوة على ادخال اكثر المعدات تطورا مثل طائرات «ف-١٤» ومدمرات « سبراونس » وانظمة انذار وقيادة وتحكم محمولة جوا (طائرات اي - ٣ او اكس)، ضمن مؤسستها الدفاعية التقليدية وغير الماهرة نسبيا · وقد وجد تقرير شهير صدر عن هيئة تابعة للجنة الشؤون الخارجية في الكونغرس الاميركي في شهر تموز (يوليو) ١٩٧٦ ، انه لا سبيل الى تشغيل نسبة كبيرة من تلك الاسلحة بدون دعم خارجي ضخم · وفي غياب قدرة تكنولوجية ولوجيستيكية وادارية لتشغيل كميات من الاسلحة التي تم الحصول عليها حديثا ، فان عملية تصدير الاسلحة الى ايران تطلبت انتقال اعداد واسعة · من الطواقم الماهرة للقيام بأعمال التدريب والصيانة والتشييد · ويقول التقرير انه مع حلول ١٩٨٠ سيكون مطلوبا وجود ٥٠-٦٠ الف خبير اميركي في ايران للمساعدة في استيعاب شحنات الاسلحة الراهنة والمتوقعة · وحتى اذا ما توفر مثل هذا الدعم فان العديد من البنود الاساسية من المعدات التي تم شراؤها في السنوات الاخيرة لن تكون قيد الاستعمال لبعض الوقت ··· ان معضلة استيعاب التكنولوجيا المتطورة تواجه كلا من ايران والولايات المتحدة بسلسلة من المسائل الحساسة · فطالما ظلت ايران تعتمد اعتمادا كبيرا على الدعم التكنولوجي واللوجستي الاميركي ، فسيكون صعبا القول انها حققت قدرا اعظم من الاستقلالية من خلال وارداتها من السلاح · وحتى العام ١٩٨٥ فانها ربما سوف تظل بحاجة للحصول على قطع غيار وتسهيلات اصلاح وترميم وانظمة استبدال اميركية » ·

وتؤكد لنا هذه الفقرات ، المطولة نسبيا ، من التقرير البريطاني المذكور المغزى العملي لصفقات الاسلحة المتطورة العالية التكلفة التي تعقدها الدول المتخلفة مع الولايات المتحدة وتدفع قيمتها مليارات الدولارات من مدخولاتها النفطية الكبيرة التي تعود مرة اخرى الى الخزائن الاميركية محققة الارباح الخيالية لاحتكارات السلاح الصناعية ، ومدخلة بعض التوازن على ميزان المدفوعات الاميركي ، وصارفة في الوقت ذاته الدول المتخلفة المذكورة عن القيام بتنفيذ مشروعات تنمية اقتصادية واجتماعية حقيقية لشعوبها الفقيرة والتي تنهب ثرواتها لصالح القوى الرجعية المحلية والقوى الامبريالية الخارجية ، ومن ثم لن يؤدي دخل نفطها المرتفع الى احداث تراكم رأسمالي وطني خاص بها · بقي ان نعرف ان الطائرة «ف-١٤» « توم كات» هي مقاتلة مطاردة ومعترضة اميركية حديثة دخلت الخدمة في السلاح الجوي الاميركي ، العامل مع البحرية ، في ١٩٧٢/١٠/١٢ · وهي معدة اصلا لتحل محل « الفانتوم » في حاملات الطائرات الاميركية من حيث اداء مهام الاعتراض الجوي بعيد المدى ، والقتال الجوي المتلاحم مع الطائرات المعادية المهاجمة للاسطول في عرض البحر ·وهي مزود بمحركين نفاثين قوة دفع كل منهما ٩٨٤٠ كلغ ، وذات مقعدين احدهما للطيار والآخر للملاح · وتبلغ سرعتها القصوى على ارتفاعات عالية ٢٥١٧ كلم /ساعة و ١٤٧٠ كلم على ارتفاع سطح البحر · واقصى ارتفاع عملي لها ١٧٠٧٠ مترا ، ويصل مداها القتالي في اثناء قيامها بدور المقاتلة المطاردة ومع وقود اضافي خارج وتسليح محدود جو - جو الى نحو ٣٢٠٠ كلم ·

وهي مسلحة برشاش عيار ٢٠ مم ، ذي ٦ سبطانات دوارة ، معدل سرعة رميه ٦٠٠٠ طلقة في الدقيقة ، ومزود

بنحو ٦٧٥ طلقة · فضلا عن امكان حملها ٦ صواريخ جو ـ جو من طراز « فونيكس » التي يقال ان مدى عملها يصل الى ٢٠٠ كلم · وقد اجريت مناورة عملية تم فيها اطلاق ٤ صواريخ «فونيكس» على اهداف طائرة تبعد نحو ٢٠٣ كلم ، واصيبت الاربعة اهداف في وقت واحد · وهذا يعني ان الطائرة مزودة بأجهزة الكترونية متطورة للغاية ، كما انها تستطيع ان تحمل بدلا من صواريخ « فونيكس » ٤ صواريخ جو ـ جو من طراز « سبارو » التي يبلغ مداها ٢٥ كلم و ٤ ـ ٨ صواريخ « سايدوندر » القصيرة المدى وذلك في المهام العادية · وفي حالة حملها للقنابل ومختلف اسلحة الجو ـ ارض فانها يمكنها ان تحمل ما مجموعه نحو ٦٥٧٧ كلغ ·

نتائج زيارة « براون » للمنطقة العربية

على اثر تصاعد احداث الثورة في ايران ارسلت الولايات المتحدة وزير دفاعها « هارولد براون » الى منطقة الشرق الاوسط ليبحث مع دول المنطقة في الوسائل والاجراءات الكفيلة بتعزيز امنها في مواجهة التحولات الاستراتيجية التي ستطرأ على المنطقة نتيجة للثورة في ايران ، ويؤكد دعم الولايات المتحدة لهذه الدول عسكريا وسياسيا · وقد وصل « براون » الى السعودية في ٧٩/٢/١٠ · وغادرها الى الاردن بعد يومين ، وصرح في ختام زيارته بانه « اخذ علما بقلق السعودية حيال التطورات في ايران والمطامح السوفيتية والنشاط المحتمل للراديكاليين في المنطقة » كما قال « اني احمل معي افكارا اميركية لاستراتيجية عريضة لمواجهة هذه الاخطار » دون ان يفصح بوضوح عن ماهية هذه الافكار ؟ وكان من نتائج هذه الزيارة ان وافقت السعودية على دفع ثمن صفقة اسلحة اميركية للسودان تضم ١٢ طائرة « ف ـ ٥ » وطائرتي نقل « سي ـ ١٣٠ » و ٥٠ دبابة « اهـ ٦٠ » و ١٠٠ عربة نقل جنود مدرعة · وصفقة اسلحة اخرى الى اليمن الشمالية تضم ١٢ طائرة اخرى من طراز « ف ـ ٥ » ، وقد بلغت القيمة الاجمالية لهذه الصفقات نحو ٣٦٠ مليون دولار ·

ثم زار الوزير الاميركي عمان ، لمدة يوم واحد ، في ٧٩/٢/١٢ ، ولم تعلن نتائج واضحة لزيارته هذه ، التي انتقل بعدها الى اسرائيل يوم ٧٩/٢/١٣ حيث صرح قائلا « ان الالتزام الاميركي بأمن اسرائيل الذي يستند الى اسس خلقية وسياسية اضافة الى مصالح امنية هو التزام قائم منذ امد بعيد واؤكد مرة اخرى التزام الولايات المتحدة بأمن اسرائيل اليوم » · وبحث « براون » مع المسؤولين الاسرائيليين في عدة مسائل تضمنت كميات الاسلحة التي ستحصل عليها اسرائيل في الثمانينات ، وعلى تمويل الولايات المتحدة للمطارين اللذين سيشيدان في النقب في حال الانسحاب من سيناء ، وكذلك في احتمال تحويل ميناء « حيفا » الى قاعدة اميركية · واسفرت الزيارة، التي انتهت يوم ٢/١٥ ،عن موافقة الولايات المتحدة على قسم من طلبات الاسلحة الاسرائيلية قبل انضم في الاساس ٦٠ طائرة مقاتلة من طراز « ف ـ ١٦ » ، وذلك من اصل ١٦٠ طائرة من النوع المذكور كان من المفروض بيعها لايران ، وهذه الصفقة هي اضافة جديدة لصفقة الـ ٧٥ طائرة « ف ـ ١٦ » والـ ١٥ طائرة « ف ـ ١٥ »، التي عقدتها الولايات المتحدة في العام الماضي ضمن صفقات اخرى اقل اهمية عقدت مع مصر والسعودية · (سبق لنا عرض تفاصيل المواصفات الفنية والقدرات القتالية للطائرة « ف ـ ١٦» في عدد ٧٧ من شؤون فلسطينية) · وقد اعلن « براون »

في ختام زيارته « ان الولايات المتحدة ستبقى عينها على امن اسرائيل العسكري عندما تبيع اسلحة الى جيرانها العرب »٠

ثم انتقل الوزير الاميركي بعد ذلك الى مصر ويبدأت محادثاته فيها يوم ٢/١٧ حيث لم يغب عن عينيه امن اسرائيل وهو يبحث طلبات الاسلحة التي قدمتها اليه مصر ، واسفرت زيارته لها عن نتيجة عملية واحدة معلنة في ٧٩/٢/١٨ وهي ان صفقة الطائرات « ف-٥ اي تايغر » البالغ عددها ٥٠ طائرة ، والتي تضمنت صفقة الطائرات الثلاثية الشهيرة الى كل من اسرائيل والسعودية ومصر ، قد سويت الخلافات المالية بشأنها مع السعودية ، وان الاخيرة ستدفع ٥٢٥ مليون دولار بدلا ٣٥٠ مليون دولار كانت تمثل القيمة الاصلية للصفقة وذلك بدلا من ٧٣٠ مليون دولار كانت الولايات قد طالبت بها مقابل اشياء اضافية كانت طلبتها مصر ضمن الصفقة المذكورة ٠ وان مصر ستبدأ في تسلم الدفعة الاولى في تشرين الثاني من هذا العام (بخصوص قدرات الطائرة « ف-١٥اي » راجع شهريات العدد ٧٧ ، وبخصوص اسباب تأخير تسليم هذه الصفقة لمصر راجع شهريات العدد ٨٥) ٠ وفي ٧٩/٢/٢٠ صرح مسؤولون اميركيون ان مصر قدمت الى الولايات المتحدة لائحة اسلحة كبيرة تشمل ٣٠٠ طائرة مقاتلة من طراز « ف-١٦»، و ٦٠٠ دبابة ، و٥٠٠ مدفع ، واكثر من ٤٠ الف عربة عسكرية تضم عربات مدرعة وشاحنات الخ ٠ولكن يبدو ان « الكونغرس » لديه اتجاه لرفض مثل هذا الحجم والنوعية من التسليح الاميركي لمصر ، اذ قال السيناتور « فرانك تشيرتش » ، رئيس لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ الاميركي ، في تعليق له حول الانباء المذكورة آنفا يوم ٧٩/٣/٣ « ان هذا النوع من الاقتراحات قد يلقى السقوط ، ولا اظن ان امامه أية فرصة لنيل موافقة « الكونغرس » ، الذي يستطيع بموجب القوانين الاميركية استخدام الفيتو ضد صفقات بيع رئيسية للاسلحة » ٠ وصرح « موريس درابر » ، نائب مساعد وزير الخارجية الاميركية لشؤون الشرق الادنى على الانباء ذاتها ، في اليوم نفسه بقوله « انه لا توجد خطط لبيع اسلحة الى مصر قبل عقد معاهدة صلح بين مصر واسرائيل » ٠ وهو الامر الذي كان « براون » قد صرح به يوم ٧٩/٢/١٥ ، اثناء زيارته لاسرائيل ، وفقا لما ذكره المعلق العسكري للتلفزيون الاسرائيلي ، حيث نسب اليه انه يعتزم ابلاغ الرئيس المصري انه « من الصعب على الولايات المتحدة ان تلبي مطالب مصر المتعلقة باعادة تسليحها قبل توقيع اتفاقيات السلام مع اسرائيل » ٠

الدبابة « مركافاه » دخلت الخدمة العملية

ذكرت وكالات الانباء في ٧٩/٢/٢١ ان الدبابة الاسرائيلية التصميم والتصنيع المسماة « مركافاه » (اي المركبة) قد وضعت في الخدمة العملية في الوحدات المدرعة الاسرائيلية ٠

وهذه الدبابة هي اول دبابة تصمم وتصنع في اسرائيل ، عدا المحرك فهو اميركي ، ويعمل بالديزل ، من طراز « كونتيننتال » بقوة ٩٠٠ حصان ، ومن ثم فهي ليست مجرد تحسين او اضافة اسرائيلية محلية ، كتلك التي كانت تجريها اسرائيل من قبل على الدبابات البريطانية والاميركية من مختلف الانواع بما يتلاءم ومتطلباتها التكتيكية المختلفة ٠

وقد صممت « المركافا » وفقا للنظرية الاسرائيلية في تكتيك قتال الدبابات ، التي تبناها وطورها اساسا الجنرال « تال » ، القائد السابق لسلاح المدرعات

الاسرائيلية والمشرف الفعلي على برنامج تصميم وانتاج الدبابة المذكورة ، والتي ترى ان الفاعلية الحقيقية للدبابة تتمثل في قدرتها على الحركة في ظل نيران العدو · بمعنى ان تكون دروعها قوية الى الحد الذي يكفل لها حماية كافية ضد الاسلحة المضادة للدبابات من مسافات كبيرة نسبيا ، وبحيث تكون نيران الدبابة قوية وبعيدة المدى بحيث تسكت الاسلحة المذكورة حال كشفها عن نفسها من مسافة كبيرة في الارض المكشوفة · ولذلك روعي في تصميم « المركافاه » قوة التدريع وقوة التسليح على حساب ضعف نسبي في القدرة الحركية الميكانيكية ، كما روعي فيها قدرتها على التنسيق مع المشاة ضمن مبدأ « المشاة المدرعة » المرافقة للدبابات ، وذلك باحتوائها على مقصورة خلفية تتسع لعدد يتراوح بين ٦ و ٨ جنود مشاة يستطيعون ركوب الدبابة او النزول منها من الخلف بسهولة وسرعة (وكذلك يفعل طاقم الدبابة لتيسير اخلاء الدبابة حال اصابتها) ، ويمكن لهذه المقصورة أن تستخدم في اخلاء المصابين من رجال الدبابات الاخرى وسط ساحة المعركة (وهو درس تعلمه الاسرائيليون جيدا في حرب ١٩٧٣) · وبسبب وجود هذه المقصورة ، ولزيادة تأمين الطاقم ضد القذائف الامامية ، وضع محرك الدبابة في مقدمة هيكلها وليس في مؤخرتها كما هي العادة ·

ويقدر وزن الدبابة بنحو ٥٨ـ٦٢ طنا ، وقوة محركها ٩٠٠ حصان ، ونسبة القوة للوزن ٥ر١٤ـ٥ر١٥ حصان لكل طن (وهي نسبة متدنية للغاية با قياس لكل الدبابات الحديثة) وهي مسلحة بمدفع عيار ١٠٥ مم ورشاش عيار ٧ر٦٢ في الهيكل وآخر فوق البرج و١٢ قاذفا دخانيا ، ولها مقدر مدى يعمل بأشعة « ليزر » وحاسب الكتروني ، ولها معدات قيادة ورؤية ليلية تعمل بالاشعة تحت الحمراء ، ويوجد منها حاليا لواء مدرع على الاقل اي حوالي ١٠٠ دبابة ، وقد اختبرت بعض منها عمليا في جنوب لبنان في اذار (مارس) ١٩٧٨ ·

محمود عزمي

مراجعات

آية الله الخميني
الحكومة الاسلامية
دار الطليعة ، بيروت آذار ١٩٧٩

عدا البيانات التي اصدرها آية الله الخميني ، او التصريحات التي أدلى بها، او المقابلات الصحافية التي أجريت معه ، وكلها نصوص قد صاحبت مسار الثورة الايرانية ، او تلتها ، وقد تابعها المهتمون يوما بيوم · فان النص الخميني الاساسي، الذي يحدد فيه الامام مواقفه الاستراتيجية ، هو سابق بكثير للثورة ، ولكننا لم نعد اكتشافه الا على ضوء الحدث ·

لذلك ، فان النص الخميني مدين للثورة الايرانية ، بتحوله من و « ثيقة سلفية » كتلك التي يقدم مثلها رجال الدين المنتشرون في ارجاء العالم الاسلامي في محاضراتهم او في خطب الجمعة او في غير ذلك من المناسبات ، الى « وثيقة ايديولوجية » راهنة · والى نص ينتسب الى الحدث وينتسب اليه الحدث ·

واعادة اكتشاف النص الخميني ، عملية مزدوجة ، انها تمس هذا النص في ذاته · هذا النص الذي قدمه لنا الامام في غير زمن الثورة ، ولكن الحدث شغلنا عنه ، حتى جاء الحدث ليعيد تقديمه لنا ، وهي كذلك تمس منابع هذا النص اي الفكر الاسلامي الذي ينطلق هذا النص من رحمه ، والذي كنا منذ زمن طويل قد ركناه في متحف تاريخنا · هذا التاريخ الذي كثيرا ما كانت العودة اليه تشبه القيام بجولة في احد المتاحف ·

والآن ، جعلت الثورة الايرانية ، من اعادة اكتشاف النص الخميني ، الى جانب منطلقاته الفكرية ، أمرا ضروريا · فالثورة الايرانية ، ربما كانت أول ثورة في «العالم الثالث» لا تطرح قضية التحرر من الغرب، فقط على المستويات الاقتصادية والسياسية والعسكرية ، ولكن أيضا على المستوى الثقافي والحضاري ، انها ثورة لا تريد فقط ان تقيم نظاما اقتصاديا وسياسيا و ·· الخ · مضادا للغرب ولكنها ايضا تجهد في ان تقدم انموذجا حضاريا ، غير ذلك الذي يحاول الغرب ان يعممه على الكرة الارضية ·

وان اردنا التخصيص أكثر ، فانه يمكننا القول ، أن الثورة الايرانية · قد قدمت جديدا على المستوى الايديولوجي بالقياس الى الثورات التي شهدها « العالم الثالث » خلال الحقبة الامبريالية ·

انها المرة الاولى التي لا تلجأ فيها ثورة في « العالم الثالث » الى تبني ايديولوجية طرف مضطهد (بفتح الهاء) في الغرب · انها المرة الاولى التي لا تتبنى فيها شعوب من « العالم الثالث تعاني من السيطرة الغربية ، الليبيرالية التي كانت تطالب بها البورجوازية الغربية في زمن تعرضها للاضطهاد (كما حدث عندنا ، في بعض اقطارنا العربية ، في فترة التحرر من الاستعمار المباشر) · او الفاشية التي قامت على البورجوازية الصغيرة في بعض بلدان الغرب في زمن من القهر القومي (وفي هذه الحالة أيضا ، فاننا لا نعدم

الامثلة في تاريخنا العربي القريب والراهن) او ايديولوجيا الطبقة العاملة · والامثلة على ذلك عديدة في « العالم الثالث » ·

الثورة الايرانية قطعت مع ذلك · ولم تسع الى جعل الشعب الايراني يتبنى ايديولوجيا طرف مقموع في الغرب ، بل احدثت المصالحة التاريخية ، بين الشعب المقهور وثقافته المقهورة · بين الشعب المنتهك و « ايديولوجيته » المنتهكة ·

وهي كذلك ،بصدد احداث المصالحة بيننا وبين النص الخميني القديم (في ذاته وفي منطلقاته الفكرية) · وها ان دور النشر بصدد اعادة نشر النصوص الخمينية ، اذ اصبح بين يدي القراء حتى الآن كتابان للامام الخميني ، اولهما « دروس في الجهاد والرفض » والثاني « الحكومة الاسلامية » ، الذي صدر عن «دار الطليعة» في بيروت · وهو عبارة عن محاضرات القاها آية الله الخميني منذ عشر سنوات، وطبعت في حينها في النجف الاشرف تحت عنوان « ولاية الفقيه » ··

هذا الكتاب الاخير ، وهو الذي سنتناوله هنا ، موزع على ثلاثة ابواب ، بعد المقدمة:

١ ــ ادلة ضرورة تشكيل الحكومة (الاسلامية) : من ص ٢٣ الى ص ٤٠ ·

٢ ــ نظام الحكم الاسلامي : من ص ٤١ الى ص ١٠١ ·

٣ ــ سبيل النضال من اجل تشكيل حكومة اسلامية : من ص ١١٩ الى ص ١٥٠ ·

بعد ان يدلل الامام الخميني في المقدمة على ان قوانين الاسلام لا تتعلق فقط « بالحيض والنفاس » كما يقول الاستنزاق الغربي والمحلي ، بل انها تمس جميع اوجه الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لـ مسلمين · يشير الى ضرورة « تشكيل الحكومة الاسلامية » التي تسهر على تنفيذ قوانين الاسلام هذه · على ان تكون هذه السلطة بيد « الفقهاء » ورثة النبي ، الذي كان اولا وقبل كل شيء رجل الدولة ، والامام في زمن الغيبة الكبرى · ذلك ان السلطة اذا كانت بعد غياب النبي (ص) من نصيب الائمة من نسل علي ابن ابي طالب (ع) · فانها على اثر اختفاء الامام الثاني عشر ، وحتى ظهور المهدي المنتظر ، يجب ان تكون بيد الفقهاء من كبار المجتهدين · كما جاء في الحديث التالي :

« قال امير المؤمنين علي (ع) : قال رسول الله (ص) : اللهم ارحم خلفائي ــ ثلاث مرات ــ ، قيل : يا رسول الله ، ومن خلفاؤك ؟ قال : الذين يأتون من بعدي يروون حديثي وسنتي ، فيعلمونها الناس من بعدي » (اورده الامام الخميني في الصفحة ٥٦ من الكتاب) ·

وفي الفصل الاخير ، يدعو الامام رجال الدين الشبان الى محاربة الحكومات العميلة القائمة على القوانين الوضعية التي جاء بها الاجنبي ، والتي تخدم المصالح الاقتصادية لهذا الاجنبي · داعيا الى طرد رجال الدين الذين يحاولون ان يقدموا التغطية الدينية لهذه الحكومات الكافرة · وقد حدد الامام الخميني طريقة القضاء « على الحكومات الجائرة » كالآتي (ص ١٤٥) :

١ ــ مقاطعة المؤسسات التابعة للحكومة الجائرة ·

٢ ــ ترك التعاون معها ·

٣ ــ الابتعاد عن كل عمل يعود نفعه عليهم ·

٤ ــ تأسيس مؤسسات قضائية ومالية واقتصادية وثقافية وسياسية جديدة ·

يصعب المضي في تلخيص ما جاء في الكتاب أكثر من ذلك · فالكتاب ليس استعادة لما جاء في الفقه الاسلامي حول الدولة وطريقة سياستها ومن يقوم بالسلطة فيها · فالنص الخميني على هذا الصعيد لا يأتي بجديد · انه نص ، لا يأتي ليستشرف آفاقا نظرية جديدة ، وهو لا يطرح على نفسه هذه المهمة · بل يأتي مذكرا بما قاله الاسلام (الاسلام الشيعي في هذه الحالة) في كل هذه المواضيع ·

واذا ما رأينا جديدا في هذا النص ، فان هذا الجديد لا يتعلق بما جاء فيه ، بقدر ما يتعلق بعملية التذكير هذه · فجديد هذا النص ،ربما كان في اضطراره· في زمن الضعف الاسلامي ·· الى اعادة البرهنة في قضايا كان الاسلام قد حسمها منذ قرونه الاولى ·

اما فيما عدا ذلك ، فان النص الخميني، مكتمل التقليدية ، انه نص فقهي ، القاه فقيه يعود الى نفس أساليب البرهنة ، والى نفس البراهين التي استعملها الفقيه الاسلامي في تناوله لمثل هذه القضايا ، وهو اى ذلك ، يستعيد مواقف السلف الصالح · انه نص ينطلق من رحم النصوص الماضية ويستعيد ما جاء فيها ·

فحتى عندما اقترح الامام طريقة محاربة الحكومات الجائرة · لم يدع الى تجاوزها بشكل « حديث » ، بل دعا ــ على الاقل في فترة أولى · وبواسطة الدعوة الى «مقاطعة المؤسسات التابعة للحكومة الجائرة »، والى « تأسيس مؤسسات قضائية ومالية وثقافية وسياسية جديدة » الى اقامة الحكومة الاسلامية ، التي يقع نموذجها في الماضي، بشكل مواز « للحكومة الجائرة » الحديثة·

اذن ، يتوقف النص الخميني عند ضرورة بعث الماضي ، وذلك ما يبدو سواء على صعيد ما يدعو له النص ، او على صعيد منطقة الداخلي وحتى لغته ومنهجيته ·

ومن هنا فان مفارقة الثورة الايرانية · أنها ثورة جديدة كلية ، لا تستلهم اي انموذج لا في الماضي البعيد (لان الثوارات التي قامت آنذاك م تستهدف امبريالية كتلك التي تسيطر الآن) ولا في الماضي القريب ، « عالما ثالثا » وعربيا · ولكنها في الآن نفسه ثورة قامت ــ ايديولوجيا وثقافيا واجتماعيا ــ على كامل القوى التقليدية في المجتمع الايراني ، قوى تنتمي الى ما يسمى « بالقطاع الرأسمالي » في المجتمعات « المتخلفة » ·

جديد الثورة الايرانية (وجديد ا نص الخميني بالتالي) هي انها كذبت المقولة التي ما انفكت تؤكد أن القوى التقليدية في المجتمعات « المتخلفة » آيلة الى زوال ·

اذن الثورة الايرانية تقليدية من حيث القوى التي صنعتها ، وتقليدية من حيث الفكر الذي قادها ، ولكنها جديدة من حيث ما تثيره من اشكالات نظرية حادة ، ومن اوضاع مستجدة على صعيد السياسة الدولية ·

واذا ما اخذنا النص الخميني على انه انموذج للنص الاسلامي الثوري في زمننا هذا ، واذا ما اخذنا القوى التقليدية التي فجرت الثورة في ايران على انها انموذج للقوى الاسلامية الثورية في زمننا هذا أيضا ، فانه يمكننا ان نلاحظ ان هذا النص وان هذه القوى انما تتجدد في الفعل الثوري ، دون ان تحاول الاحاطة بظلال فعلها الثوري هذا ·

ان النص الخميني بعد ان تحققة الثورة، او اثناء سعيه لتحقيق الثورة ، لا يحاول ان يستوعب ضمن منظومته او ان يكيف هذه المنظومة ، مع المستجدات والتساؤلات النظرية ، الجديدة كلية ، والتي يؤدي اليها انتصار هذه الثورة التقليدية ــ الجديدة ·

هناك اذن تفاوت بين النص الخميني ، وانعكاساته ومستجداته النظرية في عالم اليوم هذا · وهي انعكاسات ومستجدات ربما تعذرت رؤيتها من داخل استقليدية الصرفة للمقولات الخمينية · فهل ان النص الخميني يحتاج الى نص وسيط يقف بينه وبين انعكاساته ، يستوعبه ويستوعب انعكاساته ؟ والى اي مدى يمكن للنص الخميني ان يكتفي بذاته · ان يكتفي باستعادة الماضي دون الالتفات الى ما يجد عن عملية استعادة الماضي هذه ؟

هي اسئلة نسوقها لا على سبيل النقد ، ولا على سبيل الاشادة بالنص الخميني ـ فذلك امر لا يتم بهذه البساطة تجاه نص ساهم في تفجير ثورة بهذا الحجم · ولكنها مسألة نرى ان لا بد من الانكباب عليها ·

واخيرا فان دراسة الثورة الايرانية نصوصا وممارسة أمر بات يعنينا اكثر فاكثر ، خصوصا بعد ما توارد من انباء عن انتعاش الحركة الاسلامية ، سواء في العالم الاسلامي (تركيا) او في البلدان العربية (تونس) ·

صالح بشير

البروفيسور توماس سنتش :
الاقتصاد السياسي للتخلف
ثلاثة اجزاء ، ترجمة فالح عبد الجبار
بيروت ، دار الفارابي ، ١٩٧٨

من الطبيعي ان تطالعك دراسة يتحدث صاحبها عن قضية التخلف من منظور ماركسي · ولكن ، حين يكون ذلك الباحث ـ الماركسي ـ ينطلق من رؤية لا للافق المسدود الذي وصلت اليه الدراسات الغربية غير الماركسية لتلك القضية وحسب ، بل ومن وعي للمأزق الذي وصلت اليه النظرية الماركسية في تعاملها مع القضية المذكورة ، فهذا يعني اننا امام وضع متميز وذو اهمية خاصة واكثر من جدير بالاهتمام · والبروفيسور توماس سنتش في كتابه « الاقتصاد السياسي للتخلف » يمثل عينة ناصعة لمثل تلك الدراسات ·

منذ الصفحات الاولى يقدم المؤلف دراسته بوصفها محاولة واعية لتجاوز الحالة التي وصلت اليها « الدراسات العلمية حول مشكلات التخلف » ·والشيء الهام في هذا المجال هو التحديد الذي يطرحه سنتش للازمة الراهنة لتلك الدراسات : لقد « فقد التحليل العلمي صلته بالتطورات » ولا يقتصر ذلك على « الاقتصاد الغربي غير الماركسي » الذي لم يسر في الطريق الصحيح اساسا في نظرته الى مسألة التخلف ، وانما يمتد ليشمل التحليل الماركسي الذي « فقد حساسيته وقدرته على الاستجابة السريعة من جراء المرض الدوغمائي » · وعلى هذا الاساس فان سنتش حين يعلن عن هويته الماركسية ، فهو يلح في نفس الوقت على تمييز نفسه عن « الاتجاه التخطيطي ـ الدوغمائي الذي ساد فترة من الزمن » ذلك الاتجاه الذي «اختزل نقد الكولونيالية الى استقصاء احادي النظرة ، وقيم مسألة تحرير المستعمرات من زاوية كونها « احتياطي » الثورة الاشتراكية وحسب» · كما نظر الى تطور البلدان المستعمرة بعد التحرير على انه « تكرار طبيعي لازم

(استنساخ) لنموذج تطور البلدان الاشتراكية الاولى بكل تفاصيله » . وفي مواجهة هذا الاتجاه ، الذي يتحمل مسؤولية ابتذال الماركسية ، نجد «المعالجة الماركسية الكلاسيكية الديالكتيكية الاصلية » والتي يعلن المؤلف انتماءه دراسته اليها . ويجب الانتباه هنا الى انه على الرغم من ذلك يظل سنتش في اقصى حالات التيقظ والحذر من السقوط في مستنقع النزعة التقديسية . والتي لم يكن الاتجاه الدوغمائي سوى احد اشكال تمظهرها . وبهذا فقط يصبح مفهوما معنى الارق الذي لازم المؤلف حول مدى نجاحه في « اضافة عناصر جديدة او عناصر اخرى الى مكونات الفكرة التي اوجزت في العديد من المؤلفات الماركسية والتقدمية اعني المفهوم (البسيط) القائل بان التخلف الراهن هو ثمرة التطور العالمي للرأسمالية ولذلك لا يمكن فصله عنها ».

نقد نظريات التخلف

يتألف كتاب سنتش « الاقتصاد السياسي للتخلف » من ثلاثة اجزاء مستقلة يحمل كل منها عنوانا فرعيا خاصا . وقد خصص الجزء الاول من كتابه ، والذي يحمل عنوان « نقد نظريات التخلف » ، لاجراء « مسح نقدي لمختلف النظريات التي تفسر التخلف » ، وفي سياق ذلك يقوم بمجادلات مع « مؤلفين بارزين ومرموقين » معتبرا ذلك « فرصة لعرض وجهات نظره في هذا الموضوع بمواجهة نظريات الخصوم » .

يصنف المؤلف النظريات المذكورة في ستة اتجاهات عريضة . واجد هنا من المناسب ان ناتي على استعراض سريع لتلك الاتجاهات التي عالجها سنتش في عرض مركب ومليء بالحيثيات التي ينبغي ان لا يفهم اغفالها هنا كانكسار لاهميتها القصوى :

١ ـ يبدأ المؤلف بالتعرض للنظريات التي قامت على أساس « تحديد التخلف بارقام المؤشرات الاحصائية » ويتوقف بصورة خاصة امام واحد من اهم المؤشرات التي اعتمدها أصحاب هذا الاتجاه وهو « مؤشر الدخل القومي » .

٢ ـ الاتجاه الثاني يقوم على « مقارنة حالة (سكونية) معينة لاكثر البلدان الرأسمالية تطورا ... بحالة (سكونية) مماثلة للبلدان المتخلفة ... » من أجل استخلاص « بعض الميزات او العوامل (النموذجية) التي تعرقل التنمية او تحدها » . ويتوقف المؤلف هنا امام اهم العوامل التي اعتمدها أصحاب هذه « المعالجة الطرفية » من الوضع السكاني غير المؤاتي ، الى رداءة الخواص الطبيعية وضآلة الموارد الطبيعية ، الى نقص رأس المال وعدم كفاية نشوئه ، الى تدني انتاجية العمل والنوعية الرديئة للسكان العاملين .

٣ ـ في الاتجاه الثالث تجدنا امام موقف ينظر الى التخلف « كشكل من اشكال الحركة » ، فثمة من يفترض « ان التخلف نظام خاص من العلاقات المتبادلة بين العوامل المعرقلة والكابحة » ، ويتجلى هذا الموقف بصورة نموذجية في النظريات التي اخذت بـ « فكرة الحلقة المفرغة » حيث « لا يعود التخلف في هذه النظريات محض مجموعة من النواقص والعراقيل بل منظومة العلاقات المترابطة لهذه النواقص والعراقيل » . وعلى اساس نفس الموقف ثمة محاولة ثانية طرحت نفسها كتجاوز لقصور نظريات « الحلقة المفرغة » وتتمثل هذه المحاولة في نظرية هـ. لايبشتاين عن « نظام التوازن شبه ـ المستقر » حيث يكون « التخلف في نظره حالة تعيد انتاج نفسها بنفسها ، انه توازن دون تطور يعيد تأسيس نفسه عبر

تصارع قوى التنمية مع القوى المضادة لهـا » ٠

٤ ـ الاتجاه الرابع مـن « نظريات التخلف » الذي يتعرض له المؤلف يكمن في النظريات التي حاولت تفسير التخلف بالاستناد الى «الخصائص السوسيولوجية للبلدان المتخلفة» ، ويميز سنتش بين « نمطين رئيسيين من انماط التفسير السوسيولوجي للتخلف » ٠ النمط الاول « يعتبر مجتمع البلدان المتخلفة ٠٠٠ متجانسا وراكدا وتقليديا » وهو يقوم في سياق ذلك برد «التخلف » الى «تخلف السكان » بمقارنتهم مع سكان « المجتمعات الرأسمالية المتقدمة » ٠ اما النمط الثاني فانه « يشدد على الطبيعة الهجينة ، المزدوجة بل وحتى المتعددة التي يتصف بها المجتمع المتخلف » ٠ وتتحدد نظريات هذا النمط بالنظر الى ازدواجية المجتمع المتخلف المتمثلة بـ « وجود قطاعين متنافرين هما القطاع التقليدي والقطاع الرأسمالي » بوصف هذه الازدواجية هي « المركز التحليلي ٠٠٠ الذي تشتق منه المعضلات الخاصة بالتخلف وقوانين حركته » ، وتظهر تلك النظريات في صيغتين هما :

أ ـ نظرية الازدواجية السوسيولوجية٠

ب ـ نظرية الازدواجية التكنولوجية ٠

٥ ـ من بين الاتجاهات التي تكتسب اهمية خاصة ـ ذلك الاتجاه الذي تمثله « التفسيرات التاريخية للتطور الاجتماعي ـ الاقتصادي » ٠ وفيما يخص موضوع البحث تبرز محاولات « تقديم تفسير تاريخي يشمل ظواهر التخلف الاقتصادي» والتي يختار سنتش كحالة نموذجية لها نظرية و٠ و٠ روستو صاحب المؤلف المشهور « بيان لا شيوعي » ، والتي مثلت دليلا هاديا للمحاولات التي عملت على تحليل واقع البلدان المتخلفة بتشبيه « حالتها الراهنة بماضي البلدان المتقدمة ، ومستقبلها بالوضع الحالي للبلدان المتقدمة » متوصلة بذلك الى ان « حالة التخلف الراهنة » هي « حالة بدائية » اصلية او مرحلة انتقالية طبيعية من مراحل التطور الاعتيادي » ، ممهدة بذلك للقول بان « الكولونيالية ليست مسؤولة عن هذه الحالة » ٠

٦ ـ في الاتجاه السادس من الاتجاهات التي مثلتها « نظريات التخلف » نقف امام وضع متميز ودقيق ، ذلك ان الظواهر الطافية على السطح تشير الى نوع من التشابه بين ما يرتكز اليه ممثلو هذا الاتجاه وبين الفكرة المحورية التي يتبناها المؤلف ٠ ومعلوم انه بفعل الوقائع التي فرضت نفسها ودللت على قصور «المفهوم الذي يرى ان التخلف مرحلة اصلية ، او مرحلة انتقالية طبيعية قابلة للتفسير في ذاتها » ، فقد بدأت « نظريات التنمية والتخلف » تضع في حسبانها دور « العوامل الخارجية والعالمية » في تفسير ظاهرة التخلف ٠٠ويمكن على هذا الصعيد التمييز بين تيارين اثنين حاولا ادراج «العوامل » الخارجية والعالمية » في تفسير ظاهرة التخلف ، يقوم التيار الاول ـ والذي يضم منظرين من أمثال ميردال ، بريبش ، آرثر لويس ـ على اعتبار « العوامل الخارجية حاسمة بهذا القدر او ذاك » دون ان يقترن ذلك لديهم بتحليل المنبع التاريخي والاجتماعي لتلك العوامل ، ودون ان يقترن بـ « نقد الكولونيالية والتقسيم الرأسمالي العالمي للعمل والتجارة العالمية » ٠ويقوم التيار الثاني ـ والذي يمثله هـ٠ مينيت ، ج٠م٠ مايير ، ر٠ بالدوين ، ج٠ فايز ، ر٠ نوركه ٠٠٠ وآخرون ـ على الكشف عن « بعض العوامل الخارجية غير المؤاتية معتبرا اياها من عوامل التخلف » دون ان ينسب اليها الاهمية الحاسمة » اذ انه يرجع الدور والتأثير السلبيين لتلك العوامل

الخارجية الى « عوامل داخلية صرفة» ٠

احسب هنا انه من الواضح ان الفروق الدقيقة التي تكشف عنها معالجة سنتش لنظريات الاتجاه السادس ، والقائمة بينها من جهة وبين نظريته من جهة اخرى ، ذات اهمية قصوى الى الدرجة التي يصبح معها مشروعا له ان يدعي تميزه النوعي عن تلك النظريات ، على الرغم من ذلك التشابه الطافي على سطح كل منهما ٠

على اساس هذا التصنيف ، وعبر ستة فصول تألف منها الجزء الاول ، يعمل سنتش على عرض وتفنيد اطروحات اهم رموز تلك الاتجاهات ، مبينا مدى هشاشة الارضية التي تقف عليها ، وموضحا اوجه عجزها وقصورها عن تغطية الوقائع المعاشة بتفسير كاف ، وفاضحا الدوافع الايديولوجية التي تنبعث منها معظم تلك النظريات ٠

لقد اشرنا في بداية هذه المراجعة الى التميز الذي يتم به مؤلف توماس سنتش ٠ **لقد عودنا « الاتجاه الدوغمائي »** الذي طفح على جلد الماركسية حينا من الدهر ، على نمط من التعامل مع « النظريات الغربية » يقوم على تجاهلها المطلق ، او ـ وهذا في احسن الاحوال ـ رفض جميع النتائج التي تتوصل اليها ، مرتكزا في ذلك الى ادانته الايديولوجية المسبقة لتلك النظريات ٠ وكردة فعل على تلك الحالة ، شهدت الماركسية ـ خصوصا في الآونة الاخيرة ـ نزعات تقوم على الترفع عن نقد النظريات الغربية ـ غير الماركسية ـ من الوجهة الايديولوجية ، وابداء حالة تقزز مفتعل ازاء اي اجراء من هذا النوع ٠ ولا اظنني هنا بحاجة الى التأكيد على ان خطورة الموقف الدوغمائي الذي عمل على « تحصين » نفسه من « خطر » النظريات الغربية ، لا تعادلها سوى الخطورة الناجمة عن ذلك « التطاوس » المضحك الذي بدأت تفوح روائحه في بعض الاوساط ٠ ومن هنا فان نقد سنتش لـ « نظريات التخلف » يكتسب اهميته المتميزة من خلال التيقظ الذي ابداه المؤلف ، كمسألة مبدئية ، ازاء خطر السقوط في احد المطبين المذكورين ٠ ان النظريات المنتقدة هنا ، ينظر اليها على انها في الوقت الذي تخدم فيه ، بشكل او بآخر ، مصالح الامبريالية ، فانها ليست محض هلوسة تفتقر الى اي اساس واقعي ، بناء عليه فان النقد الايديولوجي لتلك النظريات لا يعود يشكل مانعا امامنا من الاستفادة ـ بصورة ما ـ من بعض النتائج التي توصلت اليها ، على الرغم من ادراكنا لوجه القصور والعجز الذي تتسم به تلك النتائج ٠

وبكلمة مقتضبة نقول ان بعض ما طرحته تلك النظريات هو في الحقيقة ـ وهذا وجه الفائدة فيه ـ وصف هام للواقع الذي تعيشه البلدان المتخلفة ، وتسليط للضوء على جوانب هامة من ذلك الواقع ، لكن قصور تلك الاطروحات يتجلى حين يراد تقديمها كتفسير تحليلي وسببي لظاهرة التخلف ٠

وعلى هذا النحو فان سنتش ـ على عكس ما قد يقول البعض ـ يكون قد وضع قدما راسخة على طريق تحقيق بحث علمي جاد حين يدرك درجة اقترابه من « بعض النتائج الجزئية التي توصلت اليها النظريات التي انتقدها من قبل » ، وحين يعمل وفق ما يفرضه ادراك الحقيقة من هذا النوع ٠

قوانين التخلف وآليته الداخلية

في الجزء الثاني من الكتاب والذي يحمل عنوان « قوانين التخلف وآليته الداخلية » يقدم سنتش « مسحا تاريخيا تحليليا لاسباب التخلف وخصائصه الداخلية ، واشكال علاقات التبعية

واستنزاف الدخل والتركيب الداخلي لنظام التخلف ، والآلية (الميكانيزم) التي تعيد انتاجه ، كما يدرس التركيب الاجتماعي للبلدان المتخلفة ودور واشكال البنى الاقتصادية » . وبكلمة اخرى فانه يطرح في هذا الجزء نظريته الخاصة التي يراد لها ان تكون بديلا ـ تجاوزيا ـ للنظريات التي عمل في الجزء الاول على تبيان قصورها وعجزها عن تقديم تفسير مقبول ومتماسك لظاهرة التخلف .

لقد كان المأخذ الاهم الذي استخلصه سنتش من معالجته لـ « نظريات التخلف» كونها قد اعتبرت « ان التخلف مرحلة اصلية او مرحلة طبيعية قابلة للتفسير في ذاتها » . والمسألة الجديرة بالتنبه هنا ان اعتبارا كهذا لا يعني أن سنتش يجد تميزه في عكس ميكانيكي للموقف السابق يعتبر ظاهرة التخلف نتيجة مبسطة لعامل خارجي عالمي ، وذلك على الرغم من اقراره بأن ذلك العامل يشكل المرتكز الاساسي لفهم تلك الظاهرة .

ان ظاهرة التخلف تفسر لدى سنتش على انها الوجه الآخر لعملية « انبثاق الكولونيالية المتجسدة اقتصاديا . اي النظام الكولونيالي للرأسمالية الاحتكارية ... » والتي نلمح وجهها الاول في المجتمعات المتطورة . وعلى هذا الاساس فان « تحليل الوضع الراهن للبلدان المتخلفة » يجد مبتداه في « تفحص الكولونيالية وتقييمها ، او ان توخينا الدقة نقول : بفحص الاقتصاد الرأسمالي العالمي وتقسيم العمل العالمي » . ولكن هذا بمجمله لا يمثل سوى الوجه الاول لطرح سنتش ، اما الوجه الاخر والذي يعطي طرحه الجزء الاكبر من اهميته فيتجلى في رؤية عملية التمثل الداخلي ـ التي تتم في البلدان المتخلفة ـ لآثار ذلك العامل الخارجي ، والتي يتم بموجبها ظهور « بنية اقتصادية واجتماعية مشوهة ومفككة كنتيجة لهذه العوامل الخارجية » . وتصبح هذه البنية بدورها « وبصورة مستقلة عن العوامل الخارجية ، المحدد والاساس لنظام العلاقات الخارجية وآلية التبعية واستنزاف الدخل » . وعلى هذا الاساس الجديد ، يصبح المرتكز المحوري لفهم ظاهرة التخلف وتفسيرها ماثل في تحليل آلية تلك العلاقة الجدلية المتشابكة ما بين الخارج والداخل ، والكشف عن « الميكانزمات » التحولية في تلك العلاقة .

على هذا الطريق ينتقل سنتش الى معاينة « العوامل الخارجية لنظام التخلف» ثم « العوامل الداخلية للتخلف وآليته ». واراني معنيا هنا بالتوقف لاسجل اعتراضا هامشيا على هذا الفصل المنهجي ما بين معالجة « العوامل الخارجية لنظام التخلف » ومعالجة « العوامل الداخلية » لهذا النظام .

اذا كان من الصواب ان نميز ، من الوجهة المبدئية ، بين « العوامل الخارجية التي انبثق التخلف على اساسها » وبين « البنية التي يتألف منها التخلف والتي تسهم في تأكيد نظام العلاقات الخارجية» فانه من الصواب ايضا القول أن « العلاقة المتبادلة والوثيقة بينهما » تجعل من هذا الفصل الشكلي في معالجتهما ضربا من الميكانيكية . وحينما نسجل هذا التحفظ اجد أنه ينبغي لنا أن نعترف بأنه على الرغم من هذا الفصل المنهجي الذي اعتمده سنتش ، الا أن سياق المعالجة قد نجى من السقوط في ذلك المطب ، ولعل في ذلك دليلا اضافيا على ان المنهج الجدلي لا يمثل بالنسبة للمؤلف قبعة تزين البحث من الخارج ، بل هو قضية موقف متمثل حتى الحدود القصوى ليكون لحمة البحث وسداه .

ان النظام الكولونيالي من حيث يمثل الناتج الذي افضى اليه تطور النظام

الرأسمالي ، يمثل في الآن نفسه منظومة لها بنيتها الخاصة وقانونية تطورهـــا الموضوعية التي تمكنها من اعادة انتـــاج نفسها · ولما كانت ظاهرة التخلف لا تمثل سوى واحدا مـــن وجهي النظـــام الكولونيالي ، يصبح واضحا ان البحث عن تفسير لـ « معضلة التخلف » يجب ان لا يجري خارج دائرة البحث عن تلـــك العوامل التي تفسر بقاء الظاهـــرة الكولونيالية وقدرتها على اعادة انتـــاج نفسها · ويحاول سنتش تلمس تلك العوامل عبر معالجة مركبة للمواضيع التالية :

١ ـ التبعية الاقتصادية التي تحـــدد سمة العلاقات القائمة ما بين البـــلاد المتخلفة (الاطراف ـ والبلدان الامبريالية (المتروبولات) · ويشير المؤلف في هـذا المجال الى التطورات التي طرأت علـــى علاقة التبعية هذه والتي ادت الى «اختفاء اغلب الاشكال المتطرفة من التبعية » اي « التبعية الاقتصادية المباشرة » · وينوه في سياق هذا الى ان « هذا الاختفـــاء بذاته لم يضع حد العلاقات التبعية » ذلك ان البنية الاقتصادية ـ الاجتماعيـة للبلدان المتخلفة والمحولة وفقا لمتطلبـــات مصلحة النظام الكولونيالي « تقدم الآن ، والى حد معين ، الاساس والامكانيـــات للحفاظ على علاقات التبعية » ، ومن جهة ثانية فان البلدان الامبريالية « تدخـــل اشكالا وطرائق جديدة في اعادة تنظيـــم علاقات التبعية وتقويتها » عبر ما اسمي بـ « النيوكولونيالية » · وعلى هـــذا النحو تطـــرح الى جانب التبعيـــة الاقتصادية المباشرة والتي تتمثل فـــي « الوضع الذي تكون فيه المواقع الاساسية الاقتصادية ··· بيـــد او تحت سيطرة الرأسمال الاحتكاري الاجنبي » ، الاشكال الاخرى من التبعية والتي تتمثل في التبعية التجارية والتبعية الماليـــة والتبعيـــة التكنيكيـة ·

٢ ـ خسائر الدخل واستنزافه مـــن البلدان المتخلفة الى المتروبول ، ويتجلـى هذا في شكلين : الاستنزاف المباشـــر للدخل وذلك عن طريق « تصدير رأس المال الى البلدان المتخلفة » مما « يؤدي الـى الاستيلاء على جزء من الدخل القومي الذي تنتجه هذه البلدان » ويتجلى ذلك سواء في « ترحيل وعودة الارباح والفوائد الـى المتروبول » او في ابقاء « جزء منها فـي البلد المتخلف على شكل ارباح اعيـــد توظيفها » · أمـــا الشكل الثاني فهـو « استنزاف الدخل بشكـل غـير مباشر » وذلك « من خـــلال علاقات التجـــارة الخارجية ، والعلاقات المالية النقدية » ·

٣ ـ تفكك نمط الانتاج وتشويهـــات البنية الاقتصادية ، ويتمثل ذلك في انـــه يوجد في بنية المجتمع المتخـلف « الـى جانب القطاع الرأسمالي الحديث قطـــاع ما قبل رأسمـــالي كبيـــر نسبيا ، وان الاقتصاد ينطوي على قطاعين متضاديـن كليا » · ويرتكز هـــذا التفكـك الى ان «التطور الداخلي للاقتصاد لم يكن هـــو الذي ادى بالبلدان المتخلفة لان تصبـــح اجزاء عضوية من الاقتصاد العالمي » والى ان الذي حدث هو عكس ذلك حيث «عناصر من نمط انتاج اكثر تقدما ، قد اقحمـت على الاقتصاد التقليدي من الخـــارج بالقوة » ولذلك فلم تكن اكثر من « بقـع دخيلة » · ان مركز الاشكال في هـــذه الحالة هو ان تلك البقع الدخيلة قد كانت بالاساس ، وبحكم قانونية اقحامها ،موجهة نحو الخارج ولذلك فقد ظلت قاصرة عن « ان تصبح القوة الدافعـــة للتطـــور الاقتصادي الداخلي » وعلى ذلك تكـــون النتيجة « غياب التكامل الداخلي للاقتصاد في البلدان النامية » · ان هذا الواقـــع المتمثل في « البنية المشوهة والمفككة » ، هو ، في التحليل الاخير ، نتاج لما فرضه تطور النظام الرأسمالي العالمي ، كما انـــه يمارس في الوقت نفسه تأثيرا على جوانب

حساسة من المجتمع المتخلف (مثل تأثيره على علاقات السوق وعلى عملية التراكم وعلى نمو السكان وعرض العمل ·· الخ) مشكلا بذلك اساسا ممتازا لضمان استمرار النظام الكولونيالي ·

٤ ـ البنية الاجتماعية المشوهة : حيث المجرى الطبيعي للتطور الاجتماعي ـ الاقتصادي » في البلدان المتخلفة و « حال قطع « تغلغل الرأسمالية الغربية الاجنبية دون ان.تسير على الطريق والمعدل اللذين تحددهما القوانين الداخلية لتطورها السابق » ، فوضعنا بذلك امام تشوه وتفكك التركيب الطبقي لهذه البلدان حيث « القديم لم يختف كليا ، والجديد لم يقم على الانقاض بل بين بقايا القديم ، بالاضافة الى ان تغلغل وتعزز الجديد لم يتحقق في كل مكان » ·

وبالتأسيس على واقع العلاقات الترابطية والتداخلية التي تسم الواقع الذي عالجه سنتش عبر المواضيع الاربعة المذكورة ، تتضح معالم الظاهرة الكولونيالية بوصفها منظومة تحوز على القانونية الموضوعية لتوازنها واستمرارها بصرف النظر عن الارادات الواعية والمقصودة لتحقيق ذلك الاستمرار · وبالاستناد الى ذلك يتضح مدى زيف تلك المحاولات التي تبذلها بعض الاطراف (البلدان المتخلفة خصوصا) للخروج من اسار وضعها في تلك المنظومة عن طريق خدش احد جوانبها ، دونما اي ادراك (أو قدرة على ادراك) لتلك القانونية الموضوعية التي يتم على اساسها انشداد اواصر المنظومة ، والشروط التي تمكن المنظومة من اعادة انتاج نفسها · تلك المحاولات التي لم يكن محكوم عليها بالاخفاق اساسا فحسب ، بل كانت في بعض الاحيان قابلة لان تجير لصالح دعم استقرار المنظومة وامكانيات استمرارها ·

في مطلع الجزء الاول من كتابه ذكر سنتش « ان طبيعة وهدف الكتاب لا ينطويان على تقديم (وصفة طبية) تفصيلية لما ينبغي ان تكون عليه السياسة الاقتصادية الرامية للخروج من التخلف » · وعلى اساس ذلك فانه حين اراد لكتابه ان لا يكون مجرد « تشخيص الاعراض الظاهرية التي تولد الاوهام وتبعد المرء عن المعالجة الصحيحة » ، يكون مفهوما مبرر حصر اهتمامه في هذا المجال بـ « الآفاق العامة للتنمية والمعضلات الاستراتيجية البعيدة المدى » ، وهذا ما كان في الجزء الثالث من كتابه والذي خصصه لهذا الغرض وقدمه تحت عنوان « كسر الحلقة المفرغة » ·

مر معنا ان حجر الزاوية في التفسير الذي يتبناه سنتش حول معضلة التخلف يتمثل في اعتبار تلك الظاهرة ، في وضعها الراهن ، نتاجا لعلاقة متشابكة بين « العوامل الخارجية التي انبثق التخلف على اساسها » وبين « البنية التي يتألف منها التخلف » مع التشديد على ان « العوامل الخارجية » تمثل الطرف الحاسم في هذه العلاقة · ومن طرح كهذا قد يشتق ـ وبصورة ميكانيكية ـ اقرار تبسيطي يقول بانه يترتب « على كون التخلف نتاجا للرأسمالية العالمية انه لا يمكن عمل شيء لتصفيته قبل وبدون انهيار الرأسمالية العالمية » ، وقد تفتقت بعض القرائح عن تصورات متعددة حول الطرق التي ينبغي السير عليها لتحقيق « الثورة العالمية » والتي تمثل الشرط الضروري لـ « تصفية التخلف » · لهذه الصيغة ، التي لا تخلو من تعسف وسذاجة ، يوجه سنتش نقده الحازم مبينا مدى خطأ تلك الاطروحات وخطورتها على اختلاف مزاعمها من اغلوطة اعادة توزيع الدخل عن طريق المعونات والتعويضات وما شابه ذلك ، الى وهم الاطاحة الثورية بالنظام الرأسمالي العالمي عن طريق الثورة العالمية للشعوب المتخلفة ، الى التفاؤل

الساذج بـ (ثورة الطبقة العاملة العالمية) منوها في سياق هذا النقد بأن « الطريق لتصفية التخلف عالميا ·· ليس طريقا مسدودا ، بل طريقا مناسبا للمرور فيما تواقت شروط معينة » وان « الحل العالمي» مرتبط بـ « الآفاق المفتوحة امام وفي داخل البلدان منفردة للتغلب على التخلف » · وهذا يضعنا بطبيعة الحال امام موضوع « آفاق تصفية التخلف في اطار اقتصاد قومي واحد » · يحاول سنتش في معالجته لهذا الموضوع الاخير ان يرسم خطوطا عريضة لـ « استراتيجية تصفية التخلف»، منطلقا في ذلك من التأكيد على أهمية الجانب الداخلي للمسألة (الاطار الوطني لسياسة التنمية) ومن رؤية الطابع المعقد لعملية تصفية التخلف الذي تفرضه « العلاقة الديالكتيكية بين العوامل المنفردة ـ المسببة للتخلف » لان « بقاء عامل واحد من العوامل دون تغير يهدد بالخطر كامل التقدم المحرز في تصفية العوامل الاخرى » · وعلى اساس التحديد المطروق سابقا لـ « العوامل المسببة للتخلف » ، يرى سنتش ان السير الجاد على طريق تصفية التخلف يقتضي العمل المتكامل لتحقيق مهمتين مترابطتين هما : آ ـ تحطيم الموقع الاحتكاري لرأس المال الاجنبي ، وبتعبير آخر النضال ضد التبعية والاستغلال الاقتصاديين · ب ـ تحويل البنية الاجتماعية الاقتصادية المشوهة وازالة الاشكال الاجتماعية البالية · واستنادا الى الظروف العالمية والوطنية التي ينبغي على البلدان المتخلفة ان تخوض المعركة عبرها · يأخذ هذا العمل طابع العداء لـ « التحرك العفوي للقوى الاقتصادية » ، وعلى هذا يفترض فيه ان يكون عملا واعيا وتدخلا مقصودا ضد « آلية فعل القوى الاقتصادية العفوية » ·

وعلى اساس هذه المعطيات يشدد سنتش على اهمية الدور الذي ينبغي ان تلعبه « الدولة » في تحمل اعباء انجاز هذه المهمة · واجدني هنا معنيا بتسجيل التحفظ التالي حول هذا الطرح الذي يقدمه سنتش ، والذي لا ينسجم ـ فيما ارى ـ مع الطموحات التي اريد لمشروعه ان يحققها ·

انتهى سنتش من تأليف كتابه عام ١٩٦٩ ، اي حينما كان خط التطور عبر رأسمالية الدولة ما زال يملك بعضا من بريق ، وفي وقت لم يكن قد ظهر فيه بشكل ساقر ان ذلك الزهو الذي ظهرت به بعض بلدان العالم الثالث لم يكن سوى انتفاخ كاذب (كما اثبتت النهايات التي وصلت اليها معظم تلك البلدان) ولم يكن مبنيا على اساس خطى سليمة وجادة فيطريق التنمية الاصيلة · واذا كان من المفترض بالنسبة لشخص كتوماس سنتش ان يكون قادرا على رؤية زيف ذلك الصخب الوطني الذي اطلقته بعض حكومات العالم الثالث في تلك المرحلة بالذات (وهذا ما لم يحصل) ، فان الوقائع المستجدة ـ على اقل تعديل ـ تجعل من الاهمية بمكان ان يعيد اولئك الذين راهنوا على ذلك الخط النظر في اسس مواقفهم ·ولعل اهم العناصر التي ينبغي طرحها للمناقشة على هذا الاساس ، هي مدى نجاح الحلول التي تأتي عبر سوبرمانية الدولة او ـ على اقل تعديل ـ حول الشروط التي ينبغي توفرها لتكون دولة ما مؤهلة لتحقيق اعباء التنمية الحقيقية ·

واذا كان كلاما كهذا يقال حولتصورات سنتش عن دور الدولة في تحقيق التنمية، فالاحرى بنا ان نتوقف امام ما طرحه حول « طريق التطور اللارأسمالي » · لقد اكتشف سنتش ـ ولو متأخرا ـ ان تلك التحولات التي جرت في صرح النظام الكولونيالي لم تكن سوى انتقال الى « نمط كولونيالي جديد من التبعية وتقسيم

العمل العالمي » لا يقل شراسة عن سابقه على الرغم من اناقة القفاز الذي يلبسه، (طرح سنتش ملاحظاته حول هذا النمط الجديد في ورقة عمل قدمها الى كونغرس الجمعية الكندية للدراسات الافريقية الذي انعقد في ٢٧ شباط الى ٢ آذار ١٩٧٤ ، وقد ضمت هذه الورقة على شكل ملحق للكتاب الذي بين ايدينا) · هكذا يضعنا سنتش امام تساؤل حول مبرر ممالأته لذلك الطريق ، وما اذا كان موقفه ليس اكثر من ضرب من التبريرية المخادعة ، والتي لم تكن بدورها سوى احدى موروثات «الاتجاه الدوغمائي » ، هذا الاتجاه الذي تكتسب محاولة سنتش الجزء الاكبر من اهميتها عبر رفضنا له·

وفي نهاية هذه المراجعة . وعلى ضوء كل ما تقدم ، اجد انه من الاهمية بمكان ا نانوه بان معارضة بعض ما حمله الجزء الثالث من كتاب سنتش (وان كانت هناك امكانية للاعتراض على بعض الاطروحات الثانوية في الجزئين الاول والثاني) يجب ان لا تجعلنا نقلل من اهمية الافكار الاخرى التي طرحها في معالجته للموضوع ، وهذا على اقل تعديل بعض ما يفرضه التطلع الجاد الى تجاوز ما خلفته هيمنة الاتجاه الدوغمائي على الماركسية ·

واخيرا يظل السؤال مطروحا وبجدية حول مدى نجاح توماس سنتش في تحقيق تطلعه الى اضافة جديد وهام الى النظرية الماركسية وخصوصا فيما يتعلق بموضوع اشكالية التخلف · ولنستذكر هنا الشعار المشهور الذي رفعه ابن رشد والقائل بان من اجتهد واصاب فله اجران ، ومن اجتهد واخطأ فله اجر واحد ·

عماد هرملاني

رفائيل البرتي

مختارات

● ولد سنة ١٩٠٢ ، في قرية (بويرتو دي سانتا ماريا) بمدينة (قادش) على شاطيء الاطلسي ، في اسبانيا ٠

● انهى دراسته في مدرسة تابعة للجيزويت في قادش ، ثم انتقل مع عائلته الى مدريد سنة ١٩١٧ ٠

● منذ صباه كان ميالا الى الرسم ٠ وفي مدريد اخذ يتردد على المتاحف ، ويحاول تقليد لوحات كبار الفنانين ٠

● اصيب بمرض اقعده طويلا ٠ وخلال مرضه بدأ بكتابة الشعر ٠ فكان ديوانه الاول « بحار في البر » وبه نال (الجائزة الوطنية للشعر) ٠

● في بيت الطلبة بمدريد تعرف على فيدريكو غارسيا لوركا ،وسلفادور دالي ، ولويس بونويل ٠ وساهم في النضال ضد دكتاتورية بريمو دي ريفيرا ٠

● اصبح من ابرز شعراء « جيل ٢٧ » ، وهو الجيل الذي يضم أيضا : فيدريكو غارسيا لوركا (١٨٩٨ ــ ١٩٣٦) ، وبيدرو ساليناس (١٨٩٢ ــ ١٩٥١) ، فيثنتي اليساندري ١٨٩٢ ــ جائزة نوبل ١٩٧٧ ــ ، وداماسو الونسو ١٨٩٨ ، ولويس ثرنودا (١٩٠٤ ــ ١٩٦٣) ، وخورخي غيين ١٨٩٣ ٠

● في ١٩٣١ سافر الى باريس ، ثم جال في اوروبا ٠ وزار الاتحاد

السوفييتي عام ١٩٣٣ مع زوجته ماريا تيريزا ليون ٠

● اصدر في مدينة ليون (الاسبانية) مجلة « اكتوبر » التي اوقفتها الرقابة بعد سنة من صدورها ٠

● تعرف على بابلو نيرودا ، وتعاون معه في مجلة « الحصان الاخضر للشعر » ٠

● في اوائل ١٩٣٦ زار نيويورك وهافانا والمكسيك والقى هناك عدة محاضرات ٠ ولكنه عاد الى اسبانيا عند اندلاع الحرب الاهلية في تموز ١٩٣٦ ٠

● كانت حكومة الجمهورية قد عينته مديرا للمسرح الجوال « الافرهول الازرق » ٠ لوركا ايضا كان مديرا لفرقة مسرحية جوالة اخرى هي مسرح « لابركا » ٠

● ساهم في النضال ضد الفاشية ، وكان خلال الحرب الاهلية سكرتيرا لاتحاد المثقفين المعادين للفاشية ٠

● عمل مع نيرودا ومارلو واراغون وغيرهم في تنظيم مؤتمر «ادباء العالم يدافعون عن الشعب الاسباني » ، وذلك اثناء حصار مدريد ٠

● في ١٩٣٩ ، بعد سقوط الجمهورية ، هاجر الى باريس ، ثم الى بوينس ايرس عام ١٩٤٢ ، وبقي فيها حتى بداية عام ١٩٦٣ ٠ وفي هذه السنة زار الصين وتجول في اميركا اللاتينية واوروبا ٠ ثم استقر اخيرا في روما ٠

● بقي في روما حتى عام ١٩٧٦ ، حيث عاد الى اسبانيا بعد موت فرانكو وسقوط الدكتاتورية الفاشية ٠ وفاز في الانتخابات البرلمانية التي جرت عام ١٩٧٦ ٠ ولكنه استقال من منصبه هذا بعد شهور قليلة ٠

● كتب للمسرح عددا كبيرا من المسرحيات ٠ واعماله المسرحية لا تقل اهمية عن شعره ٠

● نال مؤخرا جائزة « اكليل الغار الذهبي » في مهرجان الشعر الذي اقيم في يوغسلافيا ٠ وهذه اكبر جائزة تقدمها يوغسلافيا وهي من الجوائز الهامة في العالم ٠

● من اعماله الشعرية : « بحار في الارض » ١٩٢٤ ٠ « فجر المنثور » ١٩٢٧ ٠ « جير وغناء » ١٩٢٩ ٠ « عن الملائكة » ١٩٢٩ ٠ « انا كنت احمق وما رأيت جعلني احمقين » ١٩٣٥ ٠ « اراك ولا اراك » ١٩٣٥ ٠

« الشاعر في الشارع » ١٩٣١ ــ ١٩٣٥ · « بين لحظة واخرى » ١٩٣٩· « حياة بلغة مزدوجة للاجيء اسباني في فرنسا ١٩٣٩ ــ ١٩٤٠ · « بين القرنفلة والسيف » ١٩٤١ · « عن الرسم » ١٩٤٥ · « قصائد الطـــرف الشرقي » ١٩٤٥ ــ١٩٥٦ · « قصائد واغنيات لنهر بارانـــا » ١٩٥٤ · « روما خطر على المسافرين » ١٩٦٨ · « اسماء بيكاسو الثمانية « ١٩٧٠

● ومن اعماله المسرحية : « فيرمين غالان » ١٩٣١ · «منقذي اسبانيا» ١٩٣٦ · « اغنية الابطال والاخوة بين الشعوب » ١٩٣٨ · « القبيـــح » ١٩٤٤ · « البرسيم المزهر » ١٩٤٦ · « ليلة حربية فيْ متحف البرادو » ١٩٥٦ ·

اذا ما مات صوتي على البر

اذا مـا مـات صـوتي علـى البـــر
ارفعـــوه إلـــى مستـوى البحـــر
واتـركـــوه على الضفـــة .

ارفعـــوه إلى مستـــوى البحـر
ونصبـــوه قبطـانـاً
علـى سفينـــة حـربية بيضـــاء .

آه يـــا صـــوتـــي المتشـــح
بالـــراية البحـــريـة :
علـى القلـسـب مـــرســـاة ،
وعلى المـــرســـاة نجمـــة ،
وعلـــى النجمـــة ريـــح ،
وعلـى الريـــح الشـــراع !

(من ديوان « بحار في البر »)

من ارانداي دويرو[١]
إلى بينيارانداي دويرو

يـا قشتـاليـو قشتـالـة
يـا مـن لم تـروا البحـر أبداً !

إحـذروا ، ففـي هـذه العيـون
الجنـوبيـة ، وفـي هذا الفنـاء
أحمـل لكـم كل البحـر !

انظـروني ، فالبحـر يمـر !

(من ديوان « العشيقة »)

العـروسـة

يقـرع نـاقـوس
الكتـدرائيـة .
وأنـا بـلا حـذاء
مـاضيـة إلى الزفـاف !

أيـن هـي طرحتـي ،
ايـن ثـوبي الأبيـض ،
واكليلـي الذي من زهـر البرتقـال ؟

أيـن هـو خاتمـي ،
طـوقي الذهبـي
وعقـدي البـديـع ؟

أسـرعـي ، أمـاه !
فهـا هـو ناقـوس الكاتدرائيـة
يقـرع .

أيــن هــو حبيبـــي ؟
عاشقـــي الحبيـــب ،
أيـــن هـــــو الآن ؟

يـــدق ناقـــوس
الكتـــدرائيـــة .
وانـــا بـــلا عشيقـــي ،
ماضيـــة إلى الزفـــاف !

(من ديوان « فجر المتشرد »)

أطفال اكستريمادورا[٢]

أطفـــال اكستـــريمادورا
يمضـــون حفـــاة .
من سلبهـــم الاحـــذية ؟

يجـــرحهـــم الحـــر والبـــرد .
من مـــزق مـــلابســـهم ؟
المطـــر
يبلل أحـــلامهـــم وفـــراشهـــم
من هـــدم لهـــم البيـــت ؟

انهـــم لا يعـــرفـــون
اسمـــاء النجـــوم .
من أغلـــق مـــدارسهـــم ؟

أطفـــال اكستريمـــادورا
جـــدّيـــون
من هـــو اللص الـــذي ســـرق ألعـــابهـــم ؟

(من ديوان « الشاعر في الشارع »)

شبح يخيم على اوروبا . .

« هناك شبح يخيم على اوروبا »
كارل ماركس

. . . والعائلات القديمة تغلق النوافذ ،
توصد الأبواب ،
والأب يهرع في الظلام إلى البنوك
ويتوقف نبضه في البورصة
ويحلم في الليل بالحرائق ،
بالمحاصيل تشتعل ،
وبانه سيجد اللهب بدل القمح ،
وبدل الحبوب شراراً ،
صناديق ،
صناديق حديدية مليئة بالشرر .
حيث نكون ،
اين تكون ؟
والفلاحون يجوسون دماءنا
ما هذا ؟

ـ لنغلق ،
لنغلق سريعاً الحدود .
انظروه يتقدم مسرعاً مع الريح الشرقية ،
ريح سهوب الجوع الحمراء .
لا تدعوا العمال يسمعون صوته ،
لا تسمحوا لصغيره بالدخول إلى المصانع ،
لا تدعوا رجال الحقول يلمحون منجله المشرع .
أوقفوه !
لانه يقفز البحار ،

يجتـــاز كـــل الجغـــرافيـــا ،
لانـــه يختفـي في أقبيـة سفن الشحـن
ويتحـــدث إلى الوقـــادين
ويسحبهـــم ملوثين بالسناج إلى سطح المركب ،
ويجعـل الحقـــد والبؤس يتمردان ،
وطـــواقـــم السفـــن تنتفـــض .

أغلقـــوا ،
أغلقـــوا السجـــون
فصـــوته سيفجـــر الجـــدران
مـــا هـــذا ؟

ـ أمـــا نحـــن ، فنتبعـــه ،
نجعلـــه ينزل عن الريح الشرقية التي تحمله
ونسأله عن السهوب الحمراء ، عن السلام
نجلسه على مائدة الفلاح الفقير ،
ونقدمه ليتعرف إلى صاحب المصنع ،
ونجعله يرأس الاضرابات والمظاهرات ،
ويتحـــدث إلى الجنـــود والبحـــاره ،
ويـــرى مكاتب صغـــار الموظفيـــن
ويـــرفع قبضته ويصرخ في برلمانات الذهب والدم .

شبـــح يخيـــم على اوروبا ،
علـــى العـــالم .
نحـــن نسميـــه رفيقـــاً .

(من ديوان « الشاعر في الشارع »)

أنـا من الفرقة الخامسة[٣]

غـــداً ســأتــرك بيتــي ،
ســأتـرك الجواميـس ، واغادر القرية .
ســلاماً ! إلى أين أنت ذاهب ، قل لي ؟
ـ أني ذاهـب لانضم إلى الفرقة الخامسة .

مسيـــر دون مـاء ، علـــى الأقـــدام .
جبـــال شـــاهقـــة ، سهـــول فسيحـة .
أصـــــوات المجد والانتصـــار .
ـ انـــي من الفـــرقة الخامســـة .

(من ديوان « بين لحظة واخرى »)

كـم أنـا وحيد ! . . .

كم أنا وحيد أحياناً ، آه كم وحيد ،
وحتى كم فقيرٌ وحزينٌ ومنسيٌ !
وهـكذا ، أرغـب في طلب صدقة
من شواطيء ميـلادي ، من حقـولي .
أعطـوا العائد ، أحلفكـم بالحب ، قطعة
من نـور هـاديء ، من سمـاء ساكنـة .
رحمـة ! ألا تعرفـونني . . .
ليـــس كثيـــراً ما أطلـــب . . أعطوني شيئاً .

(من ديوان « قصائد من الطرف الشرقي »)

أغنيـــة ١٢

أريـد الغنـاء : أن أكـون زهـرة
لبـــــلدي .

أن تـــأكلنـــي بقـــرة

مـــن بلـــــدي .
أن يضعنـــي على اذنـــه
فـــلاح من بلـــدي .

أن يستمـــع إلـــيّ
قمـــر بلـــــدي

أن تبللنـــي بحـــار
وأنهـــار بلـــدي .

وان تـــدفننـــي الارض
فـــي قلـــب بـــلدي .

لأننـــي ، كمـــا تـــرون ، وحيـــد ،
دون بلـــدي .
(مع انـي لسـت بـلا بلدي .)

(من ديوان « قصائد واغنيات لنهر بارانا »)

أغنيـة ١٥

أعـــرف أن الجـــوع يـــذهب بالاحـــلام .
ولكـن علـــيّ أن أستمـــر بالغنـاء .

وان السجـــن يغيـــم الاحـــلام .
ولكـــن علـيّ أن أستمـــر بالغنـاء .

وأن المـوت يقتـل الحلم .
ولكـــن علـــيّ
علـــيّ أن أستمـــر بالغنـــاء .

(من ديوان « قصائد واغنيات لنهر بارنا »)

قصيدة الذي لم يذهب أبداً إلى غرناطة

الى فيدريكو غارسيا لوركا

كم بعيد ، تفصلني بحار ، حقول ، وجبال !
وشموس اخرى تنظر إلى رأسي الشائب .
لـم أذهـب ابداً إلى غـرناطـة

رأسـي قد شـاب ، سنواتي ضاعت .
أريـد العثور على الدروب القديمة المطموسة .
لـم أر أبـداً غرنـاطـة .

ضـع لـي غصـن نـور أخضـر في يـدي .
ولجـامـاً قصـيراً وخطـى طويلة .
لـم أدخـل أبـداً إلـى غـرنـاطـة .

اي أنـاس أعداء يسكنون دروبهـا ؟
مـا هـي الاصـداء النقية الحرة في هوائهـا !
لـم أذهـب أبـداً إلى غـرنـاطة .

مـن يسجـن حـدائقهـا اليوم ، ويضـع
سـلاسـل على حـديث نوافيرهـا ؟
لـم أر أبـداً غـرنـاطة .

تعـالوا يا من لم تذهبوا أبداً إلى غرناطة .
فبهـا دماءٌ شهيدة ، دماء تناديني .
لـم أدخـل أبـداً إلى غـرناطة .

فيهـا دماءٌ شهيدة ، دماء الأخ الأفضـل .
دمـاء بين شجيرات الريحان ومياه الانهار .
لـم أذهب أبـداً إلى غرنـاطة .

دمـاء الصديق الأفضل بين الريحان .

دمـاء بين الدارو ، وبين الخنيل[٤] ، دماء .
لـــم أر أبـداً غرنـاطة .

اذا كـــانت الأبـراج عالية ، فالهمـــة عاليـــة .
تعـــالوا من الجبال ، من البحار ، من الحقول .
ســـأدخـــل غـــرنـــاطة .
ســـأدخـــل غـــرنـــاطة .

(من ديوان « قصائد واغنيات لنهر بارانا»)

عندما أغادر روما

عنـــدما أغـــادر رومـــا
مـــن سيـــذكـــرنـــي ؟

اســـألوا القـــط ،
اســـألـــوا الكلـــب
والحـــذاء المثقـــوب .

اســـألوا مصبـــاح الطريق التـــائـــه ،
الحصـــان الميـــت
والشـــرفـــة الجـــريحـــة .

اســـألـــوا الريـــح العـــابـــرة ،
البـــوابـــة القـــاتمـــة
التـــي بـــلا بيســـت .

اســـألـــوا المـــاء الجـــاري
الـــذي يكتـــب اسمـــي
تحـــت الجســـــر .

عنـــدما أغـــادر رومـــا ،

أســـألوا هـــؤلاء عنـــي .

(من ديوان « روما ، خطرة على المسافرين »)

البحر . . البحر

البحـــــر . . البحـــــر .
البحـــر . فقـــط البحـــر !

لمـــاذا أحضـــرتني ، يا أبي ،
إلـــى المـــدينـــة ؟

لمـــاذا بعثتنـــي
مـــــن البحـــــر ؟

في الاحـــــلام ، تشـــدني
تموجـــات البحـــر من قلبـــي
وكـــأنهـــا ستنتـــزعـــه .

أبـــي ، لمـــاذا أحضرتنـــي
هنـــــا ؟

(من ديوان « بحار في البر »)

ترجمها عن الاسبانية
صالح علماني

---

(١) دويرو : نهر يجتاز أراضي اسبانيا والبرتغال .
(٢) اكستريما دورا : منطقة جبلية في اسبانيا ، شهدت حرب عصابات عنيفة خلال الحرب الاهلية . وبها تدور أحداث رواية هيمنغواي « لمن تقرع الاجراس » .
(٣) الفرقة الخامسة : هي الفرقة الامية التي حاربت إلى جانب الجمهورية خلال الحرب الاهلية الاسبانية .
(٤) دارو وخنيل : نهران في غرناطة .

محمود أحمد شاهين

الخطار

(قصة)

« ١ »

ها هي اول قافلة للخطار تطل من بعيد عبر التلال ٠٠ انفردت أسارير وجه « عائشة العلان » وهي تصالب يديها وتتكور على نفسها فوق قمة الجبل لتجابه القشعريرة التي اجتاحت جسمها من جراء نسيم الصباح ٠٠ « متى تقطع القافلة تلك الشعاب والتلال وتصعد منعرجات جبل المنطار وتصل اليها لترى فيما اذا كان ابنها معها ؟ ! » ٠

تخيلت نفسها بجناحين وطارت : « حلقت فوق القافلة ٠٠ شاهدت ابنها يسوق الحمير وقد حملها بأكياس الملح ٠٠ رفرفت بجناحيها فوقه ، حطت عليه ، ضمته ، قبلته ، حملته وحلقت به ٠٠٠ » ٠

أطلت الشمس من خلف جبال البحر الميت ٠٠ تأملت عائشة كل الجهات المشرفة عليها : ها هو البحر المالح يركد بين سلسلة من عشرات الجبال ، ادارت وجهها الى الشمال ، اشرفت على قرى ومدن كثيرة ، ثم الى الغرب حيث « رام الله » فالقدس ٠٠ بدا لها الندى وهو يطير عن قمة جبل الزيتون ، فجبل المكبر ٠٠٠ أرسلت بصرها الى الجنوب : ها هي بيت لحم تحيط بها عشرات القرى ٠٠ أخذت تقصر نظرها شيئا فشيئا ، جابت المراعي والجبال : عشرات الرعاة يخرجون بقطعاهم من الغرب والصيرة ٠٠٠ نظرت الى الشرق من جديد : ها هي القافلة تتقدم عبر التلال ، وها هي عشرات القوافل تطل من ورائها ٠٠٠

أخرجت جزة الصوف من الصرة الموضوعة الى جانبها ، لفتها حول ذراعهـا وأخذت تغزل ٠٠٠ ثم عادت الى شرودها ٠

« ٢ »

« قلت له يا ولدي انت صغير والملح لا يخطر اليه قبل سن الشباب ، لا تدعني انتظر على الدروب أسأل عن عيونك ، غدا يا ولدي تكبر ويكبر اخوتك وتخطـر مع الخطار ٠٠ بحر الملـح يا ولدي ما ارسلك اليه ، تروح يا ولـدي ، يشرق « عدوك » بماء البحر ، تنزل بجوفك ، تغرق يا ولدي وانا لا اطيق غراقك يا روح أمك ، اخوتك ينتظرونك يا حسن !! صبرت يا ولدي على الذل والذي أمر منه ، تحملت المهانة ، تعبت ، شقيت ، كلت عيني وانهد حيلي ، لكن العمر فـي سبيلك وسبيل اخوتك يرخص يا ولدي ٠٠٠ » ٠

« عشر سنين يا ولدي ، عشر سنين مرت على وفاة أبيك في حرب النكبه ٠٠ كنتم صغارا يا حسن ، خبأتكم ، ربيتكم ، منعت كل الشر عنكم داريتكم ، مثـل حجلة تداري فراخها يا ولدي ٠٠ في الشتاء أبيع البقول يا بني وفي الصيـف أنسج البسط للشيخ « علي » وأغزل ٠٠٠ تحملت الكثير يا ولدي ، اتحمل القليل حتى تصيروا رجالا وتتزوجوا ، وتدفنوني بأيديكم تحت التراب لما أموت يابني »٠

« يا أمي ، يا أمي » قلت له « لا تقاطعني يابني ، خلنـي انه كلامـي ، اللـه يرضى عليك » سكت ٠ قلت له : « بحر الملح يا ولدي لن تروح اليه » قال « انـا أفديك بعيوني يا أمي ، لا تقطعي قلبي بحياة تراب ابي ٠٠ قلت لك : أنا لسـت صغيرا ، أنا كبرت يا أمي ، أنا شاب وشببت على يديك اللتين لم تعرفا الكلل ، وكيف لا تريدينني ان اخطر على الملح ، انسيت يا أمي عندما جئـت البارحـة ، وقلت لي : الشيخ علي هددنا ، يبغي ديونه ، والا سيتملك قطعة أرضنا الوحيدة التي رهناها عنده ٠٠ لا تحسبي يا أمي ولا تدعي الهم يشغل بالك ٠٠ رطل الملح بقرشين ، اخطر كل خمسة أيام مره ، احضر مئة رطل ، لن ينتهـي الصيـف الا وانا جامع ديون الشيخ علي ، ونسترد قطعة أرضنا الوحيدة يا أمي » ٠ قلـت له « برضاي عليك يا ولدي ، أنا ارضى والله يرضى ، والسهل يرضى والسماء ترضى ، لا تروح يا ولدي ، اخاف عليك يا حسن ، أخاف أنقطع من رؤية عيونك يا بني ، يغرق عدوك في البحر مثل الناس الذين غرقـوا ، او تقبض داوريـة الفرسان يا بني ، اشق ثوبي ، أجن ، ادور على الدروب يا ولدي ، لا تخلنـي اتحسر عليك كما تحسرت على اخوتك ٠٠٠ برضاي عليك لا تخطر يـا حسن ، ابق في المدرسة يا بني ، وليأخذ الشيخ علي قطعة الارض ، وعوضنا فـي عيـن الله يا ولدي ، وان شاء الله ان عينه ما تخيبنا وما تخطي عنايا بني !! » ٠

قال لي : « يا امي يا امي !! قطعة الارض لن اتخلى عنها بدمي ، وحياة تراب

والدك المدفون وحده في البراري ، والمدرسة ما هو وقتها !! وعلى الملح يجب ان أخطر ، واطردي كل أفكار السوء من رأسك » ٠

قلت له : « رح يا ولدي عين الله تحرسك في كل خطوة تمشيها ، رح !! » ٠

□

سمعت ان « علي الخطيب » سيخطر الى البحر ٠٠ ذهبت اليه في الخشة : « يصبحك بالخير يا علي » « الله يصبحك بأنوار النبي » « يا أخي حسن يريد ان يخطر مع الخطار الى البحر ، خذه معك يا علي واعره انتباهك ، الله يطول عمر أولادك ، ما يزال صغيرا يا علي ودروب الملح كلها مخاطر وما هي هينة ، وعمره ما مشاها » قال « لا تهتمي يا أختي ، والله لاضعه في عيني ، وان شاء الله لن يصير عليه الا الذي يصير علي » قلت له « يكثر خيرك يا علي ويستر على عيالك ربنا من فوق !! » ٠

عدت الى البيت ٠٠ قال حسن « لا بد لي ان احضر حمارا آخر ، حمارنا لا يقدر ان يشيل شيئا ٠٠ راح ٠٠ استعار حمارا من عند بيت عوده ٠٠ قال لي « حضري لي زادي وزوادتي يا أمي » رحت ٠٠ نظرت في قن الدجاج ، وجدت أربع بيضات ، سلقتها ، وسلقت ست حبات بطاطا ، واحضرت أربع ازرار بندوره ، وقليلا من الزيتون وعشرة أرغفة خبز ٠٠ صررت له اياها في منديلي ٠٠ وضع رأسه ونام ، قال : « ايقظيني قبل صيحة الديك يا أمي كي لا « اتأخر عن الخطار » قمت علفت الحمير ووضعت لها قليلا من التبن ٠٠ نيمت الاولاد ٠٠٠ ما جاء عيني النوم ، قعدت أغزل صوفا لبيت الشيخ وأغني في الاولاد ٠٠٠ غنيت لحسن ووطفا ومحمد وندى ٠٠٠ ثم قمت قبلتهم وقعدت اتطلع اليهم وهم نائمون ٠٠ « يا احبتي ، تكبرون وتتزوجون وتخلفون صبيانا وبنات ٠٠٠ وتدفنونني بأيديكم يا أعزائي » ٠

سمعت « شبابة » « محمود ابي ردان » في هذا الليل ٠٠ احسست انه يجرح قلبي بعزفه ، يا ويلي عليه كم قلبه ملوع !! جعلني اتذكر كل الايام الماضية : ابي الضرير الذي كنت أقوده وهو يستعطي ، وموته في تلال النبي موسى ، ودفنه هناك لوحده بين الاودية !! الاب بطرس الطيب الذي رباني في الدير !! الاخت لويزا !! زواجي ٠٠ وفاة طفلي البكر ، وطفلي الثاني ، ووفاة البنت ، استشهاد زوجي بجانب القسطل في الثمانية واربعين ٠٠ تعبي وشقاي الى ان ربيت الاولاد ٠

تطلعت الى حسن ، شعرت بالخوف ٠٠ غدا سيخطر الى بحر الملح ٠٠ يا ولدي ، صغير ولا يعرف السباحة والبحر مرعب ، والملح تعب وشقاء ، وهو غير

معتاد على السفر والتعب والمخاطر ٠٠٠ ماذا أفعل لكي أمنعه من هذه السفره ؟! أأتركه نائما ولا اوقظه ؟ أخاف ان يجن اذا ما نهض ووجد انني فعلتها معـــه ، يا ربي أنت أعرف واعلم بحالي ، وتعرف كم تعبت وشقيت ، حتى جعلت مـــن أولادي رجالا ، أنا أضمهم أمانة بين يديك يا ربي ، ونذر علي اذا رجع حسن من البحر سالما لاذبح لك كبشا في النبي موسى ولو انني سأستجدي ثمنه ، وسأوزع لحمه على الفقراء والمساكين ٠٠

أحسست انه لن يغمض لي جفن ، وشبابة « محمود ابي ردان » جرحت قلبي ولوعتني ، وأثارت كل همومي :

□

أفاق حسن من النوم ، قال لي « أنت تبكين يا امي » مسحت دموعي ٠٠ قلت له « يا ولدي ، برضاي عليك لا تخطر الى البحر » غضب وثار ٠٠ قلت له « كفى يا بني ، الله يرضى عليك ويحن اليك ، قم صارت الدنيا منتصف الليـــل ، الان ينادي عليك علي الخطيب » قال لي « انما لا اريد ان اسمعك تقولين ، لا تـــرح ولا تجيء » قلت له « لن اتكلم يا ولدي ، فلقد تكلمت ما فيه الكفاية ٠٠ » قام ٠ أحضرت له كأس شاي ٠٠ تركته يشربه ورحت ٠٠ حلست الحمارين ووضعـت عليهما خرجين وثلاثة أكياس ٠٠ ملات القربة الصغيرة ماء ووضعتها في جانب خرج ، ووضعت في الجانب الثاني صرة الاكل ٠٠٠ ووضعت له بعض السكـــر والشاي ، وكيلتين وعلبة كبريت ٠

استيقظ محمد وندى ووطفا ٠٠ برهة الا علي الخطيب ينادي ٠٠٠ قام حسن ٠ قمت معه ٠٠٠ قلت لمحمد « اعر انتباهك لاختيك يا بني ، ريثما اودع أخاكـم » ساق الحمير أمامه ٠٠ وصلنا علي الخطيب ، صبحنا عليه ٠٠ قلت له « حسن وداعتك يا علي » قال لي « الوداعة على الله يا عائشة ، ان شاء الله لن يصير الا الخير ، روحي ارجعي لعند الصغار كي لا يخافوا وحدهم » « لا خوف عليهم يا علي ، ابقيتهم مستيقظين ، اريـد ان امشي معكم الى ان اوصلكـم لباقـــي الخطار » « الخطار بعيدون يا عائشة ، الى اين تذهبين معنا في هذا الليل ؟! » « في أي واد ينتظرونكم يا علي ؟! » « في وادي المنطار !! » « اذن دعني امشي معكم قليلا وسأرجع » مشيت معهم ٠٠٠ الدنيا ليل يا حسرتي ، قلت « يا ليتكـم انتظرتم ريثما يطلع القمر يا علي » « القمر يطلع متأخرا يا عائشة » قـال حسن « أرجعي يا امي ، الى اين تذهبين في هذا الليل ؟! » قلت له « قف لاقبلك يا بني» وقف يا حبيبي !! قبلته : «في حفظ الله يا بني ، اودعتك للذي لا يخون الودائع!! الله يفتح لك في كل ضيقة طريقا يا ولدي ، ويكف عين الظلام عنك !! ويعيـــدك بالسلامة يا بني ، وداعتك حسن يا علي » « اتكلي على الله يا عائشة » ٠

ركبا حمارين وتسهلا ٠٠٠ رجعت وأنا أناشد البحر ان يحفظ حسن ويرجعه لي سالما ، وتمنيت من الله ان يجفف ماءه اذا ما غدر به ٠

« ٣ »

وصلنا مكان التجمع ٠٠ لم نجد احدا ٠٠ قال علي « دعنا ننزل عن الحمير يا حسن ، ونرتاح برهة ريثما يجيء الناس «نزلنا» متى نصل البحر يا علي ؟ » « غدا في الليل » « أبعيد الى هذا الحد ؟ » « لا والله ، ليس بعيدا يا عمي ، لكننا لا نقدر ان نمشي في النهار ، نخاف من داوريات الفرسان ان ترانا » فكرت قليلا ٠٠ قلت « والله انني لا اعرف لماذا الدولة تمنع الناس ان يبيعوا الملح يا علي ؟ » قال « لانهم يضاربون على معمل الملح وعلى الملح المستورد !! » « كيف ؟ » « لاننا نبيع الملح بسعر أرخص من سعر المعمل يا عمي » « طيب !! لماذا لا يغلقون المعمل ، ما دمنا نحن نبيع الناس بسعر أرخص ، وحتى لا يستوردوا أيضا ، سنأتي بملح يكفي لكل المملكة ؟! » « لا يمكن ياعمي ، هذا المعمل كلف فلوسا كثيرة ، كيف يغلقونه ؟! » « وكيف نعيش اذن ؟ » « الذي رزق الدود في الصخر يا عمي ، يرزق الطير على الشجر !!! » ٠

بدأ الخطار يصلون ٠٠ تجمع اكثر من خمسين خطارا من خطار بلدنا ٠٠ الذي جاء بحمارين والذي جاء بثلاثة أو ببغل وحمارين ، والبعض أحضروا جمالا ٠٠٠ مشينا في هذا الليل !! صعدنا جبل المنطار ونزلناه ٠٠ قطعنا تلالا وشعابا ٠٠ انحدرنا الى اودية سحيقة ٠٠ شعرت ان « عليا » خائف علي كثيرا، لانه اصر على ان أركب الحمار وامشي امامه ٠٠ شاهدت قافلتنا وقد بدأت تجنح الى جانب واد بعد ان كانت تسير في منتصفه ٠٠ وسمعت الناس يتهامسون ، كل واحد يهمس للذي خلفه ، التفت الرجل الذي امامي على ظهر حماره ، وقال لي « تصادفنا مع داورية مهربين ، لا أحد يتكلم معهم ، خفت ٠٠٠ نهر علي حماره ، لحقني « ماذا قال لك ؟ » أخبرته ٠٠ « لا تخف يا عمي » جعلني أحس بالخوف أكثر !! التفت لاكلمه ٠٠ قال « هص ! » « هصيت !! » سمعت وقع حوافر خيل ٠٠ حدقت ، شاهدت رجلين يركبان جوادين ويحملان بندقيتين ويتلثمان بكوفيتيهما ٠٠ شكلهما مرعب ٠٠ أطل وراءهم اثنان ثانيان ، ثم اطل أثنان آخران أيضا ٠٠ ستة خياله ٠٠ جانبت بالحمير الى محاذاة الوادي ، ريثما يمرون ٠٠ اخافني علي عندما اقترب مني ، ووضع يده على ظهري ٠٠ نظر الخيالة الينا ومروا دون ان يتكلموا معنا ، وانا أنظر الى بنادقهم ٠٠٠ أطل أول القافلة ، من ورائهم : بغال محملة بأكياس ممتلئة ، عددت عشرين بغلا مرت من جانبي ، كل بغل يتبعه مسلح !! ثم أطل وراءهم ستة خيالة يحرسون القافلة من الخلف ٠ مروا ٠٠ تنفست ٠٠ قلت لعلي « ما هؤلاء ؟! » قال هص ،

مهربو حشيش وفلفل !! » « ماذا ؟ » « قلت لك همص ! » « الى من يهربون ؟ » اقترب مني ، همس في اذني « الى اسرائيل ، همص ، ايـــاك أن تسأل أسئلـة اخرى !! » ما سكت !! قلت « الا يوجد في اسرائيل حشيش وفلفل حتى يهربوا لها ؟! » « همص ، لكي لا يسمع أحد ، هذا حشيش وفلفل غير الذي نعرفه نحن!!» « كيف هو ؟! » « لا اعرف ، انما يقولون انه غال جدا !! » « من اين جاءوا ؟! » « يا ملعون الاب والام !! تريد ان توقعنا في داهية ؟! ٠٠ من الشرق !! » « من اين ؟! » « قلت لك من الشرق ، همص !! » ما همصيت !! « وهل يوجد شرقـــا فلفل وحشيش غير الذي عندنا ؟! » « الآن اغضب منك ، هـذه القضية لا مـــزح فيها ، هذا يجيء من بلاد بعيدة ، ولا يوجد في بلادنا منه !! » سكـت غضبـا عني ، وفي ودي ان اعرف الحشيش هذا ؟ والفلفـل ؟ ومن هم المهربون هؤلاء ؟ وكيف تصل البضاعة اليهم ؟ ولماذا يتسلحون ؟ وكيف يدخلون الى اسرائيـل ؟ والاهم من الكل ، لمـــاذا علي الخطيب يقول لي « همص » وكأنـــي أسألـه فـي السياسه ٠

□

تابعنا سيرنا ٠٠ تجاوزنا قبر جدي دون ان أعرف ٠٠ قلت « ليكن ، سأقـرأ عليه الفاتحة وانا عائد » ٠

وقفت القافلة في واد تحوطه السدود من كل النواحي ٠٠ نزل الخطار عـن دوابهم وربطوها الى جوانـب الصخـور وفي المغر ٠٠ وتفرقـوا علـى جوانب الوادي ٠٠ فرشوا اكياس الخيش واستلقوا عليها ٠

استلقيت انا وعلي واحدنا الى جوار الاخر ، قلت له « الى متى نظل هنا ؟!» قال « حتى مساء الغد الى ان ننزل الى البحر » ٠

قام بعض الخطار يغلون الشاي ، هم علي بالنهوض ، حلفت عليه ان لا يقوم قمت جمعت قليلا من الحطب ، اشعلت النار ووضعت ابريق الشاي عليها ٠٠ قلت لعلي « البحر بعيد من هنا ! » قال « مسيرة عشر دقائق يا عم » انهيـت الشاي ، جلسنا نشربه ٠٠٠ البغال جننتنا ، وهي تضرب قوائمهـــا بالارض و « تشخط » من انوافها ، تريد ان تقطع الاربطة ٠٠ سألت « عليا » « ما لها ؟! » قال « خائفة من الجمال؟!» « لماذا الحمير لا تخاف ؟ » « الحمير تربطها صداقة قديمة بالجمال ، بعكس البغال يا عمي » « ولماذا البغال محرومة من هـــذه الصداقة ؟! » قال « لا اعرف ، انما البغل يحس ان الجمل هو الوحيد بيـــن الدواب الذي لا تربطه به قرابة » « كيف ؟ » « أبوه حمار وامه فرس وخالـه حصان يا عمي ، لم يبق الا الجمل ، لا يمت اليه بقرابة ، من هنا صار العداء بينه وبين الجمل !! » « اذن البغلة ليست ام البغل ؟! » « كلا يا عمي البغلـة

لا تنجب ! » « كيف يشب الحمار على الفرس وتلد بغلا ؟! » « تلد يا عمي ، الا تسمعهم عندما يشتمون احدا ويقولون له « يا بغل يا ابن الحمار » ٠

سمعنا هرجا ومرجا يقدم من بعيد ٠٠٠ تبين انهم خطار « العبيدية » وجدونا نحتل المكان ٠٠ ذهبوا الى واد ثان ٠٠٠ بعد قليل وصلت قوافل « التعامـرة » اخبرناهم ان « العبيدية » مروا قدامهم ٠٠ ذهبوا يبحثون عن واد آخر ٠٠ قلت لعلي « ايوجد ملح في البحر يكفي لكل هؤلاء الناس ؟! » قال « يوجد ملح كثير يا عمي » ٠

خطرت لي اسئلة كثيرة ٠٠ لكن « عليا » قال « الآن نريد ان ننام يا عمـي ، غدا ، سأخبرك قبل ان ننزل الى البحر » ٠

لم تغمض لي عين ٠٠ مكثت طوال الليل ارقب القمر والنجوم ، والجبـال المحيطة بنا ، واستمع الى صرير الصراصير وعواء الذئاب و «فغير» الثعالب ٠

فوجئت بطلوع النهار ٠٠ قمت ، صعدت سفح الجبل ، اشرفت على البحر ، جلست على حجر وصرت اتفحصه ٠٠ ظللت الى ان طلعت الشمس ٠٠

كنت اسمع ان المياه في الاماكن التي فيها ملح ، ليست عميقة ، لكننـي احسست ، وانا انظر الى البحر ، أنه كله عميق ، وان الذي لا يعرف السباحة سيغرق ، مع انني سمعت ان مياه هذا البحر لا يغرق فيها المرء دون باقـي البحور ٠٠٠ حاولت اقنع نفسي بهذا ، لكنني لم استطع ، وشعرت ان البحـر ارهب بكثير من الصورة التي كنت اتخيلها عنه ٠٠ وبدأت اخاف ، ولاول مرة فكرت في كلام امي وخوفها وحزنهـا ٠

ـ ٤ ـ

قمت من النوم ٠٠ نظرت حولي ، لم اشاهد حسن ٠٠ ناديت « يا حسن » لم يرد احد ٠٠ ناديب مرة اخرى بصوت اعلى ٠٠ رد علي من فوق الجبل « ماذا تفعل عندك ؟ » انظر الى ألبحر » «ابق مكانك وسأجيء اليك » اطلقت الدواب لترعى ٠٠ حملت صرة طعامي وطعام حسن وابريق الشاي وقربة الماء ،وصعدت اليـه ٠

انتشر الخطار في الوادي وعلى التلال المشرفة على البحر ، واطلقوا دوابهم ترعى بين الاودية ٠٠ وصاروا يشعلون النار ، ليغلوا الشاي ٠٠ وعلى التـلال المقابلة لنا ، انتشر « العبيدية » و « والتعامرة » سألني حسـن « ألا تجـيء الداوريات في النهار يا علي ؟! » « لا يا عمي » « لماذا ؟! » « لانهم يعرفـون أن الخطار لا ينزلون الى البحر في النهار » « اذن ، دعنا ننزل !! » قلت له « الله

يرضى عليك يا عمي ، الف واحد سيشاهدوننا ويبلغون الحكومة » ٠

اشعلنا النار ٠٠ صعد الدخان من عندنا ومن الوادي ومن السفوح والتلال، التي صعد اليها « العبيدية » و « التعامرة » ولم نسمع الا واحد « العبيدية » يصرخ الينا من الجبل المقابل « يا ناس يحرق امكم في عزا أبوكم !! » كلكم أشعلتم النار في آن واحد ، حتى تكشفونا وتخربوا بيوتنا ، الم تعرفوا ان تشعلوا النار في الوادي ، وتغلوا الشاي وتصعدوا تزدردوه فوق ؟ » رد عليه واحد من جماعتنا « هو انت صبحت فاتح عقيرتك علينا في هذا الصباح لماذا ؟! هم الذين سيشاهدوننا ، سيعرفون اننا خطار ؟! » رد العبيدي عليه « لا ، سيعتقدون انك سائح يا ابا القمل !! » « قمل في بيت ابيك يا جيفة يا ابن الجيفة !! » « أنا جيفة يا ابن عشيرة جائفة ، والله الان اجيء اليك ، ادحرجك من فوق هذا الجبل !! » « والله لاحرقن اضلاع الذي خلفك ، ابق عندك لنرى من الذي يدحرج الآخر ، باطل ! والا ما تكون ولدتني سحورية !!! » وانحدر يجري مع الجبل وهو يقول « باطل ، اين انتم يا سواحرة ، العبيدي النذل يسب على عشيرتنا ؟!! » ثارت نخوة رجالنا فانفضوا من اماكنهم ٠٠ قال حسن « ماذا نفعل يا علي ؟ » قلت له « ابق جالسا يا عمي » قمت ، ركضت خلف رجلنا ، لحقته ، امسكته وامسكت رجلا كان يندفع وراءه أيضا ، وحلفت على باقي الرجال ان يختصروا الشر ٠٠ قالوا « هو الذي بدأ يسب علينا » قلت « العبيدية جماعة طيبون وحقنا لن يضيع عندهم ٠٠ حاولوا الافلات مني فلم يستطيعوا ٠

وصل بعض العاقلين من جماعتنا ، وحجزوا « الهواشين » !! ورأيت رجلا من العبيدية ، يسبق كل الرجال الذين كانوا يركضون خلف العبيدي الذي دبت فيه الرجولة ونزل يجري ناحيتنا ٠٠ صرخ به « هيه يا ابن البغل الى أين تكر على السواحرة لوحدك ؟! » الآن دبت فيك الرجولة يا نذل ؟! قف والا والله اتيت بخبرك !! » توقف العبيدي في مكانه ، لحقه الرجل الثاني ، صفعه كفين وجعله يرجع مع باقي « العبيدية » ٠

رجع رجالنا بدورهم ٠٠ جاءنا ثلاثة رجال من العبيدية قالوا لنا « حقكم علينا يا سواحرة والذي تريدونه نحن نفعله » تشاورنا فيما بيننا ، واتفقنا ان نسامح العبيدية لانهم جاءوا مذعنين ٠٠ جئت ، حفرت حفرة ، وضعت فيها حصوة ، قلت للعبيدية « والله لو أنكم قتلتم رجلا منا ، وجئتم لعندنا ، لسامحناكم به !! هذا عليها يا جماعة !! » ودفنت الحصوة بقليل من التراب ، ووضعنا على كل هذه القضية حفرة وحصوة !!! واعتبرناها وكأنها لم تحدث ٠٠ خجلنا العبيدية، قاموا ، جاءوا برجلهم وجعلوه يقبل رؤوسنا كلنا ، لانه شتم العشيرة ، وشربنا الشاي معا ، واتفقنا ان لا نشعل النار مقابل البحر ، وان لا نتجمع حتى لا نلفت انتباه احد ، وان لا ندع الدواب تخرج من الاودية ٠

ارتفعت الشمس قليلا ٠٠ قال حسن « الا نعود لنجلس مقابل البحر ؟ » فكرت للحظة ٠٠ « والله يا عمي ان القعدة فوق لا تفوت ، يا الله ، لنصعد قبل أن تحمى الشمس ٠٠ صعدنا ٠٠ جاءت الى الشاطىء سيارات وباصات سياح ٠٠ نزلوا من السيارات ، رجالا ونساء ، تعروا ونزلوا الى البحر ٠٠ قال حسن « دعنا ننزل ونتفرج عليهم !! » قلت له « ممنوع يا عمي ، تطردنا الشرطة السياحية !! » « لماذا ؟ » « لان معهم جريما عاريات !! » ولا اعرف لماذا قال حسن « أنا ارى ان كل شيء ممنوع علينا الا التعب والشقاء !! » قلت له « تهون يا عمي يا حسن تهون !! » سكت وسرح بعينيه الى البحر ٠٠ سرحت انا ايضا نظرت الى الملاحات ٠٠ فكرت « مسكين هذا الولد ، كم تعبت امه حتى انتشلته هو واخوته من الموت ، والآن خائفة عليه ، يحق لها والله يحق لها ، وأنا احس انه حمل على ظهري ولن ارتاح الا بعد ان أعيده اليها سالما ، الله يسامحها ، ما وجدت واحدا ترسله معه غيري ؟! »

فكرت في الامر كثيرا ، خفت ان تكون المياه عميقة في الملاحات ، فيغرق الولد ٠٠ قلت « افضل شيء ان لا ادعه ينزل الى البحر ، واذا ساعدني الخطار كلهم ، لن يصيب الواحد الا حفنة ملح ، نملأ هذيـن الكيسين اللذين معه ، ونحملهما على الحمارين ونعود ، الهم ان لا ادعه ينزل الى الماء ولو ملأت الكيسين وحدي » ٠

تطلعت اليه ، شاهدته سارحا يفكر ٠٠ « حسن ! » « نعم » « البحر صعب على من لم يعتد عليه يا عمي ، وانت صغير وهذه اول مرة تخطر على الملح ، ابق عند الحمير يا عمي ونحن نملأ اكياسك » نظر الي « أنت خائف علي يا علي ؟! » « والله يا عمي ان اردت الصدق اني خائف ، ولا تنس ان امك اوصتني عليك ، ولا يهون علي ان يحدث لك شيء لا سمح الله » سكت قليلا ، رنا الى البحر وهو واجم ، ضم شفتيه ، عض على السفلى ، وكسر عودا صغيرا كان في يده ٠٠ نظر الي نظرة واثقة : « استمع يا علي !! » « انا مصغ اليك يا حسن » « الحقيقة انني ما كنت خائفا من البحر ، لكن ، عندما شاهدته وتذكرت خوف امي ، خفت ، وخوفك الآن جعلني احس بالخوف اكثر ، لكنني سأنزل في الماء واملأ أكياسي بيدي ، ولا اقبل ان تملأوها عني ، وليكن ما يكون !! » « لماذا هذا الاصرار يا حسن ؟ » « لانها ليست المرة الوحيدة يا علي ، ممكن ان يساعدني الخطار هذه الخطرة ، وخطرة اخرى ، لكن ليس من المعقول ان يحتملوني كل الخطرات ، ويظلوا يساعدونني ، لا بد من نزولي الى الملاحات يا علي ، حتى اعرف دروبها ومخاطرها ومتاهاتها ٠٠٠ » نظرت اليه لبرهة ٠٠ « كلامه صحيح » مددت يدي ، ربت على ظهره ٠٠ قلت له « لا تهتم يا حسن ، اتكل على الله يا عمي ، وان شاء الله لن يصير الا الخير » ٠

قعدنا حوالي الساعتين ، نزلنا الى الوادي ، تغدينا ووضعنا رؤوسنا ونمنا٠

قمنا في المساء ٠ تعشينا ٠ سقنا الحمير امامنا وربطناها عند باب الوادي بين التلال ، حتى لا تراها الداورية اذا جاءت ٠٠ نزعنا ملابسنا كلها وتركناها عند الحمير ٠٠ اخرجنا الصفائح من المخبأ ، أعطيت حسن صفيحة ، قلت له « هذه صفيحة مثقبة من تحت لتخرج فيها الملـح يا عمـي ٠٠ » حملنـا الأكياس ومشينـا ٠

وصلنا الملاحات ٠٠ وجدنا « العبيدية » و « التعامرة » قد سبقونا واحتلـوا رأس البحر كله ٠٠ قلت « يا رب اجعل هذه الليلة تمضي على خير ، ولا تجعل العشائر تتقاتل على الملح فيها !! »

نزلنا الى الماء ، اختلط الناس ، الواحد بالآخر ، قلت لحسن « ابق واقفـا يا عمي ، ريثما ابحث لك عن ملاحة قليلة الماء ٠٠ رحت يمينا ، رحت شمالا ، توجد ملاحات لم أعرف ان اقطعها الا سباحة ٠٠ بحثت علني اجد ملاحة تبخر من مائها كثير ، وصلت الى مصب الشريعة (١) ، فما وجدت ٠٠ رجعت الى حيث حسن « والله لا يوجد يا عمي » انحنيت في الماء ، مددت يدي تحت ، تحسست الملح ، وجدته قليلا ، اخرجت بيدي بعضه ، قربته من عيني ، تأكدت انـه ليس نظيفا ايضا ٠٠ أخذت حسن لملاحة اخرى ٠٠ وضعنا الاكياس الى جانبها ونزلنا قلت له « ابق الى جانب الملاحة يا عمي ، اياك ان تتعمق لمنتصفها ، المياه عميقة» أمسكت بيده ، قدته حتى بلغ الماء حزامه ، قلت له « اياك ان تغوص اكثر مـن هنا ؟ » انحنيت تحت الماء ، غرفت بالتنكة شيئا من الملح وخرجت ، اعطيته اياها ٠٠ ذهب ، افرغها في الكيس وعاد ٠٠ قلت له « عندما تنزل تحت الماء اغمـض عينيك ، واياك ان تتنفس هه ! » ومن خوفي عليه اعدته الى جانب الملاحة ،حتى لا ينزل رأسه تحت الماء عندما ينحني : « لكن الملح قليل » « لا بأس يا عمـي سأساعدك بعد ما املأ اكياسي ، افهمت ؟! » قال « فهمت ، انما سأتقدم قليلا !!» « لكن اياك ان تتجاوز المكان الذي قدتك اليه ؟! واياك ان تذهب يمينا او شمالا اذ توجد اماكن عميقة في الماء ، واذا دخلت مياه الملح في عينيك لن تقـدر ان تفتحهما ، واذا شرقت بها تصير لا تعرف « الطيط من الغيصلان » (٢) !! وقد تموت هه ؟! دير بالك يا عمي «الله يرضى عليك » قال « ولا يهمك ! » وقبل ان ابتعد عنه قلت له اهم شيء قلت « اذا جاءت داورية الشرطة وانت في الماء ، لا ترتبك يا عمي ، توقف وضع اصبعيك «السبابة والابهام » على انفك ، وعندمـا ترى ضوء الكشاف يتجه الى ناحيتك اغطس تحت الماء ــ اياك تنسى ان تغلـق انفك ــ لحظة ويكون ضوء الكشاف قد ابتعد عنك ، تطلع ، اياك ان تتنفس تحت الماء هه !!٠٠٠ وكيسك تتركه ممددا الى جانب الملاحة ، لا توقفه ، وعندما يصير

---

(١) نهر الاردن ٠

(٢) نباتات برية ٠

فيه قليلا من الملح ، اذهب وافرغه في الكيس الذي عند الحمير ، ثم عد بسرعة ، واذا جاءت الداورية وانت في الطريق ، تمدد على الارض او اكمن بجانب شجرة او اي شيء، افهمت ؟! قال « فهمت ولا يكن لك فكر » ٠

أبتعدت عنه قليلا ٠٠ بحثت علني اجد مكانا فيه ملح نظيف ٠٠ غطست تحت الماء ٠٠ تحسست القاع ٠٠ الملح قليل ٠٠ وجدت ضرسا صغيرا ، حملته وطلعت ٠٠ مسحت الماء عن رأسي ووجهي وعصرت شعري الى الوراء لكي لا ينزل الماء في عيني عندما أفتحهما ٠٠ « ايه لن نملأ الاكياس حتى الصباح على هذا المعدل ، ليت هذا البحر قريب من بلدنا لسرقنا المياه وجعلناها تجف عن الملح وما تعذبنا هذا العذاب » ٠

□

ملأت حوالي ربع الكيس ٠٠ حملته ، ارسلته الى عند الحمير ورجعت ٠٠ قلت ، اروح ناحية حسن اطمئن عليه ٠٠ وجدته متوغلا في الماء ، وقد جمع قليلا من الملح : « يعطيك العافية يا حسن » « الله يزيدك عافية » « كيف الشغل معك ؟ » « مليح لو لم يدخل الماء في عيني لملأت اكثر » « استرح قليلا يا عمي » « لا بأس سأغمض كل عين مرة وارى بالثانية » « الم اقل لك ان تبقى الى جانب الملاحة يا عمي الله يرضى عليك ؟ » « الملح قليل جدا في الجانب يا علي ، لم اجمع شيئا » « انتبه يا عمي » « توكل على الله » تركته ورجعت الى مكاني ٠

نظرت من حولي علني ارى الملاحين ، لم اشاهد احدا في هذا الظلام ، الناس متفرقون في الملاحات ، انما احسست بحركة بعضهم في الملاحة التي انا وحسن فيها ٠

غطست تحت الماء ، ملأت شيئا من الملح في التنكة وطلعت ، مسحت رأسي من الماء وفتحت عيني ، ما رأيت الا ضوء الكشاف وقد سلط على المنطقة من مسافة تقل عن الكيلو متر واخذ يمشطها من الشمال الى الجنوب ٠٠ لم أتمكن من النظر الى حسن لان الضوء جاء الى ناحيتي ، وضعت اصبعي فوق انفي وغطست تحت الماء ، اطلعت نصف رأسي بعد أقل من دقيقة ٠٠ شاهدت الضوء على منطقة حسن ٠٠ تأكدت انه غاطس تحت الماء ٠٠ قلت « يا ربي ابعد هذا الضوء عن منطقته واحفظه وارعاه بجاهك وجاه هذا الليل الميمون !! » ابتعد الضوء ناحية الجنوب ٠٠ مشيت ناحية حسن لاطمئن عليه ، لكن ضوء الكشاف رجع بسرعة ٠٠٠ همست « يا حسن » قال « نعم » « لا تخف يا عمي الآن « ينقلع !! » وداهمني ضوء الكشاف ولم اكمل ٠٠ غطست لحظة وطلعت ٠٠ رأيت ضوء الكشاف يتجه ناحية الشمال وقد تجاوزنا ٠٠ قلت له الآن « ينقلعون » !! يا عمي ، اصمد قليلا وخذ حذرك هه !! » ولم أسمع ماذا قال

لان الضوء داهمني من جديد ٠٠ غطست « طلعت » ٠٠ ابتعد الضوء ٠٠ قلت « سمعت يا حسن ؟ » قال « سمعت ، لكن الماء دخل عيني ولا استطيع ان افتحهما نهائيا ، كيف سارى الضوء عندما يجيء الى ناحيتي ؟!! » قلت « امسح عينيك وتحمل يا عمي !!» وسمعت الناس يهمسون لنا « بدون كلام انت وهو ، تريدان ان توقعانا في داهية ؟! »

سرت ناحيته ، لكن الضوء داهمني ، قلت « اغطس يا حسن » غطس وغطست من بعده وحاولت ان اسبح الى ناحيته ٠٠٠ طلعت بعد لحظة صغيرة ٠ ٠قلت « اطلع يا حسن !! » لكنه لم يطلع ، تذكرت انه تحت الماء لا يسمع صوتي ٠٠ سبحت الى ناحيته ، رجع الكشاف ، غطست ٠٠ طلعت ، لم يطلع حسن « يا الهي صار له حوالي دقيقتين تحت الماء ! » شاهدته يطلع ٠٠ صرخت له « أنا قادم اليك يا حسن لا تخف يا عمي ؟! » قال « الحقني يا علي سأموت !! » قلت « أنا اموت عنك يا حسن ، روحي فداك يا عمي » سبحت ناحيته ٠٠ « يا رب توقف هذا الضوء قليلا لكي اصله ، حتى اغطسه واطلعه معي !! » رجع ضوء « البين » علينا ٠٠ صرخت له « اغطس » وغطست ٠٠ « يا ملعون ابو الذي انت ضوءه من أين جئت ؟! » طلعت من تحت الماء وعيناي على حسن ٠٠ لم يطلع ، رجع ضوء الكشاف ، طلع حسن ، ما كاد يتنفس يا ويلاه ، قلت له « اغطس » وغطست « يا رب امتني انا واعد هذا الولد سالما لامه » طلعت ٠٠ طلع حسن ٠٠ رجع الكشاف : « اغطس » وغطست ٠٠ طلعت ٠٠ لم يطلع حسن ٠٠ رجع الضوء مرتين وغطست وطلعت وهو تحت الماء » طلع فيما بعد وشاهدته يخابط بيديه ٠٠ استنجدت بكل الانبياء والمرسلين ٠٠ صار الضوء يروح ويجيء بسرعة مخيفة ٠٠ صرت اغطس واطلع وعقلي مع حسن ، وعلقت كلمة « اغطس » بلساني ، فما الحق ان اطلع واتنفس الا والضوء راجع، أقول لحسن « اغطس » وعلى الرغم من انني كنت اعرف انه لا يسمعني تحت الماء ، كنت اقول « اطلع » ، وظللت اتمنى من الله ان يفدي هذا الولد بروحي ويعيده سالما لامه ٠

ـ ٥ ـ

ها هو اول القوافل يقترب من سفوح جبل المنطار ، واطفال عائشة العلان يهرعون من البيت ٠٠ يتحلقون حول امهم ويرقبون القوافل من على قمة الجبل٠٠ يسألونها : « الم يأت اخونا يا امنا ؟! » فتقول « ان شاء الله يأتي بالسلامة يا اولادي » وتضع جزة الصوف والمغزل في خريطة الخيش وتنهض ٠٠ تحمل الخريطة على ظهرها ٠٠ تقود ابنتها الصغرى « ندى » من يدها وتأخذ في نزول الجبل يتبعها « محمد » و « وطفا » ٠٠ تطلق بصرها جاهدة لتتأكد من

هوية القافلة ، لا تستطيع ٠٠ تسير بخطوات حثيثة ٠٠٠ تقترب من القافلة ٠٠ تنغرس شوكة في احدى قدمي البنت العاريتين ، تتألم وتفلت يدها من يد امها وتجلس لتقلع الشوكة ٠

□

دواب منهكة تسير مثقلة بأكياس الملح ، العرق ينضح من اجسادها ، واللهاث يخرج صفيرا من انوفها ، والرجال يسيرون خلفها بخطوات متعبة ، وقد خارت قواهم ، والتصقت ملابسهم بأجسادهم من جراء العـــرق المتصبب ، وتقصفت شفاههم الجافة ، وارتسمت على وجوههم مسحات من الكآبة المفجعة ، وتورمت عيونهم وانتفخت من جراء مياه الملح ، تتعثر اقدامهم بين الفينة والاخرى ، وهم يدارون الم الحرقة الذي تحدثه مياه الملح في اجسادهم ، فقد تسلخ ما بيـــن افخاذهم ، فأخذوا يسيرون وقد باعـــدوا ما بين ارجلهم ليتلافوا احتكـــاك افخاذهـــم ٠

تمر « عائشة العلان » من جانبهم ٠ لا ينظرون اليها ٠٠ تتأمل الدواب المنهكة تحت الاكياس ٠٠ تسأل احدهم « الم تروا خطار السواحرة يا اخي ؟! » يشير الرجل بيده الى الوراء ويقول « مع الناس الذين وراءنا يا خالة » ويتابع سيره المتهالك خلف الحمار ٠

تتجاوز « عائشة » عشرات الحمير والبغال ، تمر عنها مجموعة اخرى ، ترى ثلاثة رجال يسيرون خلف احد الحمير ٠٠ تقترب منهم ، تتسمر عيناها علـــى جثة رجل مربطة بالحبال وقد تدلت قدماه ورأسه على جانبي الحمار ، تهـــرع اليهم : « البقية في اعماركم يا اخي !! » يجيب احدهم بكلمات يثقلها الحزن : وعمرك يا خالة » « خير ان شاء الله ؟! » « جاءت الينا الداورية ونحن فـــي الماء ، شرق ومات ، الله يكون في عون امه ، ليس لها غيره !! » « يا حسرتي عليها !! » رددت ذلك وهي تهمد على الارض وتجلس في مكانها مذعورة ، هرع الرجل اليها « ما بك يا خالة ؟! » « ولدي يا ولدي ؟ » « ولدك مع الخطار ؟ » « اي يا بني !! » « مع اي خطار ؟ » « مع خطار السواحرة يا بني » « توكلي على الله يا خاله ، ما مات منهم الا واحد حسب ما سمعت ! » احست بقلبهـــا يتقطع ، وجاهدت وهي تقول « الا تعرف كم عمره يا بني ؟ » « والله لا أعرف يا خالة » وانصرف الرجل خلف الرجال ٠

مكثت جالسة في مكانها لا تقوى على النهوض ٠٠ خاطبت الاولاد « ارجعوا الى البيت يا امي !! الله يرضى عليكم ، اخوكم قد يتأخر ، والدجاج بحاجة الى مـــاء وعلف ، روحوا ضعوا لهـــا ، والصيصان ، اخـــاف ان تخر العقبـــان

والصقور عليها وتخطفها ، ارجعوا يا امي ارجعوا ٠٠ » ورجعت البنتـــان والولد تحت الحاحها ٠

□

الخطار يمرون ٠٠٠ مر كل خطار « العبيدية » ، وها هم خطار التعامـــرة يطلون من سفح تلة ٠٠ تجاهد لتنهض على قدميها لكنها لا تستطيع ٠٠

مر حماران يتبعهما رجل ، ومر ثلاثة يتبعها ثان ومر اثنان يتبعهما آخر ٠٠ ويمر الخطار بدوابهم المثقلة المنهكة وهي تجلس خائرة القوى ٠٠٠

ها هي جثة اخرى يتبعها اربعة رجال تطل ٠٠٠ يمرون عنها ويبتعدون ٠٠ « اين قافلة البلد ؟ » لماذا لم تأت حتى الآن ؟ هل ستشاهد عيون حسن ؟ » لن تدعه للملح ثانية ، ولو سيأتيها ببحر الملح كله ، والشيخ علي ، الله يدهاه في ماله وعياله ، فهو سبب كل هذا الشقاء !! » نظرت فيما حولها ٠٠ شاهـــدت القوافل تصعد جبل المنطار وتتوارى خلفه ٠٠ حدقت لتشاهد اولادها ، لكنها لم تشاهدهم ٠٠ شردت : « طارت بجناحين من اقحوان !! قطعت التلال والاودية ، بلغت قافلة الخطار ، حلقت فوقها ، شاهدت حسن يسير خلف الحمارين والعرق ينضح من جبينه ، ضمته ، قبلته ، احتضنته سقته ماء باردا ، حملته وطارتبه»٠

□

ها هي قافلة البلد تطل ٠٠ تنفرد اسارير وجهها ٠٠ تجاهد لكي تنهـض ، تنهض ، تسير ، تستقبل القافلة ٠

« هذا « احمد السلمي » خلف حماريه يدنو منها ٠٠ ينظر اليها متمعنا ثـم يطأطىء رأسه الى الارض ويسير خلف الحمارين ٠٠ يتجاوزها دون ان ينظـر اليها او يرد التحية ٠٠ تنده له « ابني يا احمد ، ما رأيت ابني ؟! » يشير بيده الى الوراء دون ان يلتفت نحوها ٠

تحس ان قواها عادت تخونها ، فها هم خطار البلد يمرون عنها ويتجاهلونها ولا يجيبون على تساؤلاتها او يشيرون بأيديهم الى الوراء ٠٠ تتهاوى متهالكة في مكانها ٠

اهل « علي الخطيب » من سفح التلة ٠٠ نظر ، شاهدها تجلس على قارعـة الطريق ، لم يخطر له انها قد لا تكون هي ، لقد جاءت اللحظة التـــي حسب حسابها الف مرة ومرة ٠٠ « ماذا يقول لها بحق كل الانبياء ؟! هل يقـــول ان ضوء الكشاف حاصرهم لمدة تقارب الساعتين وان معظم الخطار قد شرقـــوا

بالماء ولم يسلموا الا لانهم اعتادوا هذه المياه اللعينة ، وانه عمل كل ما في وسعه لينقذ حسن ، بل وتمنى ان يموت هو بدلا منه ؟! »

احس ان الموت اهون عليه من مواجهتها ، توقف ، فتوقف « حسين الرشود »! الى جانبه ، وتوقف الحمار الذي يقل جثة حسن امامهما ، ولم يعرفا ماذا يفعلان ٠

حدقت « عائشة العلان » باتجاههما ، ارتابت من وقفتهما ، ايقنت ان احدهما لا بد وان يكون علي الخطيب وإلا لما توقفا ٠٠ نهضت واقفة على ساقيها الخائرتين ٠٠ هرعت نحوهما ٠٠ أحست بأن رجليها لن تبلغا بها المكان ٠٠ اقتربت منهما ٠٠ شاهدت الجثة على الحمار ، حدقت تتأملها ٠٠٠ خارت قواها اكثر من جديد ، جاهدت ، حنت ظهرها واستمرت في هروعها ، أقبلت على الجثة ، تأملت القدمين البارزتين من تحت الكيس والمدلاتين على جانب الحمار « انهما قدما حسن » تعثرت خطاها ٠٠ سقطت ، حبت على اربع ٠٠٠ اقتربت ، مدت يديها ، تشبثت بقدمي حسن ، ضمتهما وسقطت متهالكة عليهما وهي تردد « الشيخ علي و « عدوينك » !! يموتون عنك يا ولدي » وخرت مغشيا عليها ٠

فيصل دراج

البهلول
الايديولوجيا الادبية والايديولوجيا المباشرة

يقدم توفيق فياض في مجموعته القصصية « البهلول » ثلاث صور فلسطينية : « الشيخ لافي الملك » ، « أبو جابر الخليلي » ، و « البهلول » · ثلاث صور تؤلف وحدة في مادتها القصصية وفي الشكل الفني الذي تأخذه هذه المادة · تستعيد هذه « القصص » ماضي الشعب الفلسطيني من حيث هو ماضي صراع ومواجهة ، وتتناول حاضره كامتداد لذلك الماضي واستمرار له ، وتعيد بناء هذه الحركة التاريخية فنيا ، فيتجلى الحاضر في الماضي وتتواشج لحظة الحاضر بلحظة الماضي حتى يقف « الزمن الفلسطيني » أمامنا وحدة حركية تنزع الى التحقق · يبدأ « توفيق فياض » انطلاقه من محرق اللحظة السياسية فلا يضيع في الهوامش ، يرسم عالما هو عالمه ، فيدخل الزوايا الحميمة ويصل الى التفاصيل الحقيقية دون ان يتيه في أرجاء العوالم الهجينة · يقف كاتبنا داخل « الدائرة الفلسطينية»، يعيش ابعادها ، ويستلهم انتصاراتها وانكساراتها · يحكي عن مكان هو مكانه ويقص زمنا هو زمانه · وتتداخل الازمنة والامكنة حتى تستحيل الى لحظة وعي كثيفة يقف فيها الكاتب ذاكرة لشعبه او ذاكرة لذاكرة ، ذاكرة فردية لذاكرة جماعية ·

الشيخ لافي : بطل بلا بداية وبلا نهاية

في « الشيخ لافي » يعود الكاتب الى الماضي والجذور · يستلهم عبق التاريخ ويسترجع ما مضى · يبحث عن البداية في النهاية او يبحث عن النهاية في البداية او البدايات · واذا كانت « النهاية » ماثلة أمام العين وحاضرة في مجال الرؤيا فان البداية او البدايات تقف بعيدة وراء غيوم الذاكرة وكثافة الحكايات · والبداية هي القرية والبدايات هي حركة شعب مستمرة للحفاظ على هويته الوطنية والانسانية · وفي استرجاع البداية يتحرك الحاضر صاحيا ، ويمتزج بما مضى بما هو آت ، ويستحيل الزمان الى فيض والحكاية الى أمثولة : الحاضر هو كل الازمنة ، والقرية هي كل الامكنة ، و « الشيخ لافي » يكثف حركة شعب بأسره ·

حركة « الشيخ لافي » هي حركة جموع الفلاحين التي تعبر عن المنحى العام لحركة شعب نضال جموع البسطاء التي تقاتل من أجل الوطن ، ومن أجل الوطن فقط · تدور حيـــاة « الشيخ » في قرية « البارد » ، عمرها هي عمر الشيخ أي نضاله : « عُمره كان من عمر أقدم بيت في القرية ــ ص ــ ٨ » · وبعد تحديد المكان يتحدد أمامنا « البطل » :

« الشيخ لافي » هو التجسيد المادي لشعب والمعادل الفني الذي تصوغه ذاكرة قروية بل يمكن ان نقول انه الكيان التاريخي الذي تبنيه ذاكرة جماعية · ذاكرة تبني الكيـــان وتتعرف على نفسها فيه · ذاكرة تحكي عن « الشيخ » وتحكي عن ذاتها ، انها فيه وهـــو فيها : النضال مساهمة جماعية / « والبطل » معادل فني تبنيه ذاكرة جماعية :

ــ « غير ان الرأي السائد في القرية ، وهو رأي الدراويش ··· ، يؤكد أن ليس جـــد الامام الملك هو الذي بنـــاه » ص ٩ ·

ــ ولكي يعرف احدكم كان عمر الملك حين اختفى ، فلا بد وان يستمع الى العديد مـــن الروايات » ص ٧ ·

ــ « أما لماذا لقب لافي الحمد ، بالشيخ ، ومن ثم بالملك ، فهي الرواية الوحيدة التي لا تختلف الروايات فيها » ص ١٠ ·

ــ « ويروى الشيخ محمود الحمد عن أبيه الشيخ المبروك احمد الحمد ، ان الشيخ لافي اصبح » ص ١٢ ·

يتتابع الحدث امامنا ابدا محمولا على الذاكرة الجمعية التي تستعيد الماضي عبـــر منطقها الخاص كي تمنحه دلالته وتربطه بالحاضر · يتكلـــم الرواة ، اذن ، فتتجمـع « الحكايات » وتتقاطع ، ثم تجري لتصب معا في نهر ــ ذاكرة · والنهر ــ الذاكرة هـــو البطل في التاريخ · ذاكرة قروية تتحدث عن نفسها ، تعيد بنـــاء ذاتها اعتمادا علـــى ايديولوجيتها الخاصة ، فيتعانق الواقع والخيال ، الحقيقي والوهمي · فما هي هـــذه الايديولوجيا ؟·

المكان هو قرية ، والذوات فلاحون · وفي عالم القرية المغلق لا يتحرك كفكر الا الفكـر الديني ، ولا يحكم العقول الا منطق التعالي والميثولوجيا والخارق · لذلك تتحرك القرية أمامنا محكومة بأقمطة دينية كاملة الحضور :

ــ « الدراويش الذين لا يزالون ينصبون حلقات الذكر كل ليلة جمعة » ص ٩ ·

ــ « ارتفعت دقات الطبول والصنوج من مقام سيدي الشيخ حامد » ص ٣٢ ·

ــ « راح الدراويش يدورون بحلقات ··· ، وهم لا يزالون يضربون الطبول والصنـوج ويلوحون بالاعلام » ص ٣٣ ·

الذاكرة التي تروي الحدث ، تبدأ اذن من أيديولوجيا دينية ، لذلك فان تشكل الحـدث لا بد من أن يتلون بهذه الايديولوجيا ويأخذ منطقها · وعندما ترسم الايديولوجيا الدينية كيانا ، ترسم وفقا لمنطقها ، أي بلا تناقض ، فيتقدم الكيان منسقا، كاملا، مستقيم الحركة، لا يعرف التطور لانه معطى دفعة واحدة · بمعنى آخر · ان الذاكرة الدينية لا ترسم الا بطلا ملحميا منفتحا على الزمان والمكان ، لا يعتوره نقص أو شذوذ ، انه كمال الوجـــود والوجود الكامل · بدء بلا حدود ونهاية لا تعرف النهاية · لذلك يصبح « الشيخ لافي »

اسطورة أو « ملاكا » · يتحرك بخصائص فوق ـ انسانية ، ويـــدور في حقل خاص لا يستطيع الانسان العادي الوصول اليه · لنر ما هي سمات « الشيخ » :

ـ « أصبح الشيخ لافي كلما أتى على ذكر السيدة خديجة يصمت ، ثم يغيب وعينـــاه تلمعان **صبابة** ، وكأنه **يقص حكاية تناسخت معه منذ الازل** » ص ١٢ ·

ـ « عيناه لا تزالان **معلقتين في البعيد** وكأنه كان يتلقى**ما ينشده من وحي ينزل عليه** » ص ١٣ ·

ـ « كان يصغي **لصوت بعيد** يناديه من **أعماق مغارة** سويد في قمة الجبل » ص ١٥ ·

ـ « انه لم يسمع الشيخ لافي يتأوه ولو لمرة واحدة » ص ٢٧ ·

ـ « استدار بفرسه واندفع بها نحو **مغارة** سويد ، **وعباءته** تخفق **كالبيرق** مع الريحـة خلفـه » ص ٣٤ ·

ـ « واختلفت الروايات في قرية البارد بعد ذلك اليوم ، حول **اختفاء** الشيخ لافي الملك » ص ٤٢ ·

« الشيخ لافي » يحايث ، اذن ، الحركة التاريخية ، يختفي ويعود ، يتوارى ليرجع من جديد · فهو حاضر ابدا : « ان الشيخ لافي الملك ، لا يزال يحارب الباشوات والانجليـــز واليهود في الجبال ، ولا بد أن يعود يوما بعد أن يهزم الاعداء وينتصر » ص ٨ ، يتداخل مع الحركة التاريخية كروح مطلقة مرتبطة بالمطلـــق ، ويدور في فضـــاء « الازل » ، و « البعيد » ، « الوحي » ، و « الاعماق » ··· صوفية كاملة دائمة التجدد ، تعبر عن ذاتهـا في حركاتها ، وفي مسارها المنتصر على الصعاب أبدا ، وفي حبها لـ « خديجـة » الذي ينطن بـ « الاشراق » ، و « الصبوة » ، و « التجلي » ·

وهكذا فان توفيق فياض ينجح في رسم بطله كـ « كلية » بلا تناقض ، حيث تترابـــط الامور وفق منطق متسق يتلاحم فيه الزمان والمكان والذات والحركة ، لكن هذا المنطق لا يلبث ـ للاسف ـ أن يكبو ، فينكسر منطق الحدث وتهتز « الكلية » ، وننتقل من عالم الى آخر · **ينقل الكاتب « بطله »** ، وبلا مقدمات ، من مستوى **البطل الملحمي** ، الى مستـــوى **البطل الاشكالي** أو البطل **ثنائي القيمة** · يصبح « الملك » رجـلا عاديـا ، ويغـدو المتسق متناقضا ، ويمسي « الاشراق » و « الصبوة » مشاعر عادية تخضع للزمـــان والمكان · يتنزل « البطل » من مكان الى مكان ويتنزل البناء الفني أيضـــا من مكان الى مكان ، فيتراجع العمل الفني مكسورا :

ـ « يشده « الملك » من اذنه قائلا « وأنا اشعرفني يا حريق الوالدين » ص ٢٠ ·

ـ « تفشت **التآليل** في جسده » ص ٢٧ ·

ـ « اقترح عليه حسن ان **يسأل واحدا من أهل العلم** » ص ٣١ ·

ـ « وحين اقترح عليه الدراويش سجنهم ، أجاب بحدة ، ان « اقلعوا السن واقلعـــوا وجعه معه » ، حالفا بالطلاق ثلاثا كلما حلت تحرم » ص ٣٧ ·

يحيل هذا الانتقال من **مستوى الكامل** الى **مستوى الناقص** « البطل » الى بطلين ، بطل كان في البدء ملحميا ذا خصائص معينة، ثم اصبح فيما بعد اشكاليا ذا خصائص مغايرة·

ويطرح السؤال الضروري نفسه · لماذا يكسر كاتب نصه ، وكيف يجمع مستويين ادبيين متغايرين في بنية ادبية واحدة ، وهل يتم هذا الكسر بوعي او بدون وعي ؟· وفي تلمس الجواب ينبغي معالجة عناصر عدة ، لن نقوم بهذه المعالجة فمكانها ليس هنا ، لكننا سنشير باقتضاب الى عنصرين : مفهوم الاديب لطبيعة عمله الادبي من ناحية ، وشكل الثقافة المسيطرة من ناحية ثانية · ومن قراءة هذين العنصرين نصل الى الجواب او شبه الجواب · ان توفيق فياض يقوم بتدخل واع في نصه الادبي يؤدي الى كسر هذا النص وتنزل قيمته الادبية · يتضمن هذا التدخل موقفين ، احدهما يرتبط بموضوع الكتابة والآخر بالقارىء · فتوفيق فياض لا يميز بين ايديولوجيا قصته من حيث هي عمل فني وايديولوجيته هو كـ « ذات » ، اي يماثل بين الايديولوجيا العامة والايديولوجيا الادبية · يضاف الى ذلك ان فياض يريد ان يصل الى القارىء ، وهذا مشروع ، لكن هذا الوصول او تسريع الوصول لا يتم بأدوات فنية بل بمقال سياسي او أخلاقي مباشر · لذلك نجد في قصته الاولى والثانية (الشيخ لافي ، ابو جابر) ثنائية مستمرة ، صوت الكاتب بصوت العمل الفني ، الفني والايديولوجي ···

واذا رجعنا الى قصة « الشيخ لافي » نجد ثنائية البطل واضحة ، فالبطل الملحمي صنعته ذاكرة الرواة ، أما البطل الاشكالي فصنعته ذاكرة « الكاتب » الذي نسي في لحظة ما أن يوافق بين البطل وشكله التاريخي · « البطل » الاول اثر ذاكرة دينية أما الثاني فاثر ذاكرة أخرى ، لهذا كان « الشيخ لافي » يتحرك في البدء مدفوعا بارادته و « أشواقه » و « ايمانه » ، أما بعد تغير مستواه الفني فقد تغيرت حركته أيضا ، اصبح يتحرك مدفوعا بتناقض العالم وتناقضه مع العالم ·

ان « هدف » القصة ودلالتها الحقيقية ينبغي ان تكون كامنة في بنائها الفني نفسه وليست جسما ملصقا بهذا البناء خارجيا · فالعمل الفني وحدة بلا داخل ولا خارج ، وعندما نتكلم عن داخله وخارجه انما نتكلم عن « انكساره » · وهذا الداخل والخارج نعثر عليه في « ايديولوجيا » قصة « الشيخ لافي الملك » : الايديولوجيا الداخلية هي ايديولوجيا النص التي تعبر عن مفهوم ديني ـ قروي قائم على ثنائية الخير والشر · وتعكس هذه الثنائية الاخلاقية الشرط التاريخي ـ الاجتماعي لمكان الحدث وتتوافق مع الوضع الاجتماعي في زمانها · أما الايديولوجيا الخارجية فهي ايديولوجيا الكاتب التي تسقط الحاضر على الماضي وتتوجه الى القارىء كمقال سياسي مباشر ، اي أنها ايديولوجيا ارادية ، خارج ـ نصية ، راهنة ، فجة · راهنة لانها لا توافق شرطها التاريخي ، وفجة لانها لا توافق المنطق الداخلي للنص بل تجره الى « وضوح ايديولوجي » يتجاوز حدوده التاريخية · الايديولوجيا الاولى تقوم على الخير والشر أي على مقال اخلاقي ، أما الثانية فتقوم على التمايز الطبقي اي على مقال سياسي ·

عكست ثنائية المستوى الادبي نفسها على الاسلوب والكلمات ، فتلاشى عالم الوميض والبراق والبريق ··· وحل مكانه عالم اشكالي « دنيوي » يتطلب مستوى آخر من الكتابة :

ـ « انه لن يهدأ له بال حتى يقطع دابر كل هؤلاء الافندية والباشوات ، لانه على قول المثل « سوس الخشب منه وفيه »وما دام هؤلاء خلفه ، فانه لن يستطيع المحاربة أمامه » ص ٣٧ ·

ـ « فمنذ أن خلق لافي وهو يحارب الاتراك وكل من لف لف الاتراك ، ولم يحمل في حياته صليبا ولا قرآنا ليحاربهم به » ص ٣٠ ·

لا شك ، أن مستوى اللغة هذا ، يبارح عالم الاسطورة الاول ، ويصل الى ضفاف مقال سياسي مباشر ٠

لقد كان بامكان الكاتب ان يصل مستوى البطل الملحمي بمستوى البطل الاشكالي عن طريق **وسيط أدبي** ، راو جديد متمايز ، أو حامل ادبي يصل بين المستويين دون ان يصل بهما الى هذا التمازج المستحيل ٠

٢ ــ ابو جابر الخليلي : منطق الواقع ومنطق « الاديب »

في قصة « ابو جابر » يرسم لنا توفيق فياض ، وبموهبة فنية حقيقية ، صورة انسان فلسطيني « عادي » في زمن الاحتلال ٠ صورة انسان عادي ، واضح السمات والمعالم ، حي في سلوكه ، متكامل في خصائصه وممارسته ، بحيث يمكن ان نقول ان خصائص هذه الشخصية هي خصائص الاسلوب الذي رسمها ٠ فهي نتاج عمل فني صادق ، حي ومتكامل٠ أسلوب يأخذ قيمته الفنية من قدرته على النقاط العادي ورصده وتجسيده بشكل صادق وصحيح ٠

« ابو جابر » انسان بسيط يمارس حياة بسيطة ومحدودة ، عالمه بيته ورغيفه وزوجته ٠ عالم ضيق وفقير يركض ابو جابر في فضائه باحثا أبدا عن الرغيف و « ستر الحال » : « وهكذا ظل أبو جابر راضيا بمهنته هذه ، ويحمد الله عند طلوعها ومغيبها ، على رضاه ونعمته » ص ٤٩ ٠ وامام اتساع عالم الرغيف وضيقه ، تراجع عالم « ابو جابر » ، وتضاءلت اهتماماته ، وكيف لا وهو الذي يسلم باستمرار بـ « المثل القائل » : « اللي بتجوز أمي هو عمي » ٠ يترك العالم جانبا وينسحب الى مملكته الفقيرة ، فسيان عنده ان « حكمها الملك حسين او موشي ديان » ص ٥٧ ٠ يقود « ابو جابر » حياته او تقوده حياته في فراغ بارد الدلالات ، ضيق الجدران ، بطيء الحركة : «يتلفع معطفه الزيتي الثقيل ذي الازرار النحاسية المخضرة ، والتي لا تزال تحمل التاج البريطاني منذ عهد الامبراطورية الزائلة » ص ٤٧ ٠ انسان قروي ، بسيط ، في الثانية والخمسين من عمره ، يحمل وعيا بسيطا قليل الحركة ، ويرزح تحت عبء هموم كبيرة لحياة صغيرة ٠ و « صغر » هذه الحياة وفقرها جعله يراوح بالضرورة في حدود وعي محدود ، وعي القرية وأخلاقيات القرية التي تطرد العالم الخارجي جانبا وتدفع الانسان الى التحصن وراء حدود « ذاته » و « فرديته » ، وتجعل الانسان يسير بشكل أفقي بحثا وراء الرغيف وحماية الملكة الفردية ، وتجعله يسير أيضا حسب منطق ايديولوجيا أخلاقية ــ دينيه (القناعة ــ الشرف ــ الدين) ٠ واذا نظرنا الى مسار « أبو جابر » ، الفلاح ــ الفلسطيني ، نلمس في البدء الفردية التي انتجتها الايديولوجيا الفلاحية ، ثم نلمس فيما بعد تحصن هذه الفردية وتمركزها الناتجة عن مجتمع القمع والعسف الذي عاش فيه بعد خروجه من فلسطين ٠ وعندما تتمازج الايديولوجيا الفلاحية مع الاثر الناتج عن مجتمع القمع يصبح الفرد ذرة وجزيرة مهجورة ، وتضبح السياسة ــ بالضرورة ــ دعارة وشرا وجسما موبوءا ينبغي تجنبه والحذر منه : « قال أبو جابر شتم الملك قال ! اي هو ابو جابر عمره شتم حدا ، ان كان ملك وللا زبال ؟ وللا عمره تعاطى السياسة وتخرف فيها ٠ ص ــ ٥٠ ــ » ، « لم يتعاط في حياته كلها ، لا سياسة ولا خساسة » ص ٥١ ٠ وقبل أن يطلع الفجر وهو لا سيرة له ولا شاغل الا الدعارة والسياسة » ص ٦٤ ٠ يكره ابو جابر ، اذن ، السياسة ويرى فيها امتدادا للدعاة وخروجا على العرف ، أنها المنكر والضلال ٠ ولما كان ينأى عن

السياسة باعتبارها نقيضا للاخلاق ، فمعنى ذلك ان نسق معاييره اخلاقي في جوهره ، يطرد ويرفض كل ما يسيء الى نقاء الفرد و « شرفه » : « اما الخير الذي كان يعمله أبو جابر دائما ، فهو حفاظه على الاخلاق ، بادئا في بيته · اذ كان من أشد الناس حفاظا على الاخلاق والحشمة » ص ٤٩ · و « كان يرى ان مجرد النظر الى فتاة في الشارع ····· يعتبر من باب الزنا والفجور ، ويستحق صاحبه الجلد عليه » ص ٤٩ ·

اذا نظرنا الى « ابي جابر الخليلي » وفقا لصورته الفنية ، نرى أنه يمثل انسانا معينا يعيش في **حقل نفسي مغلق ومتوازن** · حقل متميز له خصائصه وسماته ،وجذوره ومعاييره، أحكامه وايديولوجيته ، وفي أركان هذا الحقل يتحرك هذا الانسان القروي ويعيش حاملا ذاتيته المحتفظة بقسماتها رغم الخدوش والعفار وعثار الطريق · وعندما جاء الاحتلال الاسرائيلي الثاني بعد الخامس من حزيران ، وصل ابو جابر الى شرط جديد ، ورغم حدة هذا الشرط حاول هذا « الخليلي » ان يتابع « ذاتيته » ، وان يحافظ على الحركة في أركان حقله المغلق والمتوازن · لكن هذا الجهد الارادوي انكسر على الرصيف ، فاهتزت « الذاتية » أمام شروط الحقل الجديد ، وبدأ أبو جابر مسار صراع جديد · في البدء كانت « الذاتية » تتوافق مع حقلها الخاص بها ، وعندما جاء الاحتلال جاء بحقل جديد يناهض الاول وينزع الى الغائه واعدامه ، وكان على أبو جابر ان يدافع عن معاييره المغتصبة ، وعن « فرديته » المهانة ، عن عالمه القديم الذي تطأه اقدام الغزاة : « لطمه على وجهه لطمة أدارت الدنيا أمام عينيه ، وهو يصرخ به محتدا ، وبعربية سليمة « انت واحد كذاب يا ابو جابر ··· كذاب كبير » ص ٥٥ · هكذا تراجعت « الذاتية » وبدأت « الرجولة » بالانحسار وتحول أبو جابر ذو « الانف النسري الانقر » الى مخلوق مذعور يبحث عن الخلاص · الا أن ذاك « الخلاص » لم يكن يسيرا ، فالانحسار لا يمس فردية متوحدة بل ينشب أظافره في كلية العالم المتوازن السابق · كل شيء يغتصب ويفقد « الطهارة » :

ـ « قبل الاحتلال كان هذا الشارع كبقية الشوارع ساكنا » ص ٦٣ ·

ـ « اما بعد الاحتلال ، والعياذ بالله ، أصبح لا يلتقي الا بشبان يعانقون الفتيات ويقبلوهن في منتصف الشارع » ص ٦٤ ·

ـ « ومع ذلك يرى الفاسقين ينتصرون على أمة محمد ويحتلون المسجد » ص ٦٥ ·

ـ « شارع الزهرة هذا ، انقلب الى ماخور شبه رسمي ، ص ٦٦ ·

وتحت شروط الحقل الجديد ، فقد الحقل القديم توازنه وانغلاقه ، وأصبح التوافق بين الانسان وحقله الذاتي مستحيلا ، وسار أبو جابر لاهثا وراء مصالحة مستحيلة ، وفي المسار واللهاث تلاشى وهم الفردية ووهم التوافق ، واكتسبت الشخصية ابعادا جديدة ووقفت على مشارف وعي جديد : فالتوحد ليس خلاصا والفردية الساذجة ليست سورا ، والنصر والهزيمة لا يرتبطان بالدين والاخلاق ، والالتزام بقضية ليس اختيارا طوعيا بل مكتوب في سيرورة الحياة اليومية · وفي هذه السيرورة وصل ابو جابر الى حالة اللا توازن ، وركب قارب المعاناة الذي تدفعه أمواج خارجية ، وكان عليه ان يقبل الحقل الجديد الذي ينفي حقله الاول أو ان يصده ويتصدى له بمعايير جديدة · وعاش معاناة المخاض :

ـ « أنا ···· ابو جابر الخليلي ، أصير جاسوسا لليهود ؟ طب والله ما أنا صاير » ص ٦٢ ·

– « مرة أخرى استفاق أبو جابر لنفسه ، وراح يعنفها على افكارها وهواجسها ، اذ ما كاد يحولها عن الدعارة والفسق حتى أدخلته هذه المرة في السياسة » ص ٦٥ ٠

أنتج الشرط المتناقض وعيا متناقضا ٠ ولما كان التناقض يعني الحركة ، فان وعي ابي جابر أخذ ينمو ويتحرك مشروطا بممارسة حياته اليومية ٠ فللرغيف ثمن وللخلاص الفردي المنشود ثمن ، لذلك كان على أبي جابر ان يدفع الثمن اما سلبا او ايجابا ، القبول بالامتثال لقواعد العدو ، أو وداع حقل التوازن وولوج حقل « المغامرة » ٠ لم يكن الخيار ارادیا بل محصلة لشرط يرفض المصالحة ٠

الوعي سيرورة ، والمسار اليومي سيرورة أخرى تحدد الاولى ، ومع التراكم الكمي لشكل الممارسة في عالم الاحتلال والحصار ، اصبح الكم كيفا ، وغادر ابو جابر عالمه « القديم » : « لم يصح – ابو جابر – على نفسه الا وهو يركض في اتجاه باب العامود ، والدم لا يزال يقطر من نصل موس الكباس في يده » ص ٩٠ ٠

وهكذا عبر أبو جابر مسار شرطه التاريخي ، اكتشف ذاته كانسان ، واكتشف ذاته كجزء من شعب ودفع الثمن ٠ ضمن هذا المنطق المتسق الذي يرسم سيرورة الوعي رسم توفيق فياض صورة بطله « الخليلي » وأجاد ، ولكن !!

في « ابي جابر الخليلي » عاد توفيق فوقع في عثرة الايديولوجيا المباشرة ولكن بشكل آخر ٠ في « الشيخ لا في » كسر النص عندما نقل البطل من مستوى الى آخر لا يتوافق معه ٠ أما هنا فقد أدخل في جسم « الحكاية » جسما غريبا يشوه النص وينقله من مستوى الى مستوى آخر ٠ أما هذا « الجسم الهجين » عن النص فهو لقاء أبي جابر مع « الشبان الثلاثة » ٠ ان هذا اللقاء يشكل اغتصابا للنص وتشويها لدلالته ، لو كانت هذه الاضافة مجرد زوائد لهان الامر ، لكنها « زيادة » تحرف النص عن دلالته الاصلية وتجره من مستوى دلالي الى آخر ٠

ربما اراد توفيق ان يصور صراع الخير والشر او ان ينقل الحدث الى مستوى الامثولة ٠

لكن هذه « الارادة » لم تخدم صاحبها لانها ارادية او ارادوية تهدف الى الاقناع او الى البرهان ، حتى يخيل الينا ان « الكاتب » يريد أ نيبرهن على صحة ممارسة بطله او يبررها ٠ اي ان لقاء ابي جابر مع « الثلاثة » يشكل نصا جانبيا وهامشيا يهدف الى تبرير النص الاصلي واعطائه مصداقيته ٠ لكن منطق النص الاول يعارض منطق الثاني لنر كيف ٠ ؟

يشير النص « الاصلي » الى مسار انسان ينتقل من حقل الفردية الى حقل اللافردية : يصبح علاقة في نضال شعبه ٠ ينتقل من الايديولوجيا الاخلاقية « الفردية » الى الوعي السياسي ، وهذا الانتقال لا يتم عبر « صراع الاخلاق » فحسب بل عبر المجابهة اليومية مع العدو المباشر ٠ ان طبيعة الانتقال تناقضية لذلك تحمل في **مسارها المتعرج** انتقالا من شكل معين للوعي الى شكل آخر أكثر تقدما وشمولية : اكتشاف الذات والعدو واكتشاف ضرورة المواجهة ٠ وباختصار يمكن ان نقول ان « النص الاصلي » يرسم تفتح الوعي القومي لدى انسان عادي ٠

أما « النص المضاف » فيقول شيئا آخر : يرسم صورة انسان يدافع عن **فرديته واخلاقه**

امام استفزاز واغتصاب مباشرين · وهـذا يعنـي ان النص الاول يرسم سيرورة **الوعـي السياسي** ، أما الثاني فيرسم سيرورة **الوعي الاخلاقي** · والوعي الاول يدفع الانسان الى ممارسة هي جزء من كل (الاخرون") ، أما الوعي الثاني فهو دفاع عن الذات والانا وليس دفاعا عن قضية جماعية ، بمعنى آخر : ان ابو جابر يقبل الاحتلال على شرط ان لا يمس ذاتيته او يتعرض لقيمه الاخلاقية · يضاف الى ذلك ان « الاضافة ـ البرهان » تلغـي **التطور المادي** للشخصية الفنية : فالقصة بجسمها الاساسي ترسم انتقال « الانسان » الى مرتبة « الفرد » ، تنقله من الاخلاق الى السياسة ، من الاحتجاج الى الحركة ، اي تحكي مساره التناقضي الذي يرفعه من مرتبة الى اخرى اكثر ارتقاء · أما « النص الثانـي » فيلغي التطور التناقضي ليحل مكانه تطورا خطيا يجعل الشخصية تكرر ذاتها في دائرية اخلاقية · ويتجلى الامر واضحا عندما نقارب قصة « ابو جابر الخليلي » من وجهة نظر الزمن الحكائي :

يتطور النص الاول محكوما بزمنه الداخلي الذي يجعل موقف « الشخصية » في لحظة ما من مسارها محصلة لتراكم لحظات سابقة ، أما النص الثاني فيتطور وفق زمن خارجي خاص به منعزل عن الزمن الاول ، فحركة الشخصية فيه لا تأتي كمحصلة لازمنة سابقة بل كموقف آني ورد فعل مباشر مستقل بذاته ·

ان عدم الوحدة الايديولوجية في مستويات قصة « ابو جابر الخليلي » جعل هذا العمل الغني والاصيل يفقد « شيئا » من أدبيته ·

البهلول

في قصة « البهلول » · يحكي توفيق فياض يوميات انسان منبوذ ، انسان هامشي فـي مخيم فلسطيني ، « بهلول » يعيش عالمه ويبني عالما هامشيا ، ويتحرك معاكسا تيار الحياة اليومية ، فيكسر العرف ويتجاوز القانون ويبقى على قارعة الطريق وهوامش الحديث · لكن هامشية حياته لا تشده الى الظل والنسيان فهو في قلب الساحة وأمام مرأى البصر ، بل يمكن ان نقول ان شكل هذه الهامشية وسياقها التاريخي يلغي هذه الهامشية نفسها ويجعلها حضورا مستمرا بحيث تصبح الهاماشية علامة حضور لا مؤشر غياب وانكفاء ، فالبله تميز وتأكيد الذات سلبا محاولة لتأكيد هذه الذات · والانسان الابله او البهلـول رمز التداول فـي الادب العربـي والافريقـي وفـي ادب العـام الثالـث ، بشكـل عـام · فالبلـه لعبـة واعيـة يولدهـا واقـع سلبـي ، لعبـة صاحيـة تأتـي مـن واقـع معيـن ثـم تعـود اليـه مـن جديـد بعـد ان تكتشف اللغـة الموائمـة للتعامـل معـه ، فهـي والحالـة هـذه اشارة رفـض واحتجـاج وتـلاؤم · فشخصيـة « البهلـول » ترفض الواقع وترفض العقل لان الشرط الذي تعيشه يرفض العقل أيضا ، فممارستهـا « البلهاء » استداره عقلانية تسمح لها بالقطع مع ما هو عادي ومتعارف عليه وتمنحهـا سلوكا جديدا ذا لغة متميزة ورموزا متميزة أيضا ·

أمام عالم لا يساوق منطق العقل يفقد الانسان عقله ويرفض العالم كي يعود فيبني لنفسه عالما آخر موازيا وعقلانيا ، اي ان تزايل الذاتية الظاهري هو محاولة لصيانة هذه الذاتية وتأكيدها وتحصينها · لهذا فان « بهلول » توفيق فياض ذات تؤكد ذاتها نفيا في عالـم يتسم بالسلبية ومجافاة العقل ، وتدافع عن هويتها الانسانية والوطنية في شرط يحاول خنق هذه الهوية الثنائية البعد : ـ « تفح التنهدات اليائسة من ياقات المنامات المخططة · تشتعل السجائر ، واكواب الشاي الدبسي تتقافز نحو الشفاه المزمومة ، ثم تعود الـى

الطاولات الجرباء ، فتفرد فلسطين بينها ·· ص ٩٤ » ، « تتعلق العيون بالقبعات الخضر· تتراكض بين نجوم داوود اللامعه على الجباه · علـى الكـوف · تقهـر ، فترتد مهزومـة حزينة الى العشرة الطيبة واحجار النرد المتراكضة من جديد · ص ٩٤ »

في فضاء القمع والقهر يتحرك « سليم البهلول » ويتبدل ، يبدأ عالمه بقناع وينهيه بوجه حقيقي ، وبين الوجه والقناع ينمو ويتطور ويصبح مقاتلا · وللقنـــاع أسلحته وللوجـه حوامله · يبدأ « سليم » احتجاجه « برش الصامتين برذاذ لعابه » وينتهي راضيا ببندقيـة تسلمه الى عالم الشهادة والموت من اجل الوطن ·

لكل بداية بداية فالبدايات المطلقة لا وجـــود لهـا ، و « سليم البهلـول » ذو الساقيـن المعوجتين لا يشكل بداية او نهاية ، فهو بداية لبدايـة سابقة ، واستمـــرار لـ « بهلول » سابق ، لحظة في حركة مستمرة · انه « حسن المعتوه » في زمان آخر ، أو « الشيخ لافي » الذي بشر « حسن » بعودته يوما ما · فـ « سليم » يحمل في ذاته شيئا من « الشيخ لافي»، يحمل رسالته وتميزه :

ـ « يعود الى مغارته ، وينزوى مرة أخرى ليفكر من جديد بقضية الاحتلال هـذه ومـا آلت اليه حاله ص ١٠٨ ·

ـ « وقصة حب سليم البهلول « لفطومة » ، وفقدانه عقله ، يعـود الى اكثـر من خمس سنوات ····· وثمة من يردها الى عام « الهجيج الاول » حين كان سليم لا يزال صبيا وفاطمة لا تزال صغيرة بعد ، وانه منذ ذلك الوقت وهو يبحث عنها في كل مكان» ص ٢٠٦·

ـ « الرصاص يتدافع من بندقيته الرشاشة نحو الجنود كالشهب » ·

ـ « شع من جبينه نور الهي عجيب كاد يغشي بصره » ·

ـ « رأت سليم البهلول عريسا فائق الجمال يزفه الناس في المخيم على فرس شهباء » ·

على الرغم من تباعد الشرط والزمن ، فان « سليم البهلول » يتابع حركة « الشيخ لافي » ويحمل شيئا منه · انه « لافي » المخيم بعد ان تباعدت القرية والجبل ·

وعاد « البهلول » يدخل الى كهفه » ليبحث عـن الضوء ، ويعشق « فطومه ـ الارض » التي كانت ذات يوم تدعى « خديجة » · وهو عندما يقاتل ويستشهد يستعيد ما مضى ويدخل الى عالم الفيض والشهب والنور · ويستعيد سحر القرية الغابر وطقوسها التليدة ·

« سليم البهلول » ليس تجريدا او كيانا متعاليا · ينزع الى الماضي ، يتماثل معـه او يكاد ، لكنه لا ينخلع عن الحاضر ، فهو الحاضر او هو في الحاضـر ، يعيش تناقضـــه ويتكون بقوانينه ، اي أنه يتماثل مع الماضي عندما يعي حاضره ويناضل لتجاوز شرطه · وعندما نقول ان « سليم » يعيش تناقض زمانه ، نقول وفي اللحظـة عينهـا ان « سليم » يتكون كفرد انساني واع عبر لحظات صراع ومخاض طويلين ، فالقناع لا يخفي الوجـــه الحقيقي منذ البداية ، فزمن هتك القناع هو زمن تشكل الوجـه الفلسطينـــي · فالوعـــي سيرورة ، وسيرورة « سليم » ومعاناته تذكرنا بالشرط الفلسطيني العام من ناحية وتذكرنا بمسار « أبو جابر الخليلي » من ناحية ثانية · فالبطولة ليست اغنية والشهـادة ليســت نشيدا ورديا · انهما حزن وقلق وتضحية ووداع ·

-« سليم » لم يكن بطلا منذ البداية : « كان في طفولته جميلا ووادعـا » · ص ١٠٣ ·

لكن صورة الوجه لا تغاير دائما صورة زمن تشكلها · وفي زمن الرحيل والمخيمات يضيع الوجه وتنبه الذاكره ويغرق « الطفل الجميل » في تناقض يبحث عن الحل :

ـ « أحس برعشة باردة تهزه ، وراح يلعن نفسه لوصوله الى مثل هذه الفكرة الخبيثة ، التي ستحوله الى « داسوس » وتقرب النجمة المسننة من جبينه » ص ٩٦ ··

ـ « شد سليم البهلول على رأسه بكلتا يديه ، وقلبه يكاد يطير من الهلع ، مجرد ان قفزت صورته الى مخيلته وهو يحمل البندقية الرشاشة ، وطلقاتها السريعة تتلاحق من بين يديه اللتين راحتا ترتعشان بسرعة عجيبةً ، وأقسم أن لا يعود الى التفكير في ذلك مطلقا » ص ٩٦ ·

لكن فكر « سليم » يعود من جديد الى البندقية ، تحملها يداه ، فيستعيد وجهه ووجه فاطمة ، ويماثل في قدره ، او يكاد ، قدر « الشيخ لافي » ومسار قروي فلسطيني بسيط اسمه « أبو جابر الخليلي » ·

يحاول توفيق في قصة « البهلول » تلخيص الشرط الفلسطيني وطبيعة مساره ، رسم كثافة العلاقات ، ربط الحاضر بالماضي ، وربط الحاضر بالحاضر بحيث تبدو كلية نضال الانسان الفلسطيني في خصائصها وتناقضاتها · لبلوغ هذا الهدف يمارس توفيق « احتيال العقل » في الرمز ، في دلالة ومعنى البهلول ·

فالشعب الفلسطيني كان بهلول « الشعب العربي والعالم » لانه كان ينادي بما لا يقبله العقل : « عودة الشعب الفلسطيني الى ارضه » · و « سليم البهلول ـ الفدائي » هو بهلول المخيم الفلسطيني الذي رأى في حمل البندقية في البداية عملا انتحاريا · اي ان الشعب الفلسطيني قبل ـ في زمن مضى ـ صورة البهلول التي ألبسه اياها « العالم » ثم عكسها على ذاته من جديد لينتج « بهلوله الخاص » · اي أننا أمام انعكاس مزدوج او انعكاس الانعكاس ، بهلول ينتج آخر ، ولم يتوار هذا الانعكاس الا بعد تصاعد نضال الشعب الفلسطيني وتأكيده لهويته الوطنية والسياسية · تراجع الانعكاس القديم ليفسح مكانه لانعكاس جديد ، وصورة جديدة ·

على الرغم من التماسك الفني لقصة « البهلول » فاننا نأخذ على توفيق **نزوعه الى المباشرة** (الاضافة ـ البرهان) الذي تجلى في اكثر من مكان في القصة ·

والمباشرة هنا لا تريد ان تسجل موقفا سياسيا او ايديولوجيا بل تريد « انارة الحدث » · لكن هذه « الانارة » جاءت زائدة وبلا وظيفة · فقد اراد توفيق ان « يبرهن » لماذا يتطور « بهلوله » باتجاه الفدائي ، ولهذا كان يسرع او يحرض هذا التطور بأفعال خارجية مباشرة او « مضافة » :

ـ « وجد نفسه فجأة ، يقف في عرض الطريق وحيدا ، دون ان يفقه ما الذي حصل ، وكيف انصاع الناس لكلام هذا الجندي المجنون بينما لم يستمع اليه أحد » ص ١٠١ ·

ـ « وقبل ان يسارع الى تجنبها دفعه أحد الجنود بعقب بندقية وهو يطلق ضحكة ساخرة ، فسقط سليم على وجهه وسط الغبار المنعقد فوق رأسه » ص ٩٧ ·

ان هذه الاضافة تعطي تطورا خارجيا وقسريا للشخصية ولا تغني الخط العام الذي يحكم مسار هذه الشخصية ·

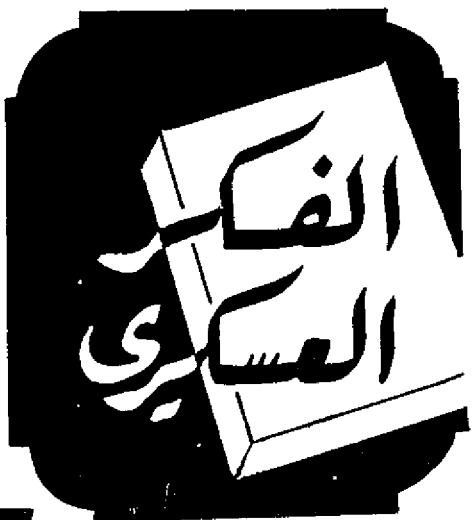

مجلة فصلية تعالج القضايا الاستراتيجية

تصدر في سورية عن الأكاديمية العسكرية العليا

يشارك في تحريرها بالإضافة الى هيئة التحرير مجموعة من كبار الكتاب واساتذة الجامعات والمفكرين العسكريين

الاشتراكات:

- الاشتراك السنوي في ج ع.س ٣٥ ل.س
- الاشتراك السنوي في البلاد العربية ٥٠ ل.س او ١٤ دولاراً امريكياً أو ما يعادلها
- الاشتراك السنوي خارج البلاد العربية ١٤ دولاراً امريكياً أو ما يعادلها
- قيمة العدد في سوريا ٤ ل.س . في لبنان والبلاد العربية ٤ ل.س

لعنوان: مجلة الفكر العسكري. دمشق. الضابوط. هاتف: ٧٧٢٩٢٨ دمشق.

- المراسلات البريدية والبرقية: مجلة الفكر العسكري ص.ب/٤٢٥٩/ دمشق.

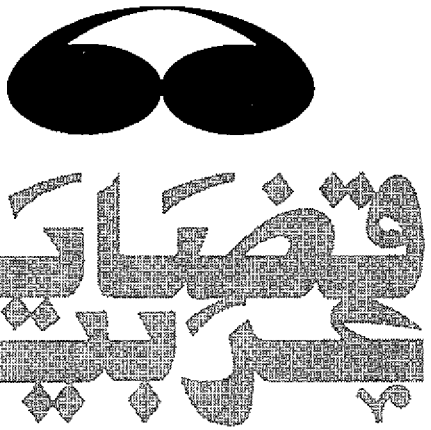

شهـرية فكرية مفتوحـة لمختلف الاتجاهـات التقدمية

يكتب فيها أبرز الكتاب والمفكرين العرب من كافة اقطار الوطن العربي ـ تعالج اهم المشكلات والقضايا المعاصرة للامة العربية بروح الالتزام والبحث العلمي وفي مختلف المواضيع : السياسية ، الاقتصادية ، التاريخية ، الادبية ، الثقافية والفنية ـ أبواب شهرية ثابتة : عرض أهم الكتب ـ فن تشكيلي ـ سينما ـ وثائق ـ ببليوغرافيا شهرية : القضايا العربية في الدوريات العربية .

رئيس التحرير : د . عبدالوهاب الكيالي

مستشار التحرير : رجاء النقاش

المراسلات : ماهر الكيالي ـ ص . ب . ٥٤٦٠
بيروت/ لبنان العنوان البرقي : موكيالي ـ ت : ٣١٢١٥٦ .